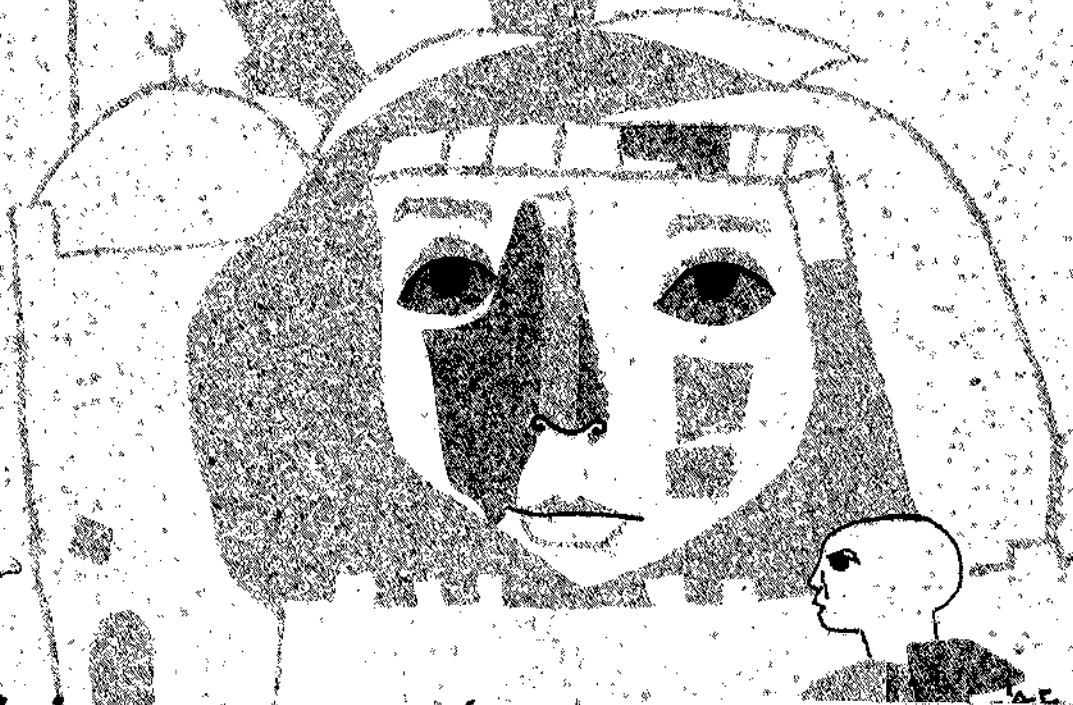


فلسطين: إليكم الحقيقة

السلام والحرية



تأليف: ج. م. ن. جعفر
ترجمة: أحمد خليل الحاج
الجزء الأول

٧١٢٤٩

اهداءات ١٩٩٨

المكتبة العامة

جامعة الإسكندرية

فلسطين : إليكُم الحقيقة



الجزء الأول

تأليف : ج. م. ن. هـ. هـ. هـ.
ترجمة : أحمد خليل الحاج
مراجعة : د. محمد أحمد أنيس

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

هذه هي الترجمة العربية لكتاب

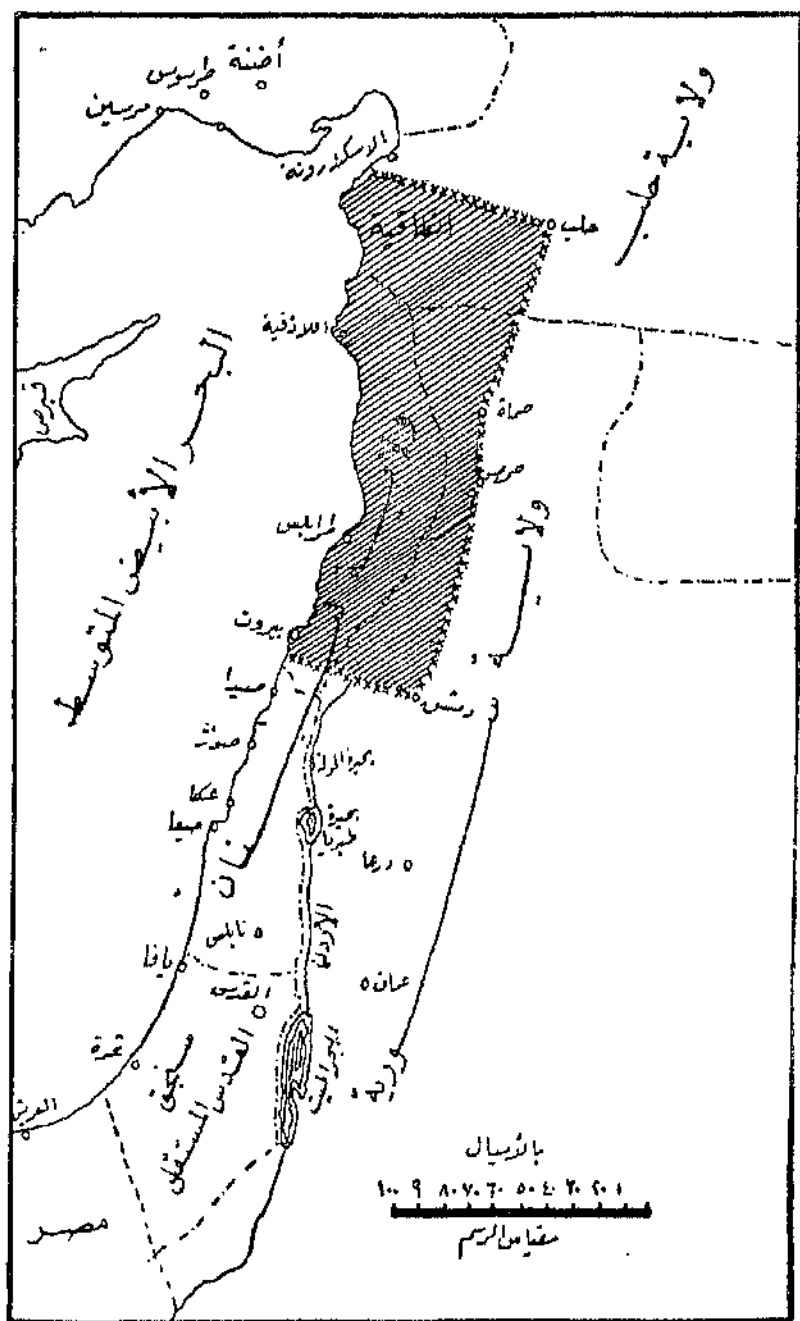
PALESTINE : THE REALITY

by : J.M.N. Jeffries

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	٧
مقدمة المؤلف	١٣
الفصل الأول	٢٩
الفصل الثاني	٥٣
جنس العرب العظيم - امتلاك فلسطين ضرورة لتمده	
الفصل الثالث	٦١
المقاومة العربية - استعدادات العرب لطرد الحكم التركي من سورية ولإعادة بناء الدولة العربية التليدة	
الفصل الرابع	٧١
اليهود في فلسطين - إساءة استخدام لفظة « منفي » - هل داموا في فلسطين ؟ - الحركتان الصهيونيتان - الصهاينة الأول - هرتزل والصهيونية السياسية - رفض لأن يحسروا بوجود العرب	
الفصل الخامس	٩١
الدول الكبرى والحركة الوطنية - زعامة الحركة تنتقل الى مكة - الشريف حسين - زيارة الأمير عبد الله الى كيتشنر - الحرب بين بريطانيا وتركيا - المفاوضات البريطانية ابتغاء لكسب تأييد العرب تبدأ	
الفصل السادس	١١٧
المعاهدة بين بريطانيا العظمى والعرب - استتقلال العرب يعترف به ويؤيد في نطاق حدود تشمل فلسطين	

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع	١٥١
الصهيونية تمضي قدما - وايزمان وبلفور والسير هيربرت صمويل يظهرون مساعي الصهيونية لدى اسسكويث ولويد جورج وجرای - مدرسة أخرى من مدارس مانشستر - الخطوة الكاذبة الأولى - مذكرة جرای	
الفصل الثامن	١٨٥
استعدادات من أجل الثورة العربية - كيف يموت العرب في سورية - فيصل وجمال - الثورة تندلع - اتفاقية سايكس وبيكو - مشروع تشرين الأول الصهيوني - الصهيونية السياسية تصبح « معضلة معقدة » - الصهيونية السياسية تصبح « أمة صغيرة » *	
الفصل التاسع	٢١٥
خطوات الصهيونية السياسية « الرسمية » الأولى في لندن - برانديز وبلفور - لورانس والدعوة البريطانية - اليهود يعارضون الصهيونية - الترتيبات الأولى للانتداب - المعارضة اليهودية في الولايات المتحدة للصهيونية *	
الفصل العاشر	٢٤٧
كيف كتب « تصريح بلفور » - مدبجوه الحقيقيون - تكتيكات القاضي برانديز - « العصبة البرانديزية » - المعارضة اليهودية في انجلترا - نشر التصريح *	
الفصل الحادي عشر	٢٦٩
تحليل تصريح بلفور - صفته التدليسية وعباراته الخداعة	
الفصل الثاني عشر	٢٩١
عدم شرعية اصدار التصريح - دوافع اصدار التصريح - التصريح من حيث هو جزاء على الخدمات التي أسديت	
الخروطة :	
١ - خريطة سورية في عام ١٩١٦	٥
٢ - خريطة الممتلكات الصهيونية في فلسطين	٣١



خريطة سورية في عام ١٩١٦ تظهر فيها المنطقة المتحفّظ عليها مظلة

مقدمة المترجم

أقل ما يوصف به هذا الكتاب هو أنه كالمدرسة اليتيمة التي لا يحيط من قيمتها توالى الأحقاب ، فبالرغم من أن سبعة وعشرين عاما قد مرت على نشره لأول مرة بلغته الأصلية الانجليزية ، فإن كل شيء فيه مازال يحتفظ بطابع الجدة ، ولا مغالاة .. ومرجع ذلك الى أنه لا يتناول المشكلة الفلسطينية كمشكلة سياسية وحسب ، بل كجريمة دبرت عن عمد واقترفت مع سبق الاصرار والترصد ، بلواقع قد لا تكون خافية علينا ولكننا لا نملك عليها أدلة قاطعة لأن الجناة قد فعلوا كل ما في وسعهم لاختفاء هذه الأدلة بهدف طمس معالم هذه الجريمة .

وقد استطاع الكاتب بما توفر له من سعة الاتصال بدوائر الحكومة البريطانية ، بحكم عمله كصحفي ، وبحكم صداقاته مع أناس في الادارة البريطانية ذوي ضمانات حية ، أن يحصل على هذه الأدلة من الخزائن الحديدية السرية للجنة ، فصاغ منها وثيقة اتهام دامغة . وطالب الشعب البريطاني أن يتبوا منصة القضاء ، وأن يعقد محاكمة للجنة الذين اقترفوها باسمه ، وتطوع هو ، نيابة عن التاريخ والشرف والكرامة الانسانية والضمير الانساني والحق العام ، بتمثيل هيئة الادعاء العام .

واذا كانت مثل هذه المحاكمة لم تعقد في حينها كما أراد ، وأبى الضمير البريطاني العام أن يجلس في كرسى القاضي ، وترك للجنة أن يسندوا في غيهم وعمالوتهم فيكبلوا جريمتهم تلك بأشنع جريمة حدثت في تاريخ البشرية ، حذر الكاتب منها بنفاذ بصيرته قبل اقترافها بعشر سنوات - فإن هذا لا يغير من قيمة هذه الوثيقة ، بل يزيد من قيمتها مئات المرات ، لأنه سيكون والحالة هذه دليلا قاطعا على قطعية كل ما جاء فيها . ان دولة الظلم ساعة ودولة الحق الى قيام الساعة . ويوم نستطيع نحن أصحاب الحق أن نلقي القبض على الجناة ونسوقهم الى قفص الاتهام أمام محكمة التاريخ العادلة ، لن نكون بحاجة الى وثيقة اتهام خير من هذه

الوثيقة بل يكفي أن نضيف إليها بضعة أسطر نقرر بها حالة الجناة
غداة القبض عليهم .

إنها وثيقة أحصت على الجناة الآثمين كل حركة وسكون ، وكل خطوة
خطوها في سبيل اقترافهم جريمتهم الأولى أو الجريمة التمهيدية ، وتواجههم
بها مواجهة ألجمت أفواههم من قبل . وهو من خلال مرافعته هذه يكشف
لنا كثيرا من الصفقات السياسية الحسيسة التي مازال معظمها خافيا على
الذين لم يقرءوا هذا الكتاب بعد ، والتي تمت بين الشركاء الآثمين وتكتفت
فيما سسمى في المرحلة الأولى من مراحل نكبتنا القومية بـ « المشكلة
الفلسطينية » ، في حين لم تكن هناك مشكلة على الإطلاق من هذا النوع ،
وإنما كان هناك « شروع » في اقتراف جريمة عامة أطلق عليه الجناة
فيما بعد « المشكلة الفلسطينية » .

والواقع أن هذا الكتاب قد لحق به - شأنه في ذلك شأن القضية
التي يدافع عنها - ما لحق بها من حيف وحجب عن أنظار الناس ، ولحق به
ما لحق بنا نحن عرب فلسطين من تمزيق وتشريد . إن الصهاينة وشركاءهم
من رجال البؤلة البريطانيين والأمريكيين وغيرهم من الاستعماريين لم
يتركوا أي وسيلة يمكن وأده بها إلا جثوا إليها . لقد اشتروا طبعت
كاملة منه فحرقوها ، وحين تبين لهم أن هذه الوسيلة ليست بنافعة لجثوا
إلى المكتبات البريطانية والأمريكية والفرنسية فاشتروا ذمها بعمولة عدم
بيعه على أن تكس الكتاب لديها وتكرر وجوده على طالييه . وكذلك
فعلوا مع شركات التوزيع .

أما الوزارة البريطانية التي كانت تضطلع بالحكم حين صدر فقد
حاولت أن تمنع نشره بصورة مغايرة . لقد حاولت أن تستغل شهامة
الرجل الوطني . فأرسلت إليه من يناشده - باسم بريطانيا التي تمر
بمحنة عصيبة بسبب شبح الخطر النازي الفاشي الذي كان يخيم على
أوروبا ويهدد الوطن البريطاني ، - ألا ينشر هذا الكتاب في ذلك الحين
(١٩٣٩) ، قائلة له إن بريطانيا تحاول الآن أن تجمع شعوب أوروبا في
جبهة معها لدرء هذا الخطر الفاسم ، وأن نشر مخازي بريطانيا في هذا
الوقت بالذات ؛ تلك المخازي التي جلبها عليها بعض سياساتها السابقين ،
من شأنه حتما أن يجعل هذه الشعوب لا تثق فيها فلا تأمن التحالف معها ،
وهو ثم يكون الكاتب قد سدد طعنة نجلاء إلى وطنه .

فماذا كان جواب الكاتب ؟ انى أدع للمقارئ أن يقف عليه في
مقدمته . .

وأذكر أن أول مرة سمعت فيها شيئا عن هذا المؤلف العظيم قد كانت قبل نحو خمسة عشر عاما ، حين اكتمل وعيى بقضيتي الوطنية وأخذت أحاول الألمام بها سياسيا وبتوسع . وقد رشحه لى معام من جيل والدى ممن اكتملت عليهم الكارثة وهم بلغ ، وقص على بعض ما لحق به من أفعال الصهاينة المكارثية . فأخذت أبحث عنه لدى كل من أعرفه من مثقفينا الكبار فلم أجده لدى أى منهم ، وإن كان معظمهم قد قرأه واقتناه ، لأن التشريد الذى لحق بنا قد أخنى على هذا الكتاب . إن كثيرا منا لم يستطيعوا أن يحملوا معهم غداة الرحيل الدموى ألزم لوازهم فما بالك بكتاب . وقد كتبت عندئذ الى كثير من المكتبات الانجليزية أسأل عنه فلم أفر بطائل . وأعيانى البحث فبيست .

الى أن كان العام الماضى حين جاءنى أحد زملاء الدراسة الثانوية القدامى ، ويحضر الآن رسالة لنيل درجة الماجستير فى القضية الفلسطينية ، يطلب الى أن أعينه فى ترجمة بعض المقنطرات من مراجعه ، فالتقى بين يدي ، فى جملة ما ألفاه ، هذه الضالة المنشودة ، وعلمت أنه قد استعارها من دار الكتب المصرية . واليها أزجى الشكر فى هذه المقدمة على تحقيق أمنية قديمة .

وحين قرأت الفصول الأولى من هذا المؤلف النادر حقا ، أحسست انى سأكون مقصرا فى حق قضيتى ان اكثفت بأن أستثير به وحلى ، أو يستثير به الدارس الذى قد يسعفه الحظ فيعثر عليه ، فلم أنتظر حتى أفرغ من الاطلاع عليه كله . وتناولت القلم أترجمه ، مندفعاً بذلك الاحساس الذى ذكرت ، ومستعينا به على ضخامة هذا المؤلف الموسوعة .

انه مؤلف من أربعين فصلا كاملة ، ويقع فى أصله الانجليزى الموضوع بين يدي فى ٧٢٨ صفحة من القطع الكبيرة ، بالإضافة الى مقدمة رائعة من اثنتى عشرة صفحة ، عدا فهرس الفصول ، وفهرس الأسماء .

وانى أشعر أننا نحن العرب مدينون لكاتبه بأعظم جميل . لقد كان أعظم وأخلص المدافعين عن قضية العرب من غير العرب ، وخاصة لدى شعبه الذى كانت تتحكم فى تشكيل رأيه العام ، تجاه القضية العربية على الأقل ، صحافة واقعة تحت تأثير الصهيونية السياسية الاغوائى ، أو الدائرين فى فلكها الاجرامى . وكان الوحيد بين صحفىي بريطانيا الذى استطاع ، بدأبه واصراره وغيرة على الحق ، أن يفتح للقضية العربية نهرا فى احدى صحف المملكة التى أفلت شمسها الآن ؛ أعنى جريدة الديلى ميل ،

فكتب فيها عشرات المقالات مدافعا عن العرب ، فى الوقت الذى كانت فيه جميع الاقلام الصحفية مجندة فى خدمة الباطل الصهيونى .

وبفضل جهوده وجهود صحبه من نبلاء الضمير ، أعضاء المركز العربى فى لندن الذى ساهم فى انشائه ، استطاعت وفودنا الفلسطينية الى لندن ان تحظى بترحيب فى بلد صلود ، مسدود الأبواب ، أصم الآذان ، تملا الصهيونية السياسية جميع غرف استقباله وتتحكم فى عواطف أهله تحكم الرافضة الداعرة فى ماخور يغص بطلاب المتعة البهيمية ، وأن تحظى باستقبال شجعها على التدرع بالأمل ومعاودة قرع الأبواب الموصدة وطرق الآذان الموقورة . وإذا كانت هذه الوفود قد أصابت فى عدة مناسبات بعض ما يمكن أن نسميه بالنجاح فانما كان ذلك فى المقام الأول بفضل هذا المتطوع الشهم والمحارب الذى لا تذل له قناة .

انه لم يترك عضوا غير مصهب من أعضاء البرلمان البريطانى ، بمجلسيه : العموم واللوردات ، ممن يمكن كسبهم الى جانب قضية الشرف والعدالة ، الا سعى اليه وناشده باسم الشرف والعدالة أن يرفع صوته مدافعا عن العرب . وحين يقرأ القارئ هذا الكتاب ، ويدرك أى ظروف حارب فيها هذا الانسان النبيل فى صفنا ، وأى صعاب اعترضت طريقه فتخطاها باندفاع الفدائى الجسور ، فسيدرك الى أى مدى نحن مدينون له بالشكر والعرفان بالجميل ، وإلى أى مدى قصرنا فى حقه .

لقد قرأت كثيرا مما كتب فى صالح القضية العربية الفلسطينية بأقلام عربية وأجنبية ، بيد أنى لم أعر على كاتب توفر له مثل هذا الحماس اللهب ، ومثل هذه السعة فى الاطلاع وهذا الجد فى البحث ، ومثل هذه الغيرة الواعية فى الحق ، ومثل هذه الشهامة المتوثبة للانتصار لكل مظلوم، ومثل هذا التواضع الجم الذى توفر لهذا المتطوع النبيل الذى لا مصلحة له . وحسب القارئ أن يلقى نظرة على قائمة المراجع التى استند اليها وبني عليها دفاعه الحارق ، مجهدا نفسه فى تمحيص محتوياتها ومستقرنا منها الأدلة المفحمة المخرسة للسان الباطل ، من أجل أن تأتى وثيقته هذه جامعة شاملة ، وأن يراه يقول بعد هذا كله ، بكل تواضع معهود فى مثله من ذوى المروءة والنخوة انها ليست جامعة ، وأنه كان من الممكن أن تكون أوفى وأشمل وأقوى لو لم يكن فقير الجيب ، كالناس الذين يدافع عنهم ، فتوفر له المال الذى يمكنه من السفر الى أحد الأماكن التى كانت مسرحا من المسارح التى دبر فيها المجرمون اقتراح هذه الجريمة النكراء ، أعنى

الولايات المتحدة ، لكي يتسنى له أن يستجلى نقطة واحدة ، هي ، في رأيي ، نقطة ثانوية يستشهد بها أحد الشركاء الأثمين لتبرير اشتراك مجرم آخر معهم وتواطئه معهم .

وفي وسع القارئ أيضا أن يبحث عن الـ « أنا » في ثنايا هذا المرجع الحجة ليجد أنها تختفى دائما في كل مناسبة تستحق فيها الشناء ، مؤثرة غيرها ممن دافعوا عن قضية العرب بالمديح والاطراء .

حقا ، انه لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أن بريطانيا التي صنعت مأساة بلادي ومآسى كثير من الشعوب يمكن أن تنجب انسانا على هذه الدرجة من السمو الانساني ونبل الضمير ، لكنني حين تعرفت عليه من خلال هذا الكتاب أيقنت أن الشعب البريطاني هو الآخر مجنى عليه مثلنا فلقد باع حكاهم المجرمون في حقنا وحقه مستقبلا للصهاينة من أجل مصالحهم الاستعمارية . ومن غير هذا الشعب سيدفع في المستقبل ثمن هذه الجريمة النكراء ؟ فأحسست بكل حقد حملته لبريطانيا العامة ينفض من قلبي دفعة واحدة ليجل محله الرثاء لمستقبلها ، وأخلص العرفان لشعبها الذي أنجب مثل هذا الانسان النبيل الذي رفع صوته من أجلنا معبرا عن ضمير ذلك الشعب المخدر . ومن أجل هذا الانسان الشهم غفرت لبريطانيا الشعب البريطاني كل الوزر الذي حملته لها حكاهم الأثمنون . وحسب هذا الشعب اليوم انه يدفع من شرفه ومن كبريائه القومي ثمن جميع تلك الجرائم التي اقترفها باسمه هؤلاء الحكام الاستعماريون ، اذ لم تعد الجزر البريطانية التي كانت تسيطر الى عهد قريب على ما يزيد عن نصف رقعة هذا الكوكب الا ذبلا صغيرا ملحقا بامبراطورية الاستعمار الجديد ومجرد قاعدة ذرية بعد أن كانت قواعدها تنتشر كالجذام على وجه هذه البسيطة . ومن يدري غدا ماذا يكون مصير هذا الشعب المسكين اذا ضحي به سادته الجدد في واتسنتون على مذبح شهواتهم المجنونة من أجل مخططاتهم الخرقاء للسيطرة على عالم اليوم ؛ عالم الشعوب المتحررة ، أو اذا ما انتفضت فيه روحه الحرة المخدرة فحاول أن يتحرر منهم ففعلوا به كما يفعلون اليوم في شعب الدومينكان ؟

بقيت كلمة أخيرة أقولها في ختام هذه المقدمة كلمة شكر وامتنان أقدمها بلسان كل عربي للكاتب النبيل وجميع زملائه في « المركز العربي » بلندن ، الذين أهداهم هذا الكتاب ، وجميع من أزجى اليهم الشكر في مقسمته بالنيابة عنا وعن الشعب البريطاني المغلوب على أمره ، ونحفظها لهم بكل جميل وعرفان ، مؤملين أن يكون لهم في هذه الترجمة

ولكنها جميعا ذهبت أدراج الرياح . ولم ترفض التماسات العرب هذه فحسب ، بل ان أحدا لم يعرها مجرد الاهتمام في حد ذاته ، فلم يسمع لهم في يوم من الأيام أن يعرضوا قضيتهم كاملة أمام محكمة الرأي العام ، أو أمام أى محكمة دولية لها سلطة اصدار حكم مؤسس على الحقائق .

والسبب الرئيسى فى هذا هو أن قضية العرب قد أخفيت منذ اللحظة الأولى عن اسماع محكمة الرأي العام . ولو أنهم كسبوا قضيتهم هنا (لدى رأينا العام) لوضع حل عادل لهذه القضية فى مكان آخر . لكن العرب لم يتمكنوا حتى هذه اللحظة من تعريف الناس تعريفا كاملا بقضيتهم ؛ وبخاصة فى بريطانيا العظمى ، حيث كان من الضروري جدا أن تكون معروفة .

وهدف هذا الكتاب هو عرض هذه القضية بكل احاطة ممكنة . انه تأريخ لما حدث فعلا فى فلسطين ولكل ما جرى مما يتعلق بفلسطين منذ أيام الحرب (العالمية الأولى) حتى وقتنا الحاضر .

أما أن يجيء هذا الكتاب بعد هذه الفترة الطويلة من الزمن والتي تبدو أنها مرحلة متأخرة جدا من مراحل الصراع ، فليس هذا براجع الى عرض طارئ أو اهمال متعمد ، انه ناتج عن العقبة الأولى التي تقف فى طريق العرب والمدافعين عن العرب . فعرب فلسطين كيان صغير يعيش فى مكان بعيد عن هذه الديار (بريطانيا) . وليس لهم - لكونهم عربا ، وبمحض الصدفة - أحد من بنى جنسهم يحتل مركزا من مراكز النفوذ فى بريطانيا العظمى . ومن الناحية الأخرى فان خصومهم ، قد عاضدتهم فى هذا الأمر ، حلقات متتابعة فى سلسلة تنتظم الحكومات البريطانية المتعاقبة وأعضاء المنظمات الصهيونية من ذوى النفوذ الواسع الى أقصى حد ، والذين كانوا اما يعيشون فى هذا البلد أو يترددون عليه للزيارة بانتظام . ويشغل هؤلاء الصهاينة ومن يساندهم من البريطانيين مراكز بارزة فى البرلمان وفى الصحافة ، وفى المجالات الاجتماعية والمهنية والتجارية من حياتنا القومية ، لدرجة أن الجمهور البريطانى قد سمع مرات ومرات من هذه الأصوات المألوفة على درجاتها المختلفة ، والمحترمة على درجاتها المتفاوتة ، كل ما أريد أن يقال له لصالح الحركة الصهيونية السياسية ؛ لصالح تلك النظرية التي تنادى بفرض اليهود بالقوة الغاشمة على الديار المقدسة ليس ككيان دينى بل ككيان سياسى .

أما العرب ، فلم يسمع الشعب البريطانى منهم الا القليل ، بالرغم من كل تلك المحاولات التي قام بها العرب أنفسهم لعرض قضيتهم عليه .

وكيف لا يكون الأمر كذلك ؟ والجماعات التي ضربنا حولها سياجا من العزلة ، والتي جاءت الى شواطئنا لتعرض قضية بلادها بلسان بنى وطنها، مرات كثيرة ، لم تنسج لها صفحات الجرائد أو تنفسح لها مناير الخطابة لا من حيث الاتساع أو الزمن اللذين كانت تحتاجهما لتقول كل ما لديها من كلام . ولقد كان لديها ، وإيم الحق ، الكثير مما يقال ، لأن ما سمي بـ « مشكلة فلسطين » قد ازدادت تعقيداتها مع مرور الزمن حتى أصبحت في أقصى حالات التعقيد .

وأى مشكلة سياسية من الدرجة الأولى تزداد تعقيدا اذا تركت عددا من السنين دون بذل جهد لحلها . وتزداد تعقيدا ، على الأخص ، حين يجد أحد طرفيها له مهربا على مر الزمن ، فيستفيد من مجريات الأمور الثانوية التي تنشأ بصورة طبيعية أو تنشأ (بضم التاء) بصورة اصطناعية ، فتلقى ضابا. على صلب الموضوع الذي كان واضحا في البداية . وعندئذ يكون هناك الكثير مما يدور حوله الكلام ، والكثير مما يجرى حوله الخلاف، والكثير من المسائل التي تنار بصورة زائفة ، لدرجة أن الطرف الثاني سرعان ما يجد نفسه في حاجة الى قدر كبير من الوقت والمتسع ليفي بغرضه لايضاح هذه المسألة وتبيانها . بيد أن الوقت والمتسع كانا في هذه الحالة أمرين بعيدى المنال . اذ كان يتحتم على الجرائد البريطانية أن تحيل نفسها الى وثائق سياسية خاصة بالشرق الأدنى ، لكي توفى هذه القضية العربية بأكملها حقها الكامل من النشر والتبيان ، وفي وسع أى انسان أن يدرك أن ذلك كان أمرا مستحيلا .

وهكذا لم يستطع المبعوثون العرب الذين وفدوا على بريطانيا أن يجدوا فرصة ، فى الحقيقة ، ليفعلوا فيها شيئا غير أن يواجهوا ذلك السد المنيع من العناد الوزارى ، وغير أن يخطبوا فى بضع غرف استقبال ، وفى أندية الروتارى ، وأن يصدروا كتيبات غير كافية لتوزع هنا وهناك . ونتيجة لذلك كان الموقف هو انه بينما قدر للشعب البريطانى أن يسمع الكثير نسبيا عن مشكلة فلسطين من أقواه الوزراء والصهاينة وأشياهم لم يقدر له أن يسمع من العرب عنها شيئا يذكر بأى وجه من الوجوه .

وأخيرا نصل الى أولئك الذين كان يجدر بالشعب البريطانى ، من حيث المبدأ ، أن يسمع منهم شيئا لصالح العرب ؛ وبالتفصيل الى حد ما . . . أعنى أولئك الذين يعطفون على العرب من البريطانيين . بيد أنه يتبين للانسان تلك العقبة التي نقف فى طريق العرب بأجل ما يكون .

اننا نحن الذين نعطف على العرب عطفاً ايجابياً تمثل نفراً قليلاً...
نفراً يستحق الرثاء • لقد كتب علينا أن نكون قلة لأن الالمام بقضية
العرب ؛ وبالحقائق الموضوعية فيما يتعلق بفلسطين ليس من الميسور
للانسان أن يبلغه في بريطانيا بسهولة ويسر وبالطرق المألوفة •

انه يقتضيك لكي تكون بطلا من أبطال الدفاع عن قضية العرب أن
تكون على معرفة خاصة بها ، وما كان في الامكان اكتساب هذه المعرفة ،
بوجه عام ، الا في فلسطين ذاتها ، أو عن طريق الاتصال المباشر بأناس
آخرين قضوا فيها ردحا من الزمن ، أو من خلال دراسة القرائن والبيئات
التي ظلت عمليا في طي الكتمان حتى الآن •

واستتبع هذا بالضرورة أن نكون « نحن » العسافين بالحقائق
قلة... كنا بضعة جنود مسرحين ، وحفنة من الضباط والموظفين
والمستخدمين السابقين في ادارة فلسطين - وهذه حقيقة لها دلالتها -
وكذلك بعض القاطنين من البريطانيين في ذلك البلد ، وبعض أعضاء
الارساليات الدينية والمعلمين هناك ، وصحفي أو صحفيان كانت عيونهما
مفتوحة هناك • بينما كانت تقف في وجهنا حكومة بريطانيا العظمى
والجمعيات الصهيونية بفروعها الأخطبوطية المنتشرة في أرجاء العالم •
وكذلك كان يقف النراء الذي ينشر بسخاء لنشر أباطيل الحكومة والصهاينة •
وبالمقارنة في هذا الميدان كان العرب قوما من المتسولين • وكان لزاما
علينا نحن القلة المدركة لعدالة قضية العرب أن نعاني من كل هذه السدود
والعقبات ، المتراكم بعضها فوق بعض ، والناجمة عن فقرنا وفقرهم ، في
محاولتنا لإظهارها •

ونتيجة لذلك ، فإن هذا الكتاب وبرغم كونه شاملا جهد المستطاع ،
الا انه ليس كما ينبغي أن يكون الشمول ، وكما يمكن أن يكون • فهناك ،
على سبيل المثال ، كثير مما كان ينبغي كشف النقاب عنه من الطريقة
التي تم بها زواج الصهيونية السياسية من حكومة الولايات المتحدة ،
ومن الطريقة التي تخلت بها تلك الحكومة عن قضية العرب ابان مؤتمر
الصلح • وقد سنحت لي ، في هذا الصدد ، فرص للتحري تبين لي أنها
فريدة • بيد أنني لم أستطع أن أنتهزها لأنني لم أكن أملك المال الذي
يعينني على السفر الى الولايات المتحدة والإقامة فيها لمدة كافية ، بل لم
أستطع للسبب نفسه أن أعود الى فلسطين ، قبل أن أشرع في
الكتابة ، وأذهب منها الى العراق • وفي وسع الانسان أن يتصور كم في
هذا الركن من العالم من أشياء ما زالت تنتظر أن تدرس وتقرأ •

وفد لا يكون من المألوف ذكر مثل هذه الأمور الخصوصية ، لكنها يجب أن نذكر هنا بسبب أهميتها السياسية ، فنحن الذين نفق الى جانب العرب ، جماعة يتوفر لديها قدر كبير من المعرفة الخاصة لكنها لا تملك الأموال اللازمة لتستخدمها في سبيل نشر هذه المعرفة وإذاعتها كما نستهي . ونحن في هذا نختلف عن خصومنا الذين يستطيعون أن يتحدثوا ، حين تكون المسألة متعلقة بنشر بهتانهم ، بعشرات الألوف من الجنيهاات وبمئات الآلاف من الدولارات .

وكنتيجة طبيعية لذلك أيضا كنا نحن الذين نحب أن ندافع عن قضية العرب وأن نعرضها للناس ، يعوزها الوقت بقدر ما كانت تعوزنا الاموال . فلم تكن نملك وقتنا . . . كان يتحتم علينا أن نسعى وراء عيشنا . وذلك هو السبب في أن هذا الكتاب ، الذي يتطلب تفرغا كاملا لموضوعه وهجرا تاما لكل ما عداه ، لم يظهر قبل الآن ، وقد أخرج حالما توفرت امكانية اخراجه المجردة .

وهناك بعض النقاط الأخرى التي تحتاج الى مقدمة هنا ، فلسوف يرى القارئ أنني لم أترفق بساسة معينين من ساستنا ، أو بحكومات معينة من حكومات بلدنا . اذ ليس هناك ، فيما أعتقد ، سبب يدعو الى التورية وتلطيف العبارة ؛ الى القول بأن هؤلاء الرجال وتلك الحكومات كانوا مخطئين ، أو ضللهم النصائح المفرضة ، أو أنهم انتهجوا ، مجرد انتهاج ، سياسة خاطئة في فلسطين ، أو تقبلوا عن غباء مهمة الاضطلاع بانتداب مخرب . لانهم لم يفعلوا شيئا من هذا القبيل ، بل انتهجوا سياسة فحواها الغش والزيف والضللال . لقد سلبوا العرب ، عنوة واغتصابا ، حقوق العرب الطبيعية الموروثة في بلادهم . ونكثوا بعهود بريطانيا التي قطعتها للعرب . وأولوا وحرفوا ، ما وسعهم التأويل والتحريف ، ميثاق عصبة الأمم عن مواضعه ، بما يوافق أغراضهم في فلسطين ، وانتهكوه في المواضع التي لم يستطيعوا فيها أن يحرفوه . . . لقد زيفوا الانتداب .

أما الحكومات التي جاءت بعدهم فجرمها أقل من جرمهم . لكنها جنت آثام سلبيتها لأنها لم تعد النظر في أفعال من سبقوها ، ولأنها تابعت المضي في سياسة لم تتقص منشأها وفحواها .

لا مفر لنا من القاء هذه الاتهامات ، والقرائن التي تبرر لنا القاءها . بيد أنه من المؤلم ألا يكون هناك مفر من القائها ، وبخاصة في هذه الظروف التي تسود العالم . وعلى أى حال ، فانه من قصر النظر ، في هذا الوقت الراهن الحرج ، أن يأخذ الانسان نفسه بالقول بأن هذه ليست باللمحظة

التي ننال فيها من هيبتنا القومية بفضح الأفعال الشائنة التي اقترفها بعض حكامنا .

ان الموقف هو على العكس تماما . فاذا كانت المؤسسات الحرة مهددة بالخطر فعلا في هذه اللحظة ، فليس هناك اذا خير من برهان نقدمه على ما تسمح به المؤسسات الحرة وما تحرمه المؤسسات الاستبدادية ، ألا وهو حق الفرد في أن يقاضى أى حكومة على اساءة استخدامها لسلطتها . ومهما يكن مكروها في مقام الجهر بالحقيقة فان كتمانها في المقام الأول ، اضاعه لفرصة كبرى . والواقع أنه قد واتانا هنا ما هو أكبر من الفرصة . انه امتياز من امتيازاتنا اليوم ، ولا يشاركنا فيه الا القليل من الناس ، ألا وهو أننا ما زلنا نستطيع في بريطانيا وفي أوروبا المكمة بخداع النفس - أن نقول الحقيقة عن أنفسنا . ولسنا بأحرار طالما لا نستطيع أن نقولها . انها الدليل بعينه على حريتنا . ونحن نترك قول الحقيقة للآخرين فقل علينا السلام .

وفضلا عن هذا فان مسألة فلسطين هذه تدنس كل مجهود تقوم به بريطانيا سعيا وراء الخير في النواحي الأخرى . ان الشعب البريطانى لا يدري الى أى مدى كبير تناقش أفعالنا التي اقترفناها في فلسطين ، في البلدان الأخرى ، وأى طعم من الرياء تعيره لأصدق مشاعرنا . فكيف لنا أن نرفع أصواتنا بالاحتجاج على معسكرات الاعتقال في بروسيا حين تكون لنا في فلسطين معسكراتنا ؟ وكيف نستطيع أن نستنكر طرد الألمان لليهود حين نقبح اليهود على العرب بالعنف نفسه ؟ وكيف يمكن لنا أن نتباكى على أناس يودعون في السجون بلا محاكمة حين ننفي ونسجن ونعدم رجالا في فلسطين بلا محاكمة ؟

أما الاعتذار بأن الأمر في حالتنا يختلف ؛ بأننا نفعل ما نفعله آسفين لصالح الانتداب الذي كان تنفيذه واجبا نحو العالم ، فهذا عذر مخز . لقد رتبنا نحن أمر الحصول على هذا الانتداب ، ومنحناه نحن وأصدقائنا لأنفسنا ، وقمنا نحن وشركاؤنا في السياسة الصهيونية بتدبيح نصوصها ذاتها ، ساعين من وراء ذلك الى هدف واحد هو فرض هذه السياسة .

أما كيف تم ذلك ؟ فهذا ما سيقف عليه القارئ لهذا الكتاب . وقد أنهم بكتابتى اياه بأننى معاد للسامية . ويجب على أن أتجاوز عن هذا الاتهام . لكننى لم أرتبط فى أى يوم من الأيام قط بأى علاقة بالمعاداة للسامية . وانى أرى فى اضطهاد اليهود فى وسط أوروبا غارا صارخا وسبة فى

جبين الانسانية بقدر ما يكون فرضهم على العرب عارا صارخا وسبة في جبينها . وليس هنا من شيء كذلك يضح في أيدي مضطهدي اليهود في أى مكان آخر من العالم مبررا أقوى من هذا المبرر الذى يضعه في أيديهم هذا الاضطهاد الذى يوقعه اليهود بفلسطين ومن أجل مصالحهم .

أما فيما يتعلق بمادة هذا الكتاب ، فهناك بعض النقاط أحب أن أبدىها . انه كتاب طويل جدا لكنه يجب أن يكون كذلك . اذ لما كان تاريخ فلسطين الحقيقى قد أخفى على الجمهور طوال عقدين من الزمن ، فان من الضروري هنا أن أبعث تلك السنوات العشرين ، وبالتفصيل جهد الطافة ، مع أقل قدر ممكن من التكرار للحقائق التى حدثت فى تلك السنوات نفسها . ان نصف الحقائق التى يتحتم على أن أوردتها هنا لم يأت على ذكرها أحد قط . كما أن كثيرا من الوثائق لم ينشر أحد منها نصا واحدا . ولذلك فقد رأيت أنه من الضروري أن أسوق النقاط الأهم من غيرها أكثر من مرة ، من أجل القراء الذين يطوفون هذا الموضوع لأول مرة وليس لديهم فكرة عنه . وحين يتذكر الانسان أن العرب قد عانوا الكثير من التكنم على كل شيء ، فان تكرار بعض النقاط ، من حين لآخر ، أمر لا يكاد يعاب ، بل هو مرغوب فيه حقا .

ان تاريخ فلسطين ابتداء من أيام الحرب (العالمية الأولى) حتى الآن هو ، كما سبق لى أن ذكرت من قبل ، معقد فى بعض الأحيان . وكان خليقا بالألا يكون كذلك ، لان ما نسمى بـ « مشكلة فلسطين » هى وحدها التى تجعله معقدا ، وكان يجب ألا يكون لمشكلة فلسطين هذه وجود لم تكن هناك مشكلة لفلسطين ، وما كان لها أن تكون مشكلة لو لم يخلقها سياسة معينون . وعلى أى حال ، فما دامت قد خلعت هكذا بصورة غير طبيعية فانها تميل فى بعض الأحيان الى التعقيد . وعليه فيجب أن يدقق النظر فى معانى العبارات ، أو ينظر الى الخريطة بامعان .

أما الرجال الذين خلقوا هذه المشكلة ، فيجب علينا ألا ندعهم يستطيعون الهرب من محاسبتنا لهم ببراءتهم فى تعقيد كتبنا القومية . فإذا كانت الشخصيات السياسية تستطيع أن نعبث بالمعاهدات وتتحلل من المواثيق لمجرد أن الشعب لن يفحص هذه المعاهدات ولن يحلل تلك المواثيق ، فعندئذ يكون الشعب قد تنازل عن حق رفابته على الحكومة .

ان هذا الكتاب يعالج أساسا قصة كيف وضعت فلسطين تحت حكم حكومة الانتداب لكى تقيم فيها « وطنا قوميا لليهود » يصبح فيما بعد - كما بيت له - دولة يهودية . وقد تمت كتابته فى الوقت الذى كانت

فيه سياسة حكومة تشمبرلين في فلسطين غير مبينة • وفي اللحظة التي قمت فيها بمراجعتها تخلت الحكومة عن مشروع التقسيم الذي خلقته لها الحكومة السابقة • لكنه يغطي على كل مشروع آخر قد يحل محل مشروع التقسيم • ان أى مشروع من هذه المشروعات لا يعترف بأننا قد تجاهلنا حقوق العرب وحشنا بعمودنا ، ولا يؤكد هذه الحقوق - وأن هذه الحقوق والعهود سيُعترف بها وسيوفى بها من الآن فصاعدا - سيوجد ادانته في التاريخ مفصلة بين دفتي هذا الكتاب •

وحتى اذا ما قدر للحكومة الحالية أن تدرك فضيلة الاعتراف ، وأن تغير سياستها ، وأن تبدأ في فلسطين من جديد كما كان يخلق بنا أن نبدأ قبل عشرين سنة ، فإن هذا النشر للقصة الحقيقية لهذه السنوات الحوالى سيكون ضروريا • وبهذا وحده يمكن ايضاح ثلاثة أمور تستدعى التبيان ، ألا وهي حاجتنا الى تغيير السياسة ، وعدالة مطالب العرب ، وجريمة أولئك الذين جعلوا فلسطين تعيش في البؤس كل هذا الأمد الطويل •

وأرى لزما على بصورة خاصة أن أبرز عدالة قضية العرب بأجلى ما يكون الايضاح • ويجب ألا ينحى عليهم بلوم ، اذا ما أمكن التوصل الى تسوية سلمية ، من أنهم قد أحرزوها لمجرد أنهم التجنوا الى العصيان والتمرد ، ومن أنها انما منحت لهم من أجل السلم •

وأعتقد أن من الصواب أن يعرف الشعب أسماء بعض أولئك الذين أبقوا قضية العرب حية في بريطانيا العظمى حين كانت تنهشها أسنان معارضة طاغية • وكان يحفظ عليهم شجاعتهم دافعان ، حين كان الأمل يتراءى بعيدا • وأحد هذين الدافعين هو أن بلدا صغيرا يجب ألا ينداس أبدا طالما كان في وسعهم أن يدفعوا عنه ذلك • أما ثانيهما فهو أن بلادهم يجب أن تكون بارة بعهودها وبنفسها •

لقد رفع بعضهم صوته في البرلمان مدافعا عن فلسطين • فاللورد آيلنجتون سايدينهام واللورد يكماستر ، واللورد برنتفولد واللورد لامنجتون واللورد تمبلتون • • • تلك أسماء لن ينساها العرب • كما أنهم لن ينسوا السير ارنست بينيت ، والمستر سومرز كوكس ، والسير فرانك ساندرسون ، والكولونيل هاوارد بوري ، والكولونيل كليفتون براون ، واللورد ونترتون ، والسير آرنولد ويلسون ، ولن ينسوا من بين الأعضاء الشبان في مجلس العموم في الأيام الأخيرة المستر أنتوني كروسل • ولم يكن هؤلاء الشرفاء وأعضاء البرلمان ينادون بالسياسة نفسها

في فلسطين • لقد كانت بينهم اختلافات في التطبيق • لكنهم كانوا جميعا يناضلون ويجاهدون ليعرضوا وجهة نظر العرب • ولسوف يذكر اسم كل من اللورد آيلنجتون واللورد سايدنهام بصفة خاصة بسبب القوة والافتدار والكفاءة التي نافحا وعارضا بها السياسة الحكومية • ولم يكن أى منهما في شبابه آنذاك بل كانا كلاهما قد أحيل الى التقاعد منذ زمن من الوظائف الرفيعة في الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار ، ومن الوزارة في حالة اللورد آيلنجتون • لكنهما في دفاعهما عن قضية العرب ، التي كانت تفتقد الصديق ، قد جددا عنقوان شبابهما • لقد حاربا من أجل فلسطين ومن أجل شرف بريطانيا كما يحارب الصليبيون ، والواقع أن الصفوف التي قادها هي صفوف مشتركة في القتال مع الغزو الصليبي الأخير •

ولقد وفيينا اللورد تورنكليف حقه من الشكر والعرفان في ثانيا هذا الكتاب • بيد أن هناك آخرين يرجع ألا يتقدموا بأسمائهم الى الشعب ، ممن أسهموا بنصيب كبير في الدفاع عن العرب • وإن كل نفس في فلسطين تعلم ما الذي أحرزته الآنسة فرانسيس نيوتن لصالح الديار التي اتخذت منها بيتا لها لسنوات عديدة • وإن كل انسان شغل نفسه بالدفاع عن قضية العرب يدين بشيء من علمها ومعرفتها والهيامها في هذه القضية • وإنى مدين لها بأعمق الشكر والعرفان • وإن بيتها على جبل الكرمل في فلسطين لهو في نظر العرب الموطن الحقيقي للتقاليد البريطانية القديمة •

ويعرف المدافعون عن العرب في لندن ذلك العمل العظيم الذي اضطلعت به المرحومة الآنسة برودهيرست والآنسة فاركيوهارسون ، من « الرابطة الوطنية » لسنوات عديدة • ففي كنفهما في شارع سانت جيمس كان العرب وأصدقاؤهم البريطانيون يلتفون ويتشاورون ، ويطلعون على الكثير من مخططات خصومهم ومؤامراتهم التي لم تكن تفلت من عيون مضيفتيهما الساهرتين أبدا ، فيضعون الخطط فيما بينهم لمقاومتها • وقد كان بيتهما أشبه بقلعة للعرب وسفارة لهم في آن واحد • ولقد وجدت فيه دائما - مثل في ذلك مثل الآخرين - العون ، والامداد بالمعلومات والتزود بهسا ، والحماسة والتشجيع ، وداعيا كبيرا من دواعي العرفان بالجميل وعظيم الامتنان •

وهناك اسم آخر أذكره بكل تجلة وامتنان ، هو اسم السيدة ستيوارت ارسكين • وهى أحد الأوائل الذين خفوا لانقاذ قضيتنا المشتركة بأن أصدرت كتابها القيم ، وعنوانه : فلسطين العرب • وكان عنوانه في

حد ذاته درسا في الايام التي كتب فيها • وكسكرتيرة للمركز العربي ، في شارع مكتوريا ، ظلت السيدة أرسكين تدأب بلا كلل حتى وفاتنا الحاضر • وجنبا الى جنب معها تدأب السيدة فوكس - سترانفويس - والسيدة سيسيل بروكس ، والآنسة بلايث ، والسيدة سوينبرن •

وفي فلسطين شهر المستر نيفيل باربر يراعا لا يقدر بمال واني مدين له بايراد نبذة مما خطه فلمه في هذه المقدمة ذاتها • وقد كتب المستر ارنست رتشموند والمستر س.ر. آشبي - وكلاهما خدما في ادارات من ادارات فلسطين - عن ذلك البلد بذلك الأسلوب الصريح الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم والذي يتميز به أولئك الذين لهم علم بهذه المسألة ينفذ الى خافياتها • كما ألف البروفسور غارستانج الأستاذ في جامعة ليفربول ، والذي ترأس بعثات قيمة مشهورة للتنقيب عن الحفريات في فلسطين ، ألف بالاشتراك مع أسقف شيشستر كتيباً تمتلئ دفتاه بالحقائق الناطقة •

وفوق هؤلاء جميعا هناك رفيق لورانس القديم • انه الكولونيل س.ف. نيوكومب ، الذي لم يخف أسلوبه المؤدب التوفيقى ، والذي تجلّى في مشروعات اقترحها من أجل تسوية ، لم يخف أبدا ايمانه الراسخ ووقوفه الثابت الى جانب العدل والحق ، الى جانب قضية العرب •

وهناك نقطة أخيرة تستدعى التعريف بها أولا • وهي نقطة تقع - بمعنى ما - خارج مجال المناقشة الحالية كله ••• هذه المناقشة التي تدور حول مسائل سياسية • ان هذه النقطة اعتبار ديني • بيد أنه لما كان كثير من الأشخاص يحكمون على موضوع الصهيونية من وجهة النظر هذه وحدها ، فان لنا هنا أن نناقشها •

ان هؤلاء الذين يأخذون بوجهة النظر هذه متأثرون بحقيقة أن عودة اليهود الى الديار المقدسة انما هي تحقيق لنبوءات الكتاب المقدس • وبدافع من هذا فائهم يحسون بوجوب ألا تقوم معارضة من أى نوع كان في وجه هذه العودة • انهم لا يحبون أن ينتقدوها أو يروها تنتقد بأى أسلوب كان •

واني أتوجه الى أي من هؤلاء الذين يحملون مثل هذه الأفكار ، أتوجه اليه بكل لهفة راجيا منه أن يتأمل بامعان ، أكثر مما فعل حتى الآن ، موقف أولئك الذين يدافعون عن العرب • انك لا تجد بيننا جميعا - ولا تجدنى أنا بكل تأكيد - واحدا يعارض عودة اليهود الى فلسطين • ان

ما نعارضه أمر يختلف عن هذا كل الاختلاف • اننا نعارض أسلوب عودتهم هذه ومدى عودتهم هذه • أما الأسلوب فكان غير قانوني وعنجهيا، وأما المدى فكان مفرطا •

وعلى أى حال ، فلا محل للقول بأن إعادة توطين اليهود في فلسطين قد تتعرقل او تتعرض للخطر بفعل أفعالنا ، مادام اليهود قد عادوا الى هناك • ان كل ما يتعلق بأسلوب عودتهم ومداهها ومكانها يستدعى النقد • وانهم المسئولون عن هذا وليس نقادهم • واذا أردنا أن نأخذ بالأرقام فقد كان هناك ، عند نهاية الحرب الكبرى ، ما يقرب من ستين ألفا منهم يسكنون البلاد ، وكانوا يعيشون مع أهل البلاد على أساس من التفاهم المعقول ، ان لم يكن من الصداقة والتآلف • وكان معظمهم من القادمين الجدد الذين دخلوا البلاد بالطرق المشروعة ، وفي ظل قانونها العام ، كحجاج أو كمستوطنين ، لا يطالبون لأنفسهم بمركز خاص من الأهلية على حساب أولئك السكان الأصليين أهل البلاد • ومنذ ذلك التاريخ تضاعف تعدادهم فيها الى سبعة أضعاف حتى الآن •

أما الثلاثمائة والأربعون ألفا وأكثر ، الإضافيون الذين دخلوا البلاد تحت حمايتنا فقد جلبوا اليها عننا وعدوانا • فقد قيد العرب بشتى الذرائع من قبل بريطانيا العظمى الى عتبات بيوتهم بينما كان اليهود يتدققون فيها مارين أمام عيونهم • ومع ذلك فإن العرب - الذين يرمون بانتظام بانهم قوم غير معقولين - مستعدون حتى في هذه اللحظة الى قبول حل وسط بخصوصهم • وان من الأفضل ، بهذه المناسبة ، ألا نزيد العرب نفاد صبر على صبرهم النافذ بعد الآن ، وأن نفتتم فرصة استعدادهم لقبول حل وسط قبل أن تضيق •• ان المزيد من العناد والتعنّت في عدم الالتقاء مع مطالبهم العادلة لن يكون من ورائه الا دفع قيادة حركتهم القومية الى أيد لا تقبل الحلول الوسط •

انهم على استعداد في الوقت الحاضر ، على أى حال ، الى أن ينظروا الى جمهرة المهاجرين الضخمة على أنهم عملاء جهلة وإبرياء ، جاءوا الى فلسطين ظنا منهم أنها لهم ، وعلى أنهم لا يسعون الى طردهم منها • أما شروط اقامة هؤلاء المهاجرين فتلك مشكلة تبقى للحل ، لكنهم طالما كانوا قانعين بحقوق السكان العامة ولا يطالبون بأية امتيازات مغال فيها ، كالاستقلال الاقليمي أو الاستقلال في التبعية عن أهل البلاد والاحتفاظ بجنسياتهم الأجنبية ، فسيكون لهم أن يبقوا في البلاد • وهذا يعنى أن أربعمئة ألف يهودى ، وربما كان عددهم أكثر من أربعمئة ألف ، سيبقون

في فلسطين ، وليس من المحتمل أن يبرحوها ما لم يبرحوها بمحض اختيارهم واراوتهم •

وان هذه الحقيقة حقيقة ذات دلالة عظيمة ، اذا ما أخذت مرتبطة مع نبوءات التوراة • وهي نبوءات عديدة جدا منتشرة في كثير من كتب العهد القديم • ويكفيها هنا أن نستشهد بفقرتين نموذجيتين منها • اننا نقرأ في الاصحاح الحادى عشر من كتاب أشعيا قوله :

✠ ويكون في ذلك اليوم أن الرب يعيد يده ثانية ليقتنى بقية شعبه التى بقيت من آشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر • ويرفع راية للأمم ويجمع منفى اسرائيل ويضم شتات يهودا من أربعة أطراف الأرض •

وفي الاصحاح الثلاثين من سفر التثنية تجد قوله :

✠ يرد الرب الهك سبيك (أى يعكس وضع أسراك - المؤلف) ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين هم بددك اليهم الرب الهك ، ان يكن قد بددك الى أقصاء السماوات فمن هناك يجمعك الرب الهك ، ومن هناك يأخذك ، ويأنى بك الرب الهك الى الأرض التى امتلكها آباؤك فتمتلكها ، ويحسن اليك ويكثرك أكثر من آباءك •

وقد تحققت هذه النبوءات اليوم • وان الأربعمئة ألف مستوطن في الديار المقدسة ليشكلون بقية كاملة من يهود العالم ، الذين يقدر عددهم ، وبصور مختلفة ، بأنه يتراوح بين أربعة عشر مليونا الى ستة عشر مليونا • وان بقية من هؤلاء فقط يمكنها أن تعود الى فلسطين • والى أن تأتى لنا عودة المسيح ثانية بعصر المعجزات فتتلاشى قيود وحدود أرضنا البشرية الحالية ، فان توطن جميع اليهود في هذا البلد الصغير الذى غالبا ما يكون قاحلا سيظل من أكبر المستحيلات • كما أنه ليست هناك أدنى رغبة لدى هذه الملايين فى العودة • فلقد عاد من بين الثلاثمئة ألفا من اليهود الموجودين فى بريطانيا ، على سبيل المثال ، أقل من ألفين • وهؤلاء الذين عادوا هم دوما وأبدا « منفى اسرائيل » و « شتات يهودا » الذين هربوا من تلك الأجزاء من أوروبا التى كانوا يضطهدون فيها ويعذبون •

ان نبوءة سفر التثنية تعلن ، علاوة على الوعد بارجاع اليهود ، أن هؤلاء اليهود العائدين سيتملكون البلاد بأعداد أكثر بكثير من أعداد

آبائهم الأولين . ولقد نحقق هذا أيضا ؛ تحقق تحققا لم يشر اليه أحد
بطرف قط .

ولا يمكننا طبعاً ، أن نحصى عدد السكان اليهسود بالضبط حين
كانوا يسيطرون على أجزاء من فلسطين ، وأقول أجزاء من فلسطين لأنهم
لم يملكوا فلسطين كلها في يوم من الأيام . ويجمع النفاذ التورائيون على
تسفيه بعض الأرقام الخيالية التي آلت إلينا من الماضي السحيق . وهم
يتحدثون عن هذه الأرقام المعطاة وينعتونها بأنها فضفاضة ، ويتحدثون
عن « الاسراف الذى لا حد له » المتوفر حتى فى أرقام جوزيفوس .

وعلى أى حال فقد توفر السير جورج آدم سميث ، الذى سيظل كتابه
« الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة » المؤلف الكلاسيكى عن هذه البلاد
والذى بلغت طبعاته خمسة وعشرين طبعة ، على دراسة مسألة السكان
اليهود فى أيام العهد القديم . وفى مؤلف حجة آخر من كتبه اسمه
فلسطين ، يخلص الى هذا الاستنتاج النهائى بعد أن يستخلص من النقوش
الآشورية أن اليهود « الذين أخذوا سبائاً الى بابل كانوا على أكثر تقدير
سبعين ألفاً فى العدد ، وبعد أن يذكر قراءه أن هناك بضعة عشرينات
ألف منهم لم تذهب الى المنفى ، وأن الخسائر فى الأرواح التى لحقت بهم
فى أيام حكم سنحاريب لا بد أنها عوضت فى عهد منسى الطويل المزدهر
فيقول : « ولا يمكن أن نكون بعيدين عن الحقيقة ، تبعا سنحاريب .

لذلك ، اذا قدرنا أن الأمة اليهودية كانت تضم فى نهاية القرن
السابع (قبل الميلاد) مائتين وخمسين ألف نفس ، على الأقل - ويضع
هذا بين أيدينا متوسطاً معقولاً للسكان بنى عليه حساباتنا -

فاذا أضفنا حتى مائة ألف أخرى الى عددها ، اتقاء للهجوم الذى قد
يشن علينا من الثغرة التى فتحها آدم سميث بقوله « على الأقل » الأمر
الذى هو مبالغة فى الاتقاء من هذه الثغرة ، فيكون عدد اليهود الموجودين
فى فلسطين اليوم - وبرغم كل شيء ومن جميع الوجوه المعقولة - « أكثر
بكثير من تعداد آبائهم » ، ويكون ما جرى اعلانه فى الكتاب المقدس قد
تحقق . ولا يكون هناك محل للقول بأن العرب أو أولئك الذين يعارضون
حقوق العرب يقفون فى وجه تحقيق نبوءة ، ما دامت قد تحققت فعلاً .

أو كما يقول المستر نيفين باربر : « يوجد في فلسطين اليوم ، ونتيجة لخمسين سنة من التدبير الصهيوني ، وطن قومي لليهود يضم نحو ثلاثمائة وخمسين ألفا » (كتب هذا الكلام في عام ١٩٣٦) • وهو يقى بغرض المركز الروحي لليهود • ان من الممكن بالنسبة لليهودي الآن أن يولد في فلسطين ، وأن يتدرج من روضة أطفال يهودية مائة في المائة الى مدرسة يهودية مائة في المائة فيجامعة يهودية مائة في المائة ، دون أن يتكلم بأى لسان غير العبرية ، وأن يشتغل في مدرسة يهودية أو مصنع يهودي ، وأن يعيش في مدينة يهودية مائة في المائة تضم مائة وخمسين ألفا من السكان ، وأن يقرأ جريدة يومية عبرية ، وأن يرتاد مسرحة عبريا ، وأن يقضى يوم عطلة في نزهة بحرية على ظهر قارب بخارى يرقرف عليه العلم اليهودي • « ويمكن أن يوصف هذا بحق ، على ما أعتقد ، بأنه عودة يهودية كافية كاملة الى فلسطين طبقا لنبوءات الأسفار المقدسة •

وما يقاومه العرب اليسوم ليس الا ما يطالب به الصهاينة الدنيويون ذور الاتجاهات السياسية على مختلف أنواعهم من وجوب زيادة تعداد اليهود في فلسطين باضافات أخرى • وتتراوح هذه الاضافات ، وهذه الزيادات على السكان اليهود الموجودين في فلسطين فعلا ، حسب أمزجة القائلين بها ، من بضع مئات آلاف أخرى الى عدة ملايين • فالدكتور وايزمان يقترح جلب مليون ونصف آخرين الى البلاد في غضون العشرين سنة القادمة • ولا شيء في الأسفار المقدسة يبرر هذا الاكتظاظ الخافق •

ويكفيينا هذا بالنسبة لأولئك الذين يستنكرون الدفاع عن حقوق العرب بسبب « تدخله » المزعوم وتعارضه المزعوم مع النبوءات • فهناك أيضا ما يجب ألا يغيب لهم عن بال • ان أحدا لا يمكن له أن يقول ، في أى ظرف من الظروف ، بأن لليهود الحق ، بسبب نبوءات العهد القديم ، في أن يعودوا الى فلسطين افتثاتا وظلما وعدوانا ، وعلى النحو الذى فرض به زعمائهم الآثمون وبعض الساسة البريطانيين دخولهم في هذه البلاد بالقوة • ان قواعد السلوك الأخلاقي لا يمكن أن تطرح جانبها • وان أولئك الذين يستغلون الكتاب المقدس كحجة ليثبتوا به أقدام الظلم في الديار المقدسة الى الأبد سيقدمون للعالم مثلا ، لم تقع عليه عين من قبل ، من الاستشهاد بالكتاب المقدس لأغراض الشيطان •

وبالاختصار ، فلأن تقول جوانب الخطأ والصواب في المسألة الفائمة بين العرب والصهاينة يجب ألا تؤخذ في الاعتبار لأن الله قد كتب لليهود أن يعودوا الى فلسطين ، فان قولك هذا مرادف لتعطيل الخطأ والصواب عن

العمل • ان معناه أن تتصور مشكلة مستحيلة لا تنطبق عليها وصايا الاله لكي تحقق وعود الاله • ان معناه أن تجعل من الخطيئة وسيلة للنجاة من العذاب ، وأن تخرج على المسيحية • ولذلك فان هذه عقيدة يجب على كل مسيحي ألا يسمح لنفسه ، ولو لحظة واحدة ، باعتناقها •

ولقد رأيت أن من الأيسر على أن أشير الى الأشخاص في كل ثانيا هذا الكتاب بأحدث ألقابهم المعروفة ، في الوقت الذي يكون قد طرأ فيه على أسمائهم تغيير • فلقد تحدثت عن « اللورد بلفور » مثلا منذ البداية حين كان اسمه مايزال المستر أ • ج • بلفور • وقد تجاهلت ، في الناحية الأخرى ، التغيرات الحديثة جدا التي طرأت على أسماء أخرى فقد تحدثت عن « السير هربرت صمويل » مثلا وليس عن اللورد صمويل • لقد توخيت انطلاق المسيحية فلم أنبع أية قاعدة • وقد تركت الأسماء في النصوص التي استشهدت بها كما هي معطاة •

وأما الأسماء الموضوعة في داخل أقواس في نهاية كل نص استشهدت به فهي تدل على أسماء كاتبيها أما ت • م • ص • فهي تعني تقرير المنظمة الصهيونية •

ج • م • ن • جيفريز

ايستهايز ، كولبتن ، ديفونشاير

« ربما نتبين أن حماقاتنا وآثامنا القومية قد استحققت العقاب • وإذا كنا لا نستطيع نحن أنفسنا أن نبدو في هذه التعرية للصفوة أبرياء تماما ، فإننا ما زلنا أحرارا وصادقين مع أنفسنا ، وفي وسعنا أن نطمع في تكفيرها عنا من خلال التسلم • »

(عن روبرت بريدجز ، من « روح الانسان »)

المؤلف

الفصل الأول

وماذا أنتن لى يا صور ويا صيلون ويا جميع دائرة فلسطين
(سفر يوثيل • الاصحاح الثالث • الآية الرابعة)

أعلن اللورد نورثكليف فى عام ١٩٢٢ ، بعد أن زار فلسطين ووقف على نتائج أفعال حكومتنا هناك ، أننا نجعل من هذا البلد ايرلندة ثانية • وان ما حدث فى الاعوام التالية ؛ بل وأكثر من ذلك ، ما حدث فى عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ وما زال يحدث حتى اليوم ، ليمن لنا أنه لم يقل الا الصديق الصراح • فلقد تجددت فى فلسطين كل الأخطاء والأفعال الشنيعة التى غدت النعمة الأبدية فى ايرلندة ، والتى كان من نتيجتها سفك الدماء ونشر الخراب بلا جدوى • والأمر اليوم يكاد يكون كأنما قد تذكرت هذه السابقة الايرلندية - وهى أبعد شيء من أن تؤخذ فى حسابانهم كنذير - على أنها مثل ثمين من أمثلة النجاح فكررت فى فلسطين بكل امكان ومثابرة ، وبأدق التفاصيل •

بيد أننا اذا كنا نذكر هنا هذه المحاكاة لأسوأ السياسات طرا فانما نذكرها لنؤكد حقيقة واحدة ؛ ألا وهى أن فلسطين بلد لا متسع فيه للسياسات السيئة ؛ بل وهو أقل اتساعا لها من ايرلندة • انها مكان صغير جدا •

وهناك ميل طبيعى الى تصور الضخامة الروحية للديار المقدسة ضخامة جسمانية أيضا ، والى الحاق مساحات شاسعة من الأرض بالمحلة التى فتح فيها ميلاد المنقذ آفاقا جديدة للجنس البشرى • بيد أن المسيحية ، شأنها شأن مؤسسها ، قد ولدت فى مسكن ضيق • ان فلسطين أقرب فى الحجم الى مقاطعة منها الى قطر : خذ مقاطعتين كيوركشاير

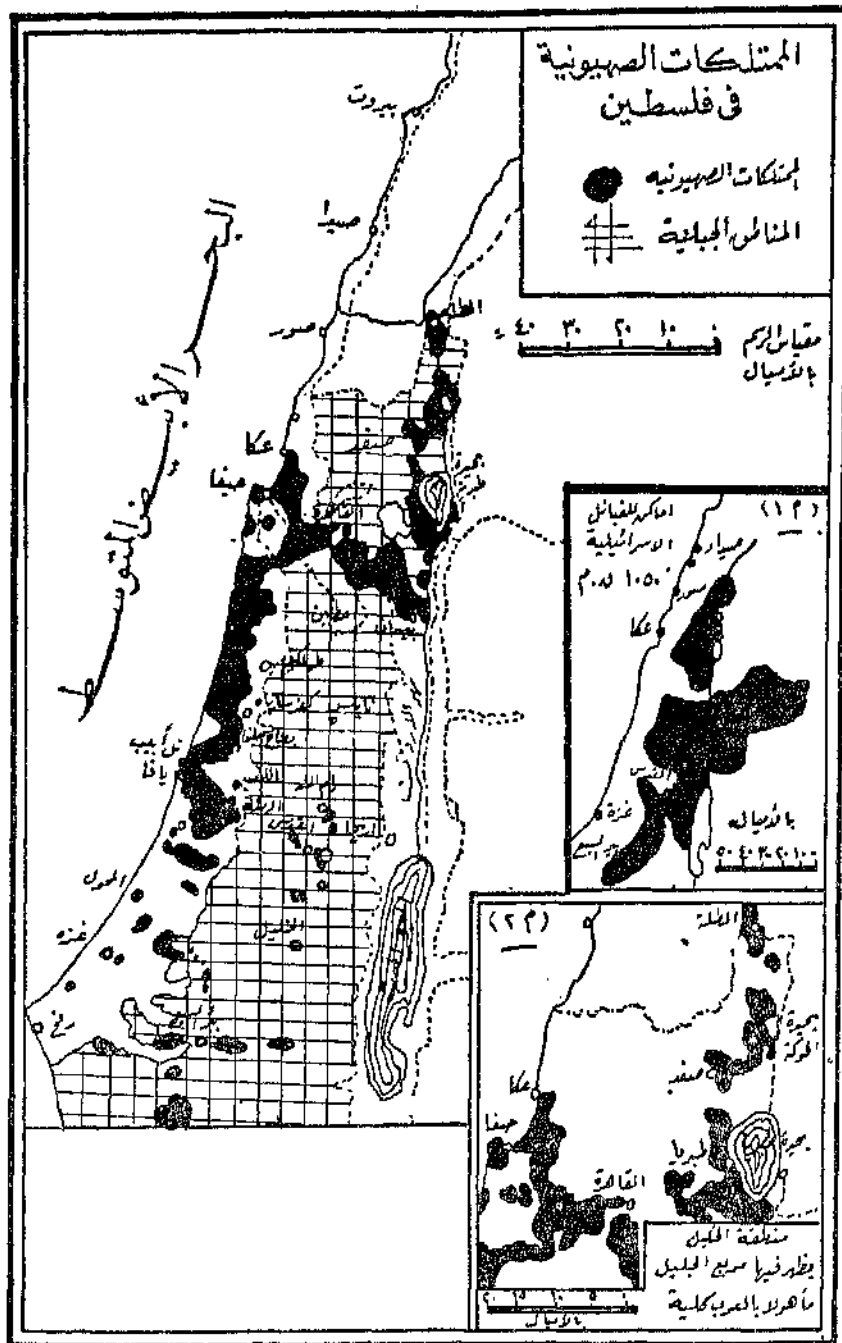
تجد أمامك مساحة فلسطين • ولا تبلغ يهودا ، من بين تقسيماتها (القديمة - المترجم) ، الا حوالى مساحة نورمبرلاند • ولا يبلغ الجليل ، ولا السامرة ، فى حجميهما حجم مقاطعه سومرست • وأنا أقدم هذه المقارنة دونما اشارة الى عدد النفوس التى كانت تعيش فى هذه المناطق • واذا كان لنا أن نأخذ فى الاعتبار المناطق المأهولة وحسب ، فان فلسطين التقليدية تتضاءل أكثر وأكثر عند المقارنة بمقاطعات انكلترا المزدهجة بالسكان • لقد كان نصف يهودا فى عصر استقلالها فقرا بلقعا • فلم يكن الجزء المأهول منها فى مثل حجم مقاطعة ولتشاير •

ان طول فلسطين من دان الى بئر السبع يبلغ مائة وثمانين ميلا ؛ أو قل المسافة بين لندن واكزتر أو هال • وان أقصى ما يبلغه عرضها هو سبعون ميلا • الا أن عرضها حتى حوالى منتصف امتدادها يندر أن يزيد عن خمسين ميلا ؛ من نهر الأردن حتى البحر • وهى ذات المسافة بين بيروت وأدنبره • زد على ذلك أنها لا تبلغ فى طولها المسافة بين ليفربول وشيفيلد • ويسجل دين ستانلى قائلا : « يكاد الناظر من كل نقطة مرتفعة فى البلاد أن يرى عرضها كله ؛ ابتداء من سلسلة جبال مؤاب الطويلة فى الشرق حتى البحر الأبيض المتوسط فى الغرب » •

وفلسطين حسب لغة الأطلس ليست فى الحقيقة الا أكبر قليلا من غرزة ابرة فى عباءة آسيا الفضفاضة • وليس حجمها الضئيل بمفاس لأهميتها • بيد أننا حين نقرأ تاريخها فى كتاب العهد القديم ؛ حين نقرأ عن ملوكها وممالكهم ، لا نقرأ فى الحقيقة الا تفاويم محلية • وينبغى ألا يغيب عن البال أن التفاويم المحلية توسع بصورة أوتوماتيكية الرقعة التى تؤرخ لها • انها أشبه شئ بنظارات القراءة أو بالمجاهر التى تضخم الأشياء بصورة تخرجها كثيرا عن أبعادها الحقيقية •

والسبب فى تأكيد هذه المبالغة فى تضخيم رقعة فلسطين المتناهية فى الصغر ، على هذا النحو ، هو أن كثيرا من الأحاديث عن توطين أعداد كبيرة من المهاجرين فيها فد ألقى جزافا • بل ولقد اقترح توطين الملايين منهم فيها • وهو توطين لا يمكن تحقيقه الا اذا حولت البلاد الى شئ أسبه بواحد من تلك الصناديق التى يستنبت فيها المستنبت الحبير الأشتال المتلاصقة بقصد بيعها ، الا اذا كان يمكن زرع كل انسان فيها بالصورة نفسها التى يتهيأ له بها تربته بصورة اصطناعية •

وليست فلسطين ، مع ذلك ، رقعة متناهية فى الصغر فحسب بل انها لم تكن فى أى يوم من الأيام وحدة ادارية حقيقة • ودليلنا على ذلك



حدودها غير الثابتة . فحدها الشمالى هو حد اخترع فى عام ١٩٢١ نتيجة لمعاهدة انجليزية فرنسية ، تمثل فيها خطوط المواصلات الحديدية الاهتمام الأول . ولقد مكن هذا الحد الاصطناعى والذى يفصل منطقة الانتداب البريطانى عن منطقة الانتداب الفرنسى ، من اجراء حسابات لأول مرة لمساحة سطح فلسطين ؛ أو بالأحرى لمساحة سطح فلسطين التى أنشئت على هذا النحو .

ولم يستطع أحد ، فيما سبق من أزمان ، أن يقول لنا من أى نقطة من الشمال تبدأ وإلى أى مدى نحو الشرق تمتد . كما لم يكن مختلفو « الوطن القومى » وأبطاله أنفسهم يعلمون عن يقين حدود الأرض التى سيقام فيها . وهاك لسان ناطق باسمهم . انه نشرة كتيبية أسموها فلسطين وهى لسان حال معترف به لقضيتهم فى انجلترا . وكان المستر سايدتام ، الناشر المعروف ، مؤسسها ، وكان هو وأشياع الصهاينة الرئيسيين الآخرين من غير اليهود مغرمين بالاسهام بأفلامهم فيها . وحين نشأت مشكلة الحدود لأول مرة ، كانت فلسطين هذه واضحة تمام الوضوح بصدد فلسطين نلك ، فقالت : « ان فلسطين لم تكن وحدة سياسية قط الا لفترات قصيرة جدا ، ولا يكاد أى تعيين لحدودها الجغرافية يتفق مع التعيينات الأخرى فى التفاصيل . »

وجاء فى التقرير الرسمى للجنة شو الذى صدر فى عام ١٩٢٩ أن « فلسطين اذا نظر اليها على ضوء تاريخ القرون الستة الأخيرة ، على الأقل ، تصور مصطنع » .

وأوضح من هذا ، البيان الذى صدر عن المرجع الأساسى فى المملكة ، فى مسائل الحدود وجميع الخصائص الاقليمية الأخرى للدول ألا وهو وزارة الخارجية . لقد أعلنت الدائرة التاريخية من وزارة الخارجية فى كتيبها الذى أصدرته قبل الحرب ليهتدى به موظفو السلكين القنصلى والدبلوماسى أن « التعبير الحديث الدارج ، فلسطين ، ليس له معنى دقيق ، لكنه يؤخذ أحسن ما يؤخذ على أنه مرادف لسورية الجنوبية » .

وينبغى على القارئ أن يجعل من همه ألا تغيب هذه التصريحات عن باله . والسبب فى هذا هو أن الناس قد درجوا منذ أيام الحرب (العالمية الأولى) على اطلاق لفظة « سورية » على الجزء الشمالى وحده من البلاد ، حتى أصبحت لديهم عادة . أو بمعنى آخر تطلق لفظة « سورية » على منطقة الانتداب الفرنسى ابتداء من صور حتى الحدود التركية كما لو كانت فلسطين لا تدخل ضمنها .

وهذا مجرد خداع • وهو خداع سمح في هذه الحالة اخترع عند نهاية الحرب الأخيرة لتكريس نجزئة سورية الى قسمين ، ونفذ ظلما وعدوانا وفقا لمصالح الدولتين المنتدبتين المعنيتين في أيام معاهدة فرساي •

وقد كانت سورية ، قبل ذلك بزمن طويل ، ومنذ أقدم عصور التاريخ القديم ، ينظر اليها على أنها وحدة طبيعية واحدة وتشمل فلسطين • فقد كتب هيرودوتس قبل ميلاد المسيح بأربعة قرون فقال : « ٠٠٠٠ ويعرف هذا الجزء من سورية باسم فلسطين • » وقبل ألفي سنة « خرج يوسف من الجليل من مدينة الناصرة الى أرض يهوديا ، الى مدينة داود المسماة باسم بيت لحم ٠٠٠٠ ليعقد له على ماري زوجته التي كانت حاملا » تنفيذاً لقرار محلي « صدر عن كايدينيوس حاكم سورية • وهكذا تعرض لنا سورية ، خلال القرون التالية ، باعتبارها البلد الذي يشمل كل الساحل الذي يقع على الطرف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، والى أيامنا الحاضرة •

وما على الانسان الا أن يلقي نظرة على أى كتاب من كتب التاريخ أو الجغرافيا الحديثة الصادرة قبل الحرب ليرى أنها مدونة كذلك :

ان سورية (يقول مايكلجون منلا) شريط طويل من البلاد الجبلية العالية تمتد من شبه جزيرة سيناء الى خليج الاسكندرونة فى خط يكاد يكون مستقيما • وهناك مقاطعة صغيرة فى جنوبها تسمى فلسطين أو الديار المقدسة •

أما حدودها المحددة تمام التحديد فيقول جورج آدم سميث انها « البحر من ناحية الغرب والصحراء من الجنوب والشرق ، وجبال طوروس من الشمال ، وتعطيها هذه الحدود وحدة معينة وتفصلها عن بقية العالم • وإذا لم تكن قد أصبحت بلدا منفردا بعد ، فإن من الواضح أنها ننتظر أن تصبح كذلك • »

وإذا ما نظرنا الى الخريطة ، وأفضل أن تكون خريطة من خرائط ما قبل الحرب ؛ قبل أن يبدأ لف ودوران المعاهدات ، فسترى أنها أشبه بعنق تحت ذقن آسيا الصغرى النائي ، وأنها تسد الطرف الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، وأن قاعدة هذا العنق تبرز من حدود مصر الصحراوية على مبعده مائة وعشرين ميلا من قناة السويس •

وقد يظن أن الاسم « سورية » تحريف لكلمة « آشوريا » لكن العلماء يرفضون هذا الاشتقاق ، ويقولون أنها تنحدر من الكلمة البابلية الاقدم ،

من كلمة « سورى » وهى كلمة استخدمت قبل ثلاثة آلاف سنة من مجيء المسيح . وقد دخلت هذه الكلمة اللغات الحديثة من اللاتينية . ولم تكن توجد فى العربية أصلا ولما اتخذت طريقها إليها . وان ما يدعونا الى قول هذا الكلام سبب له أعمق الدلالة . ان سورية تسمى فى العربية القديمة « الشام » وهى تعنى « الشمال » (بكسر الشين) وأهمية هذا الاسم ودلالته يؤكدهما اطلاقه على المدينة الكبرى فى هذا البلد . ان دمشق ، كما نسميها نحن ، يطلق عليها من قبل سكانها اسم « الشام » . والناطقون باللسان العربى اليوم ، وبخاصة فى مصر ، يسمون سورية فى أغلب الأحيان بـ « بر الشام » أو « أرض الشمال » .

أما الكلمة المرادفة لكلمة (right) فى العربية فهى « اليمين » (أو Yemen كما نلفظها نحن) وهى الكلمة التى تستعملها للدلالة بها على الطرف الجنوبي الغربى من شبه الجزيرة العربية ، لكن العالم الغربى يستخدمها كذلك للدلالة على معنى أوسع ، مطلقين اياها على عموم شبه الجزيرة بوجه عام . وقد جرى عرف العرب على تسمية شبه الجزيرة العربية بميمنتهم وعلى تسمية صدر سوريا بميسرتهم مدللين بذلك منذ القدم على أن هاتين الأرضين هما جناحا الجسم العربى اللذان لاينفصلان .

وهكذا فأننا نجد فى الاسم العربى للبلاد فى حد ذاته - والأتراك يسمونها « عربستان » - دحضا متأصل الجذور للصفة التى يحاول بعض ساستنا لأغراضهم الخاصة أن يلصقوها بهذه البلاد . لكم يطيب لهم أن يظن الناس أن سورية نوع من الأرض المشاع ، مليئة بالألغاز والمعميات ، لا تكاد تحمل اسما ، وغير معلومة الحدود ، ولا تكاد تستحق الذكر ، وأدنى فى المرتبة من فلسطين . ان الجزء فى نظرهم ، ولا غرابة ، أكبر من الكل .

انهم حتى لم يتورعوا عن تبرير هذا الاتم فى حق الجغرافيا بانارة مسألة قداسة فلسطين ليفصلوا منها حججهم . فقالوا وبالمهارة نفسها فى خلط القيم الأخلاقية بالقيم السياسية والطبيعية ان فلسطين لم تكن « مجرد مقاطعة عربية » بل أكبر مكان فى العالم ينشر ظلاله على كل ما حوله من أماكن . انها قطعة براقة فريدة من فنون العناية حقا . فإذا كان لبيت لحم أن تكون مجرد مدينة فى « مجرد مقاطعة عربية » متواضعة فستكون بيت لحم منسجمة مع روح بيت لحم . ان قيمة فلسطين القدسية تسد الطريق على هذه القيمة السياسية التى يحاول هؤلاء السياسة أعينهم أن يلصقوها بها : « ان مملكتى ليست من هذا العالم » .

لا ، انها سورية ، وليست فلسطين ، تلك الوحدة الحقيقية التي نستحق الاعتبار . وسورية ، وفي صدرها فلسطين ، أرض من أراضي العرب ، يقطنها العرب منذ ثلاثة عشر قرنا ويتقاسمون العيش فيها في السراء والضراء . انها الشام ذلك الجناح الأيسر من كيانهم ؛ ذلك النصف بعينه من أنفسهم .

الا أن هذا ليس كل الحقيقة . ان هذه الحقبة الشاسعة من ثلاثة عشر قرنا ليست الا الحقبة الحديثة العهد من استيطانهم للبلاد منذ عهود لا يعيها التاريخ . وقد أمسكوا بناصيتها لهذا المدى الطويل كـ « عرب » . وهي بالضبط ثلاثة عشر قرنا منذ أحرز آباؤهم الأقدمون النصر المؤزر على ضفاف اليرموك على الامبراطورية البيزنطية التي كانت قد خلقت الرومان في السيطرة على هذه البلاد . لكن القادمين الجدد الذين تدفقوا على هذه البلاد آنذاك انصهروا مع سكانها الأقدمين لدرجة أن عرب اليوم في فلسطين لا يمثلون مجرد جنس فاتح ولكنهم سلائل تلك الشعوب التي عاشت فيها قبل الاسرائيليين . اننا نسميهم « عربا » ولكنك لا بد وأن تجد في خضم بحر جنسهم العظيم ، الذي يمتد من الاسكندرونة الى مكة وما بعدها ، كثيرا من الأعراق . وان جذورهم في هذه الأرض هي تلك الجذور التي نشأ منها التاريخ في حد ذاته .

وما من شك أنها مفاجأة كبيرة بالنسبة للقارئ المتوسط أن يعلم أن العرب أسبق من اليهود في سورية . وأن الجهل بهذه الحقيقة ، الجهل الشائع لدينا ، هو في الواقع سند تعتمد عليه منصة الدعاية الصهيونية السياسية .

بيد أن اسم البلاد في حد ذاته يجلو لنا صفتها غير اليهود . ف « Palestine » ؛ هذه الكلمة التي أخذناها عن الاغريقية واللاتينية ، هي صورة محرفة للكلمة العربية « فلسطين » التي تعنى « مؤمل فلسطين » . وفي كتاب العهد القديم يستخدمون هذه الكلمة بأشكال مختلفة في أماكن متفرقة منه : « لا تفرحى يا جميع فلسطينيا (Philistia) لأن الفضيب الضارب بك انكسر فانه من أصل الحية يخرج أفعوان وثمرته تكون ثعبانا ساما طيارا . . . ولول أيها الباب . اصرخى أيتها المدينة . قد ذاب جميعها يا فلسطينيا . (سفر اشعيا . الاصحاح الرابع عشر . الآيتان ٢٩ ، ٣١ ؛ ، يسمع الشعوب فيرتعدون . تأخذ الدعوة سكان فلسطين (Philistim) . حينئذ يندهش أمراء أدوم ، أقوياء مؤآب

تأخذهم الرجفة ، يذوب جميع سكان كنعان • (سفر الخروج • الاصحاح الخامس عشر • الآيتان ١٤ ، ١٥) •

وفى النص الذى سقناه من سفر الخروج تظهر كلمة « كنعان » • ويقول البروفيسور ت • ه • روبنسون الحجة المعتمدة فى هذا الخصوص ، فى كتابه تاريخ اسرائيل ان الاسم « كنعانى » يستخدم فى بعض الاحيان كلفظ له طابع الشمول يميز سكان فلسطين الذين سكنوها قبل الاسرائيليين ••• ويبدو أنه يشمل الفينيقيين • وهكذا فان الاسم الذى سبق الاسم « فلسطين » بكل أشكالها اللفظية ، أو الاسم الرئيسى بين أسمائها السابقة هو الاسم « كنعان » • وهذا الاسم أو الكلمة مازال حيا الى الآن كاسم العائلة لدى بعض العائلات من أهل البلاد الذين لم يتحولوا الى الاسلام • وانها لضربة نافذة من ضربات التاريخ التى تصيب وتعود الى يد صاحبها أو ما يسميه الفرنسيون بـ « انقلاب الأشياء » ، أن يكون أحد عظماء الأكفاء من العرب الذين نشهرون أقلامهم دفاعا عن حق شعبهم هو الدكتور ت • كنعان •

ويقول سفر التكوين ان « حدود كنعان تبدأ من صيدون حتى يصل الانسان القارّة ، بل والى غزة • » ويمتد السهل المشر الساحل فى الواقع من جنوبى صور وصيدا مارا بحيفا فالكرمل حتى يصل الى حدود مصر • وكانت فروع مختلفة من السكان الكنعانيين تقطن المناطق المرتفعة فى داخل البلاد • وكان من بين هذه الفروع فرع الجيبوزيين الذى كان يسكن القدس • ويقع مكان مدينتهم خارج أسوار المدينة الحالية •

ويعلن أستاذ كبير هو السير جيمس فريزر قائلا : « ان من رأى الفقهاء الأكفاء أهل الخبرة والمعرفة أن فلاحى فلسطين الناطقين بالعربية أخلاف للقبائل الوثنية التى كانت تعيش هناك قبل الغزو الاسرائيلى ، وظلت أقدامهم ثابتة فى التربة منذ ذلك التاريخ ، وتوالت عليهم موجات الفتوح المتعاقبة التى طغت على البلاد دون أن تحطمهم • »

ويقول السير رتشارد تمبل انهم « الأخلاف الأصلاء للكنعانيين الذين ورد ذكرهم فى التوراة ؛ أنهم أخلاف الجيبوزيين والعموريين • ولا بد أنه كانت لهم شخصيتهم الخاصة الأصيلة ، وكان لهم شكلهم النابت من أشكال المجتمع • وقد يكون نظامهم قد تهدم بفعل الغزو اليهودى ، لكنهم ، كما سيذكر قارئو تاريخ التوراة ، لم يخضعوا أبدا للنفوذ اليهودى ، بل أنهم على العكس من ذلك ، قد جعلوا القومية اليهودية فى كثير من الأحيان تحس بقوة أثرهم احساسا ينذر بالكارثة • وقد لا يكونون تحولوا الى

المسيحية بأعداد كبيرة في أيامها الأولى . انهم بالاختصار قد أقاموا على عبادتهم القديمة للأوثان حتى جاء محمد . ثم تحولوا الى الاسلام بحسد السيف قبل حوالى ألف ومائتى عام ، وظلوا على هذا الدين الى يومنا هذا . انهم يفلحون الأرض كفلاحين ملاك في الدرجة الأولى ، ويخضعون مباشرة للموظف الرسمي التركي المكلف بجباية ضريبة الأملاك (كتب هذا الكلام في عام ١٨٨٨) . ولهم حقوق واسعة في الرعي ، وفي المراعى التى يدفعون عليها ، جميعا ، ما هو مفروض عليهم من مال يدرك . ويطلق عليهم الاسم ذاته الذى يطلق على اخوانهم من الارعانا في مصر . « فلاحون » . وهم يفلحون حقولهم ويدفعون الضرائب للأتراك صابرين ، كما كانوا يفعلون مع المماليك ، ومع العرب ، ومع الرومان ، ومع الفرس ، ومع الآشوريين تماما - وربما فعلوا ذلك مع اليهود أيضا . ولا بد انهم بعد الفتح اليهودى قد أصبحوا يفلحون أراضيهم تحت اليهودى كملاك . وربما كانوا يقومون بأعمال الحقل حتى لو اشتغل اليهود فى الكرم والبستان .

والكنعانيون والجيبوزيون والعموريون ، الذين يتحدث السير رنشارد عنهم ، ثلاثة أجناس من سبعة محلية سكنت البلاد قبل مجيء اليهود « طبقا للأحاديث المتناقلة التى يرجع تاريخها الى النصف الأخير ، من القرن السابع على الأقل ، قبل الميلاد » (عن روبنسون) بيد أن الكنعانية صفة تشملهم جميعا أكثر مما عداها . وكان العموريون والحيشيون أهم الأجناس الأخرى ، وبخاصة العموريين الذين كانوا يشغلون الأراضي الواقعة الى الجنوب من مرج ابن عامر . أما الحيشيون فكانوا يسكنون الى الشمال منهم ، ويرى البروفسور روبنسون أن العموريين قد جاءوا الى البلاد من شبه الجزيرة العربية فى زمن لا يقل ن بداية الألف سنة الثالثة التى سبقت ميلاد المسيح . « لقد انصهروا انصهارا تاما مع من سبقوهم لدرجة أن هويتهم الخاصة قد ضاعت في معظم المناطق » . وقد كانوا يمثلون الطراز السامى الحقيقى وأورثوا ملامحهم الى أخلافهم العرب .

فياله من حق من حقوق الملكية هذا الذى نجسد اليوم سعيًا وراء تحطيمه ! حق احتفظ به بطريق بسيط صدوق دئوب منذ خرج الانسان من غياهب المجهول ، وربما كان أبسط وأوضح حق من حقوق الملكية فى العالم . أما الاسرائيليون ، الذين ندنس أنفسنا بهذه العملية القذرة من أجل خاطر جزء من خمسة وثلاثين جزءا من أخلافهم ، فقد دخلوا هذه البلاد على شعوبها المتأصلة فيها فى تاريخ لا يمكن تحديده بالضبط . « ان الميل العام للتواريخ التى بين أيدينا يميل الى صالح اعطاء الفتح

(اليهودى - العرب) تاريخا فى القرن الرابع عشر (قبل الميلاد) ، بيد
أن مجال التخمين هنا ضيق • « (عن روبنسون) •

فالاسرائيليون ، على هذا الأساس ، قد دخلوا البلاد بعد ألف
وخمسماية عام من مجيء العموريين اليها ، أو نحو ذلك • وكانت المدن
الفلسطينية فى السهل الساحلى قد قامت فى ذلك الحين قبل قرن أو قرن
ونصف • وقد دخل الاسرائيليون تلك البلاد مسالين ، وبأعداد صغيرة ،
ثم حملوا السلاح ، وبدأت الغارات المدونة فى كتاب العهد القديم •

وهذه مسائل موهلة فى القدم بيد أن من الضرورى أن تعالج على
نطاق ما ، قبل أن نتحول الى الأحداث الحاضرة • والسبب فى هذا هو أن
صهاينة اليوم قد أدخلوا فلسطين بحجة امتلاك أسلافهم لها • وإن من
المناسب أن نختبر ونمحس هذا الادعاء ، فى جزء منه على الأقل ، فى الوقت
الذى سنتحدث لنا فيه أول الاحصائيات عن هذه البلاد •

إن الجزء المتعلق بهذه المسألة من صك الانتداب على فلسطين يعلن
أنه ، من خلال تأسيس هذا الانتداب فى حد ذاته ، ومن خلال الصفة
الخاصة التى يحملها :

**قد جرى ثمة الاعتراف بالرابطة التاريخية التى تربط الشعب
اليهودى بفلسطين ، وبالأسس الموضوعية لاعادة بناء وطنهم
القومى فى ذلك البلد •**

« الرابطة التاريخية » ••• أى ذلك الشيء الذى يستخدم لتبرير
اقامة الوطن القومى ولتبرير كل ما نتج عنها حتى الآن • وهناك نقطتان
يمكن أن تناقش منهما هذه الرابطة :

١ - لماذا يكون للرابطة التاريخية الغابرة أن تمنح لأحد من اليهود
أى حق فى بلاد بعد زوال السلطة اليهودية منها بشمانية عشر قرنا
ونصف قرن ؟ •

٢ - إذا كان للرابطة التاريخية الغابرة أن ينظر اليها على أنها
تمنح حقوقا ، فماذا كان نوع هذه الرابطة التاريخية بالأرض التى سيقام
فيها هذا الوطن القومى ؟

إن النقطة الثانية تشمل النقطة الأولى حقا ، لأن أية قيمة قد تكون
لهذا الزعم القائل بأن فلسطين ارث شرعى لليهود لابد أنها ستتأثر بدرجة
كبيرة بصفة احتلالهم لها حين كانوا فيها • بيد أنه لا شيء يناقض هذا

الاطلاق لليد الذي منح للصهاينة في البلاد المقدسة كهذا الاستخفاف النام بهذه النقطة من قبل أولئك الذين كانوا مسئولين عن اعطائهم هذه الاطلاق لليد . لقد ترك كل شيء له علاقة بـ « الوطن القومي » في أقصى حالات الغموض والتعمية من قبل أولئك الساسة الذين هندسوا عملية انشائه ، عامدين متعمدين .

ان كلمة واحدة لم يتفوهوا بها ليكشفوا أى مرحلة ، من مراحل الماضى اليهودى المتباين جدا في فلسطين ، تلك التى سيجدد الصهاينة بناءها . وأغلب الظن بالطبع هو أن « دول الحلفاء الكبرى » : التى خرجت زمرتها المتعقدة حول مائدة مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ بفكرة انشاء « الوطن القومي » كالتزام من التزامات الانتداب ، لم تكن تعلم شيئا عن هذه المراحل ولا تأبه بشيء يتعلق بها . ولست أميل الى الاعتقاد بأن دول الحلفاء الكبرى ، فيما يتعلق بوجودها لحما ودما في سان ريمو ، لها علم بالأسفار المقدسة أن قرأت أى شيء منها ، اللهم الا ذلك القطاع الهام من هذه الدول الكبرى الخليفة الذى جاء من كريسيث في شمال ويلز . لقد حرصت هذه الزمرة السياسية بلسان المتحدث باسمها فقالت : « لقد تربيت في مدرسة تعلمت فيها عن تاريخ اليهود أكثر بكثير مما تعلمته عن تاريخ بلادى أنا . وفي وسعى أن أخبركم بجميع ملوك اسرائيل ولكنى أشك في قدرتي على أن أسمى لكم ستة من ملوك انجلترا ٠٠٠ لقد تشبعنا كل التشبع بتاريخ الجنس العبرى في أيام أعظم أمجاده . »

ويبدو أن المستر لويد جورج قد تشبع بالكثير جدا من هذا المجد الأعظم بحيث لم يترك له تشبعه هذا ، أو لزملائه ، فرصة يتسرب فيها أى تحديد جغرافى لهذا « الوطن القومي » الى أذهانهم . ومع ذلك فيخيل الى أنه كانت هناك حاجة واضحة كل الوضوح الى مثل هذا التحديد ، لأن ممتلكات اليهود ، فى الفترة الواقعة بين أيام يوشع وبين أيام النصر الرومانى النهائى بقيادة طيطس ، قد تمددت ثم انكمشت ، شأن الكونسرتينا فى حفلة موسيقية . وقد خرجت من قبضة اليهود تماما ردحا كبيرا من الزمن . وهكذا كان لابد وأن تبدو الخطوة الأولى الضرورية اللازمة ، لكى نعيد انشاء هذه الممتلكات ، أن تكتشفها وتعين حدودها .

ومع ذلك فقد تقرر ، فى سان ريمو ، أو على طريقة الدول المتحالفة الكبرى ، على الأرجح ، شيء غير هذا ٠٠٠ لقد تقرر ألا يعار هذا الأمر

✽ يقصد المؤلف مستط رأس المستر لديد جورج (المرب)

التفاتا ؛ عن عمد وسبق الاصرار . لقد ترك للصهاينة أن يعيدوا البناء
أينما حلا لهم الى الغرب من نهر الأردن . وهذا برهان ساطع على أصالة
الصفقة .

بيد أن هذا يجعل من الضروري ، بالنسبة لأى انسان يحاول ان
يدرس هذه المسألة بصورة جدية ، أن يعبر بعض الاهتمام الى اتساع وفترة
بقاء الامتلاك اليهودى الاقليمى فى فلسطين . ولأن يقول الانسان انه كان
امتلاكا سريع الزوال فقد يعد هذا القول تحديا لكل الاعراف . لكن هذا
هو الواقع . لقد كان هذا الامتلاك قصير العمر ضيق الرقعة . ان شيئا
كامتلاك اليهود لما نسميه بفلسطين لم يكن له وجود الا فى عهدى داود
وسليمان . وبعد ألف وثمانمائة عام من ذلك أعاد المكابيون بناء الدولة
اليهودية التى اندثرت مع سليمان . لكنها انما عمرت لفترة وجيزة من
الزمن ، ربما تكون قد بلغت فيها أبعادها التى كانت عليها فى عهدى
داود وسليمان .

وفبل داود ، كان بوطن الانتى عشرة قبيلة ، الذى تم على يدي
يوسع ، بوطن مجازيا بحثا . « لقد عين يوشع رقعة لقبائل لم نستطع أن
تملاها . » (عن بيلوك من كتابه أرض المعركة) أما الأبحاث التى أجريت
على التوراه فهى تنكر حكم القبائل وسيادتها . فيقول البروفسور
روبنسون : « توجد فى الاصحاح الخامس من سفر القضاة محذورات لها
دلالته . فمن بين القبائل الأربعة الكبرى التى تنتسب الى ليثى ذكرت
قبيلة ريوبين فقط . وان الدلائل المتوفرة لديننا لتذهب الى القول بأن
هبيلى شمعون وليفى قد اختفيا فى زمن أسبق . » ويقول كذلك : « تقول
لنا الآية التاسعة عشرة من الاصحاح الأول من سفر القضاة (وكان الرب
مع يهودا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادى لأن لهم مركبات حديد)
أن الأراضى الواطئة لم تؤخذ . » أما قبيلة يهودا فلم تدرج ضمن القبائل
المنتصرة المذكورة فى نشيد ديבורاه فى آخر الاصحاح الخامس من سفر
القضاة . « وليس لنا الا أن نفترض أنها لم تكن قد اعترفت بها اعترافا
كاملا على أنها قبيلة اسرائيلية . » « بل وان التاريخ الباكر بقبيلته يهودا
لهو أكثر غموضا من تاريخ معظم القبائل الأخرى ، ولا مفر لنا من الانتظار
الى أن تجيء أيام داود ، قبل أن يتوفر لدينا أى دليل لا تخطئ فيه العين،
على وجودها وعلى وعيها لذاتها . »

أما القبائل التى ذكرت على أنها تسكن فى الشاطئ فقد كانت فى
حال من التبعية وليس هناك أى دليل يشير الى أنها كانت تقطن هناك بأية

أعداد كبيرة . وكانت المدن الساحلية تبسط سلطاتها على سهل مرج ابن عامر . « وكانت الرصاية في بعض الأحيان فعالة وصارمة لدرجة أنه كان ينكر على إسرائيل حق استخدام الطرق الرئيسية كدية ، فكان يتحتم على رجال القبائل أن يتسللوا عن طريق الطرق الفرعية التي لا تطرق كثيرا ، والممرات والمسارب الملتوية ، من مكان إلى آخر إذا أرادوا أن يجتازوا الأراضي المحرمة . » (عن روبنسون) .

وحين أقام شاول مملكته لم يستول أبدا على سهل مرج ابن عامر ، وكان في الواقع غير متمكن من سيطرته على تلاله لدرجة أنه كانت للفلسطينيين قلعة تشرف على وادي الأردن . وليس هناك دليل على أن داود نفسه قد استولى على سهل مرج ابن عامر . . . ليس هناك من دليل مباشر . وأقرب الدلائل هو الدليل الذي تزودنا به الحفريات الحديثة التي اكتشفت آثارا تدل على أن مكان بيتشين (أو بيت شين) القوي قد دمر بالحريق قرابة عام ١٠٠٠ ق.م . ومع ذلك فإن من الواضح استنتاجا أنه لابد وأن كان هذا السهل مفتوحا لداود ، لأنه كان يشكل ملتقى الطرق إلى ممتلكاته الواقعة حوله . وقد يكون سيطر عليه بنوع من الحكم المشترك مع المدن الفلسطينية . لقد توصل في أوج حكمه ، وبعد قتال مع الفلسطينيين إلى أن تقوم بينه وبينهم علاقات طيبة لدرجة أن قواته الشخصية أو حرسه الخاص كان يختار فيما يشبه الضيق الأجنبي من هؤلاء الجند للعرب . « كانت لداود على الأقل نواة لجيش دائم ، بالإضافة إلى جيشه القومي الذي يجند بالمرعه . » وأن مما يدعو إلى الاهتمام أن نلاحظ أن القوة الأساسية لهذا الجيش الدائم كانت تستمد من مصادر أجنبية ، لأن الشريطين والبليطين كانوا فلسطينيين على وجه اليقين ، ولم يكونوا يشكلون عماد قوة داود الشخصية فحسب بل أن وجودهم في صفوف جيش داود قد ذهب إلى مدى تنصيبه على العرش . لقد كانوا بالنسبة لداود كما كان الحرس البريتوري بالنسبة للإباطرة الرومان . » (عن روبنسون) .

ولما كان داود يشكل مرتكزا وأساس المذاهب الصهيونية ؛ لما كان ينظر إليه ، كما هو الحال ، كجند للصهيونية المعاصرة ، فيجب أن تعطى للعرب الرابطة نفسها بين الأمس والبعيد وبين اليوم . لقد حكم هذا المرتكز للمذاهب الصهيونية بمعاوضة الفرسان العرب . ولقد أسهم العرب بالنصيب الأكبر في إعطاء العرش لسليمان .

وان أثر هذه الاعتبارات لا يحتاج الى تأكيد . ولكن اذا سلمنا جدلا ، وبدون الاسترسال فيها ، بأن داود قد نجح في بسط سلطانه على مرج ابن عامر ، وأن ابنه خلفه عليه ، فلاى فترة قصيرة من الزمن يختصر هذا فترة الاستملاك الاسرائيلى لفلسطين . لقد حكم داود نحواً من أربعين عاماً من تاريخ يقع حوالى عام ١٠١٦ قبل الميلاد . وخلفه سليمان وحكم مايمثل هذه المدة . وبعد هذين انهار كل شيء . ولا بد وأنه افتضى داود أن يصرف جزءاً لا بأس به من النصف الأول من فترة حكمه لكى يبلغ أوج سلطانه . أما سليمان فقد أخذ يبيع قبل نهاية حكمه أجزاء من ممتلكاته أو يفقدها . فدعنا نسقط عشر سنوات من هذه الفترة ، وهذا هو أقل ما يمكن لنا أن نسقطه عقلاً من مجموع فترتى حكم سليمان وداود . وعندئذ يتبقى سبعون عاماً .

ولم يحدث الا فى بحر هذه السبعين سنة العجاف أن سيطر على شيء يقرب من ثلثى البلاد . ويكتنف هذا القول الكثير من الشك ، اذ يقول وايد فى كتابه تاريخ العهد القديم : (أغلب الظن هو أن امبراطورية داود لم تلامس البحر الا فى مكان قريب من يوبا (يافا الحالية) . وقد تركت مدينتا صور وصيدا الفنيقيتان الواقعتان الى الشمال من هذه المدينة دون أن يتحرش بهما أحد ، فى حين احتفظ الفلسطينيون فى الجنوب الشرقى من هذه البلاد باستقلالهم بالرغم من أنهم كانوا مضطربين . »

ويبلور دين ستانلى هذا الوضع حين يقول : « ان فلسطين تعكس الآية المألوفة؛ هذه الآية التى يلجأ فيها أهل البلاد الى التلال حين يغلبون . » لقد قهر اليهود التلال لكنهم أخفقوا فى الاستيلاء على السهول . »

لقد كان لهذه الامبراطورية ، التى عمرت سبعين عاماً ، أساس اقليمى ضيق أو كانت لها وحدة اقليمية صغيرة ، اذن . وكان داود فى نطاق حدوده الضيقة - هذه الحدود التى يعينها المستر بيلوك للدولة اليهودية فى أوج خيالاتها بقوله : « مائة وعشرين ميلاً فى أطول أطوالها وستين ميلاً فى أعرض عرضها ، وأقل من ذلك بكثير فى أغلب الاحيان - كان شيء أشبه بالملك النمساوى المجرى الذى يتربع على عرش امبراطورية النمسا والمجر فى حين تحارب النمسا والمجر احدهما الأخرى . »

وحتى داود قد أنقلد عرشه ، على ما يبدو ، فى مناسبتين حرجيتين بأن لعب باحدهما (الشمالية أو اسرائيل والجنوبية أو يهودا) ضد الأخرى . وان مما هو جدير بالملاحظة أنه تلقى ، حين ثارت عليه يهودا ، تأييد القبائل الأخرى ، والعكس بالعكس .

وان من الواضح أن الوحدة المثالية كانت أبعد ما تكون عن التحقق في حياته ، وأن سياسة سليمان ، التي كانت بعيدة جدا عن توحيد ودمج عرا الفريقين بإحكام ، كانت تميل على الأرجح الى تأكيد الفارق بينهما والى توسيع الهوة الأصلية التي تفصلهما . ولا يكاد يكون مذهلا ، والحالة هذه ، أن يتخذ الجنوب ، حين ضاق الشمال ذرعا بعبء بيت داود ، موقفا معاكسا لأقام على ولائه لريجوبوعام .

ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، وبالرغم من وجود احساس معين بالوحدة ضد بقية العالم ، لم يتبلور هذا الاحساس فيجد له تعبيرا في تنظيم سياسي واحد . لقد كانت هناك فترات في تاريخ هذه المملكة المنقسمة تلافي فيها هذان الجزءان على العمل معا وبانسجام ؛ ولو أن الشمال كان الشريك السيد ، وفي وسعنا أن نشك في أن تعاون الجنوب لم يكن عن طوعية كلية . ولا يبدو أنه قد وجدت نقطة في تاريخ مملكة اسرائيل ، منذ قيامها حتى اندثارها ، وضم أراضي مملكة السامرة كمقاطعة ضمن الامبراطورية الآشورية ، دخلت فيها احتمال قيام اتحاد رسمي من جديد في أذهان الناس . (لقد كان هناك احساس بالقرابة ؛ احساس بوحدة الذات ، لكن) الأساس الاساسي لهذا الاحساس بوحدة الذات لا يكمن في الانحدار من أصل مشترك بقدر ما يكمن في الدين المشترك . لقد كان اليهودى يقف بمعزل دائما عن الافرائيمي .

ويتابع البروفيسور روبنسون قوله ، وهو يستعرض فترة حكم داود :

ان داود قد جمع ، كما هو الحال ، المواد اللازمة لإنشاء مملكة سامية ؛ قد تكون توسعت الى امبراطورية ، ووضع هذه المواد في مكانها الصحيح . لكنها كانت تفتقر حتما الى ذلك التلاحم بين السكان الذي يستطيع الزمن وحده أن يوجده . وكانت تحتاج ، لكي تصمد للظروف ، الى سلسلة من حلقات متتابعة من الحكام الذين يحملون بين جوانبهم روحه ويواصلون السير على هديه . لكن الملكين اللذين خلفاه مباشرة كانا مصبوبين في قالب آخر . وكان من نتيجة ذلك أن سقط الجزء الواقع على تخوم هذه المملكة أولا ثم تهاوى البناء كله عند أول لمسة من اختبار حقيقي

لقد وخزت الفقاعة فترك بيت داود وليس في يده الا رقعة ضئيلة
وجديبة في حد ذاتها ، يقاسى من استئراء البغى والحروب •

أما الى أى مدى انكمنست رقعة هذه المملكة فهذا ما يجلوها لنا مؤرخ
آخر هو الدكتور فوكس (Foakes) جاكسون ، من جامعة كامبريدج ،
فى كتابه يوسف واليهود ، فهو يقول فى معرض التعليق على صمت
هيرودوتس الذى هو « أكسر المتعبين فى جنبات الكرة منابرة وفضولا » ،
فيما يتعلق باليهود :

ما يزال صمت هيرودوتس مشكلة بالنسبة للبعض لكن تفسيره
بسيط غاية البساطة • لقد كانت مملكة يهودا مقاطعة غاية فى
الصغر وكان سكانها من التفاهة فى العدد لدرجة أن أذكى وأبصر
السواح فى القرن الخامس قبل الميلاد (القرن الذى عاش فيه
هيرودوتس) كان يزور ما كانت تسمى بفلسطين سورية أو
سورية الفلسطينيين وقد لا يسمع عن اليهود شيئا أبدا • ولابد
أن القدس كانت فى أيام نحميا «معاصر من معاصر هيرودوتس»
مدينة خاملة الذكر جدا بحيث لا يغرى سكان المدن المجاورة لها
بسكنائها الا بشق الأنفس • وإن مكانا واحدا من الأماكن التى
ذكرت فى كتابه على أنها أماكن يهودية لم يكن يبعد عن هذه
المدينة بما هو أكثر من عشرة أميال • وإن تلك الأيام ، كما يقول
التبى ، هى « أيام الأشياء الصغيرة • » والأجدر بالملاحظة من
تفاهة اليهود فى فلسطين فى زمن نحميا (٤٤٥ - ٤٣٣ ق م)
هو أن رفعتهم قد ظلت ضيقة ، كما لا يبدو أنهم تكاثروا فى البلاد
لما يقرب من ثلاثة فرون • لقد زاد الهيكل من رونق المدنية وبهاؤها
وربما زاد من سكان المدينة أيضا ، لكن اليهود لم يصبحوا قوة فى
البلاد الا حوالى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد (فترة حكم
المكابيين) • وما من شك أنهم كانوا عديدين فى بابل وفى مصر •
أما فى فلسطين فقد كانوا قلة نافهة •

ويقول المستر بيللوك فى كتابه ميدان المعركة عن مساحة رقعة
اليهود النافهة : « ان أحسن طريقة يمكن الانسان أن يدرك بها الى أى
مدى كانت صغيرة هى على هذا النحو : اذا خرج الرجل مع طلوع الشمس
من القدس متجها شرقا أو شمالا أو غربا ففى وسعه أن يبلغ أطرافها فى
فترة وجيزة من الصباح • انه لا يقطع اثنى عشر ميلا فى أى من هذه
الاتجاهات الا ويكون قد خرج من حدود تلك المقاطعة ، أو التى يدعى

رئيس العشيرة ، أو ذلك الرجل التساهه الشأن الذى يلقبونه « بملك القدس » ، بأنها مملكته ٠٠٠ انها رقعة صغيرة من منديل مهلهل . »

وان من السهل جدا تأكيد هذه النقطه بايراد نصوص اخرى من مصادر أخرى ، فديمه وحديثة . بيد أن هذه الحقيقه بينه بما فيه الكفايه . ان املاك اليهود لفلسطين ، بكل معنى حقيقى من معانى كلمه الامتلاك ، لم يكن فى يوم من الأيام كاملا ، وانه انما ظل فى رفعة داخل حدودها طوال مدة السبعين عاما . ولقد عمر بما لا يزيد عن عمر الرجل . وكان هذا قبل ثلاثة آلاف عام . أما فى عهد المكابيين فكان هذا أقصر عمرا ٠٠٠ كان لما يقرب من خمسين عاما على أكثر تقدير ، فيما بين عهد سمعون وعهد الكسندر جنايوس . بيد أن الواقع هو أن المكابيين قد حكموا كقسس عظام . وقد تأكدت الصفة الأساسية لليهودية فى ظلهم ؛ بما فعله الفريد ، على أنها دينية وليست دنيوية . ولقد طالب الفريد من جون هايدكانوس المكابى أن يخلع نياپ الكهانة ؛ وهى الصفة الحقيقية لرئيس اليهود ، لانغماسه الشديد فى الفتح الديوى للأراضى والمدن ، الأمر الذى لا يليق به .

واذا ماتحولنا ، ونحن نحمل هذا فى أفهامنا ، لمقارنة الوضع التاريخى للعرب فى فلسطين بالوضع التاريخى لليهود فيها ، فيا لبعد الشريا عن الشرى ! لقد بدأ امتلاك العرب لفلسطين قبل خمسة آلاف عام ولم ينقطع عنها فى يوم من الأيام حتى يومنا هذا . انه أقدم امتلاك على ظهر الأرض ، وأشدّها قوة وامعانا . انه امتلاك كان له نصيبه من الفتح وله رسوخه الطويل فى التربة فى حين أن الدولة اليهودية قد قامت وتألّفت وطننت بمقدار عمر برغمّة ثم تلاشت . وان تلك الأجيال التى لا تحصى من الفلاحين الذين رسخت أقدامهم فى ترابها لهى التى تجعل امتلاك العرب لها يعلمو على كل امتلاك عداه ٠٠٠ لقد أعطاهم كر العرون أسماء مختلفة لأن الاعراق كانت تذوب فيهم ، الواحد بعد الآخر . بيد أن الحصييلة العاملة من كل هذه الأعراق العمورية ، والكنعانية ، والفلسطينية ، والعربية ، ومنها مجتمعة ، هى التى ملكت هذه التربة وتشبّثت بها ، وباسم هذا الارث الموروث يطالب ممتلوها اليوم ؛ ألا وهم العرب ، بفلسطين .

ويجب ألا يظن أحد أن أسلاف عرب فلسطين كانوا يمثلون البربرية بكل مظاهرها لأنهم كانوا فلاحين ولأنهم أقاموا على الوثنية أمدا طويلا ، على النقيض من حضارة الاسرائيلين . لقد كان الفينيقيون أولئك التجار

الذين جابوا آفاق العالم القديم وبلغوا شواطئ بريطانيا ذاتها . لقد كان الفلسطينيون « يملكون ثقافة متقدمة وعريقة » (عن روبنسون) . ويضيف قائلا : « انها سخرية عجيبة من سخریات القدر أن كتب على لفظة « فلسطينى » أن تكون مرادفة لكلمة « بربرى » . وقد نشأ هذا الاستخدام اللفظى لأن تاريخ أيامهم وصل إلينا عن طريق الاسرائيليين الذين لم يكن فى ضميرهم انصاف لأعدائهم » . ويقول دين ستانلى : « اذا كانت تأريخات غير اليهود عن قسوة عبادة الأصنام عند هذا الجنس غير معقولة (كان يتحدث عن الكنعانيين) فإن الصور الاسرائيلية لهذه التأريخات لا تعبر وزنا فى الغالب الى نبالة ذلك المظهر الذى خلعه هذا الشعب العظيم على العالم الغربى » .

« وما كتاب العهد القديم الا وثيقة تشيع الضياء فى حياة هذه البلاد » (بيلوك)

أو مرة أخرى من لسان ستانلى : « وما جنس الكنعانيين ، الملعون حسب ما جاء فى أسفار أشعيا والقضاة ، الا ذلك الجنس عينه الذى كنا نتطلع اليه عبر القرون من بلاد اليونان باعتباره أبا الكتابة والتجارة والحضارة » .

ويكفيينا هذا القدر عن « الرابطة التاريخية » . ان بعث الحياة من جديد فيما كان لليهود ، لكى نعرضهم على عرب فلسطين ، أمر لا يحتوى على ذرة واحدة من عقل . وأما أن يكون امتلاك سريع الزوال ، مقطوع الأوصال ، كامتلاك الاسرائيليين لبعض فلسطين ، ملزما لنا بأن نعطيهم حقا مشروعا فى أن يزيحوا العرب من ديارهم ، بعد ثمانية عشر قرنا مرت على اختفاء آخر ظل لشعلة السلطة الذاتية ؛ ولو بأية درجات من الدرجات ، فما ذاك الا تصور مغرق فى الوهم ولا يمكن أن يحمل على محمل الجد . ومع ذلك ، فاذا كان للروابط التاريخية الناشئة عن عهود طال الأمد على زوالها أن تستخدم اليوم كميثاق فدعواها اذن ، وعلى الأقل ، تكون روابط تاريخية واذا كان للمطالب التعسفية المستمدة من ماضى سحق مظلّم أن تمنح حقا من حقوق الملكية فى فلسطين ، فإن العرب وحدهم هم الذين يملكون حقا أعرق من هذه المطالب وأوسعها طرا . وان أحقيتهم فى هذه الحقوق الغربية فى الملكية لهى أمر لا نفّاش فيه كحقهم فى الحقوق الحقيقية للملكية التى تنبع من سكناتهم فى هذه البلاد طوال الثلاثة عشر قرنا الحالية .

والآن ، وكلحق نقول ان اليهود في موثلهم الضئيل في زاوية من زوايا فلسطين كانوا منحصرين في منعزلات تلالها باستثناء تلك السنوات العابرة التي سبق ذكرها • وها هو جوزيفوس مؤرخ اليهود ذاته الذي وصف سقوط القدس يوضح هذه الحقيقة فيعلن قائلا :

أما بالنسبة لنا نحن ، فلسنا لهذا السبب نقطن في بلد يقع على ساحل ، ولا نبتهج بالتجارة ولا بذلك الاختلاط بالناس الآخرين الذي ينشأ عنها • لكن المدن التي نساكنها بعيدة عن البحر • ولما كنا نملك بلادا كثيرة الثمر لسكاننا فلا يشغلنا شيء الا فلاحتها •

فما الذي يترتب على هذا ؟ ان الافتراض الوحيد حين يتم انشاء « الوطن القومي » في ظل الحماية البريطانية - ونحن نضرب هنا صفحا عن مسألة شرعية هذا « الوطن القومي » - هو أن المستعمرات الصهيونية الجديدة لابد أن تبنى في الأوكار المعهودة في الداخل اليهودي • وصحيح أن عددا معينا قد أنشئ فعلا هكذا لكن السلطات اليهودية قد فضلت منذ البداية أن تنشئ الأرض في السهول • وان المساحة التي يملكونها اليوم في السهول تفوق المساحة التي يملكونها في التلال بدرجة لا مجال معها للمقارنة • واذا ما أخذنا بأرقام تقرير لجنة بيل (Peel) فان مجموع الممتلكات الصهيونية في فلسطين هو ١٣٠٠٠٠٠ دونما أو ٣٣٣٠٠٠ فداناً ، ويملكون منها في التلال ٨٠٠٠٠ فداناً • « انها ليست التلال ، بل السهول ؛ السهل الساحلي وسهل مرج ابن عامر ، التي هي مركز العمران اليهودي • » هكذا يقول ليونارد شتاين في سياق مجادلة تدور حول أن الصهاينة ليسوا مسئولين عن كون العرب متجمعين في الأماكن المرتفعة •

وهذا يعني أن الصهاينة قد فضلوا أن يشتروا الأراضي حيث تكون منبسطة أو ملائمة للنقل أو صالحة للاستغلال أو غنية ، على أن يشتروها حيث يكون صهيون •

ان ضغطا لم يمارس عليهم ليشتروا تلك المواقع المعينة التي اختاروها • والواقع هو أن جميع منتحلي الأعذار للصهاينة قد جانبوا الصواب في زعمهم بأن العرب لم يكفوا عن إثارة المتاعب حول بيع الأرض لليهود في أي مكان من البلاد ، الا منذ وقت قريب • وهم لا يسأمون أبدا من تكرار القول بأن هذه المتاعب القريبة العهد ليست الا نتيجة

للالثارة المصطنعة ضد السامية التي ينظمها الزعماء السياسيون في
المسند .

حسن . هذه حجة نوليها العناية وبأني عليها حين يحين دور مسألة
العلاقات بين الزعماء العرب وبين السكان لكي توضع قيد البحث . ولكن
إذا كان في وسع الصهاينة أن يستخدموها في هذا الصدد ، فإنها بكل
تأكيد وبالمثل حجة ليست في صالحهم هنا ؛ حجة ينبغي عليهم أن يسلموا
بها ما داموا هم الذين قدموها . لقد استروا إذن في السهل بالدرجة
الأولى ، حين كان لهم مطلق الحرية في أن يستروا حيث يشاءون لقد
اشتروا وواصلوا الشراء . وليس هناك أدنى شك في أن دوافع القادة
الصهاينة في جعل هذه الأراضي المنبسطة موئلا لهم كانت دوافع عملية إلى
أبعد الحدود . إذ هنا توجد المواقع المواتية لعملية تحويل فلسطين إلى
بلد صناعي ، تلك العملية التي يخططون لها .

أما فيما يتعلق بالزراعة ، فقد كانوا حازمين أمرهم على وجوب أن
تمتلك مستعمراتهم أجود ما يمكن الحصول عليه من أراض . لقد عينوا
أماكن مزارعهم ، وبياراتهم ، ومحطاتهم التجريبية ، وملابنهم حيث يترأى
لهم أنها ستعود عليهم بالربح الأوفر ، لكي يكون في وسعهم أن يستعملوا
ذائبا . انهم لا يريدون لمستعمراتهم والمستعمرينهم أن يكونوا عالة على
احسان اليهود في أجزاء العالم الأخرى ذلك الاحسان الذي كان
العماد غير الاقتصادي للسكان اليهود وللمستعمرات اليهودية في فترة
ما قبل الحرب .

لقد أخذوا في الاعتبار المستقبل الزراعي للمنطقة فتوصلوا إلى
الاستنتاج بأن أجمل الآمال في تلك البلاد تكمن في زراعة الحمضيات ؛
وهي تعبير عام يشمل زراعة البرتقال وعائلته . وربما لم يكن صعبا
التوصل إلى هذا الاستنتاج لأن زراع الفاكهة العرب كانوا قد ملئوا السوق
العالمى منذ زمن بعيد بشهرة برتقال يافا ، فقرّر الصهاينة أن يسيروا على
آثارهم وأن يتخصصوا في زراعة بساتين البرتقال والمزارع ذات الطبيعة
المشابهة . كما اهتموا كذلك ، وكما هو معروف ، بأعمال التحريش
وتجفيف المستنقعات . وهذه أعمال ذات قيمة فائقة الأهمية في بلاد أهلها
الأثراك .

ولقد كانت سياستهم الزراعية ، بالاختصار ، حسنة ومعقولة ، مع
تحفظ واحد ، وهو أنهم قد يقعون ، لأسباب تجارية ، في خطر الاغراق

فى انتاج الثمار الحمضية • ولولا سبب واحد لما كان لى أن أقول شيئاً
بصددها الا أن أحبدها • وهذا السبب مهم كل الأهمية ، على أى حال •

ان الصهاينة لم يجيئوا الى فلسطين ليمارسوا التعمير • ولم يجمعهم
الاننداب فى هذا البلد بسبب علاقتهم التاريخية بالبرتقال • انهم يارسون
الصهيونية • ولقد حصلوا على ترخيص بدخول البلاد - بحاله الذى نعرفه
ومن أولئك الذين أعطوهم اياه - ووصعوا هناك فى مركز من الامتياز
لا ترقى اليه أحلام المستعمرين فى أى جزء آخر من العالم • فلأى سبب ؟
انه بالضبط مبنى على أساس أنهم ليسوا مستعمرين عاديين يبحثون عن
الأرض الطيبة وعن الامتيازات المجزية • انه مبنى بالضبط على أساس
أنهم لا يرسون الأشجار ، أو يجففون المسننعات ، أو يزرعون الحضراوات
كالرواد الآخرين فى البلاد الأخرى ولكن لأنهم يضطلعون بعمل روحى ،
يضطلعون باعادة بناء هيكلها المنذر من أجل الروح اليهودية النائية •
انه بالضبط لأنهم يعودون كالحجاج ، يجد وحزم ، الى موئلهم القديم ،
مهما كان متواضعا فقيرا ••• ومهما كان عديم الفائدة •

ان هذا التصريح الساذ الغريب الذى أعطى لهم ليدخلوا به فلسطين
ضد ارادة سكانها مبنى وبصورة بحثة على مجيئهم ليستعيدوا الأرض التى
فقدوها •• « ليعيدوا بناء وطنهم القومى » ••• ليعيدوا بناء جدران
صهيون التى تهدمت • ولا أقول شيئاً الآن عن دوافع أولئك الذين أعطوهم
هذا التصريح • فأيا كانت الدوافع فى قلوب هؤلاء الرجال فانهم قد جلبوا
الصهاينة الى فلسطين تحت شروط « اعادة بناء وطنهم القومى فيها » ولكن
أى اعتبار أولاه الصهاينة نحو هذا ؟

أى نوع من أنواع الروابط بين اعادة بناء هذا الوطن وبين غرس
ثلاثين ألف فدان من بساتين البرتقال فى السهل الساحلى ، الذى لم يستطع
حتى داود نفسه أن يجعله يهوديا •• فى سهول الكنعانيين والفلسطينيين
وأخلافهم العرب ؟ وكيف نتفق الرابطة التاريخية مع ممتلكات الصندوق
القومى اليهودى ، التى بلغت قبل ثلاث سنوات نحو ثمانين ألفاً من
الأفدنة فى سهول عكا وحيفا الفينيقية المصرة يعابلها ألف واحد فى الجليل
الصخرى ؟ وكيف تحجب عن النظر ثمانون ألفاً من الأفدنة المملوكة فى
التلال ؛ التى هى حلم الصهيونية ، مائتين وخمسين ألفاً من الأفدنة المادية
فى السهول ؟ وما الذى يفعله المائة وخمسون ألفاً من اليهود ، الذين
يسكنون تل أبيب ، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ؟ أتراهم يعيدون
نصب خيام شاءول أو تراهم يعيدون بناء أعمدة شمشون ؟ وكم عدد

الذين يفلحون في التلأل من بين الاربعمائة ألف يهودى الذين يشكلون حتى اليوم الوطن القومى اليهودى ؟ أربعة آلاف ومائة واحدة • وإذا كان للأرقام أن تنطق فهذه ناطقة •

وقد يقول من يعارض بأنه ما كان لليهود أن يحصلوا فى يهودا على مدى ما حصلوا عليه من الأراضى فى فينيقيا • وقد يقول أيضا أنه ما كان فى وسعهم أن يحصلوا على ما لا وجود له أو ما ليس معروضا ، وأنهم انما كانوا يأخذون ما يمكن لهم الحصول عليه أنى أمكنهم الحصول عليه • بيه أن ذلك هو بالضبط ما كان يخلق بهم ألا يفعلوه • أن المسألة مسألة مبدأ • ولو كان لدوافع الصهاينة أن تصمد للامتحان لوجب عليهم أن يرفضوا مجرد التفكير فى شراء أرض ليس لها دور فى إعادة بناء صهيون ، مهما كانت خصبة • ولو أنهم كانوا يدخلون البلاد كمستعمرين عاديين وفقا لنظم وضعتها حكومة أهلية ، أو حكومة تستشير الأهلين ، وبدون أن تكون هناك دولة منتدبة تقسح لهم الطريق ، لكان الموقف مغايرا ، ولأمكنهم فى ظل مثل هذه الظروف أن يدخلوا فلسطين حيثما كان ملائما ، وأن يشتروا الأراضى حيثما رغبوا ، وأن يجنوا العوائد المعتادة من الثروة الزيدة •

لكنهم حين دخلوها ، تحميمهم الحراب البريطانية ضد ارادة السكان ، وعلى أساس أنهم سيعيدون بناء شىء من الماضى ليس لغيرهم أن يبنيه ، وعلى أساس أن صفتهم السامية تخولهم هذا الامتياز ، فيتحتج عليهم عندئذ أن يعيدوا بناء بيد اللورد هارى فقط وأن لا يتزحزحوا قيد أنملة عن موقعه لأنه « ماذا انتن لى ياصور ويا صيدون ويا جميع دائرة الفلسطينيين؟ » ولأن ذلك مكتوب فى سفر يوثيل •

وعلى أى حال ، فلنفرض أن قليلا من ممتلكاتهم الكثيرة كان مبعنرا حول حدود مملكة اسرائيل القديمة المتقلصة أبدا ، المنكمشة أبدا ، فقد تكون المجادلة حول هذا الأمر أمرا نظريا بحتا • ولكن لما كان هذا هو حال الأمور فى الأمس واليوم فاننا لسنا بصدد بضعة ممتلكات على الحدود من هذا النوع جاءت عرضا • اننا لسنا ازاء سياسة قانعة ••• كلا ••• بل ازاء سياسة متلهفة على « إعادة بناء » الوطن القومى كدولة ، فى مكان لم يبن فيه أبدا من قبل • ان الصهاينة يعودون تحت قيادة زعمائهم الى مكان لم يخرجوا أبدا منه من قبل • وان السياسة البريطانية ، أو أولئك المشتغلين منهم بأمور الدولة على الأقل ، يغرونهم بالذهاب الى فلسطين ويمروون دخولهم اياها ب « رابطتهم التاريخية » ، ومن ثم يشجعونهم على

الاستيلاء على أراض لم تكن لهم بها ، فى أى يوم من الأيام منذ بدأ التاريخ حتى اليوم ، أية رابطة تاريخية حقيقية وثيقة ، من أى نوع كان .

والآن ، وبينما أقوم بمراجعة هذه الصفحات ، قد يحول الوطن القومى - كما كان مبيتا دائما - الى دولة صهيونية أو « مملكة مستقلة استقلالا ذاتيا » أو « كانتون يحكم نفسه بنفسه » ، أو أيا كان ذلك الاسم الذى يفضلون أن يطلقوه عليه . وإذا كان الأمر كذلك ، فسيقام فى السهول على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وبين البساتين ، محاكاة للماضى اليهودى تنير السخرية والضحك، وهيكلًا مطابقًا لتصاميم الصيارفة والمرابين ، وصهيونيا .

لكن نذر ذلك الماضى الذى نبذه هؤلاء الصهاينة العصريون من ورائهم ظهريا نقف بالمرصاد لمكرهم وخداعهم تلوح لهم بتوبيخ النبى : « لأنك قد نسيت الله رب خلاصك ، ولم تتق الله رب قوتك فلسوف تزرع نباتات طيبة وتطعمها بأقلام غريبة . » « يا الهى . لقد دخل الكفرة فى ارتك ؛ لقد دنسوا هيكلك المقدس؛ لقد جعلوا من اورشليم مكانا لحفظ الفواكه . »

الفصل الثاني

جنس العرب العظيم - امتلاك فلسطين ضروري لتمده

لقد بينا في الفصل السابق أن فلسطين ليست الا جزءا من وحدة سورية الطبيعية الأشمل ، وأن سورية نفسها جزء لا يتجزأ من الارث العربى العظيم ، وأن الادعاء الذى تذرعه الصهاينة لدخول البلاد ؛ « رابطتهم التاريخية » بهذه الأرض لا يمكن أن يستخدم عدلا وانصافا ، لانغناء ملكية سكانها لها ، الذين يملكون رابطة تاريخية أعرق وأقدم من هذه الرابطة بدرجة لا تجوز معها المقارنة . وبيننا فى النهاية أن الصهاينة أنفسهم قد فضحوا تقديرهم المستبطن لهذه « الرابطة التاريخية » باعادة بناء « وطنهم القومى » فى مكان لم يكن للجنس اليهودى ، فى يوم من الايام ، وطن فى معظم أجزائه .

وأعود الآن للحديث عن العرب ، الذين يوصفون فى فلسطين بهذا الاسم خالصا طوال هذه الثلاثة عشر قرنا الأخيرة . ان من الغريب أن يقال ان هذا الاسم الذى يحملونه منلبة ونقطة ضعف بينة فى جانبهم . وان قلة من الناس نسبيا تعرف شيئا عن ماضى العرب العظيم . اننا نحن الأوروبيين ندين لهم بأكرم مما نصور . لقد قادوا العالم نحوا من ثلاثمائة عام فى طريق الحضارة . وأخذنا عنهم جل علومنا الرياضية . فالاعداد أو الأرقام التى نستخدمها هى « أرقام عربية » وكلمة Algebra هى لفظة محرفة لكلمة « الجبر » . وهى الكلمة الأولى من مؤلف صدر فى القرن التاسع لعالم عربى . كما طور العرب أيضا مهنة الطب ، وأسسوا الجامعات ، وطوروا الفلاحة وزراعة الحدائق الى مستوى رفيع .

لقد نسينا فى هذه الأيام مآثر العرب الخالدة ، وجاز لدينا تدمير الأتراك لحضارتهم وكأنه نتيجة مترتبة على اضمحلالها . وما من جنس آخر قد صادف حظا سيئا فى التاريخ كهذا الحظ الذى صادفه العرب الى

حد أن يحقق في تاريخه نفس أولئك الذين اضطهدوه فيجدوه مدينسا
بما ذبحوه به . لكن هذا الحكم العجيب قد رسخ في الاعتقاد العام خلال
القرون . وفي أيامنا هذه يعزى الاقفار في أى بقعة من بقاع الأرض
العربية الى خمول العربي ، الذى هو فى الواقع فلاح ممتاز كأبائه الأقدمين.
ولا يعزى الى النير العثماني القاتل . لقد أجبر هذا النير أجزاء كبيرة من
هذا الجنس العربى على الخروج الى الصحراء . ويخيل لى أن عرب الصحراء
هؤلاء هم وحدهم الذين يمثلون هذا الجنس فى نظر الشعوب الغربية .

فالرجل البريطاني ينظر العربى رجلا ملتجيا يندثر بشباب فضفاضة
ويهرول هنا وهناك ويطلق نيران بندقيته على لا شيء (اللهم الا فى حالة
فلسطين مؤخرا ، على ما أظن) ، وأنه يعيش فى خيام ويحكمه شيوخ
عيونهم قدح شررا وبهم ميل الى السطو والسلب .

وهذا التصور وهم سخيف . ومع ذلك فالاعتقاد به هنا له نطاق
واسع . فلقد حدثنى أحد المندوبين العرب الذين وفدوا على بريطانيا
بصورة جد منتظمة ، ولسنوات عديدة ليشرحوا قضية شعبهم للزلاء
الهوايتهول (أى القاعة البيضاء وهى مقر مجلس الوزراء البريطانى-المعرب)
المتعاقبين ، وبلا طائل أبدا ، عن حادث يوضح هذه الحقيقة جيدا . كان
هو وزملاؤه المندوبون يقومون بزيارة لمجلس العموم ، وينتظرون فى قاعة
الانتظار مجيء عضو لمقابلتهم ، ولم يمض غير قليل حتى جاء الرجل ،
ودارت عيناه عليهم وعلى آخرين كانوا ينتظرون كذلك فى القاعة ، ثم
أخذ يتطلع حواليه حائرا . انه لم يستطع أن يتصور أن هؤلاء الرجال
المؤدبين الذين يرتدون ملابس كملاسه يمكن أن يكونوا وفدا للعرب .
ثم أخذت نظرته المحملة تبحث فى الأروقة عن زمرة من قطاع الطرق
يتدثرون بالعباءات ويتمنطقون بسميوف مدلاة ، ويعفدون حول رؤوسهم
حبالا تحزم أغطيتها .

والنقطة الخطيرة فى هذا التصور المسبق هى أنها تجعل من يحملونه
يقعون بسهولة وبكل طوعية فى المفهوم الشمين جدا بالنسبة للصهاينة ،
وهو أن العرب كتلة من الشرقيين النصف برابرة ، الذين يحتاجون الى
ارشاد فى جميع نواحي الحياة من لدن حاكم غريب مثقف .

فى حين أن العرب ، مثلهم فى ذلك مثل جميع شعوب أوروبا ، ليف
من سائر أخلاط الناس . ان لهم بالطبع طبقتهم الفلاحية الكبيرة ، من
الرعاة ومن الزراع ، الذين يلبسون ملابسهم التقليدية القديمة ، التى
كان يلبسها المسيحيون الأول . ولكن لهم طبقتهم من المثقفين والمهنيين

والتجار ، وبنسبة كبيرة بالقياس الى تعدادهم ، كالتى نملكها نحن ، وربما بنسبة أكبر . فالشباب المتعلم فى سورية يختلف منذ زمن بعيد الى المدارس والجامعات ذات التأسيس الفرنسى والأمريكى . وقد جاء عدد منهم الى إنجلترا لتعليم القانون أو الطب أو ليقوم بالتجارة . وتوجد فى مدينة مانشستر مستعمرة لا بأس بها من رجال الأعمال العرب . لكن هؤلاء العرب يمرون دون أن يلاحظهم أحد ، كما هو الحال هنا وفى كل مكان آخر ، لأنهم يعرفون بصفتهم الأقرب كسوريين . ويوجد فى هذه البلاد عدد من رجال الكهنوت السوريين من جميع الرتب . كما يوجد عدد من كتبة البنوك السوريين ، والكيميائيين السوريين ، والصحفيين السوريين .

وقد يذهل بعض القراء حين يعلمون أنه يوجد بين السوريين من هم من أصحاب الملايين . كما يوجد عدد لا بأس به منهم ممن أصابوا من الثراء على مختلف درجاته ، ومن وسائل الترف على مختلف الدرجات فى أمريكا الجنوبية ولم يصبحوا بعد من أصحاب الملايين . وفى مراحل الأنشطة العملية الأكثر تواضعا تجوب جماعات منهم جمهوريات أمريكا اللاتينية باعة جائلين . كما يوجد الكثير منهم فى أفريقيا .

وأينما يحل السوريون يثبتون أنهم رجال أعمال أكفاء الى درجة فائقة . والواقع أنه يظن فيهم ، فى بعض الأحيان ، أنهم أكفاء الى درجة الاشتهار بالألاعيب والحيل التجارية شهرة ما بعدها شهرة . وقد يكونون كذلك فى بعض المناسبات لكن هذا برهان ، على الأقل ، على أنهم فى غنى عن ذلك التعليم من قبل اليهود الذى يقرأ الانسان كثيرا عنه .

ان لديهم نخبة كاملة من المتعلمين . واذا كان التعليم يخول للانسان أى شيء ، فانه يخولهم الحق فى تدبير أمورهم بأنفسهم ، وفى أن يكونوا سادة بلادهم ، مقدار ما يخولنا نحن من حق .

وكان فى مقدورى أن أضيف الى سجلى الصغير هذا عن قدرات العرب أنهم علماء ممتازون فى فقه اللغة . وهذا أمر ليس بالمدهش لأنهم شعب متنوع فى حد ذاته . فلعرب سوريا ، كما قد رأينا ، عدد عديد من الأعراق . اذ احتلت بلادهم فى الماضى سلسلة متصلة الحلقات من الأسياك . وكانت فى أوقات مختلفة مسرحا للمعارك وموتلا للهاربين على السواء . وقد ترك المطاردون والمطاردون آثارا منهم فيها . ويعدد لورانس الجزيرة العربية فى كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » ست عشرة فئة من فئات السكان ، على الأقل ، فيما بين الحدود التركية والحدود المصرية . بيد أنه سيلزم للورانس ،

أى لورانس من المراسنة ، من الوقت لكى يدرك كنه هذه الفئات ، ما يلزم للاختصاصيين الأجانب لكى يميزوا بين أقاليم ومقاطعات الجزر البريطانية .
وقد عبر هو نفسه عن الوضع العام فى هذه البلاد بصورة تدعو الى الاعجاب حين قال انه : « فى حين أن مظاهر وعادات الشعوب الحالية الناطقة بالعربية فى آسيا متباينة تبين حفل مليء بالأفاح الا أن بينها تشابها سويا وجوهريا . »

ويمكن أن يقال اذا أردنا أن نستخدم لونا مغايرا من التشبيه ان العرب يشبهون سدا عظيما فيه لبنات من أشكال وألوان متعددة لكنها جميعا متلاحمة ببعضها البعض . وربما يكون للاحمهم أكثر مرونة وأقل تماسكا ، بل حتى أقل ضمانا ، من تلاحم اللبنة المرصوص بعضها فوق بعض . لكن التشبيه مقارب بما يكفى لاعطاء فكرة لا بأس بها عن بنائهم القومى .

ان لحمة العرب تتألف فى معظمها من العقيدة الدينية . فالعرب ، سواء أكانوا فى العراق أم فى سورية أو فى سيناء هم مسلمون فى معظمهم . ولكن فى سورية أقلية مسيحية كبيرة ؛ أقلية من مسيحيين لهم أيضا بركة من الدين انحدرت اليهم من أيام المسيح فى فلسطين (ومع ذلك فما الذى سمعناه من الحكومة البريطانية أو من عصبة الأمم عن « الرابطة التاريخية » للمسيحيين العرب بأرض المسيح ؟) وتوجد بينهم جماعات صغيرة لها ديانات أخرى .

ولذلك ففى حين أن العقيدة الدينية رباط قوى فانها ليست أقوى رباط . وهذا الرباط هو اللغة العربية . واللغة العربية تربط جميع قطاعات العرب ببعضها البعض . وان استخدامهم جميعا لها ، وما يجره هذا الاستخدام من طرق فى التفكير ، قد جعل منهم وحدة من أعظم وحدات العالم القومية . وقد بلغوا قبل غيرهم ، فى الواقع ، ذلك النوع من الوحدة القومية الذى يسير العالم نحوه ، ألا وهو وحدة أولئك الذين ينطلقون بلسان واحد .

ان لهم صفة شبيهة واضحة بالكومونويلث البريطانى بمعنى أنهم يرجح فيهم (اذا واتتهم الفرصة المناسبة) أن يشكلوا مجموعة من البلدان العربية ، مستقلة الواحدة منها عن الأخريات ، ولكن تجمعها رابطة مشتركة ، كما هو الحال مع الملك بالنسبة لدولنا المختلفة التى تحكم نفسها بنفسها .

وخلق بنقارهم من بعضهم البعض أن ينبت أنه ذو نفع في المضي
فدما نحو هذا المنزل الأعلى . فهم مجموعون الى بعضهم البعض في الركن
الجنوبي الغربي من آسيا . وهناك ، على أية حال ، نقطة أخرى وهي أنه
يجب أن ينظر الى موقعهم الجغرافي من زاويتها ، وهي نقطة لها مغزى هام
على سئون فلسطين بالذات .

انك اذا ما نظرت الى خريطة آسيا ، دون أن تكون لديك فكرة عن
هذه البلاد ، فسيبدو لك أن العرب يملكون سورية والعراق وبشبه
الجزيرة العربية العظيمة ، رقعة مترامية الأطراف من الأرض . ان أصدقاء
الصهيونية السياسية يلفتون الأنظار دائما الى هذه الظاهرة . انهم يدورون
بأيديهم على الخريطة في حلقاب كبيرة ثم يتساءلون بمنيرة خطابية عما اذا
كان العرب لا يستطيعون ، وفي حوزتهم هذا الملك المترامي الأطراف ، أن
يستغنوا عن قطعة صغيرة في فلسطين لليهود . وقد عرض اللورد بلفور
نفسه هذه الحجة في احدى خطبه في لحظة من لحظات التبرير غير
معهودة فيه .

لكنك اذا أمعنت النظر في الخريطة فسترى أن معظم هذه الرقعة
العربية المترامية غير مأهول . انها امتدادات مترامية من الصحارى العارية
تحتل جل سطحها . هي سوريا توجد حافة غربية مأهولة ، وفي العراق
حافة شرقية أوسع يرونها الدجلة والفرات . أما الجزيرة العربية ففيها
مجرد شريط زراعي وسكاني حول أطرافها الجبلية الى أبعد حد ، وبضعة
واحات في الداخل . . . كلها صحراء ، وحصى ، ومقذوفات بركانية ،
ورمل ، تلك هي قصة البلدان العربية أساسا .

وهكذا فان أعر ممتلكاتهم لديهم هي سرانطهم السادرة التي نزرع
في الشرق من العراق ، وفي الغرب من سورية . ولهذا فلسطين ليست
فضلة بالنسبة لهم ولكنها ضرورة ماسة . وكان حريا بتوسل اللورد
بلفور أن يجري هكذا : « ألا يستطيع العرب أن يستغنوا لليهود عن حقل
القمح الصغير من بين قفارهم المترامية ؟ ألا يستطيع العرب أن يستغنوا
لليهود عن مئونة الطوارئ في مجاعتهم ؟ » .

وهناك اعتبار آخر أيضا بل هو اعتبار أهم من ذلك . ان سورية
بالنسبة للعرب منفذهم الى البحر الأبيض المتوسط ، انها نقطة انصالهم
بالغرب . انها بوابتهم الامامية وبقدر ما يحتفظون بها ويصونونها ويجعلونها
ملكاً خالصاً لهم ستمتزج حياتهم ومصائرهم بأوروبا وعلى طريقتهم
الخاصة . فليس عن طريق الأبواب الخلفية المخلفة التي تفتح على الخليج

الفارسي ، ولا عن طريق سدادات الأفران في مسقط أو في الخلويت سيجد العرب طريقهم الى مركز العالم . انهم محصورون بين الصحارى الجديية وبين البحار اللافيحة التي تقع بين فارس ومصر . ولم يكن لهم في يوم من الأيام الخيار في هذا وانما هو وضع كتب عليهم . وان نافذتهم الطبيعية هي هذه التي تطل على البحر الأبيض المتوسط الأوروبي . ويقول لورانس : « لقد تطلع العرب دائما الى البحر الأبيض المتوسط ، وليس الى المحيط الهندي ، اشباعا لانعطافاتهم الحضارية ، وابتغاء لنجاحاتهم العملية ، ومن أجل توسعاتهم على الأخص لأن مشكلة الهجرة هي أعقد وأقوى المشاكل في بلاد العرب . وهي مشكلة تنظم جميع المقاطعات العربية مهما تباينت حدتها فيها . »

وقد كتب البروفيسور و . ي . هوكنج الاستاذ في جامعة هارفارد في مؤلفه القيم روح السياسة العالمية فقال : « لقد اتصلت ببلاد العرب الحديثة بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق فلسطين . وهكذا يصبح تقدم الاستعمار الصهيوني بالنسبة للنظرة القومية العربية ضربة في الصميم جاءت في ثنايا سلسلة مطولة من المواعظ والخطب الدينية . »

ولسوف تعرى هذه المواعظ والخطب في سياق هذا الكتاب . بيد أن ما يجب علينا ملاحظته حيال هذه النقطة الراهنة هو هذا السؤال : من ذا الذي يتحدث في جنيف أو في القاعة البيضاء عن مشكلة الهجرة لدى العرب ؟ لقد قيل كلام طويل لا نهاية له عن المنفيين اليهود ، وأن لم يحدث ، في الواقع ، كثير من التلميح عن اسكانهم في بلادنا ، بالرغم من كل هذا العطف الذي تغدقه عليهم ! فهل قيلت كلمة واحدة عن نكبة العرب الذين يدفعون دفعا وباستمرار صوب الشمال بسبب تعددهم المتزايد ، أو يزاحون الى داخل الصحراء بسبب عدم استطاعتهم الوصول الى الحواف الشمالية أو الشرقية الأكثر خصوبة ؟

ويحدثنا لورانس عن هذه التيارات من التحركات القبلية . وبين لنا أنها لم تكن عن مغامرة بناتا — عما نسميه الترحل البدوي — وانما كانت ، بدلا من ذلك ، نتيجة للحاجة الاقتصادية ، فهو يقول : « وحتى اذ ذاك لم يتوقف الضغط : لقد واصل هذا الاتجاه العام ، الذي لا يكبح ، سيره نحو الشمال . وألفت هذه القبائل نفسها مسوقة حتى حافة الأرض الزراعية ذاتها في سوريا أو في بلاد الرافدين . واقنعتها معاؤها وفرص الربح من تملك الماعز فالأغنام فأخذت أخيرا تزرع ولو قليلا من الشعير من أجل سوائمها . فلم تعد بدوية ، وأخذت تقاسي كما يقاسي القرويون

من هجمات القبائل البدوية من خلفها وتقاسمت وهي لاتشعر الصبر مع الفلاحين الذين كانوا فى الأرض من قبلها • ثم تبينت أنها هى أيضا من الفلاحين ، وهكذا نرى قبائل ولدت فى جبال اليمن قد دفعت من قبل قبائل أخرى الى جوف الصحراء ، حيث أصبحت برغم أنفها قبائل رحلا لتحفظ على أنفسها الحياة • ،

والجنس صاحب هذه الورطة المقيمة فى الثوطن جنس نسال كثيرا • ان ذريته تكاد تنسل ونحن ننظر اليها • فالى أين تتوسع ؟ انها ليست الواحات فى الصحراء باننى ستتزايد بما يتواءم مع تزايد • وما من شك أن العراق يستطيع أن يستوعب نصف هذه الزيادة ولكن بلا زيادة • وصحيح أن الشرائط الضيقة الحصة فى فلسطين وفى سورية الشمالية تستطيع فى الواقع أن تستقبل هى الأخرى ، ولكن قليلا من القادمين الجدد • ومع ذلك فماذا يقال فى هذه السياسة التى ركبت رأسها على أن تمضى قدما فى ملء هذا المتسع الصغير الذى يتوفر هناك بأناس من بلدان أجنبية ؟ وأى نوع من أنواع السياسة هذه السياسة التى تضع فى عرض المسربة العربية المتجهة صوب الشمال وصوب الغرب حاجزا من الاحتلال الصهيونى ؟ وأى حق وأى معنى يكمنان فى انكارنا على الغرب كوتهم الطبيعية المفضية الى البحر الأبيض المتوسط — أو فلأضع السؤال بصورة أسلم لأنهم يملكونها فعلا — أى حق وأى معنى يكمنان فى سلبهم اياها ووضع الأعراب على أبوابهم ؟

ان لنا بهذا الشاطئ من البحر الأبيض المتوسط ، القريب جدا من الطريق الى الهند ، اهتماما عميقا بصفة خاصة • ويتحتم علينا أن ننشد الوسائل الكفيلة بتأمين مصالحنا هناك • وكلما تأمل الانسان وتبصر فى هذه المصالح كلما بدت له سياستنا الحالية سخيفة سخفا ما بعده سخف • اننا ندخل فى مسألة واضحة بيننا وبين العرب ، كان يمكن أن نحلها بدوافع الود والصداقة ، عاملا غريبا • اننا ندير ظهورنا للصداقة ونرفضها وندخل الصهاينة ونواظب على ادخالهم • اننا نجند جيشا وندعو جنود الاحتياطى لخدمة العلم ونشحن الفرق العسكرية فى البواخر ، ونضحى بأرواح جنودنا لكي يستمر الصهاينة فى الدخول • اننا ، كما يقول الواقع ، نزرع العليق فى كل مكان • وندافع بالبنادق والمدافع عن هذه الورطة الدولية التى نجمت عن أفعالنا تلك • وعندئذ تصبح مشاكل المستقبل ، التى كان يجب أن تكون هينة ، متأزمة ومعقدة ، بل وربما يستعصى علينا علاجها •

الفصل الثالث

المقاومة العربية - استعدادات العرب لطرد الحكم التركي من سورية ولإعادة بناء الدولة العربية التليدة

ان من بين الأقوال التي تؤسس عليها مشكلة فلسطين في أحيان كثيرة جندا القول القائل بأنه لم تكن في هذا البلد في الآونة الأخيرة الا حركة سياسية وحيدة هي الحركة الصهيونية . وطبقا لهذه النظرية فان الصهيونية قد دخلت على شعب كان خاملا من الناحية العقلية وأن أي حمية أو نشاط سياسي قد يكون هذا الشعب أظهرهما منذئذ انما هما لا يعدوان الا رد فعل للجهد اليهودي الفوار بالنشاط .

وهذا تزييف أثيم للحقيقة . فالحركة الصهيونية ، فيما يتعلق باتخاذها شكلا داخل فلسطين في هذه السنوات الأخيرة ، انما جاءت في أعقاب حركة عربية كانت من القوة والأصالة بحيث كتب على رجال في النهاية أن يقدموا أرواحهم قربانا لها . لقد نشأت الحركة الصهيونية ، كما سنرى ، من خارج البلاد في حين أن الحركة العربية حركة وطنية أصيلة يمكن مقارنتها بحركة المحررين التي قامت في أجزاء إيطاليا التي كانت خاضعة للحكم النمساوي . أو كتلك التي قامت في الألزاس واللورين أو كتلك التي قامت في بولندا . وكانت تهدف - شأنها في ذلك شأن تلك - إلى استعادة سيادة تليدة أو اتمامها . وكان يمكن ، بلا شك أن تتطور كما فعلت تلك ، إلى مرتبة الدولة القومية المحررة كلية لولا اقامة نظام الانتداب الذي لم يكن في الحسبان .

ولهذا ، فان الصهيونية التي خلقت كحقيقة سياسية واقعة بفعل نصوص صك الانتداب ، والتي هي أبعد ما تكون عن أن تكون القوة الوحيدة التي حركت فلسطين ، قوة ثانوية جلبت من خارج البلاد ، ولم تفعل شيئا الا أن تعوق تقدم القوة الوطنية الأساسية للعروبة ، الأسبق منها .

وسيكون التفاوت الكبير بين هاتين الحركتين أوضح وأجلى حين آتى على ذكرهما بالتفصيل . . . فالكبار أولا ثم يأتى بعد ذلك دور الصغار . ولنتحدث أولا عن أعمال العرب .

لقد انتهت الامبراطورية العربية فى سورية ، التى تقاطرت عليها محن كثيرة وكادت تدمرها الحروب الصليبية ، انتهت فى القرن السادس عشر . وأصبح الأتراك سادة البلاد لكن السكان العرب ظلوا يحتفظون بالأرض تحت سلطانهم . ودامت هذه الحال حتى الحرب النابوليونية حتى ثبت الفرنسيون أقدامهم فى الجنوب . أما كيف استطاع السير سيدينى سميث أن يدفعهم عن عكا فذلك هو أحد المسجلات المجيدة فى تاريخنا .

وتلت ذلك فترة من السيطرة المصرية . ثم أعاد التدخل الأوروبى تثبيت أقدام الأتراك فى البلاد فسيطروا على فلسطين والأجزاء الأخرى من سورية (كان لولاية لبنان ، وأغلب سكانها من المسيحيين ، نوع من الاستقلال الذاتى) حتى انهيار سلطانهم نهائيا أمام جحافل اللنبى فى عام ١٩١٨ .

وقد يلاحظ أنى استخدمت لفظات كـ « سلطان » و « سيطرة » لأصف بهما الاحتلال التركى لسورية . ومرد هذا هو أن الأتراك كانوا يفتحون البلاد ولا يستعمرونها . وأما وقد تثبت حكمهم فى البلاد فانهم يحصرون همهم منذئذ فصاعدا فى حلب هذه المناطق الواقعة تحت حكمهم، طلبا للضرائب ، وتجنيدا فى الجيش فى حالة السكان المسلمين . وكان السلاطين الأتراك يسودون على كثير من الشعوب غير التركية . ولم يكن السلطان نفسه يختلف عن اقطاعى كبير جدا يملك عددا هائلا من المزارعين الا فى شىء قليل . وكان السلطان وباشواته يدعون هؤلاء المزارعين ، وهم الأغراب بالنسبة لهم ، يديرون أمورهم بأنفسهم ماداموا يؤدون لهم ايجاراتهم الباهظة ولا يناقشونهم فى ملكيتهم للأرض .

ولهذا أثره الملحوظ فى سورية . فقد ظل شعب فلسطين سيد نفسه تحت الحكم التركى من ناحية ما . وكان العرب أحرارا ويعيش الواحد منهم بين أهله وعشيرته تماما ، فى الوقت الذى لم يكن فيه الموظفون الأتراك يفرضون أنفسهم بفظاظة عليهم . وقد توصلوا مع مرور الزمن الى أن يوضع على رؤوسهم أناس من مواطنيهم . وصحيح أن هؤلاء العرب كانوا يمارسون صلاحياتهم كموظفين أتراك ويتحتم عليهم أن يقيموا أنفسهم مع الحكم التركى الا انهم كانوا عربا ، على أى حال . فموسى كاظم باشا ،

الذى ظل يقود الوفود العربية التى جاءت الى لندن حتى وفاته القريية
العهد ، كان حاكما للواء يافا فى عهد الأتراك •

ولذلك فليس العرب عن الحكم بغريبين • حقا لقد كان الجهاز التركى
الذى يديرونه جهازا سيئا فلم يستطع أحد منهم أن يلعب فى كرسية
بيد أن لهم خبرة على الأقل بسير العمل الحكومى • ان المكاتبات والأضابير
وما إليها ليست من الأحاجى بالنسبة للعرب ، الأمر الذى يوحى به وصفهم
الوارد فى المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم • لقد صنفوا
فيها جنبا الى جنب مع الشعوب الأخرى الموضوعة تحت الانتداب على أنهم
« ليسوا بقادرين بعد على أن يقفوا وحدهم فى ظروف العالم الحديث
الفؤارة النشاط • »

وقد يكون الحسو مستحبا ها هنا فنقول ان هذه العبارة من الميثاق
انما هى جزء من فرية اختلقت لكى يستمداد منها فى فلسطين • وفى
فلسطين لم تكن حتى عام ١٩١٨ ظروف فؤارة النشاط • لقد كان الوجود
يواصل سيره فى الخطوط التقليدية عموما • وان من الواضح أنه كان من
الميسور بعد عام ١٩١٨ أن يجرى هناك بعض التطور التدريجى الهادى
بمساعدة من بريطانيا لو ترك العرب وشأنهم • الا أنه ما كان من الممكن
أن يحدث ظهور مفاجئ لظروف عصرية فؤارة النشاط لأن العرب لم تكن
لديهم أية رغبة فى ادخالها فى حياتهم •

ومع ذلك فقد استجلبنا نحن - سرعان ما تسنى لنا ؛ سرعان ما تسنى
للحكومة البريطانية التى كانت قائمة آنذاك - الصهاينة الى فلسطين وخلقنا
بالفعل ، وكما كان مبيتا من قبل ، « ظروف عصرية فؤارة النشاط » فى
ذلك البلد التعس • وكانت الخطوة التالية ، طبعا ، هى أن تمسك بزمام
الأهلين لتحميمهم من هذا الفوران • ولقد أصبحت حالة فلسطين فى الواقع
كحالة رجل يصدمه رجل محسن من أهل البر بسيارة حتى لا يعود قادرا
على أن « يقف بنفسه » ، ومن ثم يهرع هذا المحسن البار ، مبارحا السيارة ،
ليقيم الضحية وليقود خطاها المتعثرة المترنحة ، بكل عطف وحذب •

والخلاصة ، على أى حال ، هى أن العرب لم يكونوا ، قبل أن تقدم
لهم يد المساعدة على هذا النحو ، مبعدين من قبل الأتراك عن كل اشراف
على فلسطين وعلى أمورها • لقد كان للطبقات المتعلمة نصيب فى حكومتهم
الخاصة بهم بل وكانت للجماهير العربية كلمة مسموعة فى مجال من مجالات
الأمور أوسع من هذا المجال بكثير • فيقول التقرير الرسمى الذى صدر

عن لجنة شو التي أوفدت الى فلسطين في عام ١٩٢٩ : « ما من شك أن الأنشطة المهمة من أنشطة المجالس الاقليمية بل وربما أنشطة المجالس البلدية كانت تشرف عليها الحكومة المركزية إما مباشرة أو عن طريق غير مباشر . ولكن تبقى أمامنا حقيقة أن الفلاح نفسه كان يستطيع أن يشعر أن له صوتا في ادارة دفة قريته وفي تسيير الأمور في الوحدات الادارية الأكبر ، حتى الامبراطورية العثمانية ذاتها بصورة غير مباشرة ، من خلال ممارسته لسلطته الانتخابية وعن طريق نظام الانتخابات الفرعية، شريطة أن يدفع مبلغا غاية في التفاهة كعشر شلنات في السنة ضريبة مباشرة . »

وهذه هي كلمات لجنة بريطانية تعترف في جملها القليلة التي تلي هذه ؛ وبعد أن تكيل المديح لفوائد حكمنا المادية ولأفضلية ادارته ، بأنه توجد قضية تطرحها أمام أولئك الذين يفاضلون بين حكم العرب لأنفسهم بأنفسهم في ظل حكم الأتراك وبين وضعهم في ظل حكمنا . ثم تخلص اللجنة الى القول بأن العرب قد عرضت عليهم في عام ١٩٢٢ فرص في الواقع من فرص الحكم الذاتي لكن زعماءهم قد رفضوها على أساس أنها لا ترقى الى مقدار ما كان لهم من حكم أنفسهم بأنفسهم في ظل تركيا . وتسجل اللجنة هذه الحقيقة دون أن تحاول دحضها .

ومع ذلك فإن ذلك النصيب في الحكم الذاتي المحلي وتلك الكلمة الصغيرة في الأمور ذات الدرجة الأولى من أمور تركيا هما في حد ذاتهما ليسا بالشيء الكثير ، وإن كانا يبدوان شيئا عظيما اذا ما قورنا بالوضع السياسي المزرى للعرب الآن . لقد كان التمتع بهما كتمن فقط للتسليم بالمشاعر الوطنية . وكان يتحتم على الرجال الذين يمارسونهما أن يسقطوا من أذهانهم قوميتهم العربية وأن يتصرفوا كرعايا أتراك .

بيد أن القومية العربية ، أو بالأحرى ذلك الاحساس بأن للعرب من الذات المستقلة ومن البعد عن حكمهم ما قدر له أن يتخذ فيما بعد سمة القومية ، قد كان يحيا في وجودهم . حقا لقد كانت لهذه القومية فترات من الحمود لكنها — مثلها في ذلك مثل جميع القوميات — خرجت الى الوجود دافقة النشاط في منتصف القرن التاسع عشر . وكانت في سورية أقوى منها في أي بقعة أخرى من بقاع العالم العربي . إذ كانت سورية على اتصال بأوروبا التي فتحت الطريق اليها مسيحيو لبنان ، مستغلين امتيازاتهم الخاصة .

وقد بدأ السوريون مقاومتهم الوطنية بما يمكن أن يسمى بالانتفاضة الفكرية . فزحموا المطابع ونشروا دائرة معارف عربية وترجموا هوميروس وفرجيل والكتب الكلاسيكية الأخرى ، وأعمال كثير من شعراء العصر الحديث وكتب المقالات من مختلف اللغات الأوروبية . وكتب أكثر من بحس حول هذه الاكتشافات من الأدب الغربي . فاستجابت متساعر الشباب ، وهم يفرعون هذه الكتب العظيمة الى نزعات الحرية التي وجدوها لدى هؤلاء الشعراء ، والى مدارات كتاب المقالات التي كانت تقوم على حرية الفكر كلية . فعقدوا مقارنات بين أبطال هوميروس وأبطال جنسهم التفليديين ، وعمى كل الكتاب نغمتهم على البيئة التركية ، بالرغم من أنه ولد قبل أن يولد الأتراك بزمان طويل .

وفى كل شيء يقرأ تكمن بذرة ما سيكتب . وسرعان ما ظهرت الجرائد العربية تعالج أخبار الأفكار أكثر مما تعالج أخبار الأحداث . وفى عام ١٨٦٠ أسس بطرس البستاني جريدة كان لها تأثير قوى اسمها نفيير سورية . وهو اسم يعبر أصدق تعبير عن رسالة الجريدة . وهناك جريدة أخرى من الفروع نفسه اسمها الجنان . وأصبحت بيروت ، حيث المدارس الأجنبية ، المركز الرئيسى للصحافة العربية بالرغم من أنه كان لمدن أخرى فى فلسطين وفى سورية الشمالية نصيبها . وبدأت النساء تضطلع بدور فى هذه الحركة الوطنية الناهضة . وساعد الكثير منهن فى إصدار رقاع وكتيبات اشتهرت وطنيتها وتطرفت سوريتهما مع ازدياد استشارة اهتمام الأتراك .

وتحولت هذه الحركة الى حركة سرية أيضا . فتآلفت الجمعيات السرية . وارتحلت الى الخارج أيضا لأن الأتراك أخذوا ينفون العوميين البارزين . وهرب بعض هؤلاء الى مصر وتزعموا الأنشطة المعادية للأتراك هناك . وذهب بعضهم الى فرنسا التي لم تمنحهم اللجأ فحسب بل وبأساس طبيعى دافع ومشجع بقصد اذكاء شعلة الشعور القومى لأسباب من صنعها هى وبتحريضها هى ولأغراضها هى .

وطبقت أفكار الحرية الآفاق وحركة القسطنطينية ذاتها فمنح السلطان الشعب دستورا فى عام ١٨٧٦ ظل خامدا حتى عام ١٨٩٦ حين اجتمع البرلمان بفعل الضغط المتجدد من قبل العناصر المتحررة . ولم يمر طويلا بيد أنه سرعان ما نشأ حزب « تركيا الفتاة » . وفى عام ١٩٠٨ افتتح السلطان عبد الحميد برلمانا آخر . وقد خدم هذا البرلمان فضية

العرب لأن سورية انتخبت ممثليها فيه مع البلدان الأخرى من الامبراطورية التركية وكانوا جميعا وطنيين .

وحل هذا البرلمان في عام ١٩١٢ وذهب معظم نوابه من العرب الى المنفى بيد أنهم كانوا قد اكتسبوا أهلية وصيتا فالفوا الآن في الخارج نواة لحركة عربية في الخارج ، حائزة على التقه ، وعلى اتصال سرى بالوطن . وكان العرب في فرنسا قد نظموا أنفسهم . وأنشأ مواطن عربي من مصر اسمه مصطفى باشا كامل « لجنة قومية » في باريس .

وفي عام ١٨٩٥ أصدرت هذه اللجنة وثيقة فائقة الأهمية . فكانت الميثاق المأمول لاستقلال العرب الذي قدر له ألا يغيب عن البال أبدا ، وأن يظهر مرة أخرى بعد حوالي عشرين سنة مكتوبا بقلم الشريف حسين في مكة ذاتها . ونجى الأجزاء الهامة في ديباجته على هذا النحو . « لقد استفاق العرب الى تجانسهم التاريخي والقومي والعربي وهم يهدفون الى فصل أنفسهم عن الدولة العثمانية والى تشكيل دولة مستقلة ... تكون حدودها من الدجلة الى قناة السويس ، ومن البحر الابيض المتوسط الى خليج عمان (متهم الخليج الفارسي) ويحكمها سلطان عربي كمملكة دستورية متحررة .

وكان كل الناس في عام ١٨٩٥ متحررا (لبراليا) ودستوريا على الطريقة الجلاستونية . أما ما اذا كانت بلاد العرب تستطيع أن تنتج في ذلك الحين أو الآن ولهذا السبب عينه جلاستونات من القالب نفسه الهاوردي أو تتوفر فيهم الخصائص الجلاستونية للسلاطة المدلوطينية (Midlothian) فهذه هي المشكلة . بيد أن هذا لا يهم . ان مشروع اقامة الدولة قد أعلن للملا في بيان اللجنة القومية . كما أعلنت أبعادها للملا . ووضع مبدأ الحكومة غير الاستبدادية أساسا لها .

ولم يستطع الزعماء العرب في سورية أن يتبنوا جهارا المقترحات التي صدرت في باريس . فأخذوا يسعون وراء قدر من الحكم الذاتي في ظل الحكم التركي . وشكلوا « لجنة اللامركزية » كما أسموها . ونشرت هذه اللجنة بيانا يقضى بوجوب تعيين الحكام المحليين بموافقة السلطات المحلية فقط . كما طالبوا بإنشاء مجالس اقليمية .

وما جاءت بداية القرن الجديد الا كانت مطالب العرب الرسمية قد أصبحت أكثر جرأة من ذي قبل . وأكثر من هذا نألفت لجنة أخرى أكثر من غيرها تعبيرا عن مشاعر السكان ، من أربعة وثمانين عضوا ، نصفهم

مسيحيون والنصف الآخر من المسلمين وكان هدفها هو تحقيق انشاء « مجلس اقليمي عام لسورية » ومعناه في الحقيقة اقامة حكم أهلى فى سورية .

وفى الوقت عينه ، كانت الحركة الوطنية السرية الموجودة فى الخارج ، والتي تهدف الى نيل الاستقلال التام ، تجمع قواها الدافعة . فتوسعت اللجنة القومية الموجودة فى باريس الى « جامعة الوطن العربى » ووضعت عودة جميع البلدان العربية الى العرب هدفا لها .

وحين استولت حركة « تركيا الفتاة » على السلطة اعتزى الحركة الوطنية العربية بعض التردد . وكان معظم الشخصيات العربية مشتركا فيها فى البداية ، ظنا منهم أنها قد تكون خطوة نحو هدف العرب مادامت تقدما عاما الى الامام نحو التحرير . وكان شوفى باشا ، وهو عربى ، رجلا بارزا بين الجماعة التي خلعت السلطان عبد الحميد . وقد شغل العرب فى عهد خلفه محمد الخامس (السلطان محمد رشاد - المترجم) كراسى فى الوزارة لقد شغلوا على العموم مراكز أعلى من المراكز التي كانت مقدورة لهم فى السابق .

لكن حركة الشباب الأتراك سرعان ما أخذت تصبح حركة تركية صرفة أكثر فأكثر ، آخذة بفكرة القومية التركية على حساب نظام الحكم العثماني الوراني السابق . وهذا يعنى كبت جميع العناصر غير التركية فى حياة البلاد وسرعان ما بدأ العرب ، وهم يرون أن ليس أمامهم شئ يتطلعون اليه غير الاذعان ، يقطعون روابطهم مع أنور ورفاهه ، ان سرا أو علنا .

وانعقدت آمال العرب الآن فى الجمعيات السرية وشبه السرية . وربما كان « حزب العهد » أقوى هذه الجمعيات على الاطلاق ؛ وكان يسمى أحيانا بـ « العهد » على سبيل الاختصار أو The Party of the Oath فى لغتنا . وكان أخطر هذه الجمعيات بالنسبة للأتراك لأن أعضائه كانوا جميعا من الضباط العرب فى الجيش التركى وأقسموا - كما يدونها لورانس - على « أن يكتسبوا خبرات سادتهم العسكرية ويحولوها ضدهم خدمة للشعب العربى حين تحين لحظة الثورة » .

وهناك جمعية سرية أكبر . وهى تمثل - على نحو ما - الجانب المدني المقابل لحزب العهد ، وهى المسماة بـ « الفتاة » . وكانت ، كما يقول لورانس : « جمعية الحرية فى سورية » . لقد تضافر ملاك الأرضى ،

والكتاب، والأطباء، والموظفون العموميون الكبار في هذه الجمعية، تنتظمهم جميعاً عقيدة واحدة، وكلمات سر واحدة، وإشارات واحدة، وخزانة مركزية واحدة ليدمروا الامبراطورية التركية • واسم هذه الجمعية بالكامل هو « العربية الفتاة » التي تعني « شباب العرب » • وكان أعضاؤها في الواقع من الشباب العرب الذين كانوا ذلك الكيان المقابل للشبان الأنراك • وقد أنشئت في باريس بين ظهرائي الطلبة العرب وبعض المقيمين من العرب هناك • وإن ثلاثة من مؤسسيها هم ممن طردوا من فلسطين • وقد لواحد منهم أن يشتهر فيما بعد باسم عوني بك عبد الهادي • أحد الموقعين على معاهدة الصلح في فرساي، ثم أحد المعتقلين في « معتقل صرند (١) » بعدئذ بسنوات •

وكان أوسع هذه الجمعيات طراً جمعية « المنتدى الأدبي » التي تأسست في القسطنطينية في عام ١٩١٢ • بيد أن معظم أعضائها وتنظيماتها كان في سورية، شأنها في ذلك شأن الجمعيات الأخرى • ولم يكن للمنتدى في الظاهر أية اهتمامات سياسية بل بالمناجات الأدبية والاجتماعية • وكان في وسعها لهذا أن تتمتع بالوجود العلني • وكانت تصدر مجلة واسعة الانتشار، رئيساً تحريرها « شراكة » هما علامة عربي من بغداد وعاصم بك بسيسو من غزة : أما مؤسسها فهو جميل بك الحسيني من القدس • وكان « المنتدى الأدبي » بالطبع بؤرة للعمل الوطني فيما وراء ستار اجتماعاته وندواته العلنية التي لا غبار عليها •

وهناك جمعيات أخرى صغيرة لكن هذه الثلاث أهمها • ويلاحظ القارئ أن عرب فلسطين، وهم أبعد ما يكونون عن الحمول واللامبالاة والخموس، كانوا بارزين أيضاً بروز بين منظمي هذه الجمعيات وهذه الحركة الوطنية •

ويتحدث لورانس الذي لم يكن يعبأ بسكان المدن والذي لم يكن يسعى وراء الدس والتآمر لصالح أي فريق من الفريقين المتنازعين برغم هواه الخاصة في التضليل، يتحدث بازدراء عن جمعية الفتاة، ويتمنى لو أن أعضائها قد طلبوا الحرية « عن طريق التضحية » أي بالمجازفة بالقيام بثورة • لكنه يسلم بأنها قد أصبحت منظمة مربية • وإن من الجائز أن

(١) عدني بك عبد الهادي هو أحد المتدربين العرب إلى المؤتمر الذي دعت إليه الحكومة وافتتحته في قصر سانت جيمس في شباط من عام ١٩٣٩، في الوقت الذي تأخذ فيه هذه الصفحات طريقها إلى المطبعة - المؤلف •

الجمعية العربية كانت تعرف في ذلك الوقت ما الذى يخدم قضيتها خيرا مما يعرف هو .

وعقد مؤتمر وطنى غربى فى باريس بعد ذلك بثلاث سنوات ، لكن حروب البلقان وحروب طرابلس (طرابلس الغرب - ليبيا - المغرب) عادت على الأتراك ببعض التخفيف من حنى العرب عليهم . وثارت نائرة أكثر المحررين العرب بعدما من زحف الجيوش الأوروبية على تركيا . ولم يكن مرد ذلك الى أنهم كانوا يابهون ، ولو بفقدار شروى فقير ، بالابقاء على الامبراطورية التركية ، ولكن لأن تلك الدولة لم تكن تشكل عبثة نى طريق بلوغ آمالهم كتلك التى يشكلها الزحف الأوروبى . لقد كانوا يشعرون أن النير التركى شىء فى مقدورهم أن ينخلصوا منه ان أجلا أو عاجلا لكنهم كانوا يمثلون شكاً حيال آمالهم هم فى تربة بلادهم التى تحصدها أوروبا من تركيا وتملاً بها مخازنها وبوائكها . ولم تتكشف هذه الظنون حتى اليوم عن أنها قامت على أساس خاطئ .

وعلى أى حال ، فقد ازداد ضغط العرب على الأتراك بعد اختتام نزاعات البلقان وطرابلس . ووجد اقتراب الحرب العظمى سورية توشك على المطالبة رسمياً بالاستقلال الذاتى . ولكن لما كانت الأحداث التى حفت بالحرب العظمى حتى أدخلتها الأبواب ثم شيعتها بعد ذلك وهى تخرج ، أهم من أى شىء عداها فى تاريخ المشكلة الفلسطينية فإن من الأوفق أن نعود إليها فيما بعد ونأتى على ذكرها بالتفصيل . وينبغى علينا أولاً أن نقدم موجزا عن أصل وقيام القوة الأخرى التى ذكرناها فى مستهل هذا الفصل ، ألا وهى الصهيونية ، وأن نقدم بعض الملاحظات حولها .

الفصل الرابع

اليهود في فلسطين - اساءة استخدام لفظة « منفي » - هل
داموا في فلسطين ؟ - الحركتان الصهيونيتان - الصهاينة
الأول - هرتزل والصهيونية السياسية - رفض لأن يحسوا
بوجود العرب

ان قليلا من القضايا قد دانت بوجودها للجهل بالشئ الكثير ،
كقضية الصهيونية • ولا يعنى هذا أن الصهاينة أنفسهم جهال • ما أبعدهم
عن هذا !

وان ما يقصد بدين الصهيونية للجهل هو أن ذلك القدر من النجاح
الذى أصابته الصهيونية في الدوائر البريطانية ؛ وفوق ذلك إدراجها
كقضية بين القضايا السياسية البريطانية ، راجع في الدرجة الأولى الى
جهل الرأى العام البريطانى • فلقد استطاع أعضاء الوزارة البريطانية
الذين تبثوا الصهيونية خلال السنوات الأخيرة من الحرب (العالمية
الأولى - المغرب) أن يفرضوها على فلسطين لأن أحدا في بلادنا لم يكن
يعرف شيئا عن أقرب الماضى الفلسطينى القريب العهد ولقد اقترفت
هناك أفعال ما كان أحد ليتمكن أن يخاطر باقترافها لو كان ناخبو المملكة
المتحدة يعلمون بواطن الأمور ، ومفتوحى العيون •

وليس هناك شك في أن بعض الساسة البريطانيين الذين
كانوا يضطلعون بالمسئولية آنذاك ربما لم يكن يتوذر لديهم ، هم أنفسهم ،
المام بتاريخ هذه البلاد التى كانوا ينوون حكمها • وكان بإمكانهم ، والحالة
هذه ، أن يقرءوا شيئا عنه ، وأن يتلخوا ، كصبيان الصناعات الذين يتدربون
لاتقان صنعة معلمهم ، دروسا عملية في هذا الموضوع الذى ينوون
التدريس فيه • لكنى أخشى أن معظمهم لم تكن له مصلحة في تبديد جهل

الشعب • بل ولقد ذهب أحدهم ، وهو اللورد بلفور ، الى ما هو أبعد من ذلك • لقد أبقى اللورد بلفور نفسه بريئا من كل ما يمت الى فلسطين بصلة عمدا ثم استغل براءته هذه ، فكانت هذه حالة من حالات الدهن تستهوى طبيعة خلقه الفريدة •

وان قطعة صغيرة من هذا الجهل المطبق الذى ساعد قضية الصهيونية أيما مساعدة ؛ وما زال يساعدها بلا ريب ، هى هذه الفكرة الشائعة التى تقول بأن جميع اليهود قد طردوا الى المنفى فى فجاج العالم حين احتل الرومان القدس فى عام ٧٠ ق.م • ودمروا الهيكل • والحقيقة الواقعة هى أن اليهود قد ظلوا من القوة فى فلسطين بحيث شنوا ثورة نهائية بعد سقوط القدس بستين عاما •

بيد أن هذه نقطة قليلة الأهمية • أما النقطة ذات الأهمية الكبرى فهى أن معظم اليهود لم ينفوا أبدا الى المنفى فى فجاج العالم على الاطلاق • لقد بارحوا فلسطين قبل أيام الرومان فيها بزمان طويل لأنهم شاءوا أن يبارحوها • لقد تركوا الوطن بسبب ظروفه الصعبة أو على أمل أن يحسنوا أحوالهم ، ففرت معيشتهم فى رحاب العالم القديم • انهم لم ينفوا وانما هاجروا • وكانوا هم وآلهم يحبون ، حين تتوفر لهم الوسائل ، أن يعودوا الى فلسطين زائرين وليس فى نيتهم العودة للعيش فيها ولم يكن يخامرهم أقل أمل •

ويعترف كتابهم هم أنفسهم اليوم بهذا الوضع ، كما اعترفوا فى الأيام الخوالى تماما فيقول المستر نورمان بنتوتيش (Bentwich) :

لقد بعثر أطفال اسرائيل فى جميع بلدان الحضارة الهلينية طولا وعرضا ••• فى فارس وبابل ؛ فى مصر وقبرص ؛ فى جزر اليونان وسواحل آسيا الصغرى • لقد قالت نبوءة العرافة : « ان الأرض والبحر يمثلان بهم • » وفى الاسكندرية عاصمة العالم الثقافية تجمعوا بهئات الألوف وشغلوا حرين من أحياء المدينة الخمسة • وأحرزوا بعديدهم وبتفوقهم التجارى مركزا فى قلب الشرق هناك ، مشابها لهذا المركز الذى يتمتع به اليهود اليوم فى حضرة العالم الحديث •

ويكتب المستر ليونارد شتاين فيقول :

لم تكن فلسطين فى أيام الكارثة (سقوط القدس) تحتوى على أكثر من نغمة من الجنس اليهودى • فقبل ذلك بزمان طويل ، كانت

هناك طوائف يهودية مزدهرة في مصر ، وفي كايبرنيكا ، وفي سورية (يقصد سوريا الشمالية) ، وفي بلاد ما بين النهرين ، وفي ايطاليا وفي اليونان . والواقع هو أنه يقال انه كان في فلسطين في بداية العهد المسيحى سبعمائة ألف من اليهود فقط من بين نحو أربعة ملايين كانوا في الامبراطورية الرومانية وحدها .

والحقيقة الواضحة هي أن أغلبية اليهود الساحية قد فُتحت، فيما يزيد عن ألفى عام ، بأن تعيش خارج فلسطين . ولقد ظل يربطهم بها رباط ، أو يربط أولئك الذين كانوا منهم جد متعلقين بها ، لكنهم لم يكونوا منفيين ، ولا كانوا في أى يوم من الأيام منفين لفترة قاسوا فيها عذاب النفى ، بكل معنى حقيقى لكلمة النفى ، كما تبين ذلك الغدوات والروحات التى كان يقوم بها أولئك الغادون الى فلسطين بقصد الزيارة .

وليست هذه الحقيقة معروفة على نطاق واسع لسوء الحظ . وان ساستنا نحن هم آخر من يكشفها . أنهم يفصلون لناخبي دوائرهم الانتخابية أن يعتقدوا أن اليهود قد طردوا بالجملة من وطنهم وأنهم قد حيل بينهم وبين العودة إليها بالجملة ، وأن هذه الأحوال قد سادت دائما .

ودعنا ، على أى حال ، نتتبع تاريخ اليهود فى فلسطين . لقد تركت الأرض قفرا بعد العصيان الأخير . ووقع فيهم الذبح والاسترقاق بأعداد غفيرة . وقاسى كثير من يهود فلسطين النفى الحقيقى برهة من الزمن كهذا النفى الذى قاساه زعماء العرب فى سيشل . الا أنهم قد سمح لهم فى عهد الأباطرة الذين جاءوا بعد أدريان بالعودة ، ولو أنه كان هناك الغليل مما يغريهم فى ذلك الحين على العودة . اذا كانت مدينة القدس قد حولت مدينة رومانية وأطلق عليها اسم ايليا كابيتولينا . وكانت هذه المنطقة بالذات ؛ أى عاصمتهم ، حراما عليهم . ففضل معظمهم البقاء فى الاسكندرية وفى المدن الأخرى التى لادوا بها .

الا أن مجموعة من قساوستهم ومعلميهم لم تنف من فلسطين ، وان طردت من هذا المكان الى ذاك . فألفوا بعضا ترحالهم ، نتيجة لذلك ، فى الجليل بالدرجة الاولى حيث أقاموا مدارس ربانية . وكان هؤلاء رجلا ذوى ايمان قوى ، فجعلوا من أذهانهم ، حين دمرت معابدهم المرتبة ، معابد وأبقوا فيها شمعة يهوفا المقدسة مضاءة . ناكثسبوا شهرة جلالية فى طول

الدياسبورا (١) وعرضها . وهذه الدياسبورا هي الكلمة الاغريقية التي تستخدم عموماً للدلالة على جمهرة المحلات (٢) اليهودية المبعثرة في جميع أرجاء العالم .

لكن مدارسهم أخذت تنحط مع مرور الزمن . وأخذت البقية اليهودية الباقية تتضاءل شيئاً فشيئاً . أما ما إذا كانت هذه البقية قد حافظت على بقائها فترة من الزمن أو تلاشت دفعة واحدة فهذه مسألة فيها نظر . ولا يستطيع أحد أن يجزم بما حدث في أواسط العصور المظلمة . وقد قام الرحالة لورانس أوليفانت قبل حوالي ثمانين عاماً بزيارة الى البكيرية وهي قرية الى الغرب من صفد في الجليل الأعلى (أو الجليل الشمالي - المغرب) « تقوم في قفر منعزل جبلي موحش » بسبب حفنة من اليهود يعيشون فيها اشتهر عنها أنها الطائفة اليهودية الوحيدة التي نبتت في هذه التربة منذ أيام المسيح . ومثل هذه الرواية يمكن الأخذ بها .

وبعد معركة اليرموك التي سبق وأن ألحنا إليها والتي وقعت في النسطر الأول من القرن السابع ، شمل حكم الخلفاء الذين جاءوا بعدها عدداً من اليهود اذ توجد لدينا تسجيلات بأنهم قد عاملوهم بحلم وتسامح . وكان اليهود يعيشون في المدن الرئيسية ، فلم يندنروا من تقلبات القرون التالية . بيد أن الصليبيين ذبحوا عدداً كبيراً منهم حين فنحوا القدس .

وكان صلاح الدين رحيماً بهم استعاد ملكه . وكانوا في ذلك الحين قلة . ويذكر التاريخ حادثة عجيبة تكاد تكون مجهولة ، ألا وهي استقباله في عام ١٢١١ لنلاثمائة حاخام من انكلترا وفرنسا جاءوا ينشدون تحريراً الآفاق من أجل هجرة يهودية . وانهم يستحقون بكل تأكيد أن يسموا بالصهاينة الأول . فهم قد ضربوا منلاً لأخلاقهم من بنى القرن العشرين الذين فعلوا كل شيء قبل أن يدخلوا فلسطين الا أن يتحروا الآفاق لهذه الهجرة لدى السكان العرب .

وما كان لبعثتهم هذه أن تعود بنتيجة ، على أي حال . اذ أنه بعد ذلك الحين بحوالى خمسين عاماً لم يكن هناك الا اثنان من اليهود في عام ١٢٦٧ يسكنان مدينة القدس . وكانا أخوين . وفي عام ١٣٢٧ توطنت فيها طائفة صغيرة منهم ، كانت في معظمها من الصباغين . وفي بداية القرن الخامس عشر كان هناك كنيس في المدينة المقدسة ، لكن جمهوره

(١) الدياسبورا ، هي لفظ معنوي للمناطق التي حل اليهود بها بعد تشييدهم .

(٢) جمع محله - المغرب

اضطهد فرحلت عن المدينة مائة أسرة لابد أنها كانت تبلغ في مجموعها العدد الاجمالي للمؤمنين باليهودية تقريبا .

ويبدو أن عدد اليهود في القدس خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر قد تراوح ما بين ٢٥٠ الى ١٥٠٠ نفس . وان طرد اليهود من شبه الجزيرة الاسبانية في عام ١٤٩٢ هو المسئول عن أكبر هذين المجموعتين الاجماليين . الا أن معظم اليهود المطرودين الذين جاءوا الى الشرق لم يذهب الى فلسطين بل الى سالونيك ، حيث ظلوا فيها حتى يومنا هذا .

أما تعداد السكان المسلمين في القدس فقد تراوح في ذلك الوقت أيضا . لقد كان عشرة آلاف في عام ١٤٨١ طبقا لما يقوله الرحالون . لكن الطاعون قد أنقصه الى النصف في بحر السنوات القليلة التالية وأنقص معه تعداد النواة اليهودية فيها .

ويذكر لنا المستر بنتوينتش واقعة عجيبة من وفائع القرن السادس عشر ؛ واقعة فرد من أسرة يهودية نقيت من البرتغال ، اسمه الدون جوزيف نازي « أصبح أوتو دبلوماسي الامبراطورية العثمانية ، وكان من قبل قد نصب دوقا على ناكسوس بعد أن خاثرته فكرة اقامة مستعمرة يهودية في احدى جزر الأرخبيل اليوناني ثم هجرها ، وحصل من السلطان سليم الثاني على عطية من رقعة أرض كبيرة في الجليل مع السماح له بإعادة بناء مدينة طبرية وبأن ياهلها باليهود كلية . » وهذا السلطان سليم هو السلطان الذي هددت أساطيله البلاد المسيحية لكن دون النمساجون دمرها في موقعة ليبانتو . ولا يبدو أن مشروع إعادة بناء طبرية قد وضع في مجال التطبيق أبدا لكن المستر بنتوينتش يقول عنه ؛ وربما لم يكن يدري بسفارة الثلاثمائة حاخام الى صلاح الدين ، انه وحي الحركة المعاصرة في عودة اليهود الى أرض الآباء والأجداد ، وانه أول تعبير مبهم عن انتعاش الوعي القومي اليهودي ، وان بعض المحلات اليهودية في قرى الجليل الأعلى هي نتائج له .

وفي النصف الأول من القرن التالي نقلت الأخبار أن في مدينة القدس ألفين من اليهود . وهبط عددهم الى ألف في عام ١٧٣٠ . أما خارج القدس فكانت هناك جماعات منهم ، وكان معظمها في صفد وفي طبرية .

ومع مقدم القرن التاسع عشر نجى فترة أعدادهم الكبيرة . فيقول نوع من الاحصاء قام به لودفيج فرانكل في عام ١٨٥٦ بوجود ما يقرب من خمسة آلاف يهودي في القدس . ولابد أنه كان هناك عدد أكبر من

هذا العدد في الأجزاء الأخرى بالأحرى . ويقدر عدد السكان اليهود في عموم فلسطين في الثمانينيات بعشرين ألفا تزايد في ظل أحوال الحكم العصرية ، ومع إقامة أولى المستعمرات اليهودية الى خمسة وثمانين ألفا أو نحوها الى ما قبل حرب عام ١٩١٤ .

وكفانا هذا القدر عن تعداد اليهود في فلسطين . ان الأرقام التي أوردتها والدلائل الأخرى من نوع هذه الموجودة بين أيدينا تذهب الى تبيان أنهم ربما احتفظوا بخيط واحد ؛ مجرد خيط ، بهذه البلاد من جراء الإقامة في بقعة خافية من بقاع الجليل منذ زمن المسيح . أما عن سكنائهم في مدينة القدس ففيه فجوة تبدأ من أواخر عهد الرومان الى نهاية العصور المظلمة . وأغلب الظن أنه كانت هناك فجوة أخرى بعد الحروب الصليبية . ومع ذلك فان القدس قد كانت المركز الحقيقي بالنسبة لهم منذ أن أقاموا بين العرب في فلسطين في أيام حكم هنري الثالث في إنجلترا قبل ستمائة وخمسين عاما . ولقد واطبوا خلال هذه القرون على هذه العادة الاحتفالية من « من العوايل على الحائط » كذكرى دينية لهيكلهم المندثر . أما ما هو مدى هذه المواظبة فذلك ما لا يتيسر لأحد أن يحزم به .

وليس هذا بالشئ الذي يزعج أى مدافع اليوم عن قضية العرب في فلسطين . ولو أن هذه الهجرة اليهودية المعاصرة قد قامت وفاء لتلك الرابطة القديمة فوجهت بصورة نظيفة وكانت معقولة في حجمها لما كانت هناك اليوم أى مشكلة اسمها مشكلة فلسطين ، ولا أى قضية عربية ندافع عنها ، على ما أظن (وكما سبق لى أن بينت) ، لأن هذه المشكلة لم تقم وتصبح مزمنة ومتوطنة الا لأن هذه الرابطة القديمة قد أولت بصورة تتحدى ملكية العرب لهذه البلاد .

وما كان ينبغي أن يقوم في وجه الحق للعرب في ملكيتهم لارضهم تحدى لا يقوم على أساس لهذا التحدى .

انه حق - ويجب أن نردد هذا المرة تلو المرة ولا نمل من الترداد - آل الى العرب بوصفهم الممثلين الشرعيين حاليين للأجناس التي ملكت فلسطين حين لم يكن اليهود شعبا بعد . انه آل اليهم لأنهم طلبوا يعمرهم هذه الأرض منذ ألف وثلاثمائة عام على الأقل ودون انقطاع . وتحمل هذه الفترة الزمنية في طياتها الدليل البين الجلى من أدلة الملكية لدرجة أن أى حق كهذا في أى مكان آخر من العالم المتحضر لا يمارى فيه الا المجانين والأوغاد . الا أنه مادام هذا التحدى قد أعلن فان المشكلة الآن هي كيف تأتى له أن يعلن ؟ . كيف نشأت الصهيونية المعاصرة ؟ وانها حركة

معاصرة مهما خطر لنجومها أن يتحولوا عن رغبة اليهود في امتلاك فلسطين مرة أخرى من قديم الأزمان .

وللمستر ليونارد شتاين ، وهو رجل أديب ، بعض الفقرات البصيرة عن موقف اليهود خلال الحصور . انه يقول :

كان بإمكان اليهود ، على مر الأجيال ، أن يسكنوا في بولندا أو روسيا ، في إيطاليا أو اسبانيا في بلاد الراين ، لكن فلسطين كانت ما تزال أرض اسرائيل . لقد ظلت فلسطين المكان الذي تهفو اليه قلوبهم ، في أيام النحس والخير على السواء . فكانوا يمدون اليها أيديهم تضرعا من رغبة العيش وأمانه في الأندلس بضراعة لا تقل عن مدها اليها من أوكار الغيتو^(١) المظلمة ، ولقد كانوا يتغنون بها ، ويصلون من أجلها ، ويندون جلالها ، المندثر ، وينتظرون بفارغ الصبر ساعة خلاصها .

ثم يتابع حديده فيقول :

وفلسطين هذه التي كانوا يحلمون بها كانت قد كفت لدى معظمهم عن أن تكون فلسطين الواقع المجدد ، فكانوا لا يعرفون عن موقعها الجغرافي أو عن شكلها المادي الا أقل الدليل أو لا شيء على الاطلاق . اذا لم تكن تربطهم بها رابطة من العواطف والمشاعر الشخصية ، ولا تراود مخيلاتهم ذكريات عن مشاهدتها أو عن أصوات فيها . انها ليست في الواقع الا فكرة مجردة . وسوف تكون عودة المنفيين (يحلو للمستر شتاين أن يسميهم «بالمُنْفِيين») عودة بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة ، بكل تأكيد . بيد أنها لن تتحقق نتيجة للجهاد الانساني : ستتحقق حين يشاء الله لها أن تتحقق مع ظهور المسيح من جديد .

وكل غرضنا من هذا الموضوع موجود في هذه الفقرة . لقد كانت صرخة الجنس اليهودي من أجل فلسطين حتى أيامنا الحاضرة ، أو فل حتى بداية القرن التاسع عشر صرخة دينية بحتة . وكبداية نقول ان هذا القول قد جعل من هذه الصرخة مجازا صرخة للجنس اليهودي كله اذا ما اكثرت أولئك الذين كانوا مفيدون أنفسهم من بين ملايين اليهود بآفاق النجاة ومبادئ الانسانية ولم يكونوا يرون شيئا غيرها ؟ أما أولئك الذين كانوا يتطلعون الى ما هو أبعد من ذلك ؛ أولئك الذين كانوا يتنافسون مع

(١) لفظة ايطالية الاصل تطلق في الغرب على احياء اليهود في المدن - المغرب .

تعاقب القرون الى أقليات تتضاءل وتتضاءل ، فلم يفكروا فى أى يوم من الأيام بأنهم سيحلون فى فلسطين الا حين يحىء ذلك اليوم الذى ينتهى فيه الزمن فيعيدهم المسيح الى فلسطين وقد تبدلت فأصبحت حجرا يعبر عليه الى العالم الآخر • انهم لم يكونوا يصلون من أجل رقعة من الأرض؛ من أجل الدنيا ، بقدر ما كانوا يصلون من أجل الآخرة • ولقد ترك الصهاينة أيا منا الحاضرة ؛ لمجموعة من الناس تختلف عن أولئك اختلافا كليا وليست أبدا وريية لهم ، الحبلى على غاربها لتلمح الى أنهم قد حلموا فعلا ببلاد واضحة المعالم والتخوم ، ولتخرج أطالس لنقيس بها مكان تجلى أسلافهم على ظهر الأرض من جديد •

بل ولقد كانت هناك بدايات للصهيونية الحديثة مسروقة فى الخيال أعقبت الثورة الفرنسية مباشرة فلقد نشر خطاب غفل من التوقيع موجه الى يهود فرنسا فى عام ١٧٩٨ من قبل أحدهم ، اقترح فيه صاحبه انشاء مجلس يهودى من قبل كل يهود العالم يسعى لدى الحكومة الفرنسية من أجل إعادة فلسطين الى « شعبها التقليدى » وقال هذا المرفوم الذى يحمل هذه السمة المميزة : « ان البلاد التى تطالب بأن نحتلها سننضم - وهذا مرهون بتلك الاتفاقات التى تراها فرنسا مقبولة - مصر السفلى باضافة منطقة تكون حدودها خطا يجرى من عكا الى البحر الميت ومن الطرف الجنوبي لهذه البحيرة حتى البحر الأحمر • ثم تابع الكاتب خطابه الى تبيان الفوائد الاقتصادية بالنسبة للجميع من وراء هذا الاحتلال الذى عرضه بكل هدوء وبلا حياء •

ويتوفر لدينا فى هذا المقام دليل ، غير موثوق به كثيرا ، على أن نابليون ، قد لعب بعينة من هذا المشروع الصهيونى ، فقد ظهرت فى الناني والعشرين من آيار لعام ١٧٩٩ رسالة فى « المونيتير » وهى الجريدة الرسمية للحكومة الفرنسية التى كانت قائمة آنذاك ، مؤرخة فى الفلسطينية تجرى سطورها على هذا النحو : « لقد أمر نابليون بأصدار منشور يدعو فيه جميع يهود آسيا وافريقيا الى الانضمام الى بيارقه من أجل إعادة بناء مدينة القدس القديمة • وقد جند فى جيشه عددا كبيرا منهم وها هى كتائبهم تهدد الآن مدينة حلب • » (١)

وبعد بضعة أسابيع ذهبت المونيتير الى تبرئة نفسها من مسئولية نشر هذه الرسالة لأسباب ظلت مجهولة للأسف فأوضحت قائلة : « ان بونا برت

(١) اورد المؤلف هذا النص بأصله الفرنسى ثم ثناه بترجمته الى الانجليزية -

لم يفتح سورية لمجرد أن يعيد لليهود مدينتهم القدس • ان في رأسه خططا
أوسع من هذه ؛ خططا في الزحف منها على القسطنطينية والغاء الرعب في
قلب فينا وسانت بطرسبورج •

وقد محص المستر فيليب جويدالا هذه المقتطفات من جريدة الحكومة
الفرنسية فتألق فيها ذهنه الوقاد وأطل التساؤل فيها في تنايا كلامه غير
مفتنع بكل ما جاء فيها • انه لم يستطع أن يجد في أرشيف الحملة المصرية
أى أثر لهذا الاعلان المذكور ولا أى وثيقة من وثائقه تسنده ، أو حتى تشير
اليه • كما أن حلب لم تهددها في يوم من الأيام أية كتائب يهودية • وان
أحدا لم يهدد حلبا • بل ولم يقترب منها نابليون أبدا •

وحين يسائل المستر جويدالا نفسه ، نتيجة لذلك ، عما اذا كان
لاستعادة الدولة اليهودية في فلسطين نصيب من خطط نابليون يجيب
قائلا : « الجواب ليس خلوا من التمسك • » بيد أنه يفصل في هذا الأمر
فيقول ان هناك أضييق الاحتمال في أن تكون فكرة من هذا النوع قد طافت
بذهن ذلك الجندي العظيم • انه يعترف بأن من المحتمل ان « كان نابليون
صهيونيا مؤقتا لبضعة أسابيع من ربيع عام ١٧٩٩ • » ولقد أحسن اختيار
هذه الصفة • اذ أن هذا الوقت هو أقرب الأوقات التي يمكن أن يكون فيها
نابليون صهيونيا •

ولا نكاد هذه الواقعة الغريبة الصغيرة تسنح منا أن نسجلها هنا
لولا نتيجة واحدة ترتبت عليها • لقد نشر المستر جويدالا أبحاثه في هذا
الموضوع في محاضرة ألقاها في الخامس والعشرين من آيار لعام
١٩٢٥ أمام الجمعية التاريخية اليهودية في اليونيفيرستي كولدج بلندن •
وقد تصادف أن كان المستر لويد جورج ضيف الشرف لهذه الجمعية في
تلك المناسبة ، فنهض بعد المحاضرة وأزجى التحية المعتادة للمحاضر • وكان
في كلمته هذه أصرح وأكثر توسعا في شرح الظروف والملابسات التي تبنت
فيها وزارة الحرب (١) قضية الصهيونية ••• كان أصرح وأكثر توسعا ،
بصفة خاصة ، من نفسه ، ومن أى مرة تحدث فيها بعد ذلك بهذا الخصوص •
انه تضافر غريب حقا للظروف ••••• تصريح سبه رسمي منسوب الى
الامبراطورية الفرنسية ، ومحاضرة خاصة عنه بعد مائة وخمسة وعشرين

(١) وزارة الحرب في بريطانيا مجلس يتألف من بعض وزراء الامبراطورية ويختص
بشئون الحرب في أيام الحرب وهو مقابل لمجلس الدفاع الاعلى في الجمهورية العربية
المتحدة ، وهذه الوزارة هي غير وزارة الحرب التي تسمى في بريطانيا مكتب الشؤون
الحربية او المكتب الحزبي - المغرب •

عاما ثم يغشى المستر لويد جورج السبب في تبنيه سياسة كانت كارثة محققة على الامبراطورية البريطانية .

وإذا عدنا الى تاريخ الصهيونية فسنجد أنه لم يتخذ أهمية أو مطهرا سياسيا الا في النصف الأخير من القرن الماضي . ففي عام ١٨٢٧ زار السير موسى مونتيفيور وهو يهودى من محبى البشر وأهل البر - أول يهودى يصبح محافظا لمدينة لندن - وتراءى له ، على حد قوله ، أمل توطين « بضعة آلاف من اخوتنا في أرض اسرائيل » . فنوى أن يؤسس شركة لهذا الغرض وكتب الى محمد علي ، الباشا المصرى الذى كان يمثل سورية في ذلك الحين . بيد أن محمد علي صد عنها الى مصر فتبددت خطط السير موسى .

وقد أخرج كتاب مختلفون خلال العقود القليلة التالية مشاريع لاعادة توطين اليهود أو تعهدوا بالرعاية فكرة وجوب توطينهم فيها . وكان بعضهم من غير اليهود ، وأبرز هؤلاء لورانس أوليفانت . وأخذ مشروعه ومعظم المشروعات الأخرى المقترحة . يتخذ صفة سياسية . وهناك دعاة لا تغلت من عين أحد في عنوان الكتاب الذى أرسله عقيد يدعى جورج جولد الى الملكة فيكتوريا في عام ١٩٤٦ : تهدئة سورية والشرق باقامة مستعمرة يهودية في فلسطين وقد اقترح سير يدعى السير هولنجز وودت Hollingsworth - وهو سلف سياسى صريح من أسلاف المستر أورومسبيجور - وجوب انشاء دولة يهودية في فلسطين تحت سيادة بريطانيا لتحمل الطريق الى الهند .

وقد أسست جمعية تدعى « شوفيت زيون » (أى « محبى صهيون ») بضعة مستعمرات يهودية في فلسطين بدأت في عام ١٨٧٠ وأكبر هذه المستعمرات هي مستعمرة مكفة اسرائيل « وتأسست جنوبى يافا وما تزال موجودة .

حقا ان الاضطهاد هو الذى أخرج الصهيونية الحديثة الى حيز الوجود الاضطهاد بشكلى مختلفين كل الاختلاف . ففي عام ١٨٨١ نشأت عن رد الفعل الذى أعقب اغتيال القيصر البرالى الكسندر الثانى ، موجة من الطغبان في روسيا . وكان من نتيجة ذلك ، كآمر مسلم به ، احدى تلك المذابح المنظمة التى توقع في أحيان كثيرة باليهود . وكان التشريع الذى أعقب هذه المذبحة مفرطا في العنف والاستبداد وملحقا أشد الأذى بهم لدرجة أن جموعا غفيرة منهم هربت من البلاد ، واتخذت غالبيتها طريقها الى الولايات المتحدة حيث زاد عدد اليهود في بحر خمسة وثلاثين

عاما من مائتين وخمسين ألفا الى ثلاثة ملايين • واتخذوا من نيويورك ، وفيها مليون منهم ، أهم مركز لسكنى اليهود فى العالم •

وعرج بعضهم على فلسطين • فيقول المستر شتاين أن ثلاثة آلاف منهم قد نزلوا مدينة بافا فى بحر اثني عشر شهرا من صدور « قوانين مايو » الروسية لعام ١٨٨١ » ويقول أنهم كانوا طرازا جديدا من المستعمرين ، وانهم ألجوا الى أفضلية فلسطين على الولايات المتحدة أو أى ملجأ آخر • أما المستعمرون السابقون فلم يكن لهم أى خيار ، حين ذهبوا الى فلسطين ، فى الذهاب إليها أو الى أى مكان آخر • ثم يضيف المستر شتاين قائلا : « كما أنهم لم يكونوا مدفوعين بتلك العاطفة القديمة قسم العالم والتمنى كان رائدها الموااة الدينية للمدائن المقدسة • »

وهذه الحقيقة واضحة وتدعو الى التأمل وكذلك العبارات التى استخدمت فى وصفها • اذ فيما يتعلق بوجود رابطة بين فلسطين وبين اليهود المبعثرين فان هذه الرابطة هى ذاتها هذه « العاطفة القديمة قدم العالم » التى يؤكد المستر شتاين قوتها ما دام يؤكد وجود طائفة يهودية تقوم على أساسها فى الفقرة التى أوردناها عنه قبل صفحة أو صفحتين • لكن المستعمرين الجدد يأبون أن يكون لهم شأن يربطهم بهذه العاطفة القديمة قدم العالم • ومع ذلك فهم يستغلونها فى الوقت الذى يرفضونها فيه ، فاعلين ذلك كما لو أنها ما تزال موجودة • وقد قدر لهذا الاستخدام للجسور بعد نفسها ، للعبور عليها الى فلسطين ، قد قدر له فى الواقع أن يصبح أمرا مألوفاً بالنسبة للحركة الصهيونية الحديثة الفريدة فى نوعها •

أما النوع الثانى من الاضطهاد الذى كان له أثر كبير فى تحقيق قيام هذه الحركة فقد وقع على شخص فرد وليس على جمهرة ، ألا وهو تحرير الكابتن درايفوس وترحيله الى غيانا • ولقد أرسلت جريدة النيو فرايه برس Neue Freie Presse : جريدة فينا الشهيرة يهوديا شابا من بودابست كمراسل لها فى باريس عام ١٨٩١ اسمه تيودور هرتزل • وقد قدر لهرتزل هذا بعد ثلاث سنوات أن يدون محاكمة درايفوس هذا وكل ذلك العداء للمسامية الذى أثارته هذه المحاكمة والذى صاحبها (بفتح الحاء - العرب) وقد ترك كل ما رآه هذا الشاب وما سمعه أثرا عميقا فى نفسه لدرجة أنه أخذ يعى الى من من الناس ينتمى وأى وضع صعب فى العالم وضعهم • لقد كان يعتبر نفسه فى السابق رعية استروهنغارية (أو نمسوية مجرية) ولا شىء غير ذلك ، فأصبح يرى فى

نفسه الآن يهوديا ولا شيء غير اليهودي ، أما وأن اخوانه اليهود قد هاجروا بأجسامهم من روسيا فقد هاجر هو من النمسا بعقله .

واستعرض هرتزل أحوال اليهود ٠٠ في شرق أوروبا كانوا مضطهدين ، وفي غربها كانوا محتملين ، على أحسن الفروض ، حسبما خيل اليه ، وفي بعض البلدان كان يقل هذا التحمل شيئا فشيئا . اذ حينما كان يوجه اليهود فإن عداء سكان هذا البلد كان يتزايد ضدهم كلما رفعتهم قدراتهم الذاتية وزادت من نفوذهم فيه فأثقلوا على اهله .

وتمعن هرتزل في هذه المعضلة المفزعة حقا فخلص الى الاستنتاج بأن الحل الوحيد لها هو أن تكون لليهود دولة خاصة بهم . ولم يعن بهذا دولة يجب على اليهود جميعا أن يذهبوا اليها، بل دولة يجب أن يذهب اليها أولئك اليهود الذين أصبح مركزهم لا يطاق سواء في روسيا أو في غيرها . وكانت فكرته هذه بديلا مؤقتا قدر له في الحقيقة أن يعالج موقف اليهود المضطهدين الحالي فلم يتبصر كثيرا في المستقبل . وقد نشر نظرياته هذه في عام ١٨٩٦ في كتاب عنوانه Der Judenstaat أى الدولة اليهودية وقد أحدث هذا الكتاب دويا كبيرا وقرىء في جميع أنحاء العالم ترجمت .

ولم يدع هرتزل بادىء ذي بدء الى اقامة دولة يهودية في فلسطين . وانما كانت صرخته صرخة من أجل دولة هنا أو هناك أو في أى مكان من العالم طالما كانت دولة يهودية . والواقع هو أنه تلقى ، بعد سنوات عرضا من الحكومة البريطانية عن طريق ما يعرف الآن بـ « المنظمة الصهيونية » . وكان هذا العرض يتألف من ستة آلاف ميل مربع من الأراضي غير المأهولة في مرتفعات شرق افريقيا البريطانية . ولو كان الأمر بيد هرتزل لاكتفى من فكرته بهذا العرض ، الذى عرض عليه فى عام ١٩٠٣ ، بحدوده ذلك الاهتمام الذى كان المستر بلفور ورئيس الوزراء يوليانه منذ زمن بعيد للشئون اليهودية . لقد اعتقد هرتزل أنه خطوة نحو الهدف . لقد أسماه « ناخنا سايلا » أى مراح ليلة لأولئك الذين لم يكن لهم وطن فى ذلك الحين . ولكن كان فى الحركة الصهيونية آنذاك الكثيرون جدا ممن تركزت انظارهم على فلسطين فردوا على العرض الاقربى بالرفض وان كان رفضا مؤدبا مقرونا بالامتنان .

أما موقف هرتزل تجاه فلسطين فهو أنها الموضع الذى يفضل لاقامة الدولة اليهودية لأنها ليست بالشيء الذى يستغنى عنه . وكانت كتاباته قد أيقظت قدرا كبيرا من المشاعر اليهودية ووجدتها حولها فاجتمع ممثلون لهذا الجنس من بلدان كثيرة فى عام ١٨٩٧ فى بازل من سويسرة ليعقدوا

أول مؤتمر صهيوني . وكان قد تم السعي لدى سلطان تركيا في الوقت عينه وبدأت في الاتفاق فرصة في أن يمنح للمنظمة الصهيونية المتأسسة حديثا مكانا تحتله من فلسطين . وكان الهدف هو تكوين شركة صاحبة امتياز ، لها امتيازات « شركة جون » ومقرها في لندن . وكان هرتزل وهو يلقي خطاب الرئاسة في المؤتمر يحدوه هذا فأعلن أن « هدف الصهيونية هو أن تنشئ في فلسطين وطنا قوميا للشعب اليهودي معترفا به اعترافا علنيا ويتمتع بضمانات قانونية » . وكحقيقة مسلم بها سقط مشروع الشركة صاحبة الامتياز هذه ، ولم يكن عبد الحميد نفسه يستنكف كثيرا من بيع فلسطين وشعبها في مقابل نم ن قدى لكن المبلغ الذي طلبه ، وهو عشرة ملايين من الجنيهات ، كان بعيد المنال . كما أنه أصبح يدرك مع تقدم المفاوضات وانكشافها بأن هناك مشاعر اسلامية ضد المشروع تزداد قوة يوما عن يوم أكثر مما توقع فكان من نتيجة ذلك أن تناقست رغبته في عقد الصفقة . بل والواقع انه قطع وعدا ، استجابة للاحتجاجات التي صدرت من فلسطين، بأنه سيفرض رقابة على الهجرة اليهودية ، وإن لم يفعل شيئا كثيرا وفاء بهذا الوعد . وعلق الصهاينة بعض الآمال . غداة سقوط عرشه ، على الشبان الاتراك الذين كان بهم هم أنفسهم صيغة يهودية قوية ، (ويقول السيررونالد ستورز : « لقد كانت لجنة الاتحاد والترقي واقعة تحت تأثير دونميه وهو يهودي مستتر ») بيد أن الصهاينة امرعان ما خاب ظنهم اذ كانت حركة الشباب الاتراك حركة سرية محلبة لا تستهويها القومية اليهودية التي تسببت في وجودها الاحداث التي وقعت على اليهود في روسيا . ولأن نظروا أنفسهم لدى الناس على أنهم يعطفون على الصهيونية السياسية . فمعنى ذلك أنهم يجردون أنفسهم من صفة عقيدتهم التركية القومية .

وليس ثمة من مناسبة هنا تدعونا للافاضة في جميع التفاصيل التي أعقبت قيام صهيونية ما قبل الحرب . اذ كان مؤتمر عام ١٨٩٧ أول مؤتمر من سلسلة مؤتمرات طويلة عقدت في مختلف المدن والبلاد . وقد نعت كاتب فرنسي هذه المؤتمرات بقوله : « برلمانات بدوية مترحلة حقا » وقد عقد المؤتمر الثاني عشر منها في فيينا في العام الذي سبق الحرب مباشرة . أما عن هرتزل نفسه فكان قد مات قبل الأوان في عام ١٩٠٤ من فرط الارهاق في العمل . لقد أنشئت المنظمة الصهيونية لكي تجسد هذه الحركة ولكي تعقد المؤتمرات ، ولكي تشكل بوجه عام هيئة ممثلة لليهود تتولى اجراء المفاوضات . وقد ارتفعت العضوية فيها في وقت من الاوقات الى ٢٠٠.٠٠٠ لكنها انخفضت الى ١٣.٠٠٠ غداة اندلاع الحرب .

وإذا ما قورن هذا العدد بتعداد اليهود في العالم آنذاك وهو نحو ثلاثة عشر مليونا فان هذه الثلاثة عشر ألفا ليست بالنسبة الكبيرة وبالاخص حين يفرض عليها مذهبا أن تدعى أمام العالم أنها تمثل جميع يهوده • وهي لا تمثلهم قطعا • ان بعض اليهود المملقين والمسحوقين وجماعة من شباب اليهود « المثقفين » الدنيويين ، في روسيا وفي عدد من البلدان الاخرى ، قد تبنا عقيدة هرتزل في الدولة اليهودية • أما اليهودى التجارى المتوسط وجمهرة الحاخامين الارثوذكس واتباعهم أما اليهودى المتوطن فى اسكندرياته الحديثة الكثيرة ، أما تسعة أعشار هذا الجنس فهم يتوارون خجلا منها •

وكما هو المعتاد ، كان لهذه الجماعة الصغيرة ، التى أرادت أن تذهب الى مكان ما ، وأن تفعل شيئا ما ، طريقها الخاصة ، على أى حال • ان الثلاثة عشر ألف جندى خيال الصهاينة قد شنوا الهجوم على مستشاريات اوربا وأمريكا وخلقوا فيها عاصفة من الهياج وأوقعوا فى نفوسها انطبعا عن وحدة لا تقاوم ، دون أن تقيهم ملايين الراجلين اليهود الذين كانوا يعيشون فى سلام فى المواطن التى ينتمون اليها • ومع ذلك فان وجود هذه الجمهرة اليهودية غير الصهيونية نقطة قميئة بأن لا تغيب عن البال ، الآن وفى كل حين ، دون ما حاجة بنا الى أن نقول عنها شيئا • وفى وسعنا دائما ، وكلما قام صهيونى سياسى يعلن أن الصهيونية ، كما بدى تطبيقها فى فلسطين هى قضية اليهود أن نصححه بكل لطف قائلين: انها ليست قضية اليهود وانما هى قضية يهود •

والنتيجة الاساسية لمزور ستة عشر عاما بين أول مؤتمر صهيونى وبين المؤتمر الصهيونى الثانى عشر هى أن العقيدة التى قيل بها أثناءها قد تبدلت تبديلا محددا واضحا من مشروع هرتزل لاسكان اليهود المضطهدين فى رقعة من الارض خاصة بهم الى هذه العقيدة الصهيونية الحديثة فم جعل فلسطين بلدا يهوديا لكى ترفع مستوى مركز وأهلية اليهودى خارجة ، ولكى تمنحه ملجأ روحيا لمشاعره القومية أو ملجأ قوميا لمشاعره الروحية أو أبا منهما يفضل •

وبهذا نأتى على قصة صهيونية ما قبل الحرب فيما يتعلق بمسا تدفعنا الى قوله منها أغراضنا الراهنة • بيد أن هناك بعض الامور المرتبطة بها والتى كان لها أثر بين على مشاكل الساعة • ان هذه النقاط بالذات لم تلاحظ حتى الآن كما يجب ، وما تزال فى حاجة الى أن نورد لها غايتها •

وأولها ذلك النص الذى أوردناه ، من خطبة الدكتور هرتزل الرئاسية أمام المؤتمر الصهيونى الأول ، قبل قليل ، والذى هو جدير بالدراسة مرة أخرى . لقد قال : « ان هدف الصهيونية هو أن تنشئ فى فلسطين **وطنا** للشعب اليهودى معترفا به اعترافا علنيا وفى ظل ضمانات قانونية » يمكننا أن نورد كلمات رائده الدكتور بنسكو ، جنباً الى جنب مع هذه الكلمات . لقد كتب هذا فى عام ١٨٨١ قائلاً ان اليهود « يجب أن يدمجوا **كأمة** بين الأمم ، عن طريق استملاك وطن خاص بهم » (التشديد على الحروف من عندى - المؤلف)

والغرض من هذين التشديدين هو أنهما يبينان كيف أن عبارة « الوطن القومى » التى توجد فى تصريح بلفور قد اخترعها الصهيينة قبل أن تعلن كمفتاح للسياسة البريطانية ذاتها بعدة عقود . والادعى من هذا أنه قد قدر لكلمة « وطن » هذه أن تستخدم من قبل مستعربى البريطانيين على أنها مرادف ، أو على الأصح ، عل أنها اسم مستعار للدولة اليهودية وهى ما تزال فى دور الحضانة ، بيد أنه لم تحدث فى أى يوم من الايام أية تعمية أو اخفاء بصدد معناها حين اخترعها أوائل القادة الصهيينة . فحين تحدث هرتزل عن « وطن » عنى به دولة ذات سيادة لأن هذا المفهوم هو المفهوم الوحيد الذى صرح به . وحين تحدث بنسكو عن « وطن » تحدث عنه على أنه « أمة بين الأمم » .

وهذا يجلو للأذهان ما لم يهتم أى من الأطراف المعنية الكثيرة جداً بأن يجلوه ، ألا وهو أن الصهيونية كانت تعنى منذ البداية السيادة . أيا كان المكان الذى سيوضع عفشها فيه . أما الاقوال الكاذبة عن المشاركة وعن السلطة المختلطة فى فلسطين - وهما فى حد ذاتهما أمران مستحيل الدفاع عنهما - والتى ظلت الصهيونية تقول بهما حتى اقترح مشروع التقسيم صراحة فى عام ١٩٣٧ ، فانما اخترعت لتضليل العرب ولم تكن فى أى يوم من الايام هدف هذه الحركة . لقد كان هدف هذه الحركة دوماً ما قال به هرتزل . . السيادة ! أما التلفيق الآخر فانما طرح فى السوق حين كان يسود الاعتقاد بأنه يمكن خداع العرب بواسطة نظام يفقدون فى ظله سلطتهم الطبيعية تدريجياً ، لا أكثر ولا أقل .

ونقطة السيادة الضرورية ليست النقطة الوحيدة التى نخرج بها من تصريحات هرتزل . وربما يكتشف القارئ اذا ما قرأها خروجاً كبيراً فيها عن العقل جديراً بالتأمل . فاذا كانت نظرية هرتزل الاساسية هى وجوب تخلص اليهود المضطهدين أو المسحوبة منهم جنسياتهم من البيئة

الزائفة التي يعيشون فيها ، وأن يؤسسوا دولة لا يشاركون فيها أحد فيكونوا بذلك نظراء لكل الناس . إذا كان هذا هو ما يعنيه هرتزل فكيف تأتي له إذن أن يعتبر فلسطين تلك البقعة التي يمكن أن تؤسس فيها هذه الدولة ؟ انها رقعة لا يمكن اليهود أن يكونوا فيها آمنين على أنفسهم لأن العرب يعيشون فيها بمئات الألوف منذ الازل . فكيف استطاع هرتزل أن يركز أبصاره على فلسطين إذن حيث لا يمكن الحصول على الظروف الملائمة لدولته الـ Sinn-Fein الـ « لنا وحدنا » ؟

ان هذا السؤال في محله لكن من العسير على الصهاينة أن يجدوا له جوابا . وليس هناك شيء أكثر دلالة على صفة الحركة الصهيونية من حقيقة كونها لم تعر في تلك الأيام الحرجة من القرن الماضي أدنى اهتمام للعرب الذين ياهلون تلك البلاد التي يركزون عليها محاولاتهم وجهودهم ويخيل لى أن ارتقاعة من حاجب عين صهيونية لم يتعب أحد من الصهاينة نفسه بأن يرفعها حين تقع عينه على هيئة انسان عربى !

والمستتر شتاين المخلص هو أحد الكتاب الصهاينة القلائل الذى يبدو عليه أن يدرك هذا القصور . وهو يبذل كل ما فى جهده ليبرره . فهو يفسر هذا الموقف قائلا : « لسنا فى حاجة الى أن نقول ان هرتزل لم يدر بخلده ، حين تحدث عن الحصول على امتياز (من السلطان) ، أى اجلاء للسكان العرب عن فلسطين لصالح اليهود . لقد كان - ونحن نحكم بهذا من خطبه - لا يكاد يدرك أن فى فلسطين من ياهلها ، فأسقط العرب من حسابه عن سلامة نيه » .

فهل رأيتم قولا أغرب من هذا القول فى حياتكم ؟ مشروعات ضخمة توضع وتربط بها مصائر جماهير غفيرة من البشر ومع ذلك فلا يقوم الرجل الذى وضعها بالخطوة الضرورية الاولى من استكشاف الارض التى ينتوى أن ينفذها فيها ! ولا يبدو أن أحدا من شركائه قد اقترح عليه القيام بها . أم لعله لا يوجد فى العالم عرب بالرغم من كل هذا الفارق الذى سينشأ لديه ولدى زملائه من وجودهم !!

وتوالت انعقادات المؤتمرات الصهيونية عاما بعد عام . وتحدث المتحدثون ، على المنابر ، وفى أروقة وطرقات أماكن الاجتماع ، عن أنفسهم وعن أبطال قضيتهم بين صنوف اليهود ، وعن خصومها بين هذه الصفوف وعن التوفيق بين العوامل المتنافرة فى برامجهم ، وعن آمالهم ومخاوفهم بصدد عون غير اليهود لهم ، وعن ثقافتهم الخاصة بهم ، وعن حاجتهم هم الى

التوسع الروحي • وليس هناك شك في أن هذه موضوعات معقولة ومحترمة
الا أنه متى طرحت هذه الموضوعات جانباً لكي يبحثوا في أمر وجسود
سكان في هذه الأرض التي يقترح أعضاء هذه المؤتمرات الاستسائية
عليها ؟ حقا ، متى ؟ هل كرسيت جلسة يوم واحد من مؤتمر واحد من
هذه المؤتمرات للبحث في أمر التفاهم الذي ينبغي الوصول اليه مع شعب
فلسطين ؟ ولا جلسة واحدة !

أما حال هرتزل فهو أعرب • انه يسعى وراء السهرة • ويدور في
أرجاء العالم لينشر انجيله • فيقابل الملوك ورؤساء الحكومات مقابلات
لابد وأنها كانت غريبة • فهو يتداول هذا الأمر مع السلطان ، حاكم
فلسطين ، ويخرج من عنده مع ذلك دون أن يعلم أن لفلسطين أهلها •
وهو يقابل البابا ويتحدث اليه عن اسرار الاماكن المقدسة ولا يلم بشيء عن
السكان المسيحيين الذين يحجون اليها دوما • والأدهى من ذلك أن يزور
فلسطين فلا يبدو عليه أنه قد عثر فيها على غير زملائه اليهود ! ويخيل
الى أن العرب كانت تبنتهم الأرض أمامه كما هو الحال في كتابهم الف
ليلة وليلة ، وينقلب اللسان العربي بفعل ساحر الى لسان عبري أو ييندي
أو ألماني !؟

بيد أننا حين نتحول عن هرتزل الى شركائه من دهاقنة الصهاينة ،
بل وأكثر من هذا حين نمعن النظر في أفعال الرؤساء الصهاينة الذين
جاءوا بعده ، نرى أن هذا العذر في عدم تبين العرب بجافي كل منطق
وعقل • انهم يطلبون منا أن نفهم أن خلو الذهن من العرب هذا قد دام
لست أو سبع سنوات • اذ يقول المستر شتاين وهو يؤرخ لفترة تقع حول
سنة ١٩٠٥ انه قد « أصبح الآن بتضح أن فلسطين لبست خالية من
الناس • » وكان هرتزل قد مات في يوم ١٩٠٤ بعد ستة مؤتمرات •
وقد وضع موته نقطة فاصلة في تاريخ الحركة الصهيونية •

وليس في مقدوري أن أرى كيف يمكن أن يقتنع انسان بأن هذا
العدد الكبير من اناس متعلمين مشهود لهم بالذكاء قد ظل يجهل لست
سنوات وجود العرب • واذا كان فعلا قد ظل يجهل وجودهم الى هذا الحد
فان حاله هذا هو أسوأ حال من الجهل الأنيم يمكن أن يتصوره عقل ،
ويخلق بنا ألا نترك له فرصة يستفيد بها من ورائه • لكنني لا اعتقد
بهذا الجهل • بل اني اعتقد بأن هذه الإقامة الطويلة عليه ، والتي استمرت
حتى قيام الحرب (العالمية الاولى - العرب) ثم استأنفوها بعد ذلك بشتى

النوايا ، كما سنرى حين نحلل تصريح بلفور) تفضح تماما قضية الصهاينة وتفضح أصدقاءها في وزاراتنا

لقد كانت فلسطين قبل عام ١٩٠٠ تسعة عشر مستعمرة صهيونية وكانت مستعمرات ريشمون لوزيون ، وزخرون جاكوب ، وروش بيناه تؤوى في أول الثمانينيات آلاف من اليهود الذين جاءوا من روسيا هاربين . وكانت «شركة العالمية اليهودية الاستعمارية» التي أسسها البارون هسبرش في عام ١٨٩١ ، منهمكة في عام ١٩٠٠ في إعادة تنظيم هذه المستعمرات اليهودية التي ينفق عليها البارون ادمون دي روتشيلد بسخاء وكانت منظمة «شوفيف زيون» أو «محبى صهيون» ، التي تأسست في روسيا وبلجان تابعة لها في فينا ، وبرلين ، ونيويورك ، وباريس ، ولندن مشغولة منذ ست سنوات بتوطيد اليهود . وكان صندوق الجباية الاستعماري اليهودي ، Jewish Colonial Trust ، قد تأسس وتسجل في انكلترا لجمع الأموال واستخدامها في فلسطين . وقد تلقى في السنة الأولى من انشائه ربع مليون جنيه . وكان «الصندوق القومي اليهودي الذي أنشئ لامتلاك الاراضي في فلسطين» قد تأسس في عام ١٩٠١ . وكانت في القدس آلاف مؤلفة من اليهود ، وكذلك في يافا .

وكانت جميع هذه الصناديق وهذه المستعمرات ومن يأهلونها على اتصال دائم منتظم مع الشخصيات والهيئات اليهودية في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا . وكان الكثيرون من يهود القدس يتلقون الاموال من قبل اخوانهم في الدين حتى يكونوا وحدهم المسئولين عن شسبكة من المراسلات والاتصالات بين فلسطين وبين المعابد اليهودية ، التي لا حصر لها ولا عدد ، والمنتشرة في جميع أرجاء الكرة ، واباع هذه المعابد . وكان من الضروري أن ينتظم التعاون شركة شوفيف زيون والشركات اليهودية الدنيوية الاخرى مع المنظمة الصهيونية والمؤتمرات الصهيونية . وقد حدثت في مؤتمر بازل وفي المؤتمرات التي تلتها مناقشات لا نهاية لها حول هذه المستعمرات . ولا بد أن الظروف التي كانت تسود فلسطين ، ووجود العرب فيها ، والطرق المختلفة التي كان يعبر بها هؤلاء العرب عن مشاعرهم تجاه هذه المستعمرات اليهودية القائمة وتجاه الوعد باقامة المزبد من هذه المستعمرات ، قد كانت معروفة لدى جميع الصهاينة النشيطين بألف وسيلة من الوسائل .

والاستنتاج الوحيد اذن هو أنه اذا لم تكن الصهيونية تعلم بوجود العرب فما ذلك الا لأن معظم الصهاينة قد رأوا في العرب عقبة تقف في

طريقهم فلم يشاءوا أن يروهم • وانه استنتاج يفرض نفسه على المراقب ان قادة الصهاينة والبارزين بين اتباعهم لم يريدوا ، - وهم تجميع هذه الفكرة المنافية لكل عقل ، الثقالة بأن فلسطين قد كانت دائما ارنا موقوفا على اليهود ، - أن يروا أى شىء يتعارض معها • وأن يخطبوا ود العرب وأن يناقشوا معهم ، بأى مدى (من الامداء) ، ذلك الحاجز الذى يمثله وجودهم ، أو قد يمثله فى المستقبل ، فى وجه تحقيق آمالهم فمعنى ذلك أن يسفها ويدحضوا هذه الحجة التى بنيت عليها تلك الخطط ، ومعنى ذلك أن يكشفوا لمعظم عالم غير اليهود ، ولجزء كبير من عالم اليهود ، فى الواقع ، أن هناك عاملا من عوامل الوجود يفند أكذوبة ملكية اليهود لفلسطين ويقلبها رأسا على عقب •

ولست أقول ان جميع قادة الصهاينة قد نظروا الى هذا الامر على هذا النحو تماما • اذ لا بد أن بعضهم قد فكروا فى العرب بصورة تخلو من الاهتمام والمبالاة • لا بد وأنهم اعتبروهم غير بشر سرعان ما يهدون خيامهم ويختفون بعد أن يوزع عليهم من النقود أو يعطون بديلا طبيعيا آخر مرادفا للنقود • لسوف يتبددون كالضباب أمام شمس صهيون !

فلم يضع هؤلاء الذين يفكرون مثل هذا التفكير الوقت فى التفكير فى أناس قليلي الشأن كالعرب ! اذ أن سلطان تركيا هو ، فيما يتعلق بما يعنيههم هم ، سكان فلسطين المؤقتين ، فعنه تحدثوا ومعه تفاوضوا ولو بغبر اصابة نجاح •

بيد أن معظم الاشخاص الرئيسيين فى الحركة الصهيونية يجب أن يقعوا تحت طائلة جريمة أنهم لم يرغبوا فى أن يحسوا بوجود العرب ، لقد لفت انبأهم اليهم رجل واحد على الأقل ينتمى الى زمريهم • انه أشاد هاعام • وأشاد هاعام هذا اسم قلم للكاتب اشر جنزيرج الذى أضحت كتاباته ومقالاته وأبحاثه البؤرة الادبية التى يجتمع حولها جميع اليهود الذين يعارضون اقامة الدولة اليهودية •

ولقد ميزه تجرده الجلى وإشاره العظيم ورفعها مكانه بين معاصريه وقد أعلن هذا ، أن الصهيونية السياسية ، أى تلك الزمرة من اليهود التى تعمل على اقامة دولة يهودية ، تدمر قضية اليهود • فكتب فى عام ١٨٩٧ قائلا : « ان اليهودية لا تحتاج فى الوقت الحاضر الا الشئ القليل انها لا تحتاج الى دولة مستقلة ، بل الى خلق ظروف فى أوطانها الحالية ملائمة لتطورها • وحسب • انها تحتاج الى محلة ذات حجم لا بأس به يعمل فيها اليهود فى كل فرع من فروع المعرفة ، ابتداء من الزراعة

والمهن اليدوية حتى العلوم والآداب ، ودون أن تفقد في طريقهم أية عوائق » .

بل ولقد قدم آشادهاعام احتجاجا ، قبل مؤتمر بازل بسنوات ، ضد تعامى الصهاينة المتعمد أو العرضى عن العرب . فقال ان من الحماقة أن ننظر اليهم على أنهم أناس صغراء متوحشون ليسوا بقادرين على أن يروا ما يدور حولهم . وقد جلس فى مؤتمر بازل « وحيدا بين أصدقائه كالرجل الشاغل فى وليمة الزفاف » ، ثم كتب بعد ذلك عن السخف المطبق لسياسة هرتزل وقيادته التى تهدف بدعوته وتزمت الى اقامة دولة يهودية فى فلسطين .

وبعد ذلك بثلاثة عشر عاما كتب فى عام ١٩٢٠ فقال : «لقد تجاهلنا دائما الشعب العربى ، ومنذ بداية البداية » .

وتلك هى الحقيقة . لقد هدفت الصهيونية ، وهى تأخذ شكلها الى أن تحتث العرب من أرضهم وتحل محلهم ، أو توقعت أن تفعل ذلك . وليس يجدى المدافعين عن هذا النظام ، الذى تكامل فى فلسطين رغما من تلك البدايات ، أن يحاولوا الآن انكار صنعتهم الحقيقية . فلو كان هدف الصهاينة دائما التصادق مع العرب ، كما يزعمون ، لاعادوا انتباهها الى تحذيرات آشادهاعام بل ولما كانت هناك حاجة الى اطلاقها ، ولسعوا الى خطب ود العرب بصورة أتوماتيكية تماما ، عن طريق اقناع أولئك الذين يعرضون عليهم أن يكونوا شركاء لهم .

لكن هذا لم يحدث أبدا . ان اتصالات لم تجر ، سواء مع جمهرة الفلاحين فى الارياض أو مع أرباب الحرف وغيرهم من سكان المدن ، ولا رتبت اجتماعات لكسب عطف الجيل الصاعد من الشباب العربى الوطنى ولا تليت آنذاك خطب ولا أرسلت رسائل الى جريدة الثنايمز عن اليهود والعرب وهم يصنعون يدا فى يد مستقبل فلسطين .

أما وقد استوعب القارئ فى ذهنه هذه النقاط فلسوف يفهم الآن ، أفضل من أى وقت مضى ، لماذا لا يستجيب العرب اليوم لتوكيدات الصداقة والود التى تقحم عليهم بين الحين والآخر .

الفصل الخامس

الدول الكبرى والحركة الوطنية - زعامة الحركة تنتقل الى مكة - الشريف حسين - زيارة الأمير عبد الله الى كتشنر - الحرب بين بريطانيا وتركيا - المفاوضات البريطانية ابتغاء لكسب تأييد العرب تبدأ ...

لقد تابعنا في الفصل الرابع تقدم العرب نحو تحررهم من حكمهم الأتراك الى فترة تشرف على بداية الحرب العظمى . لقد نمت الحركات السرية وشبه السرية ، التي كانت تناضل من أجل استقلال العرب ؛ أو من أجل الحكم الذاتي كخطوة أولى ، وتحولت الى منظمات قوية . ولقد أوردنا أسماء عدة حركات منها . وان أبرزها الآن ؛ وجميعها تناضل من أجل الغاية المشتركة ؛ كل على طريقها الخاصة . « الفتاة » و « الأهل العربي » و « المنتدى الأدبي » و « نادى الوطنية » و « حزب العهد » و « الثورة العربية » و « النهضة اللبنانية » و « الإصلاحية » (أو « جمعية الإصلاح ») و « اللامركزية » (« عصابة اللامركزية العثمانية » بالاسم الكامل) . وكانت جماعة النهضة اللبنانية مسيحية بحتة من دونها جميعا . أما عصابة اللامركزية فقد أحييت اسما قديما ، على طريقة ساخرة بعض الشيء ، لأنها كانت تهدف الى الاستقلال التام عن تركيا ؛ وربما كان ذلك عن طريق الحكم الذاتى المحلى .

أما حزب العهد ، الذى كان يتألف من الضباط العرب فى الجيش التركى ، والذى كانت تفرض عليه طبيعته أن يكون سريا ، فلم يكن يؤمن بهدف الحكم المحلى الذى لا يعضى الا الى منتصف الطريق . لقد كان يتطلع الى التمرد على نطاق واسع ويتأهب له فى الحفاء . وكان أعضاؤه يتحولون بخلق يصدق على تسميتهم وليس لهم اتصال بالغرب ، وكانوا يرتابون فى أى ملون غربى قد يقدم فى المستقبل . وكان هذا الحزب

أقوى ما يكون بين أهل الوافدين الذين ولدوا بعيدا عن البحر • وكان أتباعه مبعثرين بين حاميات تركية كثيرة •

وكانت الجمعيات المدنية ، من الناحية الأخرى ، تحتذى حذو أمثلة غربية • وكانت تغص برجال لهم ثقافات غربية • كما أن بعض هذه الجمعيات قد نشأ على أرض أجنبية • وكانت هذه الحركات أقوى ما نكون في سورية التي كانت على اتصال دائم بالغرب عن طريق شاطئها من البحر الأبيض المتوسط ، فكان لابد وأن تنشئ بعض العون لدى الغرب ففعلت أقصى ما في وسعها لكي تقيم اتصالات مع الدول التي تهتم أشد الاهتمام بهذه المنطقة كبريطانيا العظمى وفرنسا ، وروسيا بدرجة أقل • كما لم تتجنب هذه الدولة هذا الاتصال مهما حاولت أن تسلك سلوكا ملتويا • وكان انهيار تركيا متوقعا منذ زمن بعيد • فكان الابقاء على اتصال مع من قد يخلفونها في أراضيها ، في أي وقت من الأوقات ، عين الصواب •

وقد أبدت بريطانيا وفرنسا ، على الأقل ، اهتماما لا تغفل له عين بتقديم سورية أو تقدم الحركة الوطنية العربية • بل وقد أبدتا في الحقيقة ما هو أكثر من الاهتمام • لقد مدتا للوريثين حبلا يصعب على الإنسان تحديد كنهه ، لكنه حبل دبلوماسي معترف به • وربما لم تمد كلتاهما بالمدى نفسه وبالأسلوب نفسه إذ أن كلا منهما كانت لها طريقتها الخاصة • ويمكن أن يوصف هذا الموقف في مرحلتته آنذاك بأنه تشجيع بدون تشجيع • • لقد كان أولئك الذين مد لهم يحسون بأنهم مشجعون (بفتح الجيم - العرب) في حين كان يحس من يمدونه أنهم لم يشجعوهم •

أما وصفه هذا الموقف فهي ، كما قد تتصور ، وصفا دقيقة التركيب • ولا يكاد يكون في الامكان وضع قائمة بمقوماتها • ولسنا في حاجة إلى القول بأنها لا تتضمن المفاوضات الرسمية إذ أنه ليس هناك سفير من سفراء الدول الكبرى أو وزير من وزرائها يحترم نفسه ، يدخل في مفاوضات مع متأمرين يدبرون الحيلولة لحكومة هم أنفسهم محسوبون عليها • لكن الأشخاص غير الرسميين الذين هم على علاقة رسمية بأشخاص رسميين يمكن دائما أن يكونوا همزة الوصل • وأن من واجب القناصل أن يكتبوا تقارير عن الأحوال التي تكون في مناطق عملهم ، وغير هذه الأحوال التي تكون على السطح ، ويتحتم عليهم أن يحصلوا على المعلومات ببعض الطرق الملتوية •

وصحيح أن الأشخاص غير الرسميين قد لا يستطيعون التفاوض مع ثوار المستقبل المنتظرين ، بصراحة ، وعلى المكشوف ، أكثر من صراحة

القناصل والدبلوماسيين . اذ أن عملهم هو جمع المعلومات في المناطق التي يتمركزون فيها أو يرسل بهم اليها . بيد أن المعلومات لا يمكن أن تجمع الا عن طريق التحالفات . وكلما كان هذا التحالف أفضى الى المكونات مع الأشخاص الذين يجري الاستفسار عنهم وعن نشاطهم كلما كان ادعى الى الوثوق منه والاعتماد عليه ، وأحق بالإبلاغ . ان مثل هذا التحالف يعنى تفهم وجهة نظر الحادث ، وفهم وجهة نظره هذه يتحول بسهولة الى احترام مشوب بالعطف ، والاحترام المشوب بالعطف الى علاقات ودية . وليس بين الأصدقاء حدود للأفاق النظرية التي يمكن أن تبحث ، ولا للأمال العريضة التي يمكن أن تصور .

وقد تصورت بنظرة اتسعت آفاقها بالتدريج بصدد مسألة « استقلال العرب الذاتي » في عام ١٩١٣ في سورية ؛ بل وحتى خارج سورية . وان من حسن الحظ أن تسمح لنا أخطار الحرب التي قدر لها أن تشمل في طياتها مصائر مختلف الوثائق ، التي لم يكن يتوقعها أحد ، بتتبع شيء من خطتها العام . لقد أرسل المسيو بومبار السفير الفرنسي في القسطنطينية تقريراً الى المسبو بوانكاريه وزير الشؤون الخارجية آنذاك ، في كانون الأول من عام ١٩١٣ ، عن حديث جرى بينه وبين شفيق بك المؤيد ، احدي الشخصيات العربية البارزة والنائب في مجلس المبعوثان . لقد سأل هذا الأخير السفير الفرنسي بما لا بد وأنه كان صراحة ذهبت بتحفظه ، في سياق الحديث ، عما اذا كانت الحكومة الفرنسية ستُرسل قوات عسكرية الى حلب للتدخل اذا أرسلت تركيا قوات الى سورية لتبقيها تحت الحكم التركي . وكانت لفرنسا سابقة للتدخل العسكري حدثت في عام ١٨٦١ حين أرسلت فرقاً عسكرية الى سورية على أثر مذبحه وقعت على المسيحيين السوريين . وكان يمكن أن يتحول هذا التدخل الى احتلال فرنسي لو لم يسو اللورد ديوفرن العظيم الذي أرسلته بريطانيا ، هذا الأمر مع الأتراك بمهارة ، وقيل أن تصل القوات الفرنسية ، حتى لا تكون هناك ذريعة بتذرعون بها للبقاء هناك ، فعادوا الى فرنسا وهم بالأحرى كارهين .

ولم يكن المسيو بومبار في عام ١٩١٣ يستطعم أن يصغى الى مثل هذه الاقتراحات بالطبع . فقال لزاره ان أفضل شيء بقلعه العرب هو أن يخلصوا لسلطانهم ، فيكسبوا من تركيا ، بجلى الولاء لها ، الحق في أن يكون لهم موظفهم السوريون المنوطة بهم ادارة سورية . لقد قال بالحرف الواحد :

« Ils auraient réalisé toutes les réformes réalisables aujourd'hui et desquelles pourraient par la suite sortir toutes les autres. »

أى : « لسوف تتحقق جميع الإصلاحات التي يمكن تحقيقها اليوم والتي ستجر وراءها في المدى الطويل جميع الإصلاحات الأخرى » .

وأضاف السفير ، الذي كانت له خبرة منصبه ، لعلم المسيو بوانكاريه أن البك يتأهب للسفر الى القاهرة « حيث سيعرض هذا الالتماس الى البريطانيين دون شك ويقارن أجوبتهم بأجوبتي » . وأضاف قائلاً : « Je souhaite qu'elles soient aussi correctes » أى « وأمل أن تكون هذه الأجوبة صائبة » . ولا يبدو أن السفير الفرنسي كان واثقاً تماماً من استقامة البريطانيين ، كما يجب أن تكون الاستقامة ، لأنه استخدم كلمة « وأمل » التي تستخدم دائماً في مذكرات الدبلوماسيين للتعبير عن التمنى أكثر منها للتعبير عن التأمل .

وان من غير المرجح الى أبعد حد ، أن المؤيد بك قد حصل من القاهرة على أى بديل . فلقد كان رجالنا دائماً أكثر استقامة وحذراً من زملائهم ، من أى بلد آخر ، وان ظلوا دائماً وبإصرار على علم حسن بمجريات الأمور . وكانت تقوم في اليمن آنذاك ثورة غير ناضجة ، وقد بولغ في أخبار هذه الثورة في سورية الى حد كبير . وكان للسوريين ضلع فيها . وأرسل القنصل الفرنسي العام في دمشق ، المسيو أوتافى ، بمذكرة تفصيلية الى المسيو بومبار ، في شباط ، ينهى اليه فيها أن ناثباً سابقاً من البصرة يدعى سيد طالب قد رفع لواء الثورة وأعلن أن بلاد الرافدين وقضاء الكويت قد أصبح منذئذ فصاعداً دولة عربية تحت الحماية البريطانية . وقال المسيو أوتافى انه لا يصدق كل هذه الأنباء: كثير من الدخان ولكن من نار صغيرة . وكتب فقال : « ان من رأيي أننا نواجه مجرد مناورة أنجلو مصرية ، لا أكثر ولا أقل ، رسمت لتثير أمام أعين العرب ذلك السراب اللامع من إعادة بناء امبراطورية هارون الرشيد ، تحت حماية بريطانيا » . وكان القنصل العام الطيب القلب قد كتب في سورته الأصلية ، « اننا نواجه مجرد مناورة من صنع عملاء اللورد كيتشنر ، » بيد أنه قى وحى اللحظة التالية عاد فشطب هذه العبارة التي تشير الى عملاء اللورد كيتشنر ووضع في مكانها محاذراً عبارة « مناورة أنجلو مصرية » . وكان شهبسح فاشورة في ذلك الحين مايزال يحوم في سماء مصر .

وفيل ارسال مذكرة المسيو أونافى بشهر حدثت دفعة هامة الى أمام
فى حملة العرب من أجل قضية الحكم الذاتى . لقد عقد اجتماع عام فى
بيروت بموافقة الوالى المتحرر ، وبمبادرة لجنة سورية تأسست منذ عهد
قريب اسمها « لجنة مناقشة الاصلاح الادارى » . وكانت تتألف من اثنى
عشر مسيحيا ، ويهودى واحد . وهذا فى حد ذاته جدير بالملاحظة . لكن
كامل باشا اللطيف بالعرب سقط من سدة الحكم فى تركيا ، وحلت حكومة
« الاتحاد والترقى » لجنة بيروت فى الحال ، وحذرت شعب المدينة من أن
محكمة عسكرية ستتكفل بمعالجة أية أفعال أخرى من مثل هذه الأفعال غير
القانونية !

وقد أرغم هذا العمل الجزء الادارى من الحركة العربية الى الرحيل الى
خارج البلاد مرة أخرى . وفى آذار عقدت عصبة اللامركزية اجتماعا فى
القاهرة كان بين الحاضرين فيه رجل سورى اسمه السيد توينى « كان
ترجمانا مساعدا للقنصل الفرنسى العام فى بيروت وحضره بصفته الخاصة
كعضو فى اللجنة السورية من هذه العصبة » . وسيرى القارىء فى شخص
السيد توينى عنصرا سميئا من العناصر المكونة للوضع الدبلوماسى الذى
وضعه قبل قليل . وقد أصدر هذا الاجتماع ، كما أبلغ السيد توينى
رؤساءه ، قرارا لصالح جعل سورية أمانة مستقلة استقلاليا ذاتيا تحت
حكم أمير مسلم ، وتحت حماية فرنسا . وقد صدر الأمر الى السيد توينى
بأن ينقل هذا الخبر الى المسيو ديفرانس ، الوزير الفرنسى المفوض فى
القاهرة ، « بإبلاغ الكى دورسيه (١) بما حدث » ، ولكن على سبيل العلم
فقط ، ومن أجل الاسترشاد برأيها بصدد إبقاء أعمال اللجنة فى نطاق
الحكمة والمشروعية .

« Mais à simple titre d'indication et en lui conseillant de main-
tenir l'action du comité dans la voie de la prudence et de la
légalité. »

لقد روعيت قواعد اللعبة بمنتهى الوضوح والخصافة . لقد ساد الظن
بأن الرسالة مهمة جدا بالنسبة للمسيو باليولوج الذى كان على رأس
الكى دورسيه آنذاك ، بحيث يرسلها الى القنصلين العاملين فى دمشق
وفى بيروت ، ولو أنها لم تكن تحمل لهذا الأخير أخبارا جديدة .

بيد أن المسيو ديفرانس كان يكتب ، بعد ذلك بحوالى أسبوع ،
رسالة الى المسيو بيشو الذى أصبح الآن وزيرا للشئون الخارجية تجرى

(١) وزارة الخارجية الفرنسية بالاطلاق على اسم الشارع الذى يقوم بناؤها فيه .

سطورها على هذا النحو : « وبناء على تقديري الناشئ عن دراستي لمعلومات إضافية تيسر لي الحصول عليها منذ الحادث ، يبدو لي أن قرارات لجنة (اللامركزية) لم تكن حاسمة أو صدرت عن اجماع ، كما تراءى للسيد تويني ، الذي يقدم لنا ، وهو الذي كان يقوم بدوره باعتباره شخصية سورية بارزة بالاضافة الى صفته الخاصة كفرد ، وليس بأي صفة غيرها بسبب صفته الرسمية التي يشغلها في بيروت ، معلومات فيها قدر مبالغ فيه من الحماسة لصالح حل سريع وجذري للمسألة السورية . » والحقيقة هي - كما أرسل بها الميسو ديفرانس الى الميسو بيشو - أن الميسو تويني كان جده « متفائلا بصدد المسلمين » الذين كانوا يتطلعون الى حماية بريطانيا وليس الى حماية فرنسا .

فياله من صراع عنيف هذا الصراع الذي يكمن بين هذه السطور من أجل الحماية التي لا لزوم لها على الحركة التي كانت تجري على قدم وساق آنذاك ، دون شك ! ان الدولتين تقفان متباعدتين كما يجب ، على طرفي مسافة دبلوماسية ، لكنهما كانتا تعلمان أن أنصارهما يتصارعون بالنيابة عنهما . وانتقل الى باريس المؤتمر الذي كان مقررا انعقاده في بيروت حيث اتخذ في باريس ما يشبه برلمانا سوريا ، أثار احتجاجات السفير التركي . وبالإضافة الى المندوبين الذين ذكرناهم آنفا ، حضر المؤتمر ما يقرب من مائتي سوري جاءوا من جميع أنحاء المعمورة . وأصدر المؤتمر قرارات تطالب بالحكم الذاتي ، وترسم خطوطا له ، بحكومة مركزية في دمشق أو في بيروت ولكن حدثت فيه خلافات كثيرة . إذ أراد كثير من الحاضرين إصدار قرارات بالاستقلال التام . أما دعاة الحكم الذاتي فقد كانوا يهدفون الى الاستقلال التام لكنهم رأوا أن من الحكمة الاكتفاء بالحكم الذاتي في الوقت الحاضر .

بيد أن الانقسام بصدد الدولة ، التي ينبغي على الحركة القومية أن تتوجه اليها طلبا للعون ، ربما كان أوضح أسباب الخلاف . لقد جرت العناصر المسلمة المؤتمر بنجاح لصالح طلب العون من بريطانيا ، لدرجة أن الميسو بيشو أرسل كتابا دوريا الى القناصل الفرنسيين في سورية قال فيه - دون أن يعدد أسماء - ان الحركة الاصلاحية التي كانت محبذة لفرنسا تحببنا كثيرا قد أصبحت الآن تنأى عنها . وأوصى القناصل الفرنسيين بأن يكونوا ذوي نفع ووعون للاصلاحيين ؛ أي لأعضاء مختلف الجمعيات الوطنية ، وأن يجتثوا ثنائى العيب الحال عن الانعطاف نحو فرنسا .

بل وقد جرت خطوة أكثر اتساعا من هذه الخطوة قطعا ، قام بها
المسيو دى مارجرى بالنيابة عن وزير الخارجية ، فأرسل الى المسيو أوتافى
مذكرة فريدة فى نوعها ، وردت من المقيم العام الفرنسى فى تونس .
وهذا فحواها :

لقد وردت الى الحكومة التونسية جملة معينة من الرسائل
أرسل بها تونسيون يعيشون فى القسطنطينية وبيروت والمدينة .
وطبقا لماورد فيها فإن ممثلين للحكومة البريطانية قد أجروا
التصالات مع شخصيات معينة وقادة مسلمين معينين فى كل من
مكة والمدينة بهدف انشاء روابط من التعاطف والمصالح المشتركة
بين عواصم الاسلام الدينية وبين الحكومة البريطانية .

وطبقا لما ورد فى بعض هذه الرسائل المرسل اليها من
بيروت فإن عملاء البريطانيين فى سورية يتنافسون فيما بينهم
فى محاولة احراز انتصار للنفوذ البريطانى فى بيروت وأزمير
ودمشق . ويذهب القن الى أن أعضاء معينين من أعضاء البرلمان
قد حزموا أمرهم على أن يزوروا آسيا الصغرى خلال الصيف
القادم وأن يدرسوا البلاد وسكانها عن كثب . ويبدو أنه بناء على
نصيحة هؤلاء الساسة قد تأسست الجمعية الاسلامية المسيحية ،
ويظن أن هدف هذه الهيئة هو استعادة الخلافة العربية بدلا من
السلطان فى القسطنطينية .

ونمضى المذكرة الى القول بأن « الدبلوماسية البريطانية والصحافة
البريطانية » قد فررتا أن تدعوا الى عقد مؤتمر عربى لهذه الغاية . وقد
كتبت هذه المذكرة فى تونس فى الثامن والعشرين من آيار قبل أن يخرج
المؤتمر الى حيز الوجود فى باريس فى حزيران . الا أن ذلك التوافق
العجيب بين الدبلوماسية البريطانية والصحافة البريطانية ، وبين « الدعوة
الى » المؤتمر قطعة ذات طابع مميز من المبالغة من عميل الاستخبارات
الفرنسية الذى كتب هذه المذكرة ، لأنها لم تكن عن قبل المقيم العام
نفسه . انهم السوريون الذين صمموا على عقد المؤتمر وكانت باريس
بالنسبة لهم محط الرحال . وكان من أنشط الداعين له السيد شكرى
غانم ؛ وهو سورى قضى معظم حياته فى فرنسا ، فكان فرنسيا أكثر منه
عربيا بدرجة كبيرة جدا ، وكانت له مهمة محدودة وهى إبقاء الحركة العربية
موالية لفرنسا . ولا يعنى هذا أنه لم يكن هناك مؤيدون للنفوذ البريطانى
يقفون فى وجهه . لكنهم لم توكل اليهم ، جريا على عادتنا فى التصرف ،

مهمة محددة في المعارضة • وكان هذا الأمر في منتهى الوضوح : انهم منعطفون الى الانجليز لهذا السبب أو لذاك • وفي الامكان الاعتماد عليهم في التعبير عن عواطفهم تجاهنا •

لقد وردت هذه المعلومات من اسطانبول وبيروت والمدينة من عملاء محليين لهيئة الاستخبارات الفرنسية • وبالع هؤلاء العملاء في وصفهم لزوار هذه المدن الثلاث الذين لم يذكروا أسماءهم ، حين وصفوهم بأنهم « ممثلون للحكومة البريطانية • » أما وأنه كان لزاما على بريطانيا أن تحظى بعطف الناس عليها ، كما تحظى دولة اسلامية بالعطف من جميع المجالات التي يسود فيها التأثير الاسلامي ، فما ذاك الا أمر معقول وفي محله تماما • لقد كان سير الأحداث في تركيا يشير الى سرعة انهيار السلطان الذي كان نفوذه الديني كخليفة للمسلمين يقف عائقا في طريق تسلط تركيا ممثلة في زمرة « الاتحاد والترقي » المنتسبة بروح العصر تسلطا تاما على البلاد الخاضعة لها ، فكان من الحق بالنسبة لبريطانيا ألا تتحوط لمثل هذا الأمر المحتوم • لقد كانت الخلافة عربية في الأصل وكانت تتمركز على سواحل البحر الأحمر ، فإذا ما قدر لها الآن أن تندثر في تركيا فستكون مكة المكان الطبيعي الذي ستستعاد فيه • ولأن تمرد بريطانيا يدها الى هذه الخلافة الجديدة أو تقدم لها الحماية ، اذا ما دعت اليها الحاجة ، فليس هذا بالنسبة لها الا مظهرا من مظاهر الادراك الواعي المقدس الذي تستوحى منه سياستها في أحيان كثيرة ، وان صور منافسوها أفعالها هذه - كما هو الحال في هذه الواقعة - على أنها مصطنعة وكثيرة المنسوبات والالتواءات • وكانت هذه السياسة في تشجيع تقدم العرب ، والتي كانت في ذلك الحين أمرا محتوما لا مناص منه ، احدى السياسات التي تستهوى بصفة خاصة اللورد كتشتر الذي كان آنذاك في ذروة السلطة كمقيم عام في القاهرة • وكان قد أمضى في سورية شطرا كبيرا من أيامه الاولى كجندي ، وساعد فيها على رسم خرائط لها • وحين كان يتم مسح الأراضي بقصد رسم خرائط لها ، على أيدي ضباط غربيين في الشرق الأدنى ، فلذلك معنيان دائما وأبدا •

وأغلب الظن أن « ممثلي الحكومة البريطانية » ، الذين كانت تصرفاتهم تذكر أحلام مكتب الاستخبارات الفرنسية في تونس ، قد كانوا في الواقع أعضاء « عصبة اللامركزية » الذين توغلوا في البلاد العربية ليتوصلوا الى نوع من التفاهم بصفة خاصة مع « الزعماء المسلمين » • لقد زار الشيخ رشيد رضا ، الذي كان له معارف كثيرون في القاهرة ، أمبري مسقط والمحمرة • وزار مبعوثون آخرون الامام يحيى • كما زار سيد طالب الأميرين ابن سعود والادريسي • ثم ذهب الشيخ رشيد رضا الى الهند ليقوم بأهم

عمل في « تعبئة الرأي العام الاسلامي هناك بصدد مسألة الخلافة » ولكي يطلع المسلمين الهنود ، دون شك ، على صفة وتقدم قضية العرب الوطنية .

وليس من السهل أن نقول بالضبط ما هي العلاقة بين القاهرة وبين مبعوثي عصبة اللامركزية ، وأغلب الظن أنها كانت علاقة بعيدة كل البعد عن أن تكون محددة ، كما كان الفرنسيون يتوهمون . إلا أنها كانت تخدم غاية البريطانيين ، على أي حال . وكانت خطوة تمهيدية في تطور العلاقات العربية الانجليزية المأمولة ، إذا ما انهارت تركيا ، أو إذا ما ساعد على انهيارها رعاياها العرب .

وكان هناك في ذلك الحين فاروق كبير بين موقف البريطانيين من سورية وبين موقف الفرنسيين منها . لقد اهتمت فرنسا منذ زمن بعيد بسورية أشد الاهتمام ؛ من أيام ملوكها . وكانت قد تصرف في سورية ، في ظل النظام التركي ، كراعية للمسيحيين اللاتينيين . ولم يكن هذا وضعاً شريعياً . إنها عادة نمت مع مرور الزمن فأضفت على القناصل الفرنسيين معلومة خاصة أكثر منها أهلية خاصة . وليس هناك شك في أنه كان يطيب للفرنسيين لو يحولوا هذا الوضع إلى شيء قريب من الحماية . بيد أن ذلك لم يكن ممكناً وتركيا ما تزال موجودة فيها . ولو أنه قد أفلتت منهم فرصة في عام ١٨٦١ ، كما رأينا من قبل ، في مركزة قواتهم العسكرية فيها ، وفي إقامة حماية عليها طبقاً لحدث أسساليب القرن التاسع عشر .

إلا أن فرنسا أقامت على مطامعها في سورية ، وأنشأت صلات بها أقوى من صلات البريطانيين بوجه عام . فكانت الارشاليات التبشيرية الفرنسية والمدارس الفرنسية مهمة جداً في حياتها ، كما رأينا آنفاً . وكان لهذا السبب أن تتبعت فرنسا الحركة القومية العربية عن كثب وبموالاة .

أما اهتمام البريطانيين بسورية ذاتها فكان أقل من اهتمام الفرنسيين . إذ طالما كانت في أيدي الأتراك فليس هناك أي مشكلة معينة تتعلق بمشارف قناة السويس ، يمكن أن تؤخذ في الاعتبار . وقد أكدت الحكومة البريطانية للحكومة الفرنسية في عام ١٩١٢ أنها « لا تنوى القيام بأي عمل ، وليست لديها أية أهداف أو مخططات سياسية » في سورية أو تجاه سورية ، وسلمت بلسان السير ادوارد جراي بأن لفرنسا « مصالح خاصة في سورية » .

وفى عام ١٩١٣ أخذ الموقف يتغير مع الانهيار الواضح للنظام العثماني والنهوض الواضح للنظام السوري الوطنى . وكان العامل الجديد هو أن الحركة السورية لم تخرج الى الوجود كحركة سورية وحسب، بل وكجزء من المقاومة الوطنية التى يقوم بها العرب جميعهم . وكانت بريطانيا تهتم أشد الاهتمام بحركة عربية واحدة تشمل كذلك مسألة الخلافة باعتبارها دولة تحكم مسلمين ، وبسبب الأهمية الاستراتيجية للبلاد العربية التى تقع على الطريق الى الهند وعلى بوابة مصر .

وهكذا لم تعد بريطانيا تستطيع ألا تشغل بالها على سورية كثيرا ، كما كانت تفعل فى السابق . ان شئون سورية كشئون عربية تمسها بصورة حيوية وينبغى عليها الآن أن تقدر فوائد التصديق مع السوريين كعرب . وكان المقابل الطبيعى لهذا الود هو أن قسما كبيرا من السوريين بدءوا يعتبرون العلاقات الودية مع بريطانيا باعتبارها دولة أقوى من فرنسا وقد تكون أقل طمعا منها فى هذه المناسبة ، وأعظم كسب لفضية العرب . وكانت على رأس هذا الفريق مستعمرة سورية قسدية فى القاهرة ، وذات مكانة جد بارزة فى الحركة الوطنية ، ومصالحها مرتبطة دائما أوثق الارتباط بالمصالح البريطانية فى مصر . وشيئا فشيئا أصبحت القاهرة مركزا للنشاط السياسى السورى فى الشرق كله بسبب مزاياها الجغرافية والاجتماعية فزاد هذا من حجم المحادثات السورية البريطانية بشكل أو بآخر .

وحين كان صيف عام ١٩١٣ يلج فى فصل الحريف أصبح الموقف أكثر تازما فى سورية ، وأخذ السوريون يصبحون أقل دبلوماسية فى علاقتهم مع الحركة العربية نتيجة لهيأهم العصبى من نمو العرق الموالى للبريطانيين فيها ، فتحولوا الى تأييد الجمعيات العربية تاييدا صريحا . ففى تشرين الأول كان سفير فرنسا فى اسطنبول قد سأل عما اذا كان من الممكن اصدار جريدة فى دمشق تعبر عن مصالح فرنسا ، وان الجواب الذى تلقاه من المسيو أوتافى ليجعل من تطور هذه العلاقات أمرا واضحا تمام الوضوح . لقد كتب المسيو أوتافى :

ان الجريدة العربية التى ورد ذكرها فى برقية سعادتكم المؤرخة فى الحادى والعشرين منه، والتى آمل أن يواتبنى الرد عليها سريعا ، لا تستطيع الا أن تمارس تأثيرا حذرا - الأمر الذى هو مرغوب فيه عن غيره من الأمور - والا فانها ستكتب قورا . ويجب أن يكون المعول ، فى اعتقادى ، على الكتيبات التى تطبع وتوزع

بصورة سرية • وهذا يعنى اتفاق ما بين ١٥٠ الى ٢٠٠ قرانك
فى الشهر • واكون ممنوناً لو تكرمتم ، سعادتكم ، بارسال هذا
المبلغ تلغرافيا ، ان كنتم يا صاحب السعادة من رأى •

وان من الواضح أن الفرنسيين كانوا قبيل عام ١٩١٣ قد تدخلوا
مع العرب فى سورية تداخلا عميقا • وفى وسعنا أن ننقل مع اقتراب
العام الحافل الى مسرح الأحداث فى مكة ؛ هذه المدينة المقدسة وقلب العالم
الاسلامى النابض • فعليها كان يتركز اهتمام البريطانيين واليهما تنبجه
أنظارهم • ولم تكن مكة متميزة وبارزة بسبب صفتها كمكان قدسى وحسب
وبسبب نقاوة السلالة العربية فى الحجاز ، كما يسمى هذا الاقليم الذى
يكنفها ، بل لأنها كانت ذلك الجزء من العالم العربى الذى كان للعرب فيه
قدر من السلطان أكبر من سلطانهم فى غيره ، ومظهر من مظاهر هذا
السلطان أكبر بكثير من حقيقته •

لقد ظلت منذ عهد محمد تحت حكم سلالته بدرجة أو بأخرى • وكان
ظل هذا الحكم يمتد ؛ وربما بصورة أقل تحديدا ، الى المدينة المقدسة
الأخرى المسماة بالمدينة ، والى ميناء جدة وبقية الحجاز ؛ وهو قطاع ساحلى
مداه نحو من ٥٠٠ ميل طولا و ١٥٠ ميلا عرضا •

ولم يكن حاكم هذه النواة العربى فى عام ١٩١٤ حاكما رسميا يقرب
فى صفته من صفة راعى الديار المقدسة ، بل كان يتبوأ مركزه هذا لأنه
- أو يفترض فيه أن يكون - أكبر أخلاف النبى • ولم يكن الحجاز دولة
بل كان نظريا أقليلما من أقاليم الامبراطورية التركية ، تمارس تركيا
السيادة عليه وعلى ما يشبه الحاكم له الذى كان يلقب بشريف مكة •
والشريف لقب يطلق على أخلاف النبى فكان شريف مكة شريف الأشراف ،
ويسمى أحيانا بالشريف الأكبر •

ويسجل لورانس مركز الأشراف حين تزايدت قوة قبضة السلطة
التركية على الحجاز فى القرن التاسع عشر فيقول : « وكلما تزايدت قوة
قبضة السلطان هناك فإنه كان يتجراً أكثر وأكثر على أن يعد نفسه فى
مضاف الأشراف ؛ وحتى فى مكة ذاتها • بل ولقد جازف فى اححدى.
المناسبات بأن يخلع شريفا ، كان من الكبرياء بحيث لم يرض عنه ، ويعين
بدلا منه شخصا آخر من بطن منافس من العشيرة ذاتها (ذرية الرسول) ،
على أمل أن يستفيد الفائدة المعتادة من الخلاف • »

بيد أن الحجاز احتفظ تحت حكم هذا الشريف أو ذاك ، بقسط من
الاستقلال أكبر من أى قسط آخر تمتع به أى اقليم عربى آخر ، من أى.

حجم أو أى أهمية ، فى حين كان الشريف نفسه يتمتع ، بوصفه حارسا للأماكن المقدسة ، بأرفع مكانة بين العرب . وأصبح شيئا فشيئا أرفع مكانة من ذوى المكانة والجلال . وحين تمتلأت لأعين قادة الحركة العربية فى الأزمنة الحديثة اتجهوا بأبصارهم اليه .

وكان الحسين بن على شريف مكة فى ذلك الحين . وكان دائما يضيق بالسيادة التركية ذرعا . لكنه قد نقل وهو ما يزال فتى الى اسطنبول بناء على أمر من السلطان ، وان كان قد أصبح فى ذلك الوقت شخصية فى مكة بحكم منبته . وبقي فى اسطنبول ستة عشر عاما تحت الرقابة المهدبة . وكان الأتراك يجلبون الضرر على قضيتهم بنفيهم العرب . فكما بذر العرب الذين طردوا الى مصر والى فرنسا بذور الجمعيات السرية ، كذلك استفاد الحسين العربى من منفاه . لقد تلقى أبنائه تعليما عصريا فى اسطنبول وهى شبه أوروبية . وكانوا أربعة هم : على ، وزيد ، وعبد الله ، وفيصل .

وغداة سقوط عبد الحميد ، أقدم الشبان الأتراك على أفدح غلطة ، بإعادة الحسين الى مكة كشريف . وكان هذا أثناء فترة ايمانهم بفكرة اقامة دولة لكل المسلمين وقبل أن يتحولوا الى سياسة « الأتراك فقط لتركيا » ، وربما كان ذلك ظنا منهم أنهم قد كسبوا عطف أسرة الحسين خلال اقامته الطويلة فى العاصمة . وكان ابنه فيصل نائبا عن جده فى آخر برلمان تركى قصير العمر . بل وكان عبد الله ، أخو فيصل الأكبر ، يتبوأ من تلك الجمعية منصبا مرادفا لمنصب نائب رئيس البرلمان فى البرلمان البريطانى .

وشرع حسين منذ عودته يستعيد سلطته كشريف ويوسعها ، فى حين يظهر الموالاتة للأتراك ظاهريا . ولما كانت الأمور تسير سيرا هادئا فقد ازدادت العلاقة بين مكة وبين الجمعيات السرية توثقا . وأشعل النار مشروع تكوين امارة يرأسها أمير مصرى موال للفرنسيين . فآخذ أولئك الذين يعملون من أجل استقلال العرب يتطلعون الى الشريف العربى ، الذى كان يتمتع منذ زمن بما يشبه الاستقلال وبرئاسة المدينتين المقدستين كزعيم اسمى مأمول ومتحدث باسم شىء أوسع من امارة محلية . وقد لعب موقف الانجليز من هذه الفكرة دورا فى نشرها بالتأكيد .

وأصبحت السلطات التركية - لأن سياستها الداخلية قد تغيرت ، ولأنها قد نما الى علمها ، دون شك ، بعض ما يدور - أكثر تشددا وكبتا ، فأغلقت فى سورية بعض « الأندية الاجتماعية » الصغيرة ، لكن الأندية الكبيرة استطاعت تضليلهم فاستمر العمل السرى يمارس نشاطه دون عائق . وعينت على الحجاز والياً جديدا كان معروفا بميوله المعادية للعرب

فكان أول عمل قام به هو أن أمر بتسليم مائة بندقية تعود الى حرس الشريف الشخصى . وكان هذا أسخف عمل يؤتى لأن البنادق كانت قديمة وغير ذات نفع فى حين كان الاستيلاء عليها نوعا من عدم الاحترام لسادن الأماكن المقدسة أنار نائرة الرأى العام المحلى ، ورئى فيه أنه مقدمة لحملة لتتريك مكة والمدينة .

وأوضح هذا العمل للحسين أنه قد بات محل شك لدى الشبان الأتراك ، وأنهم يرون فيه حجر عثرة فى طريقهم الجديد . فجعل همه أكثر من ذى قبل ، التفكير فى كيفية افساد مخططاتهم وتقويتها . فأرسل بعد ذلك بوقت قصير وفى شباط من عام ١٩١٤ ، ولده الثانى الأمير عبد الله الى مصر . وكان هذا العمل خطوة محددة فى طريق تقوية العلاقات التى كانت موجودة حتى ذلك الحين اتفاقا . وكان السبب الظاهر لرحلة الأمير هذه هى القيام بزيارة للخديو عباس حلمى . لكن الأتراك الذين تساوهم الشكوك بصدد ما يجرى فى الحجاز لم يقتنعوا بهذه القصة . وقبل اقتناعهم حين اجتمع الأمير باللورد كتشنر فأرسلوا رسالة من اسطانبول تحمل هذا الاستياء . ولذلك لم ير كتشنر عيد الله مرة أخرى . وكانت لدى عبد الله فى ذلك الحين لعبة عجيبة خبيثة من عندياته تهدف الى اشغال تركيا مع الدول الاسلامية الرئيسية بـ « حادثة حدود » دينية أما وان كان قد دخل فى تقديم ايضاحات لهذه الحطة حين قابل كتشنر فذلك ما لا يستطيع أحد الجزم به . لقد أخفى ك عن ك ما دار من حديث حول هذه النقطة .

ولكن لابد وأن عبد الله قد بين خط أفكاره العام لأنه حين طلب ، كخطوة تالية ، أن يقابل المستر (والسير حاليا) رونالد ستورز ، الذى كان آنذاك سكرتيرا للشئون الشرقية فى دار الإقامة بالقاهرة ، بدلا من مقابلة اللورد كتشنر ، زود كتشنر ستورز بتعليقات أمره بها أن يتجنب أى تشجيع للأمير على خطته ، سواء أكانت خططا شخصية أو من أى نوع آخر . أما حصيلة كتشنر الخاصة عن هذه الواقعة فيقدمها لنا السير رونالد ستورز فى كتابه القيم جدا المسمى بـ « تأملات » (« Orientations ») انه يورد لنا ملاحظة أبدأها كتشنر الى السير ويليام بصدد الحديث الذى دار بينه وبين عبد الله .

لقد أرسل الأمير فى طلب ستورز ، الذى قال له ، بناء على تعليمات منى له ، أن ليس لعرب الحجاز أن يتوقعوا تشجيعا منا لهم ، وأن اهتمامنا الوحيد فى بلاد العرب هو سلامة وراحة الحجاج

الهنود ... ويبدو أن الشريف كان (كما فهمنا من ولده) خائب
القال من نتيجة الزيادة التي قام بهما الى القسطنطينية ، ومن
تصميم الحكومة التركية على دفع خط سكة الحديد حتى مكة ، الأمر
الذي رآه يعنى الموت الاقتصادى لسكان الجزيرة العربية الذين
يملكون الجمال .. ولسوف يكون من المثير للاهتمام أن يشهد
الانسان التطورات التي تنشأ عن هذا اذ يبدو ان العرب يتميزون
غبطاً .

وبعيد السير رونالد ستورز على مسامعنا المقابلة التي جرت معه على
هذا النحو :

لقد كشف الأمير عبد الله النقاب عن ذهن مليء بالأشعار
العربية .. لقد ألفت نفسى - أنا الذى قطعت رحله حياتي عبر
سلسلة من المستويات الهينة الانحدار ، من ماضى حربي - ادخل
في حاضر عربي مجرد من وسائل الدفاع ، وأسأل أسئلة صريحة
معدة عما اذا كانت بريطانيا العظمى ستهدي للشريف الأكبر
اثنى عشر مدفعاً رشاشاً ؛ أو حتى ستة . وحين استفسرت منه ماذا
يمكن أن يكون الغرض منها أجاب : (ككل من يجدون سلاحهم)
« للدفاع » . وحين ضيقت عليه الخناق أجاب بأن الدفاع سيكون
ضد أى هجوم قد يشنه الأتراك . ولم أكن بحاجة الى تعليمات
خاصة لأقول له انه لا يمكن أن تخامر أذهاننا قط فكرة امداد
أحد بالسلاح ليستخدم ضد دولة صديقة . وما كان لعبد الله
أن يتوقع جواباً غير هذا الجواب . وافترقنا على أحسن ما يكون
الافتراق .

والواقع هو أن السير رونالد ستورز كان مصيباً في تصرفه مع
عبد الله ، كما كان المسيو بومبار مع شفيق بك المؤيد قبل أربعة عشر
شهوراً . اذ طالما بقيت تركيا دولة صديقة فان من العبث بالنسبة لعرب
الحجاز أن يتوقعوا المساعدة عليها من قبل بريطانيا العظمى . كما كان
من غير المقبول كذلك أن تصبح مبادئ الحياد البريطانية أميع من ذى قبل
أيا كان هذا الذى تفعله الدول الأخرى .

بيد أنه اذا كانت هناك ملاحظة أصدق تعبيراً من هذه الملاحظة ،
واذا كان قد رسخ في ذهن عبد الله أن ما قيل هو المعنى حقاً ، فان من
المؤكد بالمثل أنه رحل وهو يحمل في رأسه اعتقاداً بحدوث تفاهم مع
بريطانيا اذا ما قدر لأى نوع من الاضطراب السياسى أن يززع نظام

الأمر السارية في الممتلكات التركية * حقا أنه يبدو من السير رونالد ستورز أنه يذهب الى القول بأن الأمير عبد الله لم يفض بمكونات صدره الى اللورد كتشنر ، قبل مقابلته هو لعبد الله حين يقول انه « كان يبدو منه أن لديه شيئا يريد أن يقوله لكنه لم يصل ، بأى صورة من الصور الى نقطة ينطلق منها * » لكن التعليمات التي تلقاها سكرتير الشؤون الشرقية تفترض مقدما أن عبد الله اما تحدث مع كتشنر عن الحرب مع تركيا أو عن شيء من هذا القبيل لدرجة أن كليهما قد عرف أين ينفذ * لقد حمل عبد الله الى دار الإقامة أنباء « عن استقصاءات والده في القسطنطينية بصدد الاعمال التي قد يقوم بها الاتراك في الحجاز في المستقبل * فكم كان بود الحسين لو تواتيه فرص استثنائية لمعرفة «القصة المستقبلية» - كما يسمونها - والتي تدور أحداثها في القسطنطينية * وكان على علم كبير بالدور الذي لعبته المانيا في هذه النية المتوفرة في التعجيل بمد ما هو - برغم كل اعتبار آخر - فرع من سكتها ؛ سكة حديد بغداد وكان كتشنر قد أصغى للحديث عن سكة الحديد هذه فتجسست أمامه المخاوف من مدها ، واضحة بجلاء تام .

ولا يستطيع أحد أن يزعم أن الكابتن ليدل هارت قد بنى كلامه ، في كتابه عن حياة ت.ي. لورانس ، على غير ما بينات حين كتب عن مقابلة كتشنر لعبد الله فقال ان « عبد الله قد وجد في شخص كتشنر مصغيا منعظا ، كانت تستهويه منذ زمن بعيد فكرة تأسيس دولة عربية مستقلة في شبه الجزيرة العربية وسورية * » واليكم شهادة أخرى شهد بها د. غ. هوغارت ، عراب لورانس في جامعة اكسفورد الذي قدر له أن يلعب ، هو نفسه ، دورا بارزا في المفاوضات الانجليزية العربية قبل أن ينقضى زمن طويل فقال ان « اللورد كتشنر كان منذ زمن يزن في فكرة إمكانية إقامة دولة عربية تتمتع بالحكم الذاتي بين تركيا المتتوتنة (١) من جهة وبين مصر والهند من الجهة الأخرى ، وقبل أن تصبح الحرب قاب قوسين أو أدنى * »

ولأن يتخيل أحد أن عبد الله قد جاء الى كتشنر دون وجود علاقات مسبقة بين القاهرة من جهة ومكة وسورية من الجهة الأخرى ، على الإطلاق ، مهما كانت غير وثيقة وسليمة من حيث كونها بالأقوال لا بالأفعال ، ومهما كانت غير مباشرة ، فان هذا أمر غير معقول * اذ كان يتحتم وجود مثل هذه

(١) اي الواقعة تحت تأثير التوتون وهم اللام وجنسهم .

العلاقات ولو كمجرد شكل من أشكال الحيلة في حالة حدوث انهيار تركيا
... وكذلك أنشئت .

بيد أنه لم يكن هناك أى توقع ، في شباط أو نيسان من عام ١٩١٤
بقيام وشيك بالثورة بالرغم من أن جنوح العرب نحو الثورة كان يزداد
بأقصى سرعة . وكانت أوروبا تعيش في قلق لكن الأرشدوق فرانسيس
فردناند كان ما يزال حيا ومعافى .

وفى آب اندلعت الحرب على الأرض كالة أفلتت من عقابها فتأججت
بلدان الغرب بالهيب . ورحل كتشنر عن مصر الى لندن . بيد أن احتمالات
قيام نضال في البلاد الحبيبة الى قلبه لم تبرح خياله . أما في سورية فكانت
الثورة تعتمل في أعماق أعماق الوطنيين العرب . ولم يكن هذا الاعتماد
في البداية الا شعورا عاما بأن فرصتهم ستتحقق بصورة ما من ثنايا وضع
عالمى كالذى يتفاقم الآن . ثم بدت هذه الفرصة تلوح للعين بصورة أكثر
وضوحا من ذى قبل حين بدأت الدبلوماسية الألمانية تستحوذ على ألباب
الشعبان الأتراك ، وحين أخذت احتمالية دخول تركيا الحرب ترجح .

وكان هناك نوع معين من الغرابة في هذا الموقف المتوقع الذى قد
يخلقه دخول تركيا الحرب . لسوف يصبح الشريف وشعبه رعايا دولة
عدوة بالنسبة لبريطانيا اذا ما حاربت تركيا بريطانيا . أما الى أى مدى
فكر العرب في تحملهم هذا الموقف فذلك ما يبينه تذكير ورد الى اللورد
كتشنر وهو في لندن من أعماق أعماق الجزيرة العربية ، كما يؤكد لنا ذلك
ليدل هارت . لقد كان على شكل « رسالة سرية جاءت بطريق غير مباشر » ،
وكانت على هذا النحو - « الى جناب اللورد كتشنر » تذكر محادثتنا .
لقد جاء اليوم . »

لكن هذه الرسالة قد أرسلت فى آب حين كانت تركيا ما تزال على
الحياة . وتمر شهر . وأصبح موقف تركيا أدعى الى الريب شيئا فشيئا .
بيد أن كتشنر كان غارقا الى أذنيه فى لندن فى مشاغل الاستعداد للحرب .
وكانت الحكومة الفرنسية قد أخذت باريس . وكانت قواتنا المخصصة
للحملات تعود من مارن . وغاب العرب عن الأذهان الى حد ما فى القاهرة
ذاتها . لكن السير رونالد ستورز الذى لم يلق جزاء ولا شكورا على ما قام
به من مجيد الأعمال ، بهذه المناسبة ، لم ينس زيارة الأمير عبد الله . وأدرك
اختلاف الحال لدى القوات التركية اذا ما افتقرت الى فيلق هجانة الحجاز
سواء بالنسبة للسرعة فى الحركة أو بالنسبة للقوة من جراء الامتناع عن
العمل معها أو بالنسبة للتهديد الذى قد يقوم به هذا الفيلق لجناح أى

زحف تركي عبر صحراء سيناء • فقدم ، كما يسجل لنا ، «مذكرة مقتضبة بأننا قد نستطيع عن طريق محادثات نقوم في حينها ألا نضمن حياد البلدان العربية في حالة عدوان تركي فحسب ، بل وتحالفها أيضا • »

وحين كان ستورز يقوم بهذا العمل كانت تجري أنشط الترتيبات بين الفرنسيين وبين عرب سورية من أجل القيام بعمل مشترك هنا إذا ما أعلنت تركيا الدخول في الحرب • ولكن يمكن تفصيل هذا فيما بعد •

ولم تخط مذكرة ستورز بالاستجابة لها من لدن دار الوكالة في القاهرة إلا حين قصد الكابتن كلايتون (والذي أصبح فيما بعد السير جلبرت كلايتون) الذي كان ممثلا لحكومة السودان في القاهرة ، والذي كانت فلسطين وسيناء تدخلان ضمن نطاق نفوذه العسكري ، والذي كان كذلك مديرا لاستخبارات الجيش المصري • لقد « أعذوني (كلايتون) كل الاعتذار في عرضي عليه الخروج عن الأصول المرعية في عرضه (أى التشاور مع العرب) على كتشنر بصورة سريعة ومستعجلة في كتاب سري • »

وفى بحر أسبوع ، جاء الجواب في الرابع والعشرين من أيلول في صورة رسالة بالشفيرة موجهة الى « ممثل صاحب الجلالة في القاهرة » هي كما يلي :

من لدن اللورد كتشنر ، قل لستورز أن يرسل من طرفي رسولا سريا أحسن اختياره الى الشريف عبد الله ليتق هما إذا كان النفوذ الألماني الحالي المسلح في القسطنطينية سيغلب السلطان على أمره ، وضد ارادة الباب العالي ، على القيام بأعمال من أعمال العدوان والحرب ضد بريطانيا العظمى • ومما إذا كان هو وأبوه وعرب الحجاز معنا أم علينا •

وقد اختار السير رونالد ستورز للقيام بهذه المهمة عميلا يدعى روجي • وكان فارسيا يستطيع الركون اليه • وسيرى القاريء في كتاب ال « تأملات » وصفا مذهلا لهذه المهمة التي كلف بها روجي هذا • لقد وصل مكة التاسع من تشرين الأول • بيد أن الشريف الأكبر لم يكن فيها على أى حال ، وإنما في قرية صغيرة تعرف بالطائف حيث كان يختلف اليها في أيام الصيف • وكان هناك في ذلك الحين سبب لوجوده هناك • لقد كان الحسين منتبها ؛ كما يقص علينا أمين الريحاني في كتابه القيم « حول سواحل الجزيرة العربية » ، الى أن الحكومة التركية ستلقى بكل ثقلها ، على الأرجح ، في كفة دول الوسط في الحرب • وكان قد حذر أنور باشا من مغبة هذا العمل ، ولكن بلا جدوى • وكان أنور باشا قد

جعل من الواضح لدى الشريف أن الأمر قد يستدعى الطلب الى عرب الحجاز بالاشتراك في الحرب فترك الشريف مكة مغضبا ومعلنا أنه ينوي الاعتزال عن كل ما يمت الى السياسة بصلة ، فكان وجوده في الطائف دليلا مجسدا على عدم استعداده للسير وراء الأتراك .

بيد أنه عاد الى مكة ليقابل العميل البريطاني . وبعد أن دعاه الى مائدته مع أبنائه ، اجتمع به على انفراد وتحدث معه في أمر الكتاب الذي كتبه السير رونالد ستورز فقال : « يا بني ، (انظر ص ١٧٤ من كتاب التأملات) « بوجم أني في هذا الأمر كالمدعو الا أني سأتكلم » . ثم أخذ يذرع المكان جيئة وذهابا ثم قال : « ان للامبراطورية العثمانية حقوقا علينا ، ولنا نحن حقوق عليها . ولقد أعلنت الحرب على حقوقنا ، ولست مسئولاً أمام الله ان أعلنت الحرب على حقوقنا ، ولا أنا مسئول أمام الله ان أعلنت أنا الحرب على حقوقها » .

والمقصود هنا هو أن من ضمن حقوق السلطان التركي بوصفه السيد الأعلى على العرب المطالبة بعدم معارضة الشريف لتركيا في الحرب المقبلة . وقد وافق حسين من قبل على الابقاء على علاقاته الطيبة مع تركيا شريطة أن تمنح الحكومة التركية الحكم الذاتي الفوري لسورية ولبلاد ما بين النهرين . وأن تطلق سراح السجناء السياسيين العرب الذين في قبضتها . لقد كان يطالب بالاختصار بوجوب اعتراف تركيا بحق العرب في أن يكونوا أحرارا وأن يكونوا فقط تحت السيادة الاسمية للسلطان . وقد رفض مطالبه هذه . بل والأدهى من ذلك اعلان القادة الأتراك بأنه سيقضى التجنيد الاجباري على عرب الحجاز . ولذلك شعر الحسين في ذلك الحين أنه في حل من معارضة تركيا معارضة سلبية بل وحتى ايجابية .

ثم قال (لروجي) وهو يشمر كم ردائه الطويل : « ان قلبي مفتوح لستورز . بل والى هذا الحد ، قال وهو يبسط ذراعه ما عليكم الا أن تمدوا لنا يد المساعدة ولن نساعد هؤلاء البغاة أبداً » . بل على العكس سنساعد أولئك الذين يسعون للخير . »

وبالإضافة الى هذه الرسالة تسلم العميل كتابا كان عليه أن يسلمه الى السير رونالد ستورز .

وان من المهم جدا أن يكتنه الانسان ما الذي كان يكمن في وعده الحسين بمساعدة من يسعون للخير . لقد كان يقف في موقف حساس خطير الشأن لقد كان الخطر الداهم من وراء دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء هو التأثير الذي يحدثه هذا الدخول على رعايا بريطانيا العظمى وفرنسا المستعمرين اذا

أعلن الأتراك الجهاد أو « الحرب المقدسة » أما ماذا ستكون النتيجة فذلك ما لم يكن واضحا . وكان مسلمو الهند في الواقع شجعانا في ردهم على نداء الامبراطورية الى حمل السلاح ضد الألمان . بيد أن الحرب مع تركيا أمر مختلف . وكان يؤمل بصعوبة عامة ألا تؤثر على ولاء المسلمين البريطانيين (المقصود مسلمي الامبراطورية البريطانية - العرب) ولو أن تجعل العالم الاسلامي بوجه عام معاديا لنا . الا أنه لم يكن هناك يقين واطمئنان في هذه الناحية . فكان الموقف حرجا .

وكانت مكة حبل النجاة . فاذا أمكن أن يظل اعلان تركيا الحرب اعلانا تركيا وحسب ودون أن ينحول اسلاميا فقد يمر الخطر بسلام . وسيكون الحال عندئذ على ما يرام . فللسلطان أو شيخ الاسلام المدجن أن يعلن الجهاد ، لكن الاستنفار الى المعركة ضد بريطانيا وفرنسا الكافرتين لن يكون له جرس صادق في الأسماع حين يصدر عن حلفاء المانيا والنمسا الكافرين . أما الخطر الوحيد في الجهاد فيكون حين توقع مكة عليه . فاذا ما قبله الشريف ووضع عليه خاتمه فسيكون حينئذ صرخة كائما هي صادرة من ضريح الرسول وستتمخض عن دمار لفرنسا ولنا نحن ، لا يدري أحد كيف يكون .

وبلغ كتاب الحسين القاهرة في اليوم الذي سبق دخول تركيا الحرب وكان فيه الكثير من الأمور التي يريد الحسين أن يكون على بينة منها ، ويريد تأكيدات جد معقولة وفي محلها قبل أن يغامر بتحدى صاحب السيادة الذي توجد له حاميات كثيرة في مدن الحسين ذاتها . « كما لم ينس ، » كما يوضح ليدل هارت هذه الحقيقة ، « أن من سياسة الأتراك أن يحتفظوا لديهم بشرفاء بديلين في الجراب ، » في القسطنطينية . فلقد احتفظوا به هو نفسه في الحرز والصون ليحل محل ابن عم من عموته . ولذلك أجاب بأنه لن يتخذ أية إجراءات لصالح الأتراك طواعية ، وترك لكنتشنر أو أي رجل آخر من سياسة بريطانيا أن يستشف ما يعنيه بقوله هذا .

ولم يكن هذا بالأمر الصعب طبعا . اذ حين أصبحت تركيا دولة معادية في اليوم التالي صار من الممكن لنا أن نتحدث مع الشريف على المكشوف .

وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول أبرق اللورد كنتشنر بمايلي :

سلامات على الشريف عبد الله . لقد اشترت ألمانيا الآن تركيا بالذهب دون أن تأبه بأن انكلترا وفرنسا وروسيا قد

ضمنت وحدة أراضي الامبراطورية العثمانية اذا التزمت تركيا الحيات في هذه الحرب • وقد ارتكبت تركيا ، ضد ارادة السلطان عملا من أعمال العلوان بغزوها حدود مصر بفصائل من الجنود الأتراك • واذا ساعدت الأمة العربية انكلترا في هذه الحرب فان انكلترا تتعهد بأنه لن يحدث تدخل في البلاد العربية ، وسنقدم للعرب كل المساعدة ضد أى علوان يأتيهم من الخارج • فقد تكون المشيئة أن يتبوأ الخلافة عربي من سلالة أصيلة ، في مكة أو في المدينة فيخرج الخير ، بعون الله ، من بطن هذا الشر السائد الآن •

وقد لوحث هذه البرقية لشريف مكة بأمل كبير • انه وحده الذي ينطبق عليه نعت الخليفة العربي المقترض • ولهذه البرقية أهمية خاصة وكبيرة جدا بسبب استخدامها لكلمتي « الأمة العربية » انهما لم تقبل الشريف كمتحدث رسمي بلسان العرب وحسب بل وضعته بكل جلاء في ذلك المركز ، فبدأت المفاوضات معه على مستوى أنها تعنى مفاوضات مع العرب قاطبة •

أما بعد ذلك بسنوات ، وبعد أن أصبحت الحاجة ماسة في أوساط الحكومة وأوساط صنائع الصهيونية الى البحث عن ذريعة للمفصل من التزاماتنا نحو الملك حسين وعودنا معه ، فقد بذلت محاولات للتشكيك في مركز الحسين هذا • لقد قيل على سبيل المثال انه « لا يمثل العرب ، » لأن الأمير ابن سعود لا يدين له بأدنى ولاء - والحقيقة أنه كان دائما على خلاف معه ويعد العدة للاطاحة به - ولأن الأمراء العرب الآخرين في المناطق الساحلية لم يقبلوه ممثلا لهم بأى صورة من الصور ، ولأن اللبنانيين لم يعترفوا به كذلك ... الخ •

ولا تملك هذه الحجج الخريفية الاحيوية أوراق تسرين الحمراء • فاذا أخذنا في اعتبارنا ، في المقام الأول ، أننا تفاوضنا مع الملك حسين بوصفه المتحدث الرسمي بلسان العرب قاطبة فاننا لا نستطيع أن ننكر عليه ذلك المركز عينه أو تلك الصفة عينها التي أضفيها نحن عليه • فلأن نقبله ممثلا للعرب ، ثم نتنصل ، بعد أن نزال كل ميزة ممكنة بالنسبة لصالحنا من وراء هذا القبول ، من نصيبنا في هذه الصفقة تجاهه بحجة أنه لم يكن طوال ذلك الوقت يمثل العرب ، فان هذا نوع فريد من السلوك الفاضح الحسيس الذي لا شيء أجلب منه للعار الصارخ •

وان هذه الحجج ، في المقام الثاني ، لتخفى وراءها ادعاء فاجرا بأن الملك القادم ابن سعود وطلاب الزعامة العرب الآخرين قد وقفوا بمعزل عن

قضية انقاذ هذا الجنس العربى واستعادته للسيادة على أراضيه • لقد كانت خلافاتهم مع الملك حسين خلافات شخصية وليست خلافات قومية • وقد ترسم الملك ابن سعود ، بعد خلع الملك حسين ، الطريق نفسه الذى اختطه الحسين فيما يتعلق بسيادة هذا الجنس العربى العظيم على أراضيه • ولأن يقدم أحد الغيرة والحسد ، بل وحتى الصراع على الزعامة ، بين الزعماء العرب على أنه خلاف على استقلال العرب فذلك هو البهتان والتزييف فى تفسير كل شىء •

وينبغى ألا تفوت على القارئ ملاحظة أن الاتفاق الذى عقده برطانيا العظمى مع الملك حسين كان فى منتهى الدقة بصدد نقطة أنه لن يكون هناك أى مجال لمناقشة مركزه كمفاوض فيحمل على أنه يؤثر بأى حال من الأحوال على المراكز الفردية للأفراد العرب الآخرين • فقد قال المندوب السامى فى كتاب سنستشهد به عما قريب ، وكان بمثابة الأساس للمعاهدة الانجلو عربية من الجانب البريطانى ، انه يقبل شروط الملك الحسين ، « بدون أى انتهاك لمعاهدتنا القائمة مع الرؤساء العرب الآخرين • » وقد قال الحسين ردا على هذا انه يحترم « اتفاقياتكم مع شيوخ هذه المناطق • » وهكذا فقد اتخذت الاحتياطات خاصة لكيلا يكون لمركز الحسين فى هذه المعاهدة أى تأثير على مراكز الأمراء العرب الراهنة ، ولا أى تأثير يغير من العلاقات القائمة بين بعضهم البعض • ويستتبع ذلك بالضرورة ألا يكون لعلاقاتهم بين بعضهم البعض ، فى أى يوم من الأيام ، ولا لأهليتهم ومراكزهم أى تأثير على مركز الحسين فى المعاهدة ولا أى تأثير يغير من مركزه هذا •

وفضلا عن ذلك ، فما أقل الفائدة المرجوة من تقديم الخلافات بين الأمراء العرب على أنها تؤيد ادعاءات ومزاعم الصهاينة ضمنا • ان الملك ابن سعود وشعبه يرغبون فى طرد الصهاينة السياسيين كما كانوا يرغبون فى طرد الملك حسين ، بل وربما أكثر • ولا يوجد فى دنيا العرب ممن يعطفون على الصهيونية الا حفنة ضئيلة وصفت بغباء وجهل وصفا محكما فقيل عنها « عرب واسعو المدارك • • لا تتعارض مصالحهم الاقتصادية مع مصالح اليهود الاقتصادية • » (انظر تقرير لجنة بيل ص ٥) • ومثل هؤلاء العرب يخفون أفكارهم فى جيوبهم •

وأعود الآن الى رسالة اللورد كيتشنر • انها وإن اعترفت بأن شريف مكة يتكلم بالنيابة عن جميع الأمة العربية فانها لم تكن صريحة بصدد حال العرب فى المستقبل • لكن هذا أمر يخص العرب وحدهم أولا وقبل كل شىء • بيد أن هذه الرسالة كانت مقرونة بتأكيد بأننا نؤيد استقلال

الشريف الوراثي ، وباستعدادنا للمساعدة في تحرير العرب ، شريطة اشتراكه واشتراكهم الفعالين في الحرب في جانبنا .

وقد قطع هذا التأكيد للشريف بكلمة شرف شفافة . ولكن سواء أكان مكتوبا أم منطوقا فقد كان أول وعد صريح بالاستقلال ؛ بأي شكل كان هذا الاستقلال ، قطعناه لزعيم عربي ، ويستحق علينا أن نذكره على نحوه هذا .

وفي حوالى هذا الوقت عينه ؛ بناء على ما أنبته لورانس في كتابه ، قام اللورد كتشنر بجس نبض رجل عربي آخر بارز ، وهو جندي يدعى عزيز المصرى ، كان منفيا الى مصر ، بهدف « كسب القوات التركية في بلاد ما بين النهرين الى جانبنا » . وكانت تتألف من مجندين عرب اجباريا واقعين تحت نفوذ «حزب العهد» ويتابع لورانس فيقص علينا كيف ضاعت هذه الفرصة نتيجة لمعارضة مكتب الهند(١) وبالحال من قصة صغيرة مرة . وفائدتها هنا هي أنها تثبت كيف أن كتشنر كان يتوسل الى العرب ليشدوا أزرنا .

وأرسل الحسين الى القاهرة رده على «التأكيد» والكتاب البريطانيين . وكان رده هذا « وعدا صريحا لا لبس فيه بأنه سيمتنع عن مساعدة أعدائنا » . (عن هوهارت) . وبناء عليه ، فقد وعدنا الرجل بأنه سيقف على الحياد وبأنه لن يضع توقيع على أى نداء بالجهاد اذا أعلن .

الا أن الجهاد أعلن في وقت مبكر من عام ١٩١٥ ودعت الحكومة التركية الحسين ؛ أو بالأحرى أمرته ، كما يقول لورانس ، بأن ينادى به ويجعل لصداه دويا فرفض . ولم يكن رفضه هذا مناورة في جملته لأنه لم يكن شريف مكة وحسب بل شريفا مخلصا لمكة ومقيما على دينه مخلصا له فبدا له أن ليس من الشريعة أن يعلن الحرب المقدسة في حين لم يهاجم (بضم الياء وفتح الجيم - المعرب) الاسلام (لأن تركيا خطت الخطوة الاولى في هذه الحرب) ، وفي حين كانت ألمانيا حليفة لتركيا .

وبرفضه هذا عرض نفسه لنقمة الاتراك . وما أسرع ما تلت هذه النقمة . لقد أوقفوا سيول الحجاج عن مكة الذين كانت مكة تحصل على جل دخلها منهم ، وأوقفوا المؤن التي كانت تصل اليها عن طريق السكة الحديد . وكان الحجاز يعتمد كل الاعتماد في الحصول على موارد الغذاء من الخارج لأنه واقع في صحراء . وأخذنا نحن من جانبنا نحاول أن نعوض

(١) وزارة شؤون الهند في بريطانيا .

هذا بأن سمحنا للسفن المحملة بالمواد الغذائية والقادمة من الهند بالوصول الى جدة بانتظام معين .

ومن ثم لم يعد عرب الحجاز الآن يعاملون كرعايا عدو ، كاعتراف منا بموقف الحسين النبيل . ولو أننا أبدينا أى شكل من أشكال العداء تجاه المدينتين المقدستين المحاصرتين لكان ذلك سابقة سياسية فريدة فى نوعها ، مهما كان موقف الشريف منا . وعلى أى حال ، فقد كانت المداومة على ارسال السفن المحملة بالغذاء برهانا ساطعا من جانبنا على تقديره ، لمساعدته لنا فى قضيتنا .

ولا مجال للتشكيك هنا بأنها لم تكن مساعدة عظيمة . « لقد قدم الشريف لبريطانيا أعظم مساعدة مادية يمكن توقعها » . كان هذا هو تعليق ليدل هارت عليها . « لقد نزع من كلمة الجهاد شوكتها . ولن يكون لها بعد الآن الا معنى قليل خارج حدود تركيا ، برغم كل تلك الجهود الدائبة التى تبذلها الارسلات التركية والالمانية . وقد كانت يدا بريطانيا مشغولتين فى حرب مع تركيا فوفر عليها هذا العمل فعلا عبء حرب مقدسة تقصم الظهر » .

ولست أورد هذه الملاحظات الا لأؤكد تلك القروض العظيمة التى ندين بها للعرب . . فروض أدركنا لها الظهر فى أيامنا هذه بكل بساطة وصفاقة . فحسين لم يسد لنا مساعدة وحسب بل عرض نفسه لأشد لمخاطر . وكان بوسعه أن يتصرف بطريقة أيسر وان يركب طريقا سهلا . اذ كان يدرك أننا لا نستطيع أن نفعل شيئا أكثر من محاصرة شواطئه ان وضع خاتمه على نداء الجهاد . بل وربما لم تكن فى وضع يسمح لنا بأن نفرض الحصار عليه بسبب الكراهية الشديدة التى تلحق بنا فى طول الشرق وعرضه من جراء هذا العمل ، اذ حاولنا أن نميت مكة جوعا .

أما هو فقد جعل الأتراك ، برفضه التوقيع على نداء الجهاد ، يستسيطون غضبا عليه ، ووضع مصيره تحت رحمتهم أن خرجوا من الحرب ظافرين ، أو بلفوا من الحرب نصرا فى مكان بحيث يكونون قادرين على الاستدارة اليه . وكان الحال على النقيض فى ذلك الحين . اذ كانوا غارقين فى متاعب الحرب حتى آذانهم وليسست لديهم قوات يوفرونها . لكنه كان يتوقع أنهم سيقبضون عليه من الديوان الذى نصبوه فيه حالما يجدون الوقت والقوات .

كان الحسين يدرك هذا ، ومع ذلك فقد جمع عزمه وصمم كل التصميم على أن يجرى هذا الشوط الى آخر مداه ، وأن يختار لنفسه الوقوف بجانب قضية الحلفاء جهارا نهارا . واذا كان له أن ينضم اليهم فلا بد وأنه كان يتمتع بين بنى جنسه بتأييد داخلي قوى ونفوذ واسع مترامى الأطراف . لسوف ينضم اليهم ليس بوصفه نصف سيد على الحجاز ولكن كقائد لجميع العرب . وكان مركزه يتخذ هذه الصفة المحددة شيئا فشيئا . فما ان اندلعت نيران الحرب حتى اتصلت به الجمعيات السرية في سورية . وكانت لجنة وطنية سرية قد تأنفت في دمشق من عرب سورية والرافدين والجزيرة العربية ووضعت هذه اللجنة برنامجا لاستقلال البلاد العربية وللتعاون مع الحلفاء . وارسل هذا البرنامج الى الشريف وترك له ، اذا ما وافق على ما جاء فيه ، أن يتفاوض مع بريطانيا العظمى للمساعدة على تنفيذه ، في مقابل تأييد العرب لها في الميدان ضد الأتراك . وكان زعماء سورية على علم بالمفاوضات التي جرت بين الأمير عبد الله وبين كتشنر . وها هم أولاء الآن يعربون عن تمسكهم بها ويقترحون خطوطا عريضة لتطويرها الى محالفة .

وقد تلقى الشريف في الاسابيع الأولى من عام ١٩١٥ نداءات مختلفة تلج عليه بالقيام بالعمل وفق برنامج دمشق هذا . فيقول لورانس : « كالت لجنتنا « العهد » و « الفتاة » تتوجهان اليه في الخطاب باعتباره أبا العرب ، ومسلم المسلمين ، وأكبر كبرائهم سنا » .

لكن حسينا ظل لشهر أو شهرين يقف وقفة المتروى ، ويراقب حال الأمور عموما . وجاء الى مصر مندوب سام جديد بديلا للمندوب الغائب كتشنر ، من الهند ، هو السير هنري مكماهون . وكان يحمل تعليمات من مكتب الخارجية (١) بأن «يقوى أوامر الصداقة مع الشريف» .

وكانت لدى مصر مشاغلها لأن الأتراك كانوا قد هاجموا قنصاة السويس في شباط ، لكنه كان هجوما غير ذي أثر وصدد كبير عناء ولكن لم تجر ملاحقة القوات التركية . وكان مفهوما بصورة رسمية أن قائدها جمال باشا يقوم باعدادها لمحاولة ثانية . وكان ينظر الى هذا الأمر في مصر على أنه نوع من التهويش يستوجب التحوط فقط . وفي نيسان حدث أيضا الشغال أخطر بابتداء حملة غاليبولي .

(١) اسم وزارة الخارجية البريطانية .

وذهب فيصل بن الحسين الى الدردنيل بوصفه ضابطا تركيا فأرسل رسائل سرية الى الوطن عن تقدم القوات المهاجمة الصعب ، وعن خسائر الأتراك الضخمة في الأرواح . الا أن ما أحرزه هؤلاء الأخيرون من نجاح في المقاومة قد تضافر مع مقدار تلك الخسائر على جعل القيادة التركية تتحدث عن العمل بنظام التجنيد الاجبارى في الحجاز الذى هدد به من قبل . وقد تلافى الشريف هذا بتكوين قوة اضافية من المتطوعين لتلحق بهجوم جمال باشا « المزمع على مصر » . ولما كان من سياسة تركيا ان تتظاهر بالتعظيم لهذا الهجوم ، كان من سياسة الحسين التظاهر بتصديق هذا التظاهر ، وبأن يزود بالرجال جيشا كان يتوقع أنه لن يتم تشكيله أبدا . وحتى اذا لم يكن هناك بد من انضمام بعضهم الى هذا الجيش التركى فان شعبه سيستجنب الشر الأعظم من تنفيذ هذا التجنيد الاجبارى .

وفى الوقت ذاته كانت القيادة العليا التركية قد نقلت فرقها العربية من سورية ووزعتها بين الفرق الألمانية والنمسية في الجبهات الأوروبية الجنوبية الشرقية اذ كان زعماء حزب العهد قد وضعوا خطة لعصيان مسلح تقوم به هذه الفرق فى الوقت الذى كانت فيه فى سورية فرقة تركية واحدة فى مقابل فرقهم الخمس ، وكانت جمعية «اللامركزية» تعد الخطط فى الوقت عنيفة لثورة يقوم بها الشعب ، فأرسلت جميع احتياطياتها من السوريين الموجودين فى القاهرة الى سورية ليقوموا بوضع تقدير للأعداد التى يمكن أن تجند لهذه الغاية ، ولتقصى الأماكن التى يمكن أن يختبئ فيها بأمان قادة معينون سيضطلعون بمهمة القيادة حين تحين لحظة الانتفاض . وكان قد جرى قبلا الحصول على وعد من الفرنسيين بتقديم عشرين ألف بندقية وارسال ثلاث بوابج حربية لتقوم بعملية التغطية فى بيروت والساحل اثناء قيام العصيان ، وجرى وضع الترتيبات ليقوم ضباط فرنسيون بقيادته .

ولم تتحقق هذه الخطط لسوء الحظ . ولو طبقت دون إبطاء لتغير مجرى الحملة الشرقية كلها . لقد كانت جمعيتا العهد واللامركزية تعملان كل على انفراد . أما الوعود الفرنسية فقد صدرت عن رسميين فرنسيين يعملون فى بلاد الشرق وليس عن فرنسا مباشرة . وكانت لدى القادة الفرنسيين من عسكريين وبحريين مشاغل تشغلهم فى ذلك الحين غير سورية فتأرجحت المساعدة الموعودة . وبينما كان كل انسان ينتظر

الآخر ليقوم بدورة نقل الأتراك الفرق العربية قطعة قطعة تحت اشراف
الامان فضاعت الفرصة .

وقد طلب الى الحسين بادىء ذى بدء أن ينهض الحجاز بالثورة
حين ينفجر العصيان المسلح في سورية لكنه لم يقتنع بما سسمع من
اعدادات وطالب بنوع من التفتية يقوم به الحلفاء ، أو يقوم به جنود
نظاميون ثائرون في المناطق التى تقع بينه وبين القسطنطينية . بيد أن
تشتيت الفرق العربية وضع نهاية لهذا الأمل .

ومع ذلك فإن رسل الجمعيات السورية ، التى كانت تمثلها في
ذلك الحين مجموعة من المستشارين في مكة ، كانوا ما يزالون ينادون
بمواصلة العمل ، وسرعان ما أخذ الشريف يشاطرهم وجهة نظرهم
هذه . حقا ان فيصل قد كان يتبنى المناداة بالتعقل بسبب تزايد فشل
حملة الدردنيل لكن حسبنا كان يخشى أن يكون هذا بالذات مدماة
لامتداد نشاط الأتراك الى داخل الحجاز .

وهكذا ضرب بجميع الاعتبارات عرض الحائط وقدم عرضا جريئا
ومجددا لاشعال نار الثورة اذا قبلت بريطانيا العظمى شروطه المبينة
على برنامج دمشق . واتخذ هذا العرض شكل كتاب ورد الى المندوب
السامى في مصر في شهر آب . وهذا الكتاب كتاب خالد بالنسبة لجنس
العرب لأنه كان ، على طريقته الخاصة ، براءتهم العظمى . . كان كالبراءة
العظمى بالنسبة للانكليز . انه الأساس الذى سيبنى عليه استقلالهم .
اما بالنسبة لعرب فلسطين فقد كان أحد الأصوات العظيمة ذات السبق
في تاريخ هذه القضية التى تعيننا في هذا الكتاب . ولذلك فهو يستحق
مننا أن نقرده له فصلا جديدا .

الفصل السادس

المعاهدة بين بريطانيا العظمى والعرب - استقلال العرب يعترف به ويؤيد في نطاق حدود تشمل فلسطين

كان كتاب شريف مكة الى المندوب السامي مؤرخا بتاريخ الثاني من رمضان لعام ١٣٣٣ من التقويم الهجرى ، أى الرابع عشر من تموز لعام ١٩١٥ ، وهكذا استغرق ما يزيد على أسبوعين ليصل الى غايته . وقد نشرت الفقرات الهامة من هذا الكتاب ومن الكتب التى تلتته قبل خمسة عشر عاما في مجموعة من المقالات نشرتها في جريدة الديلى ميل . لكن أعتقد أن من الأوفق أن أورها بنصها الكامل هنا . وليس يضيرنى أن أقول اليوم أن أصولها قد وصلت الى فى معظمها من الملك المغفور له فيصل بن الحسين حين كنت موجودا فى الشرق الأدنى فى عام ١٩٢٢ . وهى لم تعرض على بل جددت أنا نفسى فى طلبها اذ رأيت أن من أكبر الخطأ أن تبقى هذه الأوراق بغير نشر ، كما حدث فى ذلك الحين وظل الحال كذلك معها حتى الآن ، فى حين تنكر الارتباطات والمعهود المحتواة فيها . وهذا الأصل هو الأصل الرسمى ، أو بمعنى آخر هو النسخة الانجليزية منه ، مأخوذة من الأرشيف الشريفى . وهو الترجمة الانكليزية الاولى عن النص العربى التى اعتمدت ، ونقلت نقلا حرفيا عن الأصل العربى . وقد تركت النحو فيها دون تغيير ، وإن وقع فى أخطاء بين الحين والآخر . والعبارات التى أضعها بين أقواس هى جزء من النص ما لم ألبسها حروفا بارزة .

وعليه فهذا هو نص كتاب الخامس عشر من تموز :

الى صاحب السعادة :

لما كانت الأمة العربية بأجمعها ودون استثناء قد قررت في هذه الحقبة الأخيرة أن تحيا وأن تفوز بحريتها وأن تمسك بزمام ارادتها ، نظريا وعمليا على السواء ، ولما كانت قد تبينت وأحست أن من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعد وتساعدها في بلوغ أهدافها الراسخة والقانونية (المبني على شرف وكرامة حياتها) بدون أية دوافع مستترة من أى نوع وليست لها علاقة بهذا الموضوع .

ولما كان من مصلحتها كذلك أن تفضل مساعدة حكومة بريطانيا العظمى أخذاً في الاعتبار وضعها الجغرافي ومصالحها الاقتصادية ، وكذلك موقف الحكومة المذكورة المعروف لدى الأمتين كملتيهما وليستنا في حاجة تبعاً لذلك الى توكيده .

لهذه الاسباب ترى الأمة العربية أن من الأنسب أن تحصر نفسها ، لضيق الوقت ، في أن تسأل حكومة بريطانيا العظمى الموافقة على المقترحات الأساسية التالية ، اذا رأت ذلك مناسباً ، وعن طريق مندوب لها أو ممثل لها ، مستبعدة جميع الأشياء التي تعتبر ثانوية بالقياس الى هذه لكي تعد جميع الوسائل الضرورية لبلوغ هذه الغاية النبيلة ، الى أن يحين ذلك اليوم الذي تجد فيه مناسبة المقيام بالمفاوضات الحقيقية .

اولاها : أن تعترف انجلترا باستقلال البلاد العربية التي تحدها من الشمال مرسين وأضنة وبخط يمتد حتى خط عرض ٣٧ الذي تقع عليه بيريجيك ، وعرفة ، وماردين ، ومديات ، وجزيرة عمادية حتى حدود فارس ، ومن الشرق حدود فارس حتى خليج البصرة ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، باستثناء عدن فيبقى وضعها على ما هو عليه . ومن الغرب البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين . وأن توافق انجلترا على اعلان الخلافة العربية الاسلامية .

وثانيها : أن تعترف حكومة الشريف العربية بأن سيكون لانجلترا الأفضلية على غيرها من العول في جميع أعمال الإنشاء

الاقتصادي حين تكون شروط العطاءات المقدمة لتنفيذ هذه الأعمال متساوية .

وثالثها : تأمينا لاستقلال العرب هذا وتوكيدا لمثل هذه الافضلية أن يقوم الطرفان الساميان المتعاقدان ، كلاهما ، بتقديم العون المتبادل بكل ما لدى قواتهما العسكرية والبحرية من طاقة لمواجهة أى دولة أجنبية قد تهاجم أيا من الطرفين . ولا يقرر أمر الصلح الا باتفاق الطرفين .

ورابعها : اذا دخل أحد الطرفين طرفا في نزاع عدواني أن يقف الطرف الآخر على الجياد وفى حالة ما يرغب ذلك الطرف أن ينضم الطرف الآخر اليه يجتمع الطرفان ويبحثان الشروط .

وخامسها : أن تعترف إنجلترا بالأداء الامتيازات الأجنبية في البلاد العربية ، وتساعد حكومة الشريف في وضع اتفاق دولي لتوكيد مثل هذا الأداء .

وسادسها : أن تبقى المادتان الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة ساريتى المفعول لمدة خمسة عشر عاما واذا رغب أى الطرفين في تجديدها فيجب تقدير اشعار بذلك قبل سنة من انقضاء أجل هذه المعاهدة .

وبناء عليه ، ولما كانت الأمة العربية بأجمعها قد التفت (بحمد الله) وتكاثفت من أجل باوغ هذا الهدف النبيل بكل ثمن ، التقاء لا رجعة فيه ، فانها ترجو حكومة بريطانيا العظمى أن ترد عليها بالإيجاب أو بالنفى في بحر ثلاثين يوما من استلام هذا الاشعار ، واذا ما انصرفت هذه المهلة قبل تسلم الرد ، فانها تحتفظ لنفسها بمطلق الحرية في التصرف . وفضلا عن ذلك فلاننا (أسرة الشريف) سنعبر أنفسنا في حل ، قولا وعملا ، من القيود التي تقيدها بها في تصريحاتنا السابقة التي قمنا بالإدلاء بها عن طريق على أفندى .

وكانت هذه الوثيقة وثيقة جديرة بالاحترام لعدة أسباب . فهي تقول ابتداء أنها قد أزوجيت باسم الأمة العربية التي أعلنت فيها ، على هذا النحو ، ككيان سياسى عاد الى الوجود بعد قرون ، قرون لم تكن فى يوم من الايام قرونا من الخسوف بل قرونا من التبعية . وليس من

المتصور أن هذا الاعلان قد كان مفاجأة بالنسبة لمسلمي الكتاب لأن اللورد كتشنر نفسه قد منح « للأمة العربية » هذه الصفة المعهودة نفسها في برقيته التي أرسلها في تشرين الأول السابق . وأن استعماله لهذه الصفة ليدل مفزاه على أنه كان هناك تفاهم بينه وبين مكة ، حتى في ذلك الحين ، على وجوب انهاض الأمة العربية على هذه الصفة . لكنها الآن قد جرى اعلانها بتحديد كامل وليس عرضا . فلقد كتب الشريف بقلمه هذا الكتاب بوصفه المتحدث الرسمي باسم الأمة العربية . ولم تذكر حكومته هو شخصيا الا في الفقرة الثانية ، وفي الخامسة مرة أخرى حيث أسبغ عليها دور المفاوض بالنيابة عن « البلدان العربية » .

لقد اتخذ الشريف بصدد هذه البلدان دور المتحدث الرسمي الأول بين نظرائه . أما الى أي مدى أنكر ذاته وأنكر نصيب الحجاز في قضية العرب العامة فإن ذلك واضح تمام الوضوح . أما التصريحات موضوع القول فكانت بالطبع هي التصريحات التي قبلت جوابا على كتاب اللورد كتشنر . وأما على أفندي فهو الرسول السري الذي جاء في كانون الأول بالرسالة الثانية من مجموعة الرسائل التي وردت الى مكة قبل .

وكان كتشنر قد أكد للحسين في رسالته التي جاءت عقب نشوب الحرب مع تركيا مباشرة أن بريطانيا العظمى ستؤيد « استقلاله الورائي » و « ستساعد في تحرير العرب » . وكان الوعد الأول الذي قطع للحسين وعدا قاطعا لا ثغرة فيه ، أما الثاني فكان غامضا لاشتماله العرب عموما . واذن فقد ضحى الشريف بشيء يجعل مطالبه جزءا من المطلب الذي قدمه بالنيابة عن الأمة العربية . وأن من المرجوب فيه أن يضع الانسان خطا تحت هذه النقطة على ضوء الاحداث الأخيرة .

وما من شك أن شرط موافقة بريطانيا على اعلان الخلافة العربية قد يبدو على أنه تعويض كاف للحسين عن أي شيء قد يخسره الحسين مما يطمع فيه لأنه سيكون طبعاً هذا الخليفة العربي الجديد . لكن المطالبة بالخلافة لم تكن شيئاً جديداً . لقد نوقشت من قبل مع اللورد كتشنر الذي وافق على أن يؤيدها .

وهناك نقطة أخرى جديرة بالاهتمام في هذه الوثيقة التي وردت الى المندوب السامي . ان الامة العربية فيها لم تعد الى حيز الوجود باعتبارها

وحدة صوتية واعية فحسب بل ان الحدود التي اقترحت ، والتي سيستعاد استقلال العرب ضمن نطاقها ، كانت مبنية على تلك الحدود التي حددت من قبل «اللجنة الوطنية» قبل عشرين سنة في البيان الذي نشرته في باريس . وكانت ديباجة تصريح الحسين مأخوذة عن ديباجة باريس هذه ، التي صيغت بلهجة غالية ثقيلة . . . « لقد استفاق العرب الى تجانسهم التاريخي والقومي والاثنوغرافي * » فتحولت الى الصيغة العربية الاساس : « لما كانت الامة العربية بأجمعها ودون استثناء قد قررت في هذه الحقبة الاخيرة أن تحيا . . . »

أما بالنسبة للحدود فان بيان باريس لم يذكر الحدود الشمالية ، وربما كان مرد ذلك الى أنها لم تكن محددة تحديدا قاطعا اذ يتداخل الجنسان العربي والتركي على طول حدود آسيا الصغرى ، ابتداء من الاسكندرونة حتى الحدود الفارسية . وأما بالنسبة للحدود الثلاثة الاخرى فقد وسع الحسين هذه الحدود عما جاء في بيان باريس من ناحية الشرق من النهرين العظيمين حتى حدود فارس . أما الحدود الجنوبية والغربية ، والتي ستهما فيما بعد بصورة خاصة ، فهي نفسها التي وردت في بيان ١٨٩٥ .

لقد عينت وثيقة الحسين ، وعلى وجه التخصيص ، بنود وثيقة باريس التي جاءت تعميمية ، وأكدت لبريطانيا استبقاء عدن ، ووجدت حلا جغرافيا حسابيا حقيقيا للحدود الشمالية . وقد عينت حدود ساحل البحر الابيض المتوسط ، الساحل السوري الذي يبدأ من نقطة الاتصال بتركيا الى نقطة الاتصال بمصر ، في مجموعتي الحدود كتيهما ، بصورة لا مهرب منها . وفلسطين تبعا لذلك مشمولة في الممتلكات العربية . وما كان في الامكان أن يكون الأمر خلاف ذلك . ان حدود البحر الابيض المتوسط هي أكثر الحدود تحديدا وطبيعية من بين الحدود الاخرى .

وهذان الشيطان : خروج الامة العربية الى حيز الوجود ككيان مقاوض ، ومواصلتها لعملها الذي كانت تقسوم به في المنفى في أوروبا الغربية في عام ١٩٠٥ في مكة عام ١٩١٥ ، يستحقان التأكيد عليهما مرارا وتكرارا . لقد كان ينظر الى مطالب الشريف أحيانا ، ولصالح المزاعم الصهيونية ، على أنها شطحات ذهن حاكم شرقي هرم يسيطر على الورق أضغاث خيالاته بصورة حاملة ، في حين أنها لم تكن شيئا من هذا القبيل .

* وصف السلالات البشرية او الشعوب وعاداتها وطبائعها وأخلاقيها - العرب

انها تريد لمشروع فكرت فيه جميع فروع العرب منذ زمن بعيد . وها هو الشريف يتبناها الآن بالاشتراك معها . (يسجل المستر أنطونيوس* أن قادة الجمعيات العربية في دمشق قد كتبوا وثيقة وضعوا فيها جميع الشروط التي هم مستعدون على أساسها للتعاون مع بريطانيا العظمى ضد تركيا . وقد فتحت هذه الوثيقة السبيل ، كلمة كلمة تقريبا ، الى «المقترحات الاساسية» الاولى التي قدمها الملك حسين في كتابه الذي أوردناه قبل قليل . وأما المقترحات الاخرى فهي صور منها . والواقع هو أنها أرسلت اليه لكي يتخذ منها أساسا للمفاوضات . ففعل . لقد نقلها فيصل اليه مع الخبر بأن الزعماء العرب في سورية قد أقسموا يمين الولاء له باعتباره المتحدث الرسمي بلسان الجنس العربي ، اذا ما قبل هذه المهمة) .

وحين بلغت رسالة الشريف القاهرة جعلت بعض الناس «يتحسسون قلوبهم» . ويوضح الكوماندو هوجارث ، الذي يسجل هذه الحقيقة ، أنه كانت هناك أسباب مختلفة تدعو الى هذا التحسس . ان عدم جدوى أسلحتنا في الدردنيل ، وحدوث «شك جديد بالنسبة لسلامة طريق البحر الاحمر» هما الشيطان المسؤولان الى درجة كبيرة عن استقبال تلك الوثيقة استقبالا فاترا نسبيا . ولم يكن الموقف السائد آنذاك ، اللهم الا بين حفنة قليلة من الحكماء ، يرقى الى درجة أن يرى في الثورة العربية الموعودة عونا جديدا ، كتقيد تعاقدى جديد في منطقة نملك منها في أيدينا أكثر مما سعيينا له . وفضلا عن ذلك كان لا مفر من أن تواجه طبيعة المطلب الشامل باستقلال العرب ، التي لا تقبل الجدل ، من قبل أخطاط مختلفة من الرجال من غير طراز كتشنر . وكانت القاهرة ، وهي في حال من القلق والحيرة ، تشغل بالها في محاولة اكتناه أسباب إبطاء لندن فتأخر الرد حتى اليوم السابق لآخر يوم في آب . ثم كتب المندوب السامي بعد أن أُرْجى للشريف التحيات المعتادة :

ننشرف بأن نشكركم على تعبيراتكم الصريحة عن صدق مشاعركم تجاه انجلترا . ويسعدنا ، فضلا عن ذلك ، أن سموكم وشعبكم تلتقون حول رأى واحد وهو أن مصالح العرب هي مصالح الانكليز ومصالح الانكليز هي مصالح العرب . ونحن نؤكد لكم في هذا المقام ما جاء في رسالة اللورد كتشنر التي وصلت اليكم عن يد علي أفندي ، والتي أعربنا فيها بجلاء عن رغبتنا في استقلال

*** في كتابه الذي نشر مؤخرا باسم لحظة العرب - المؤلف .

العربية وسكانها ، فضلا عن موافقتنا على الخلافة العربية حين
تعلن . واننا لنعلن مرة أخرى أن حكومة صاحب الجلالة سوف
ترحب بأن يستأنف الخلافة رجل عربي من جنس أصيل . أما
بصدده مسائل الأبعاد والتخوم والحدود فقد يبدو أن من السابق
لأوانه اضاءة الوقت في مناقشة مثل هذه التفاصيل والحرب في
حماتها ، في حين أن الأتراك ما يزالون يحتلون أجزاء كبيرة منها
في الوقت الحاضر احتلالا فعليا ؛ خاصة وقد نما الى علمنا ،
وبالدهشة والأسف ، أن بعض العرب في هذه الأجزاء عينها
يتجاهلون هذا وهم أبعد ما يكون عن مساعدتنا ؛ يتجاهلون
فرصتهم العظمى ، ويستخرون أيديهم في خدمة الألمان والأتراك ،
مفسدين أحوالهم الجدد ومستعبدتهم القدامى .

وعلى أي حال ، فنحن مستعدون أن نرسل الى سموكم
صدقات مصر للمدينتين المقدستين وللعرب النبلاء ، حالما تخبرونا
سموكم كيف وأين يجب أن تسلم . فضلا عن ذلك نحن نقوم
بوضع الترتيبات للسماح لرسولكم ، من أجل هذه الغاية ،
بدخول مصر ، وتقديم المساعدة له في كل رحلة قد يقوم بها
الينا .

مع تأكيدات الود . وتحياتنا .

ا . هـ . ماكماهون

وكان هذا الرد ردا دبلوماسيا مغرقا في دبلوماسية . وفي الردود
الدبلوماسية نوع معين من الالتواء الفكاهي يمكن أن يلاحظه الانسان دون
أن يغيب عن باله مغزاها الخطير . فكتاب ككتاب الشريف قد يطرح اقتراحا
ذا أهمية قصوى فتتخيل أن الرد عليه أما أن يقبل الاقتراح أو يرفضه ،
أو أن يقول ان القرار بصدده سيصدر فيما بعد . لكن الأمر ليس على هذه
الشاكلة بتماما . ان الرد الدبلوماسي يتجاهل هذا الاقتراح ذا الأهمية
القصوى . ان الجواب الدبلوماسي ينصرف الى اقتراح وهمي ، ليس غير
ذى أهمية وحسب ، بل لا سبيل الى العنود عليه في الكتاب موضوع
الجواب . ان متلقي الكتاب موضوع الجواب يؤكد لمرسله بصراحة أنه
سيولي كل اعتبار لما لم يضعه المرسل في أي مكان من كتابه . ففي الحالة
التي نحن بصدددها طالب الشريف بالاستقلال لمجموعة البلدان العربية
كلها لكن السير هنري ماكماهون يؤكد له بحاراة على استقلال العربية ،
هذه الشبه الجزيرة التي لم يذكرها الشريف أبدا .

لقد حصل الشريف فعلا على تأكيد مجددا بموافقة البريطانيين على الخلافة المأمولة . ولكن بعد ذلك ، جاءت في رد القاهرة ، مراوغة فنية وختل في التفاصيل . فقد أوليت مسألة الحدود وجها مغايرا كلية بادخال كلمتين مرادفتين (لست أدري من أين جاءتا) وهما كلمتا « الأبعاد » و « التخوم » فعن طريق ادخال هاتين الكلمتين الاضافتين ونظم الثلاث ببعضها البعض يدخل في روع القارىء بأن الشريف قد أراد أبعادا وتخوما وحدودا - والله وحده يعلم ماذا أيضا . لقد تحول تفقيطه البسيط المفرد للحدود الى متنوعة مسلية من المطالب التي لا يستطيع المندوب السامى الواقى الا أن يعرض عنها ولا يضيع عليها شيئا من وقته « والحرب في حماها » .

ثم تلت ذلك الدهشة والأسف من وجود الفرق العربية بين القوات التركية المقاتلة . أما الأسف فنعم . وأما تصنع الدهشة لوجودهم فما كان ذلك أمرا ممكنا الا في كتاب يصدر من القاهرة !

بيد أن كتاب المندوب السامى الدبلوماسى المنعوم قد انتهى بهذا الاستعراض الاخير من الدهشة ، وخلص منها الى نشرة اخبارية ، لها وزنها ، بلهجة افصائية . لقد علم الشريف ، الذى كان قد تساءل بقلق في خطاب منفصل عن المعونات الغذائية التى سيساهم بها مسلمو مصر للأماكن المقدسة ، أنه سيتلقى هذه الصدقات التى ستحفظ الرمق على دولته الجديدة . وكانت هذه شظفة المواساة فى نهاية كتاب ترك مقترحاته دون جواب .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد طبعاً . لقد أخذ الشريف ومستشاروه رد السير هنرى كماهون على أنه تكوص فأرسل ردا عليه فى التاسع من أيلول (٢٩ شوال ١٣٣٣) مع عودة الرسول السرى ، لكى نوفى الكلام حقه . وهو وثيقة أطول من وثيقته الاولى .

الى صاحب السعادة ، رفيع المكانة ، عظيم الشأن ، المندوب السامى البريطانى فى مصر - سدد الله مسعاه .

لقد تلقيت ببالح الغبطة وعظيم السرور كتابكم المؤرخ فى التاسع عشر من شوال (٣٠ آب ١٩١٥) وأوليته شديدا الاهتمام وعظيم الاحترام برغم ما أثاره فى نفسى غموض فحواه وبرود لهجته وتردده بصدد نقطتنا الضرورية .

وان من الضروري هنا أن أوضح لسعادتكم اخلاصنا تجاه الامبراطورية البريطانية المجيدة ، واعترافنا بتفضيلها في جميع الحالات والأمر ، وفي جميع الاشكال والظروف . ان المصالح الحقيقية لابناء ديننا تقتضى هذا .

الا أن سعادتكم ستعذرونني فتسمحون لي بالقول بجلاء ان هذا الفتور والتردد اللذين أبديتهما بصدد مسألة الابعاد والحدود بقولكم أن لا جدوى من وراء مناقشتها في الوقت الحاضر ، وأنه مضيعة للوقت ، وأنها ما تزال تحت يد الحكومة التي تحكمها ٠٠٠ الخ ، يمكن أن يؤخذ على أنهما يدلان على الجفاء .

اذ لما كانت هذه الابعاد والحدود المطلوبة ليست شأن شخص واحد نستطيع أن نقول له بشأنها ما ترون فيرضى ونستطيع أن نبحثها معه بعد أن تضع الحرب أوزارها ، ولكن شعوبنا قد رأت أن حياة اقتراحها الجديد هذا مرهونة بهذه الابعاد على الأقل فاجتمعت كلمتها على هذا .

وبناء عليه فقد رأت أن مناقشتها أولا هي محل ثقتها ، وهي تودع الآن في عنق مناط هذه المناشدة الاخيرة : ألا وهي الامبراطورية البريطانية المجيدة ، مشاعر سكانها لكي يعلموا كيف يؤسسون مستقبلهم وحياتهم لكي لا يجدوها أو يجدوا أى حليفة من حليفاتها تقف في طريق عزمهم حين يصل الأمر الى نتيجة عكسية — لا سمح الله .

وأخرج الآن عن صلب النص بسبب الغموض في الفقرتين السالفتين الأخيرتين ، وبالأخص الفقرة الثانية منهما . ان الفقرة الأولى قد ركب بعضها على بعض في الترجمة الانكليزية بصورة سيخيفة لأن معناها واضح تمام الوضوح اذا قرئت على هذا النحو : «ان هذا ليس أمرا فرديا ، ولست أبحثه أنا بالنيابة عن أى حاكم عربى فرد يمكن أن يبحث معه تصحيح خط من خطوط الحدود في جو من الثقة بعد الحرب ، ولكن بالنيابة عن جميع الشعوب العربية التي تدرك أن وجودها مرهون بالحدود التي تطالب بها » . ٠٠٠ انك لا تتعامل معى أنا وحدى فقط ولست أتصرف بالأصالة عن نفسى وحسب . هكذا يقول الحسين بأسلوب شرقي .

أما الفقرة الثانية التي ترجمت ترجمة حرفية كما هو واضح أعلاه فهي أكثر غموضاً • وقد ألحق بها المترجم الرسمى العربى صورة توضيحية هذا نصها :

ولذلك فقد رأت أن من الضروري أن تناقش هذه النقطة مع الدولة التي أولتها ثقتهما وتعتقد أنها الرجاء الاخير ؛ أى الامبراطورية البريطانية المجيدة • وإن دافعها الى هذا الارتباط والثقة هو المصلحة المشتركة ؛ هو ضرورة وضع التقسيمات الاقليمية فى نصابها الصحيح ، ووضع مشاعر سكانها فى نصابها السليم حتى يعلموا علام يبنون مستقبلهم وحياتهم لكى لا يجدوها (انكلترا؟) أو يجدوا أيا من حليقاتها فى موقف المعارض لما عقدوا عزمهم عليه ، الأمر الذى تحدث عنه نتيجة عكسية لا سمح الله •

ولم يكن المترجم موفقا كل التوفيق فى صورته الايضاحية هذه قبيل النهاية • اذ كان يمكن أن تترجم على نحو أفضل هكذا : «وإن دافعهم الى الثقة فى بريطانيا ورغبتهم فى الارتباط معها هو المصلحة المشتركة ، تدعمها هذه الحاجة التى تشعر بها الشعوب العربية الى ارساء أسس مستقبلها بصورة لا تجعل من بريطانيا أو أى من حليقاتها تقف حجر عثرة فى طريق بلوغ غايتهم المنشودة — وقانا الله شر هذا التعارض !»

وليسست هذه الفقرة على أى حال بذات أهمية كبيرة الا من حيث تفسيرها لهذا الدافع • وهانذا أعود لأتابع ايراد النص •

لأن الهدف ، أيها الوزير المبجل ، هو الحقيقة التى بنيت على أساس يضمن مصادر الحياة الضرورية فى المستقبل •

بيد أنهم (أى العرب) مع ذلك ، لم يضموا داخل هذه الحدود أماكن يقطنها جنس غريب • فهذا ادعاء أجوف وعنجهية • (أى لأن يضم مثل تلك الاماكن داخل الدولة العربية فما ذلك الا عرض زائف من المطالب الجسوفاء •) فليطف الله بالخلافه العربية ويجعل أعين المسلمين تقربها •

وانى واثق أن سعادتكم لن يخامركم أدنى ريب فى أنى لست أنا شخصا الذى يطالب بهذه الابعاد (هكذا!) التى لاتضم الا جنسنا وانما هى جميعا مقترحات الشعب العربى الذى يعتقد ، بالاختصار ، أنها ضرورية للحياة الاقتصادية •

أو ليس هذا بصحيح ، ياسعادة الوزير •

اننا بالاختصار يا صاحب السعادة السامية ثابتون على اخلاصنا ، ونعلن أننا نفضل الولاء لكم على غيركم سواء أرضيتم عنا ، كما قيل ، أو غضبتهم علينا •

أما بصدد الملاحظة التي أبديتها في كتابكم سالف الذكر عن أن البعض من شعبنا ما يزالون يقدمون كل ما في وسعهم خدمة لصالح الاتراك فان استقامة خلقك لا تسمح لك بأن تجعل من هذا مبررا للهجة الفتور والتردد تجاه مطالبنا • وهي مطالب لا أسمح لنفسى أن أعتقد أنك ، بوصفك رجلا ذا رأى سديد ، ستنكر أنها ضرورية لوجودنا • لا • انها ضرورية جدا لجوهر حياتنا الادبية والمادية •

انى أنا نفسى وحتى هذه اللحظة الراهنة أنفذ فى بلادى بكل ما أوتيت من قوة جميع ما يتفق وانسريعة الاسلامية ، جميع ما يميل الى جلب الفائدة على بقية أجزاء المملكة • وسأظل أفعل ذلك حتى يشاء الله أمرا غيره •

وفى وسعى ، لكى تطمئنوا سعادتك ، أن أعلن أن جميع البلاد ؛ بما فيها أولئك الذين تقول عنهم انهم يمتثلون للأوامر التركية الالمانية ، تنتظر نتيجة هذه المفاوضات التي تعتمد فقط على رفضكم أو قبولكم لمسألة هذه الابعاد (أى الحدود) وعلى بيان يصدر منكم بحماية دينهم أولا ضد أى أذى يلحق به أو خطر يهدده ، وباقى حقوقهم تاليا •

وأيا ترى حكومة بريطانيا العظمى ملائما لسياستها فى هذا الخصوص ، اعلمونا به وحددوا لنا الطريق الذى ينبغى علينا أن نسلكه •

وان أرادة الله هى وحدها النافذة فى جميع الحالات • وان الله هو العامل الحقيقى فى كل شئ •

واختتم كتاب الشريف ببعض التفاصيل الفنية بصدد كيفية ارسال الصدقات من مصر الى الأماكن المقدسة ، والحبوب الى أهل الحجاز ، لكن « الحبوب المذكورة ليس لها علاقة بالسياسة » على حد قول الشريف ذاته • وليس ثمة داع الى الاطالة فى هذا الجزء الذى يغى بالغرض تماما من كتاب الشريف الطول باضافة هذه الخاتمة •

انه كتاب طويل النفس • بيد أن هذا القدر يكفينا منه ، لأنه يقى بالغرض • ولنقم بأبداء بعض الملاحظات الطفيفة حوله • لقد قال الشريف للسير هنرى مكماهون ، بأسلوبه الخاص ، ان كتاب هذا الاخير ليس فيه الا مصانعة مؤقتة • وان تظاهر المندوب السامى بعدم ملاحظة مطالب الشريف لم يخدع هذا الرئيس الدينى بأى حال من الاحوال •

لقد كرر القول فى شرح مركزه : انه لا يتكلم بالاصالة عن نفسه ، فينبغى ألا يغيب هذا عن البال أبدا • انه يتكلم منذ الآن فصاعدا بالنيابة عن العرب أجمعين ، الذين هم على علم بهذه المطالب ووكلا اليه أمر تقديمها • وأن هذا يصدق كذلك على هؤلاء العرب الذين يقومون بخدمة العلم التركى فى الوقت الراهن ، كما يصدق على أى عربى آخر • وأن هذا الدور الذى يقوم به هؤلاء العرب الآن فى هذه الحرب يعتمد على قبول المندوب السامى لهذه الشروط الواردة فى كتاب الشريف الاول أو رفضه لها • وأن حسينا يتمسك بهذه الشروط ألا وهى استقلال جميع الشعوب العربية ضمن حدودها الطبيعية • وأن هذه الحدود التى عينها لا تحتوى على أجناب بل تضم عربا خلصا • وأن العرب يتوجهون الى بريطانيا بهذه المناشدة الأخيرة لاعتقادهم أنها مخصصة فى خدمتها لهم ولأنهم مخلصون فى خدمتهم لها • وأنهم يبتهلون الى الله ألا تدبر بريطانيا ظهرها لندائهم هذا فيكون لا مفر لهم ، والحالة هذه ، الا أن يستديروا الى العدو لطلب المساعدة فى تحقيق أهدافهم •

أما التلميح الى أن العرب قد يدفعون دفعا الى الالتقاء مع الاتراك فكان فى حينه • وبالرغم من أنه كان حركة مساومة بارعة فانه لم يكن مجرد مساومة وحسب • اذ كان من الواضح أن حملة الدردنيل لم تعد ناجحة وأن موقف الحسين سيكون محفوفا بالمخاطر طالما كان الاتراك هم المنتصرين ، وأن ملاذه الوحيد هو فى رتق علاقته مع الاتراك • لكنه لم يأبه بذلك لأن قلبه كان ميالا الى التحالف مع البريطانيين • ان كل ما قد يحصل عليه من تركيا هو وعد بمنح الاستقلال الذاتى للبلدان العربية باعتبارها مقاطعات تركية • أما ما اذا كان هذا الوعد سينفذ فى حالة انتصار تركيا ، وما اذا كان هو سيشترك فى مكة فذلك أمر جد مشكوك فيه • الا أنه قد يرغم على الموافقة على هذه الخطوط اذا ضاعته هذه الفرصة الراهنة فى التعاون مع الحلفاء ، وأصبح هو وشعبه معزولين •

وينبغى أن يلاحظ المرء أن هؤلاء العرب الذين كان الحسين يمثلهم ، كانوا يودون أن يضموا قواهم الى الحلفاء فى وضع زمنى لم تكن فيه الامور تميل الى صالح هؤلاء الآخرين اطلاقا • • لم يكن هناك محل للقول بأن

العرب كانوا يجرون وراء مساعدة الطرف انغالب ، كان الحسين على أتم العلم بهزيمة الحلفاء في جاليبولي . والواقع أنه لم يكن قد مر وقت على ورود وثيقته الثانية الى القاهرة حين بدأ البحث في احتمال الجلاء عن المضائق . ففي الحادى عشر من تشرين الاول أبرق اللورد كتشمر من لندن الى السير ايان هاميلتون برسالة يسأله فيها عن الخسائر التى يتوقعها اذا بوشرت هذه العملية .

وكما قد يتخيل الانسان ، كان الحرص والحذر فد أضنيا سلطانتنا فى مصر ، اذ بالاضافة الى نكبة جاليبولي كانت مخاطر أخرى قد بدأت تظهر من نلقاء نفسها ؛ وان كانت صغيرة بالمقارنة الى تلك . وكانت هذه المخاطر مكدرة ومزعجة وقد تتفاقم . وقد بقيت بعض هذه المشاكل القليلة الاهمية مجهولة لدى الرأى العام حتى يومنا هذا وان دونت . ويقول كتاب التاريخ الرسمى للحرب : «فى كل ناحية ، كان عملاء الالمان والاتراك يدأبون على خلق المشاكل ، ويتلمسون كل نقطة ضعف ، وينفخون النار فى جمرات الكراهية الدينية المستعرة » . وعلى حدود مصر الغربية كانت قبيلة السنوسى على اتصال دائم بالقسطنطينية . وكان نورى بك ؛ أخو أنور غير السفيق ، مع جماعة من الضباط الالمان والاتراك الصلاب الصعاب المراس ، موجودين لدى زعيم القبيلة السيد أحمد ، الذى أرغم من قبل السلطان (اعتمادا على معلومات حصلت عليها القاهرة من رسائل ضبطت) على اعلان الجهاد ضد الحلفاء . « وقد ظل خطر هذا التهديد الجاثم فى الصحراء يتزايد حتى تمخض عن حرب شنت فى الخريف . وفى السودان كانت هناك اضطرابات فى أماكن متفرقة . وذلك راجع فى جزء منه الى عدم الارتياح الذى أنارته بين السكان المسلمين ، محاربة بريطانيا العظمى للخلافة (أى مع السلطان محمد الخامس الحليفة التركى الحالى) لكنه يرجع مع ذلك الى الدعاية التى كانت تبنيها الدسائس التركية » (عن التاريخ الرسمى ح) .

وفى غرب السودان ، كان سلطان دارفور يثير القلاقل التى لا بد أنها كانت لديها مبرراتها . والواقع هو أنه كان يدبر الخطط للقيام بهجوم على السودان ، رسم له كدور يقوم به فى الوقت ذاته الذى يقوم فيه السنوسى بالهجوم على مصر . لكنه لم يقم بهذا الدور الذى عين له وسحق بعد ستة أشهر من ذلك الحين فى أنجح وقعات الحرب وأصغرها وأقلها ذكرا .

بيد أنه كانت أمام القادة العسكريين والمدنيين في القاهرة ؛ في هذا المكان الذي يقع بين الشريف ونظرائه من الزعماء العرب ، ألف وتماثلة ميل من المشاكل المعقدة ، تمتد من جناح مصر الغربى الى السودان ، ينبغي عليهم معالجتها بالاضافة الى العملية الكبرى التي تجرى في جاليبولى • وعلى بوابات البحر الاحمر ، في البريم وعدن كان العدو يشن الهجمات أيضا • ولذلك لم يعد في الامكان المراوغة في الرد على عرض الشريف المتجدد الذي عرضه على السير هنرى مكماهون بشأن التحالف مع العرب • ولذلك ألح المندوب السامى ، الذى كان متلهفا منذ البداية على قيام مثل هذا التحالف الانكليزى العربى ، فلم يمسوف الحسين طوعا ، ألح على حكومة الوطن بضرورة القيام بخطوة محددة لكسب العرب الى صفنا •

ووصل الى مصر في تشرين الاول من ذلك العام نفسه اوبرى هربوت • وكان آنذاك يقوم بمهام ذات طابع سياسى عسكرى فى الشرق الاوسط بعد أن جرح فى الخدمة العسكرية فى صفوف فيلق الحرس الايرلندى المتمركز فى فرنسا • ويمكن الركون الى ما سجله عن الوضع هناك ، وهو يبين كيف كانت تشير الأمور • ان قليلا من الناس عندنا قد كان له مثل ذلك الاتصال الوثيق بالعالم الاسلامى الذى كان له • كما كان القليل من الناس يتمتع بمثل تلك الصفات من صفاء الذهن ونقاء الروح التى كان يتمتع بها • وكان قلنة فريدة يندر أن تجدها • • كان خبيراً وشهما • انه يقول انه حين بلغ القاهرة : « كانت مسألة العرب قد بلغت حد الازمة • فقابلت الجنرال (السيد جون مكسويل القائد العام فى مصر) وكلايتون (رئيس الاستخبارات) وشيتام (السيد مايلن شيتام ممثل مكتب الخسارجية) والمندوب السامى (السير هنرى مكماهون) فاتفقوا جميعا على أنه يكاد يكون من الأهمية القصوى (خط التشديد من وضعى أنا - المؤلف) جعل العرب يناهزون الى صفنا ، وأن الفرصة سستفلت منا اذا لم يتم ذلك فى وقت قريب جدا » •

وكان هربوت ، الذى يعرف الأتراك جيدا ، يعتقد أنه لن يمضى وقت طويل قبل أن يستدير الأتراك ويعرضوا على العرب ذلك العرض بمنح الحكم الذاتى لهم الذى رفضوا أن يمنحوه لهم من قبل • وقال : « لقد قال لى طلعت بك منذ ثلاث سنوات مضت ان اللجئة (أى لجنة الاتحاد والترقى: وهى جماعة الشبان الأتراك الحاكمة آنذاك) قد أخذت العبرة مما حدث فى البانيا ، وأنها على أتم استعداد لأن تمنح للعرب أى شكل من أشكال الحكم الذاتى يختارون • وهو يعتقد بأن هذه التنازلات ، تسندها مصانعة القسطنطينية ومداهنتها للشيوخ ، ستجعلهم يتخلصون من المشكلة

العربية • بل وقد كانت لدى الألمان عروض تزيغ البصر ينوون عرضها ،
وعقوبات أكثر صرامة يهددون بتوقيعها • وكان العرب يشعرون أن لحظة
اصدارهم قرارهم قد باتت وشيكة •

وكان عزيز بك المصرى قد شرح موقف العرب وتطلعاتهم لهربرت •
وكان عزيز بك الذى يصفه لورانس بأنه « المثل الأعلى للضباط » مفوضا
عربيا غير رسمى فى ذلك الحين • وكان كتشنر قد استوضح منه قبل
ما يزيد على عام - كما أسلفنا القول - بذلك من قبل - ان كان من غير
المتوقع أن تهجر الكتائب العربية المتمركزة فى بلاد ما بين النهرين العلم
التركى وتنضم الى الجيش البريطانى •

وكان عزيز بك أهلا ، بسبب ذلك ، لأن يقوم بالتعبير عن وجهة نظر
مواطنيه • وقال لهربرت ما قد أطلع عليه القارىء وان قوة الحركة العربية
تكمن فى شبانها • وان التسباب العرب ورجال الجمعيات السرية ، حيشما
وضعوا ، هم من الحكمة والتعقل بحيث يعملون عن طريق شريف مكة •
انهم لم يرتكبوا الغلطة التى ارتكبها الشباب الاتراك باحتقارهم التبرجيل
والتقاليد • وقد كان كثير منهم يهدف الى كسب الاستقلال الذاتى فى ظل
النظام العثمانى لولا أن الشبان الاتراك قد جعلوا ذلك أمرا مستحيلا حتى
ذلك الحين • ولو تساعد بريطانيا العرب فانهم سيقتلون منها جزءا مما
وعدهم الألمان به • وكان الألمان قد قدموا عروضاً فى افريقيا البريطانية
لا يقاوم اغراؤها • لكن اذا ما لزمنا انجلترا بدورها فسيحتتم عليهم
والحالة هذه أن يحصلوا على أفضل ما يمكنهم الحصول عليه • وكانت
الطريقة التى تسير بها الحرب فى الشرق بالنسبة لنا قد جعلت العرب
يخافون على حريتهم •

وقد أيد عزيز بك مقاله الحسين من أن مطالبه هي المطالب الأصلية
لدى جميع العرب • كما أيد ضرورة الحاجة الى عمل سريع •

وبعد أن اتصل السير هنرى مكماهون بحكومة الوطن حول صلاحية
القيام بهذا العمل ، ففعل ذلك برغم تعقيدات معينة كانت تحيط به ،
ونشأت عن المطامع الفرنسية فى سورية • فكان هناك آنذاك دبلوماسى
فرنسى يدعى الميسيو بيكو (وهو دبلوماسى لم يكن اختياره موقفا لأسباب
ستجيبىء تاليا) يقوم فى الشرق الأدنى بما وصف بأنه « مهمة استقصاء
وتشاور » وكانت هذه تبادلاتها لخطوة رسمية ما قد تقوم فرنسا بها •
وقد وكل أمر اكتشاف طبيعة هذه الخطوة الى السير مارك سايكس ؛ وهو
فارس دونكيشوتى بريطانيا متجول ، وطلب اليه بأوامر صدرت مباشرة

من كتنشتر أن يكتب تقريراً عن أحوال هذه المنطقة عينها كبيكو ، بالرغم من أن هذه المهمة كانت لاحقة في تاريخها لمهمة المسيو بيكو . وكان موظف رسمي فرنسي قد قال له : « يجب أن تأخذ فرنسا دمشقاً » .

والحقيقة هي أن الفرنسيين قد طمعوا منذ البداية وعندما بدأت الحرب مع تركيا في الفوز بنصيب الأسد . فعقد اتفاق ابتدائي في ربيع عام ١٩١٥ مع بريطانيا وروسيا رسمت فيه مجالات نفوذ هذه البلدان الثلاث في الممتلكات التركية بصورة عامة . ومنحت فيه روسيا المضائق والقسطنطينية . ووفق في أذهان الطرفين الآخرين المعنيين أن مناطق النفوذ ستتحوّل الى مناطق الحاق بالرغم من أن شيئاً لم يحدد . أما فيما يخص فرنسا فكان يمكن بلوغ أهدافها في سورية بجعلها اماراً تابعة . كما تم الاتفاق على أن يأخذ هذا الاتفاق شكلاً محدداً فيما بعد .

وان من المهم جداً أن يدرك الانسان جيداً أن هذا الاتفاق لم يكن له أى دخل في الحقوق . وأنه لم يكن لأى من هذه الاطراف الثلاثة أية حقوق في الممتلكات التركية . اذ لم تكن الحماية الدينية الزخرفية التي تبسطها فرنسا على المسيحيين اللاتينيين في سورية ، ولا الحماية الممانلة التي تبسطها روسيا على المسيحيين الاغريق فيها ، تخولان لهما أية حقوق اقليمية ؛ من أى نوع ، في الاراضى التركية . ولهذا كان هذا الاتفاق الثلاثي بكل بساطة اتفاقاً قصد به الاطمئنان مقدماً على تقسيم الاسلاب التي قد تكون سانحة في المستقبل لكيلا ينشب التنافر والخلاف حولها بعد نجاح الجيوش المتحالفة في حملة الدردنيل ، أو في أى مكان آخر ، مباشرة .

أما أن الأمر كان على هذه الشاكلة . . أما أنه لم يكن هناك محل للدعاء بأية «حقوق» تعود للحلفاء وتمنع السير هنرى مكماهون من حرية العمل ، - فيمكن أن يقف الانسان على ذلك من الوثائق الدبلوماسية التي تؤرخ لتلك الفترة . وسوف نوردّها في مكانها في فصل قال من هذا الكتاب (الفصل الخامس والعشرين) ، لأننا سنجعل من موضوع هذا الفصل معقداً اذا أوردناها بنصها فيه . بيد أن من المفيد هنا أن نقول ان الحكومة البريطانية قد أنكرت على فرنسا تصريحاً أعلنته حكومتها مؤداه أن فرنسا ستلحق سورية بها في حالة لحاق الهزيمة بتركيا ، فأعلنت رسمياً أن من التهور والطيش تقسيم الممتلكات التركية في ذلك الوضع الراهن . ثم تابعت تلك المذكرة التي تحمل رأى حكومة صاحب الجلالة قولها الى الاعلان بأنه يجب ألا يغيب عن البال أن المقصود ليس اجراء

تقسيم من هذا النوع بل خلق دولة اسلامية مستقلة تحل فيها الجزيرة العربية محل الاثراك المفترض اختفاؤهم من القسطنطينية .

تم قالت الحكومة البريطانية انها تعتبر هذه الدولة الاسلامية ضرورة ملحة . وتحتم على الفرنسيين أن يتخلوا عن مطامعهم هذه لكنهم أصروا على الاحتفاظ بـ «مجال النفوذ» المفظوع لهم . ولذا فقد خلق هذا المجال عقدة ولكنه لم يخلق عقبة في طريق المفاوضات مع الشريف . ولهذه الاسباب وضع السير هنرى مكماهون هذا في حسابه حين استأنف التراسل مع الشريف . ولا يبدو أنه كان على علم بتبادل المذكرات الذي جرى في أوروبا بين فرنسا وبريطانيا وروسيا ، وانما تلقى تعليمات عامة من لندن بصدد موضوع مجال النفوذ الفرنسي هذا .

وفي الخامس والعشرين من تشرين الاول رد المندوب السامي على شريف مكة . وكانت هذه الوثيقة التي أرسل بها اليه تسليما بشروط العرب مع تحفظ واحد لصالح فرنسا . وهذا نصها :

الى شريف مكة (والحق هذه العبارة بنعوت كثيرة)

ببالغ الغبطة والسرور تلقيت كتابكم المؤرخ في التاسع والعشرين من شوال (التاسع من أيلول) فارتحت أبلغ الارتياح لاعرابك فيه عن مشاعر الود والاخلاص تجاهنا .

واني آسف أن مهمتهم من كتابي الأخير اني أنظر الى مسألة الابعاد والحدود بفتور وتردد . والحال ليس كذلك ، ولكنني ارتأيت أن اللحظة التي يمكن أن تبحث فيها بحثا مفيدا لم تحن بعد .

بيد أنني أيقنت من كتابك الأخير أنك تعتبر هذه المسألة ذات أهمية حيوية وجد ملحة ، ولذلك لم أضيع وقتا في اعلام حكومة بريطانيا العظمى بمحتويات كتابكم . ويسرني أعظم السرور أن أنقل اليكم البيان التالي ، بالنيابة عنها ، وأنا على يقين من أنكم مستقبلونها بالرضا .

ان مناطق مرسين ، والاسكندرونة ، وأجزاء من سورية تقع غربي ألوية دمشق وحماة وحمص وحلب ، لا يمكن أن يقال انها عربية خالصة ، ويجب استثنائها من هذه الابعاد والحدود المقترحة . وبهذا التحفظ المذكور آنفا ودون أي اخلال بمعاهداتنا النافذة مع الرؤساء العرب الآخرين ، نحن نسلم بهذه الابعاد والحدود . أما فيما يتعلق بتلك المناطق الاخرى الداخلة ضمن

نطاق هذه الحدود والتي لبريطانيا حرية التصرف بشأنها دون الحاق الضرر بمصالح حليفها فرنسا فاني قد خولت باسم حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم لكم هذه الضمانات التالية وأن أكتب الجواب التالي ردا على كتابكم :

ان بريطانيا العظمى مستعدة ، رهنا للتعديلات المذكورة آنفا ، للاعتراف باستقلال العرب ضمن المناطق الداخلة في نطاق هذه الابعاد والحدود التي اقترحها شريف مكة ، ولتأييد هذا الاستقلال .

وتضمن بريطانيا سلامة الأماكن المقدسة ضد جميع الاعتداءات الخارجية وتعترف بوجودها المستقل .

وحين يسمح الحال ، تقدم بريطانيا للعرب مشورتها وتساعدهم على اقامة ما يرون أنه أكثر أشكال الحكم ملائمة لهم في مختلف هذه المناطق .

ومفهوم من الناحية الاخرى أن العرب قد قرروا أن ينشدوا مشورة بريطانيا العظمى وحدها وارشادها وأن مثل أولئك المستشارين والرسميين الاوروبيين الذي قد يلزمون لاقامة شكل سليم من أشكال الادارة سيكونون من البريطانيين .

وأما بصدد ولايتي بغداد والبصرة فسيذكر العرب أن الوضع القائم فيهما ومصالح بريطانيا العظمى فيهما يقتضيان اتخاذ اجراءات خاصة من الاشراف الاداري لتأمين هذه المناطق ضد العدوان الخارجي ، ومن أجل زيادة رخاء السكان المحليين ولصون مصالحنا الاقتصادية المشتركة .

واني لعلي يقين من أن هذا التصريح سيؤكد لكم ، بما لا يقبل الشك ، عطف بريطانيا العظمى على آمال أصدقائها التقليديين ؛ ألا وهم العرب ، وسيتمخض عن تحالف دائم راسخ الأركان ، تكون نتيجته المباشرة طرد الأتراك من البلدان العربية وتحرير الشعوب العربية من نير الحكم التركي الذي ظل يبهظ كاهلها لسنوات جد عديدة .

لقد حصرت نفسي في هذا الكتاب في حدود المسائل الأكبر حيوية والأكثر أهمية فإذا كانت هناك أمور أخرى أتيتم على ذكرها في كتبكم اليانا وأغفلت أنا ذكرها ، ففى وسعنا أن نبهثها فى وقت أنسب فى المستقبل .

ولقد علمت بأعظم الرضا والارتياح بخبر وصول الكسوة الشريفة والعطايا التي صاحبته بفضل سداد ارشاداتكم وحسن تدبيركم الفائق ، ودون أية متاعب أو مصادفات سيئة ، برغم هذه الأخطار والصعوبات التي تفرضها الحرب الحالية المؤسفة • جاد الله بالسلام الدائم والحرية الدائمة على جميع الشعوب ، عما قريب • واني أرسل لكم هذا الكتاب بيد رسولكم الأمين الباهر الشيخ محمد بن عارف عريفان • وسيخبركم عن أمور أخرى كثيرة تهكم لم أذكرها في الكتاب • ولكنها أقل حيوية وأهمية من هذه •

(ثم تتبع هنا التحيات والمجاملات التقليدية) •

أ • هنري مكماهون

هذه هي الوثيقة الحاسمة • لقد قدم الشريف شروطه وقبلت هذه الشروط رسمياً عن طريق المندوب السامي البريطاني على مصر ، عن طريق الممثل الذي عينته حكومة صاحب الجلالة ، والذي أعلن أنه مخول صلاحية التصرف بالنيابة عن تلك الحكومة • وكل ما جاء فيها تعهد صريح ملزم ، مثله في ذلك مثل أى اتفاق دخلت فيه بريطانيا العظمى طرفاً • انها تقبل شريف مكة بوصفه المتحدث الرسمي المخول الصلاحية في التحدث بلسان جميع الشعوب العربية ، وتقبل هذه الشعوب ككيان مفاوض بقدر ما تفصل في فقرات عديدة منها ما هي الطبيعة التي ستكون عليها هذه العلاقات التي ستقوم بينها وبين بريطانيا العظمى •

أما عباراتها فهي واضحة وضوح طبيعتها • انها تتعهد بالاعتراف باستقلال العرب داخل نطاق هذه الحدود التي عينها الشريف نفسه وبتأييد هذا الاستقلال • بيد أنها تعلن هذا التعهد بتحفظين • انها ترفض مطالبة العرب بمرسين والاسكندرونة في الحدود الشمالية • وتضع تحفظاً في الحدود الغربية التي عينها الشريف في مشروع معاهدته بأنها تتألف من شواطئ البحرين الأحمر والأبيض على التعاقب • • تضع هذا التحفظ بخصوص الجزء الشمالي الأقصى من هذه الحدود • « وأجزاء من سورية تقع غربي ألوية دمشق ، وحماة ، وحمص ، وحلب ، لا يمكن أن يقال انها عربية خالصة ويجب استثنائها من هذه الأبعاد والحدود المقترحة » •

والكلمة العربية التي ترجمت هنا الى « District » * مرادفة لقولنا : مدينة وما جاورها من قرى . وهي ما نسميه اليوم بالـ Urban District . ونقع هذه المدن الأربع المعنية في هذه الوثيقة على خط مستقيم الى حد ما كما يبين ذلك لقاء نظرة على الخريطة : الواحدة منها تحت الأخرى ، على هذا النحو ؛ بادئين من الشمال : حلب ، حماة ، حمص ، فدمشق . أما البلاد الواقعة الى الغرب منها فهي تمثل حالياً (سنة ١٩٣٩ - المغرب) المنطقة الساحلية الخاضعة للانتداب الفرنسي على وجه التقريب ، وكانت تمثل في ذلك الوقت الذي كتبت فيه هذه الوثيقة مجال النفوذ الذي كانت تطالب فرنسا به .

ولكن اذا كان هذا التحفظ قد علق على الجزء الشمالي الساحلي من سورية ، فليس هناك اي تحفظ من اي نوع قد علق على المجال الجنوبي من هذه الرقعة العربية ؛ على فلسطين . وهذا هو السبب في أن هذه المعاهدة الأنجلو عربية قد بقيت حتى الآن ، وبعد ما يزيد على عشرين عاما من ابرامها ، وثيقة خطيرة الشأن بالنسبة لفلسطين . حقا انها ليست المستند الاساسي الذي يطالب العرب بفلسطين بموجبه لأن هذه المطالبة مبنية على حقهم الأزل في امتلاك بلادهم ، ومبنية على عدم شرعية أي تصرف تقوم به أي دولة من الدول ، أو أي عصابة أمم ، أو أي حكومة من الحكومات أو أي مؤسسة من المؤسسات في بلاد لا تملكها .

لكن هذا الحق يجيء تالياً لذلك ، ومؤداه أن بريطانيا العظمى قد قيدت نفسها في هذه الوثيقة المؤرخة في الخامس والعشرين من تشرين الأول بأن تمنح العرب حكومة عربية في فلسطين مستقلة . وان هذا الحق حق عدل ولا سبيل الى انكاره . أما التحفظ الذي وضعه السيد هنري مكماهون بوجوب استبعاد المناطق الواقعة الى الغرب من المدن الأربع ؛ من دمشق وحمص وحماة وحلب ، فلا يؤثر على فلسطين ، لأنها لا تقع غربي هذه المدن ولكن جنوبها تماماً . والحقيقة هي أن ساحل سورية من الاستقامة بحيث لا تعنى كلمة « الغرب » شيئاً الا اللفظة المجردة هناك . اذ لا توجد فيه أية أشباه جزر نائية ، أو رءوس نائثة يمكن وصفها بأنها جنوبية غربية . وفلسطين لا تقع الى الغرب من القطاع الفرنسي في سورية الا بقدر ما يكون هذا النصف السفلي من هذه الصفحة التي يراها القارئ تحت عينيه واقعا الى الغرب من نصفها العلوي !

(١) لواء .

(٢) لواء المدينة : ويسمى في مصر بالبند .

وفضلا عن كون اشتغال فلسطين في حدود الدولة العربية الموعودة بين من تلغاه نفسه على الخريطة ، فإن نصوص هذه المعاهدة في حد ذاتها تؤكد هذا الاشتغال ؛ كما هو الحال ٠٠٠ أي حيثما كنا مطلق الحرية دون الحاق ضرر بالمصالح الفرنسية ؛ أي حيثما قبلنا حدود العرب دون جدال • وهناك اشتراطات معلقة في الأراضي الواقعة الى الداخل من ساحل الخليج الفارسي (الخليج الغربي الآن - المغرب) ، تدور حول الاشراف الإداري عليها ، واشتراطات تدور حول قبول المستشارين البريطانيين أو المساعدين البريطانيين في الولايات العربية الجديدة • أما عن حجب الاستقلال العربي الأساسي عن أي مكان من القطاع الذي قيل أنه قد ترك لبريطانيا مطلق الحرية في التصرف بشأنه ، أو عن عدم خفق العلم العربي على أي مكان منه ، أو عن القول بأن أي جزء من هذا القطاع ليس عربيا خالصا ، فلم ترد في هذه الوثيقة أي جملة ، أو أي كلمة ، أو حتى فاصلة واحدة بشأن هذا •

والحقيقة هي أن فلسطين مندرجة بموجب تعاقدا هذا تحت وعد الحكم الذاتي المستقل ؛ وإلى أبعد حد تقتضيه الظروف ، كاندراج الحجاز ذاته • ولست أنوي بسبب ذلك أن أتوسع الآن في الحديث حول هذه النقطة ، وهي على ما هي عليه من أهمية في هذه المرحلة الراهنة ، لسوف نعود إليها فنوحيها حقها من البحث والابضاح حين نأتي - وبالنكذ الطالع - الى الحديث عن محاولات رجال الدولة البريطانيين في التملص ، لصالح الصهيونية السياسية ، من التزاماتنا في هذه المعاهدة الانجليزية العربية •

ان كل ما نحتاج الى توكيده هنا ، في هذه اللحظة الراهنة ، هو أنه لم يكن هناك أي تفكير لدى الدوائر المسئولة في تشرين الأول من عام ١٩١٥ عن أي شيء يتعلق بفلسطين اللهم الا تكوين دولة عربية تحت الارشاد البريطاني • ولم تكن هناك مسألة تقول بأن فلسطين بلد يهودي أو يهودي جريئا ويحتاج الى نظام حكم خاص ٠٠٠ لم تكن فلسطين قد ألبيست بعد ثوبا سياسيا فريدا في نوعه ، كما لم يقل أحد كلمة واحدة عن عدم قدرته على البحث في أمرها بسبب حق حجز يهودي تاريخي مزعوم موقع عليها ، كما قيل بالضبط عن تلك الأجزاء العربية الأخرى التي استثنيت ٠٠٠ ففي تشرين الأول من عام ١٩١٥ لم تكن النظرية الرسمية في ازدواج ملكية فلسطين قد اخترعت بعد •

وما جميع هذه العبارات والأوصاف والمنطوقات التي تعود الى تلك النظرية ، والتي اعتدنا سماعها منذ ذلك الحين من شفاه أعضاء وزارتنا الموالين للصهيونية ، وشفاه أتباع هذه النظرية الصهيونية الآخرين ، الا

كلمات مكررة من بنات أمس • وليست الا اختلاقات وادعاءات اخترعوها
لكي يستروا بها نظرية لا تستطيع أن تصمد للنور ، ولكي يسبغوا
سيماء القدم على سياسة ليست لها أسانيد من الماضي •

وقد تطلب هذا أن نوضحه بجلاء فأوضحناه • ونستطيع الآن أن
نعود مرة أخرى الى هذه الوثائق التي تبودلت بين شريف مكة والمندوب
السامي • لقد حث الحسين في آخر وثيقة أوردناها من هذه الوثائق ، على
حمل السلاح ضد الأتراك دون إبطاء • اذ عبر في نصها عن الأمل بأن
النتائج المباشرة لهذا التحالف الجديد ستكون طرد الأتراك من البلدان
العربية •

الا أن الشريف كانت لديه مع ذلك بعض الشروط يشترطها • انه
لا يستطيع أن يترك موقف العرب من هذه التحفظات والتعديلات التي
وضعها السير هنري مكماهون دون تبيان •

فأرسل رده بسرعة كافية في السابع والعشرين من ذى الحجة لعام
١٣٣٣ من التقويم الاسلامي الخامس من تشرين الثاني لعام ١٩١٥) :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى صاحب السعادة ، على المكانة ، الوزير عظيم الشأن ،
الذي حبي أعظم المناصب ، ومنح سداد الرأي ، هداه الله الى
تنفيذ مشيئته •

لقد تسلمت ببالح السرور كتابكم الكريم المؤرخ في الخامس
عشر من ذى الحجة (الرابع والعشرين من تشرين الأول) والذي
استأذنكم أن أجيب عليه بما يلي :

١ - لكي يتيسر قيام اتفاق ، ولكي نقدم خدمة للاسلام
ونتجنب في الوقت عينه كل ما قد يسبب للاسلام المتاعب
والصعوبات - ومدركين فضلا عن ذلك أننا نكن تقديرا عظيما
للصفات البارزة والأخلاق الحميدة التي تتحلى بها حكومة بريطانيا
العظمى - فاننا نتنازل عن اصرارنا على ضم ولايتي مرسين وأصنة
الى أقاليم المملكة العربية • لكن ولايتي بيروت وحلب وسواحلها
هي ولايات عربية محضة ولا فرق بين المسلم العربي والمسيحي
العربي ، فهما كلاهما خلفاء جد واحد •

وسوف نترسم نحن المسلمين خطوات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والخلفاء الذين أتوا بعده ، والذين سنوا في شرائع الدين الاسلامي وجوب معاملة المسلمين للمسيحيين كما يعاملون أنفسهم . « لا ، » أعلن عمر في معرض كلامه عن المسيحيين ، « ستكون لهم الحقوق نفسها التي لنا ، وعليهم الواجبات نفسها المفروضة علينا . » وبهذا سيتمتعون بحقوقهم المدنية طالما كانت تنسجم مع المصلحة العامة للأمة بأسرها .

٢ - لما كانت أقاليم العراق أجزاء من المملكة العربية الحاصلة ، وكانت في الواقع مقرا لحكوماتها في أيام علي بن أبي طالب ومن جاء بعده من الخلفاء ؛ ولما كانت حضارة العرب قد بدأت فيها ، ولما كانت مدنها فيها هي أول مدن بنيت في عهد الاسلام وحيث أصبحت دولة العرب فيها كبيرة جدا فان هذه الأقاليم يجعلها العرب تمجيدا كبيرا ، قاصيهم ودانيهم ، ولا يمكن أن ينسوا تقاليدها وتليدها . ومن ثم فاننا لا نستطيع أن نقتنع الأمة العربية أو نجعلها تسلم بعنوان سؤدد كهذا . ولكن لكي نجعل الاتفاق بيننا أمرا ميسورا ؛ ولكي نضع في اعتبارنا التأكيدات التي ذكرت في الفقرة الخامسة من كتابكم ، ولكي نرعى ونصور مصالحنا المشتركة في ذلك البلد ، لأنها مصالح واحدة الشيء ذاته بالنسبة لكلينا ؛ لهذه الأسباب جميعها قد نوافق على أن نترك تحت الإدارة البريطانية هذه الأولوية التي تحتلها القوات البريطانية الآن لمدة قصيرة من الزمن ، ودون المساس بحقوق أي من الطرفين من جراء هذا العمل (وبخاصة حقوق الأمة العربية التي مصالحها فيها مصالح اقتصادية وحيوية جدا) لقاء مبلغ مناسب من المال يدفع كتعويض للمملكة الأخرى عن فترة الاحتلال لكي تسد به النفقات التي لا مفر لأي مملكة حديثة من أن تواجهها ، ونحترم في الوقت عينه اتفاقاتكم مع شيوخ تلك الأولوية ، وبخاصة ما كان منها ضروريا .

٣ - نحن نرى في رغبتكم في الاسراع بالقيام بالحركة ليس مدعاة للتروى والتفكير بل أسسا لهما . وأول هذه الأسس هو خشية ملامة مسلمي الجانب الآخر ؛ كما حدث من قبل . فقد يعلن هؤلاء أننا ثرنا على الاسلام ودمرنا قواه . وثانيها أننا لاندرى اذا وقفنا في وجه تركيا التي تدعمها جميع قوى ألمانيا ، ما الذي ستفعله بريطانيا العظمى وحليفاتها اذا ما ضعفت إحدى الدول

الوئيلة معها فاضطرت الى أن تعقد صلحا • اننا نخشى أن تترك
الأمة العربية وحدها أمام تركيا وحليفاتها • لكننا لن نعبأ إطلاقا
إذا ما قدر لنا أن نواجه الأتراك وحدهم ولذلك فإن من الضروري
جدا أن نأخذ هذه النقاط في الاعتبار لكي نتلافى إبرام صلح
تقرر فيه الأطراف المعنية مصير شعبنا ، كما لو كنا قد اشتركنا
في الحرب دون أن نوضح مطالبنا للمحافل الرسمية بجلاء •

٤ - ان لدى الأمة العربية اعتقادا قويا بأن الأتراك سيوجهون
كل جهودهم : بعد أن تنتهي هذه الحرب ، وبتهريض الألمان ، الى
تدمير العرب وانتهاك حقوقهم المادية والأدبية على السواء ، وإلى
طمس عراقتهم وتدنيس شرفهم فيلحقون بهم الحسب الى درجة
الاضضاع الشام ، لأنهم عازمون على تدميرهم كلية • وها نحن قد
أوضحنا السبب في البطء الذي يبين في أفعالنا •

٥ - حين يعلم العرب أن حكومة بريطانيا العظمى حليفة
لهم ، وأنها لن تتركهم يواجهون تركيا وألمانيا لوحدهم غداة
إبرام صلح ، وأنها ستؤيدهم وستدافع عنهم دفاعاً فعالاً ، فإن
دخول الحرب توا سيكون متفقاً ، بدون شك ، مع المصالح
للعرب •

٦ - ان كتابنا المؤرخ في التاسع والعشرين من شوال لعام
١٣٣٣ هـ (التاسع من أيلول لعام ١٩١٥) يوفر علينا عناء تكرار
آرائنا بصدد الفقرتين الثالثة والرابعة من كتاب سعادتكم الأخير ،
فيما يتعلق بالادارة والموظفين والمستشارين في الحكومة ، وبخاصة
وأنكم قد أعلنتم أيها الوزير صاحب المقام الرفيع أنكم لن تتدخلوا
في الشؤون الداخلية •

٧ - ان ورود رد واضح محدد على الاقتراحات المذكورة أعلاه
متوقع في أقرب وقت ممكن • ولقد فعلنا أقصى ما في وسعنا في
تقديم التنازلات لكي ننوصل الى اتفاق يرضى كلا الطرفين • وأما
نعلم أن حظنا من هذه الحرب اما أن يكون نجاحا يكفل للعرب حياة
جديرة بتألد تاريخهم واما أن يكون دمارا عليهم في محاولتهم بلوغ
أهدافهم • ولولا هذا التصميم الذي أراه في العرب من أجل بلوغ
أهدافهم لفضلت أن أعترض في إحدى قنن الجبال ، لكنهم ؛ لكن
العرب قد أصروا على وجوب أن أقود هذه الحركة الى هذه الغاية •

رعاكم الله ونصركم ، كما نود ونأمل من كل قلوبنا •

في هذه المكتبة اتخذ الحسين الحيطة اللازمة بطلبه توكيدا بأن الحلفاء لن يعقدوا صلحا دون أن يقدموا تأييدا رسميا لمطالب وحقوق العرب . وهو يقبل فيها الاشراف البريطاني على العراق ، بصورة أكثر تحديدا مما طلب منه . . . يقبله مؤقتا ولقاء اعتبار معقول .

بيد أن ما يهمنا هنا هو عبارته الاولى . انه ما فتئ يطالب ، بعد أن تنازل عن مرسين وأضنة ، بولايتي حلب وبيروت وسواحلها أكثر من مجرد المطالبة بالولاية حلب وحماة وحمص ودمشق وحسب . وكان على علم بمحاولات الفرنسيين التي تبني على حماية فرنسا لمسيحيي سورية العرب لكنه لم يعرها أدنى اهتمام .

ولم يكتب السير هنري مكماهون رده على هذه الرسالة الا في أواسط أيلول . وكان كثير من الأمور قد استحدثت في ذلك الحين . . . كان اللورد كتشنر قد خرج لاستعراض الحالة في جاليبولي وفي الشرق كله . وكانت خطط الجلاء عن جاليبولي آنذاك يجري ترتيبها على قدم وساق . كما كان هناك بحث لاقتراح يقول بانزال قوات من قوات الحلفاء في الاسكندرونة (قوامها جيش يتألف من مائة الف محارب .) وقد تقصى اللورد كتشنر هذا الاقتراح غداة وصوله الى مودرس في العاشر من تشرين الثاني . ولم يكن في وسع العرب آنئذ أن يسهموا في هذا المشروع) كما كان في وسعهم الاسهام فيه في تاريخ أسبق ، لأن الأتراك كانوا - كما نعلم - قد أقصوا عن سورية جميع الفرق العربية وأرسلوها كما يقول لورانس : « الى أي مكان ، مادام يمكن سوتها بسرعة الى ميادين القتال أو سحبها بعيدا عن أنظار وعون مواطنيها » . ولم يعد في الامكان الآن احداث تمرد ليصاحب ويسير عملية الانزال في الاسكندرونة .

ولم تنم الموافقة على خطة الاسكندرونة ، بطبيعة الحال ، بناء على أسس استراتيجية مستقلة عن هذا الاعتبار ، أيدها الأميرالية ورتاسة أركان الجيش . لكن احتمال الأخذ بهذه الخطة التي لاحت في أوائل تشرين الثاني قد أفضت الى حدوث حدث هام . لقد قدم الملحق العسكري الفرنسي في لندن الى رئيس هيئة أركان الحرب الامبراطورية مذكرة مقتضبة نورد منها الفقرتين الأوليين الآتيتين .

اذا ما أرادت الحكومة البريطانية أن تبحث مسألة انزال قوات عسكرية في خليج الاسكندرونة لكي تقطع خط سكة الحديد الذي يمتد الى فلسطين فينبغي عليها ألا تأخذ في اعتبارها مصالح

فرنسا الاقتصادية فحسب بل ومصالح فرنسا السياسية والأدبية
فى هذه البلاد .

ان رأى العام الفرنسى لا يمكن أن يغض الطرف عن أى
عمليات عسكرية يجرى التحضير للقيام بها فى بلد يعتبره سيشكل
حتما جزءا من دولة المستقبل السورية . وهو لن يطالب الحكومة
الفرنسية ألا يجرى تنفيذ أية عمليات عسكرية فى هسذا البلد
بالذات دون اتفاق مسبق يتم بين الحلفاء وحسب بل بوجود أن
يوكل القيام بالجزء الأكبر من هذا العمل ، اذا ما تقرر القيام به
الى الفرق العسكرية الفرنسية والى الجنرالات الفرنسيين الذين
يقودونها .

وكان هذا الاعلان اعلانا غريبا لأن الفرنسيين لم يكن فى وسعهم
فى ذلك الحين تقديم هذه الفرق التى كانوا يطالبون بوجود أن يوكل
اليها القيام بالجزء الأكبر من هذه المهمة . ولم تكن هذه المذكرة فى
الحقيقة إلا صيحة اعتراض ناسفة لمشروع عملية الاسكندرونة .
وابرق رئيس الوزراء بعد يوم من المشاورات والاجتماعات الى كتشنر
ليقول له ان حكومتنا قد قررت رفضها .

بيد أن النتيجة الكبرى التى نجمت عن هذه المذكرة هى أنها قد
دفعت مسألة مجال النفوذ الفرنسى فى سورية خطوة الى الامام - وكان
لحرف الجر (في) فى تلك الظروف معنى فضفاض غير مستحب . وكان
واضحا أنه لا بد لبريطانيا العظمى أن تعرف أين تقف فى هذه المسألة
عن طريق جعل الفرنسيين يحددون مطالبهم ، وفى نهاية نثرين الثانى
كان كتشنر قد عاد الى انجلترا . كما عاد اليها فى كانون الأول مبعوثه
السير مارك سايكس الذى كان قد ذهب فى أثناء ذلك الحين الى الهند
ليحدث مع نائب الملك فيها عن مستقبل العراق .

ولم يكد السيد مارك سايكس يضع قدميه على أرض الوطن حتى
أرسل مكتب الخارجية ليجتمع بالمسيو بيكو الدبلوماسى الفرنسى الذى كان
قد جاء الى مصر فى مهمة ، ولكى يرسم وياه مشروعا على الورق تحدد فيه
المصالح الفرنسية والمصالح البريطانية فى الشرق التركى الأدنى أو تعين .
ولم تكن هذه بالضبط التعليمات التى زودا بها ولكنها ، انتهت اليه
هذه التعليمات . وكان المتفق أن يبقى الاتفاق سرا حين يتم الوصل
اليه ، مثله فى ذلك مثل المفاوضات التى دارت بين هذين الرجلين .
أما السبب الذى عللت به هذه السرية فمؤداه هو أن الأمر ما دام

تقسيمًا لجلد الأسد فان من الأفضل ألا يذاع على الملأ ما دام الأسد ما يزال حيا . وسيعرض طبعا على روسيا لأنه أيا كانت هذه التحديدات التي سيرسمها سايكس وبيكو فانها لا بد وأن تكون شكلا محددا لاتفاق « مجالات النفوذ » الذي سبقها .

وكانت الحكومة الفرنسية قد علمت بالمعاهدة الانجليزية العربية عن طريق المسيو بيكو الذي كان قد ذهب الى لندن للتداول مع مكتب الخارجية في ذلك الأمر استعدادا للقيام بمهمته ، وبعد أن كان السير هنري مكماهون قد بعث بالكتاب الفصل الى شريف مكة . وعاد المسيو بيكو في الحادى والعشرين من كانون الاول ، بعد أن أطلع على هذه المعاهدة فى الثالث والعشرين من تشرين الثانى ليعلن موافقة فرنسا على هذا الوضع المبني على تحفظات مكماهون . لسوف يدير الفرنسيون المناطق السلحلية . أما حكومة المدن الأربع العربية ، وهى حمص وحماة وحلب ودمشق فستكون واقعة ضمن « مجال النفوذ الفرنسى » أما من الناحية الأخرى ، فان السير هنرى مكماهون لم يطلع على محادثات سايكس وبيكو ومن ثم ظل الشريف فى الظلام فى كل ما يتعلق بها . كما أن المكتب العربى فى القاهرة الذى أسسه جليبرت كلايتون والتحق به لورانس ونيوكومب - ونيوكومب هذا هو المدفعى الذى تنكر فى زى أعرابى ورسم خريطة لشبه جزيرة سيناء - والآخرين الذين قدر لهم أن يكسبو صيتا لا بأس به - قد ظل فى الظلام أيضا . وهكذا ظل مجهولا لدى ذلك « المكتب العربى فى القاهرة » هذا الانتهاك لصلاحيته فى الاشراف على العلاقات مع العرب .

وهكذا أرسل المندوب السامى وهو يجهل كل هذا جوابه الثالث على الشريف . وكانت الأمور غاية فى السوء فى كل ما يتعلق بالحرب فى الشرق الأدنى . اذا كانت عملية الجلاء عن جاليبولى توشك أن تبدأ ، وبدأت فعلا بعد أن أرسل كتابه هذا مباشرة . وكان قد تم اخلاء السلوم وأصبح أمر الرد على هجمات السنوسى أمرا ضروريا . وكانت العمليات الحربية التى تقوم بها القواصات الألمانية تعرقل المواصلات البحرية فى البحر الأبيض المتوسط . وكانت القوات البريطانية فى بلاد الرافدين بقيادة الجنرال تاونشند محاصرة فى قوت العمارة ولا أمل لها فى فرح . ولذلك كانت مسألة كسب معونة العرب أكثر الحاجة من أى وقت مضى .

فكتب السير هنرى مكماهون في الرابع عشر من كانون الأول :

الى الشريف حسين ،

وبعد التحيات المعتادة والشكر على الكتاب السابق

قال :

انى أشعر بالامتنان نحوكم اذ لاحظ انكم توافقون على استبعاد ولايتى (مقاطعتى) مرسين وأضنة من حدود البلاد العربية .

كما لاحظ كذلك بالارتياح والسرور العظيمين تأكيدكم بأن العرب عازمون على انتهاج سنن عمر بن الخطاب والخلفاء الأوائل التى تؤمن بجميع حقوق وامتيازات مختلف الأديان على السواء .

وان من المفهوم طبعاً من قولكم بأن العرب مستعدون للاعتراف بجميع معاصراتنا مع الرؤساء العرب واحترامها ، ان هذا ينطبق على جميع المناطق المشمولة فى نطاق المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنكث بوعود قائمة .

أما بصدد ولايتى حلب وبيروت فقد أدلت حكومة بريطانيا بملاحظاتكم النظر الدقيق . ولكن لما كانت مصالح حليفنا فرنسا تتدخل فى تقرير مصيرهما فإن المسألة ستستوجب التفكير العميق . وسنرسل اليكم مكتوبة أخرى بهذا الخصوص فى الوقت المناسب .

وان حكومة بريطانيا العظمى مستعدة — كما سبق لى ان قلت لكم — لأن تقدم كل الضمانات فى مساعدة المملكة العربية وتأييدها المتوفرة فى حدود امكانياتها ، لكن مصالحها تتطلب — كما اعترفتكم انتم بذلك — وجود ادارة ودية وطيدة فى ولاية بغداد . وان الحماية الكفيلة بتأمين هذه المصالح تتطلب بحثاً أوفى وأكثر تفصيلاً مما يسمح به الوقت الراهن وتسمح به ضرورة الاسراع فى هذه المفاوضات .

ونحن نقدر كل التقدير رغبتكم فى التحوط والحذر وليس لدينا رغبة فى الالحاح عليكم بالقيام بعمل متسرع قد

يعرض النجاح المحتوم لشروعاتكم للخطر . بيد أن من الضروري في الوقت عينه ، ضرورة ما بعدها ضرورة ، ألا تدخروا جهدا في ربط الشعب العربى كله بقضيتنا المشتركة ، وأن تحثوهم على أن لا يقدم أية مساعدة لاعدائنا .

وعلى نجاح هذه الجهود ، وعلى الاجراءات الأكثر فعالية التى قد يتخذها العرب من الآن فصاعدا معاضدة لقضيتنا ، حين تحين ساعة الجد ، يجب أن يتوقف ثبات وقوة اتفاقنا هذا .

وقد أمرت في هذه الظروف من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أخبركم أن فى وسعكم أن تركنوا الى أن حكومة بريطانيا العظمى ليست اديها أية نية فى ابرام أى صلح بشروط لا تكون منها حرية الشعوب العربية من التسلط الألمانى والتركى شرطا أساسيا .

وكعربون عن نوابنا ، ولكى نساعدكم فى مجهوداتكم فى قضيتنا المشتركة ، أرسل لكم بواسطة رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه .

(والتحيات المعتادة)

أ.هـ. مكماهون

وبهذه الوثيقة تلقى الشريف الضمان الذى طلبه ، من ان صلحا منفردا لن يعقد مع تركيا من قبل الحكومة البريطانية ومن أن تحرير الشعوب العربية سيكون جزءا أساسيا من أى معاهدة صلح . والحقيقة هى أنها قد جمعت من العرب أعضاء فى أسرة الحلفاء . أما فى حالة بريطانيا على وجه الخصوص فيمكن وصف الحال بأنه حفلة زفاف ... لقد أصبح الاطلاع بأمر الحرب الآن « قضيتنا المشتركة » حتى النهاية ... وأصبحت بريطانيا والعرب شيئا واحدا ، بل وحتى ألبس خاتم الزواج فى الجملة النهائية .

ولم يكن المندوب السامى فى موقف يؤهله لأن يقدم للحسين جوابا قاطعا بصدد الأراضى الواقعة على الساحل بين حلب وبيروت . وما من شك فى أنه افترض أن حكومة الوطن ستصل يوما الى قرار بشأن مطالب الفرنسيين وتخبره حين يتم فيتحم عليه أن ينبئ الشريف

به . الا انه أرخ هذا البيان بعبارة الهوايتهول الشهيرة : « في الوقت المناسب » وهو لا يدري أن مفاوضات سايكس وبيكو قد بدأت .

وقد أرسل مع الكتاب الرسمى كتابا خاصا الى الشريف . وليس هناك ما يدعونا ثمة الى الافتراض بأنه حذر فيه من عدم جدوى تعطيل كل شيء بالاصرار على أراضى سورية الشمالية لأن يدى الحكومة البريطانية مغلولتين فى هذه المسألة ، ولأن الحرب يجب أن تنتهى أولا قبل أن يفك غلما . وأن من الأوفق ارجاء أى فكرة فى المطالبة بأى تعويض مالى عن احتلال أراضى العراق الى مباحثة تجرى فى المستقبل .

وقد قبلت نصيحته هذه سواء أكانت مكتوبة أم بطريق اللسان وأرسل الشريف رده النهائى فى يوم رأس السنة الجديدة من عام ١٩١٦ :

بسم الله الرحمن الرحمن

الى صاحب السعادة ، المرموق المكانة على الهمة الوزير الخطير .

لقد تلقيت كتابيكم المؤرخين فى التاسع من صفر لعام ١٣٣٤ (السادس عشر من كانون الأول لعام ١٩١٥ . ملاحظة : يوجد هنا بعض الخلط فى التواريخ . فتاريخ كتاب السير هنرى مكماهون هو الرابع عشر منه . وقد يكون كتابه الخصوصى هو المؤرخ فى السادس عشر وأنهما قد أرسلتا معا أو أن المترجم قد هفا هفوة . وليس هذا الكتاب الخصوصى بلدى بال هنا لأن المكاتبه الأخيرة التى صدرت عن القاهرة هى موضوع هذا الجواب ، سواء أكانت مؤرخة فى الرابع عشر أم فى السادس عشر منه . وها أنا الآن أعيد الجملة الأولى بغية الوضوح .)

لقد تلقيت كتابيكم المؤرخين فى التاسع من صفر لعام ١٣٣٤ من حاملهما ببائع التقدير والاحترام وتفهمت اللذين جلبا على أعظم السرور والرضا اذا أزالا ذلك الشئ الذى يقض مضجعى .

ولابد وأن سعادتكم قد أيقنتم بعد وصول محمد (الفاروقى) شريف واجتماعه بكم أن ما قمنا به حتى الآن لم يكن يصدر عن نزعة شخصية أو ما شاكلها ، والذى لو كان كذلك لكان غير مفهوم بتاتا ، وانما كان كل شئ نتيجة لأحوال ورغبات شعوبنا،

وما نحن الا ناقلو ومنفذو تلك القرارات والرغبة في هذا المركز
الذى فرضته (شعوبنا) علينا *

وهذه الحقائق فى رأى مهمة جدا وتستحق اهتمام
سعادتكم الخاص وتقديركم .

وبخصوص ما بينتموه فى مكاتبتكم الكريمة متعلفا بالعراق،
وبصدد أمر التعويضات عن مدة الاحتلال ، فاننا لى نقوى ثقة
بريطانيا العظمى فى موقفنا وفى أقوالنا وأفعالنا ، حقا وصدقا ،
ولكى نقدم دليلا على يقيننا ووثوقنا من حكومتها المجيدة ، نترك
تقدير المبلغ الى حسن تقدير حكمتها وانصافها .

أما فيما يتعلق بالأجزاء الشمالية وسواحلها فلقد أوضحنا
فى كتابنا السابق ما هى أقصى التعديلات الممكنة * وما فعلنا
ذلك الا لى نحقق تلك الآمال التى لا يكون بلوغها الا بمشيئة
الله تبارك وتعالى ان هذا الاحساس وهذه الرغبة عنيهما هما
الذان فرضا علينا أن نتجنب ما قد يخدش تحالف بريطانيا
العظمى وفرنسا ، ويخدش الاتفاق الذى جرى بينهما خلال
الحرب والمصائب الحالية ، الا اننا نرى أن من واجبنا كذلك
أن يكون الوزير مرموق المكانة على بيعة من أننا سنطالبكم عند
أول فرصة تسمح بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها (بما نفرض
أبصارنا عنه اليوم) ، سنطالبكم بما نتركه الآن لفرنسا فى بيروت
وسواحلها .

ولست أرى أن من اللازم أن أوجه اهتمامكم الى أن خططنا
أكثر ضمانا لمصالح بريطانيا العظمى وتوكيدا لحقوقها منها
لمصالحنا وحقوقنا ، وستكون كذلك بالضرورة مهما يحدث ،
لدرجة أن بريطانيا العظمى قد ترى شعوبها أخيرا فى ذلك الحال
من الرضا والتقدم الذى تحاول أن تهيئه لها الآن ، وبخاصة
حين يكون حلفاؤها جرثومة المتاعب والمجادلات التى لن نجد
مهما راحة بال لكونهم جيراننا . فضلا عن ذلك لن يقبل شعب
(ولاية) بيروت ، وبالتأكيد ، هذا العزل أبدا ، وقد يضطرونا
الى اتخاذ إجراءات جديدة ، قد تكلف بريطانيا متاعب لن تكون
بالتأكيد أقل من متاعبها الحالية ، بسبب اعتقادنا ويقيننا فى
تكامل مصالحنا ، وهو السبب الوحيد الذى جعلنا لا نهتم
بالتفاوض مع أى دولة أخرى غيركم . ومن ثم فان من المستحيل

ان نسمح بأى تنازل يعطى لفرنسا أو لآى دولة غيرها ، شبرا من الارض فى هذه المناطق .

وابرق السير هنرى مكماهون غداة استلامه هذا الكتاب الى الوطن بصدد التعليمات النهائية . لقد اظهر الشريف لين الجانب بقبوله تأجيل اجراء تسوية مع الفرنسيين بخصوص شمال سورية الى نهاية الحرب . بيد أنه لم يقبل مطالب الفرنسيين ولو أنملة واحدة . وكان هذا الحصول على التأجيل وترك الباب مفتوحا ينسجم مؤقتا ، على أى حال ، ان لم يفعل شيئا أكثر من هذا الانسجام ، مع خطط مكتب الخارجية فى الاعداد لاتفاقية سايكس وبيكو الآتية ، مع فرنسا . والواقع هو أن كل شيء كان يعقد فى فحواه على مدى انسجام هذه الترتيبات مع المعاهدة التى ستعقد مع الحسين . أما ماذا سيحدث اذا ألقى الشريف والعرب أنفسهم مواجهين فى النهاية بترتيبات واتفاقات لا تنسجم مع معاهدتهم هذه ، فيبدا ان احدا لم يكلف نفسه عناء التفكير فيه .

وهكذا قيل للمندوب السامى أن ينهى الامر على هذه الشروط وهى على ما هى عليه الآن من تعديل . والحقيقة هى أن شعورا بالارتياح قد ساء الدوائر المعنية من كون الشريف لم يتشبث ويتشدد طلبا للمزيد . لقد كنا فى أمس الحاجة الى العرب وكان لدى المندوب السامى فى درج مكتبه فعلا تفويض بالتخلي عن جميع مطالب بريطانيا فى الاشراف على ولايتى بغداد والبصرة اذا دعى الامر للتخلي عن المزيد سعييا وراء كسب تأييد العرب وتحالفهم معنا .

وهكذا كتب السير هنرى مكماهون فى الثلاثين من كانون الثانى كتابا مقتضبا الى الشريف أعلن فيه :

لقد تلقيت تعليمات من حكومتى بأن انهبى اليكم أن جميع مطالبكم قد قبلت وأن جميع ما ستطلبونه سيرسل به اليكم . .
أما ما قد طلب فهو الذخيرة والمال . وتدور بقية الكتاب حول تفصيلات فنية . وقد اعترف الشريف من مكة فى الرابع عشر من ربيع الآخرة لعام ١٣٣٤ (السادس عشر من شباط لعام ١٩١٦) بوروده اليه فى كتاب قصير آخر يقول فيه .:

لقد تسلمت بالغبطة والسرور كتابكم الأخير المؤرخ فى الرابع والعشرين من ربيع الأولى لعام ١٣٣٤ (الثلاثين من كانون الثانى لعام ١٩١٦) وقد فهمت فحواه الفهم العميق . ولنسوف أعمل - ان شاء الله - على أن أسجل كلمة العرب ، وأبدا

بمشيئة الله النشاط سريعا . (أى سوف أجاهد لأسجل كيف
يعنى العرب بوعودهم . وسوف أبدأ بمشيئة الله القيام بهجماتنا
على الأتراك سريعا) .

وقد ضاعت بقية اصل هذا الكتاب في مكة عشية سقوط الملكية
الهاشمية . لكنها ليست بذات أهمية . لأن مراسلات الحسين مكماهون
— كما تسمى عموما — قد اختتمت كمعاهدة سياسية بقبول بريطانيا
لشروط الشريف حسين الأخيرة . وهى مراسلات فقط من حيث الأوراق
التي تؤلفها لأنه كان من المحتتم أن تتبادل كرسائل بسبب بعد الشقة
بين الطرفين المتفاوضين ولكنها في الواقع من المراسلات ، بالمعنى العادى
لهذه الكلمة ، بقدر ما تكون هذه الأوراق التي تداولها المتفاوضون عبر
المائدة فى فرساي ، مع بعضهم البعض — مراسلات .

إنها تشكل مفاوضات معاهدة وإبرامها . وإن الاجزاء الصحيحة
من اصولها لتبين الشروط وتصادق عليها . ولقد وصفها شريف مكة
فى وثيقته (رسالته) الاولى بأنها معاهدة . ثم قبلت الشروط التي
وضعت على هذا الأساس . ولقد اعترف المستر لويد جورج نفسه ،
وبوصفه رئيسا للوزراء ، بهذا حين قال للحكومة الفرنسية باصرار ان
لها قوة المعاهدة .

وهى تشكل مجموعة كبيرة من الوثائق وبخاصة اذا قرئت مع
التفسيرات ، التي كتبت لها كأمر تمليه الضرورة ، لوصف سيرها
أناء أن كانت تدور المفاوضات . وكان يجدر بى فى بعض المواضع أن
أورد الفقرات البارزة منها فقط لكنى قد قررت أن أوردتها كاملة لأنه
لم يسبق لها فى يوم من الأيام أن نشرت فى بريطانيا (١) ، كما أنها لم
تنشر — على حد ما أعلمه — فى أى مكان آخر قط ، الا فى مؤلفات عربية .

(١) ما دام هذا الكتاب قد تم نان المستر جورج انطونيوس قد ضمن مراسلات
الحسين ومكماهون فى كتابه بقطعة العرب . وقد كتب ، باعتباره حجة فى كلا اللغتين
العربية والانكليزية على السواء ، ترجمته الخاصة لنصوصها . وسيجد القارئ متعة
فى مقارنتها بالترجمات الحرفية التي قدمت لى فى عام ١٩٢٢ ويكتب المستر انطونيوس
سجلا كاملا عن نشوء الحمميات العربية وينفى ان يقرأ لسد النقص فى خلوصتى
المقتضبة . ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن تسجيله لثورة العرب . وقد استلقت من
علمه واستمعت بتحرره حين كنت أحضر المواد للفصل الخامس عشر من هذا المؤلف
الحالى وسيجد القارئ ايضا حات وتأكيدات لمختلف التفاصيل التي وردت فى هذا
الفصل والفصول القريبة منه ، سيجدها فى مؤلف المستر انطونيوس الذى يستحق
الشناء والاعجاب — المؤلف .

وإذا ما قرأ القارئ هذه الأصول كاملة فسيصبح على أكبر بينة من موقف الأشخاص المعنيين بهذه المفاوضات .

وهناك أشياء تبرز للعيان من تلقاء نفسها • فيبدو الشريف لنا من خلال جميع هذه الصياغات اللفظية التي تدخل في هذه المفاوضات من حين لآخر ، مفاوضا حصيفا داهية الا أنه مع ذلك مستقيم • واننا نراه حريصا كل الحرص على التحالف معنا وعلى أن يولى وعودنا الثقة الكاملة •

أما من ناحيتنا ، فقد صيغت الوعود الأساسية التي قطعناها على أنفسنا صياغة واضحة محددة لا لبس فيها ولا إبهام • « ان بريطانيا العظمى مستعدة لأن تعترف باستقلال العرب ضمن المناطق الداخلة في نطاق هذه الأبعاد والحدود التي اقترحها الشريف مكة ولأن تؤيد هذا الاستقلال • »

وهذه الحدود تشمل فلسطين • ولم يرد أدنى ذكر عن استبعادها • وقد قطعنا عهدنا لهم بوجود أن يكون العرب على أراضيهم هذه أحرارا من جميع أنواع الاشراف الأجنبية اللهم الا ذلك الذي قد يختارونه وبمحض ارادتهم •

• أكثر من هذا ، لقد قطعنا عهدنا للشريف حسين ليس بوصفه شريف • كن بوصفه الممثل للشعوب العربية ، ومن بينها عرب فلسطين ، • أننا متعاهدون معهم تعاهدا مباشرا •

وقد صاغ هذه الشروط التي أوضحها لنا ، بالاتفاق مع أعضاء الجمعيات الوطنية التي كانت لها جذورها في فلسطين ، فأحيوا حدودا كانت منذ عهد بعيد البرنامج الأساسي لهذه الجمعيات ، وتشمل جميع الأراضي المواجهة للبحر الأبيض المتوسط ابتداء من آسيا الصغرى حتى حدود مصر •

الفصل السابع

الصهيونية تمضى قدما - وايزمان وبلفور والسير هربوت صمويل
يظهرون - مساعي الصهيونية لدى أسكويث ولويد جوج وجراي -
مدرسة أخرى من مدارس مانشستر - الخطوة الكاذبة الأولى -
مذكرة جراي

ما الذي حدث في أوساط الصهيونية حين كان العرب يتقدمون نحو
الاعتراف باستقلالهم ونحو التحالف مع بريطانيا ؟

لقد كان في فلسطين عند اندلاع الحرب تسع وخمسون مستعمرة
يهودية تضم نحو من اثني عشر ألفا من السكان . وكان هناك سبعون ألفا
آخرون متجمعون في المدن ، وكان معظمهم يسكن مدينة القدس . ومن
بين هذه الثمانين ألفا ، تقريبا ، التي كانت موجودة في فلسطين من اليهود،
كانت الأغلبية ؛ وتتراوح بين خمسة وخمسين ألفا وبين ستين ألفا ، قد
جاءت إلى البلاد في غضون الثلاثين عاما الأخيرة (أى التي سبقت الحرب
العالمية الأولى - المعرب) .

وكان معظم هذه المستعمرات يمول من قبل أثرياء يهود ، وبخاصة
من قبل رجل البر (؟!) البارون ادمون دي روتشيلد الذي ينتمى إلى
الفرع الفرنسي من العائلة الكبيرة . أما الجزء الأكبر من يهود القدس فكان
يعيش على الصدقات التي نرد إليهم من أبناء دينهم من مختلف الطبقات في
جميع أرجاء المعمورة .

وليس لدى صهاينة العصر شيء من طيب الكلام يقولونه عن صهاينة
ما قبل الحرب ، لأن هؤلاء كانوا إلى حد بعيد عالة على غيرهم . وكان يطلق
على مؤسساتهم اسم بيوت الصدقات . ولكنهم كانوا يمارسون صهيونية
لا تسعى إلى طرد العرب . لقد عادوا إلى هذه البلاد تحت ذلك الستار الوحيد

الذى ينسجم مع هدف البحث عن صهيون؛ وإن كان ورتتهم الجدد لا يطبقونه؛
ألا وهو سنار الحجاج • لقد دخلو البلاد تحذوهم عقيدتهم وبدون أن يطالبوا
بأية مطالب؛ من أى نوع، بعد أن تعلموا، على ما يبدو، من تلك
الجموع الغفيرة التى ذاقت الأمرين فى روسيا، ألا يتصرفوا تصرفات عدائية
تجاه جنس آخر كرد فعل كاذب لما قاسوه •

وقد درس مشروع فى عام ١٩١٤ للاستعمار الأشد تركيزا من
ذى قبل، نتيجة للمقرارات التى صدرت عن المؤتمر الصهيونى الثانى عشر
الذى انعقد فى العام الأسبق • ومن قبل نوفتس مشروع لانساء جامعة يهودية
فى القدس وكان البارون ادمون دى روتشيلد يوشك أن يعهد صفقات كبيرة
من شراء الأراضى بقصد انشاء مستعمرات جديدة •

وفد شهد شهر آب هذه الأنشطة تتوقف فجأة • اذ انشقت
الصهيونية؛ وهى عقيدة عالمية، على نفسها بفعل الحرب • وكانت أقوى
ما تكون فى روسيا بيد أنها كانت لها منظمة ذات وزن فى ألمانيا • وكانت
مكانها المركزية فى برلين، لكن أموالها كانت تتركز فى الدرجة الأولى فى
البنوك البريطانية بالرغم من أن «أنفه الجماعات الصهيونية تنأنا» كانت
توجد هناك طبقا لافادات الصهاينة • أما بالنسبة لفلسطين فكانت المنظمات
الصهيونية الألمانية بارزة من بين منظماتها فيها •

وقد فتح قادة الصهاينة، فى البداية، مركزا لهم فى كوبنهاجن
مؤملين أن يجعلوا المنظمات الصهيونية جميعها على أرض محايدة • وتكشف
هذا عن أنه أمر غير عملى، وسرعان ما غيروا موقفهم • وإن دخول تركيا
الحرب هو المستول عن هذا التغيير • اذ ما دامت تركيا قد أصبحت الآن
دولة من الدول المتحاربة فقد عرضت نفسها لاحتمال الهزيمة • واذا ما هزمت
فلا بد وأن يصبح الحلفاء فى مركز يقررون فيه مصير الأراضى التركية،
وربما مصيرها جميعها • وقد يشمل هذا التقرير فلسطين • ومن ثم اذا
ما ربطت الصهيونية نفسها بقضية الحلفاء فقد يصبح الطريق الى فلسطين
مفتوحا لها فى النهاية •

ولم يضع القادة الصهاينة وقتا فى القيام بمحاولتهم هذه واختاروا
بريطانيا لتكون البلد الذى يعلقون عليه هذه المحاولة • فيقول المستر
شتاين: «لقد كانت الآمال معفودة، فى الدرجة الأولى، على بريطانيا...
على عبقرية بريطانيا العظمى فى الادارة الاستعمارية، وعلى وصيتها كدولة
متحررة، وعلى ذلك الشعور الغريزى الفياض الذى كان لدى اليهود بوجه
خاص كل سبب لتعليقه عليها»، وإن عرضيها المتتاليين على اليهود بمنحهم

وطنا لهم في شرق افريقيا تم في شبه جزيرة سيناء ٠٠٠٠ ان كل هذه
الاعتبارات جميعا قد ميزتها بين الدول كالدولة التي ينبغي أن يسعى
لديها أولا .

ولا يقول لنا المستر شتاين شيئا عن النفوذ الذي كان من الممكن أن
نمارسه الهيئة اليهودية في بريطانيا . وقد يعتقد البعض أن هذا كان
اغفالا من جانبه لكن الأمر ليس كذلك . ان ما يقصده عموما من قولنا
« النفوذ اليهودي » ليس له الا أقل العلاقة بهذه الحملة الصهيونية التي تنس
في هذا البلد . ولأسباب ما يفهم هذا « النفوذ اليهودي » على أنه دائما
يعنى النفوذ المالى الذى يمارس نشاطه من وراء ستار . ولست أقوى أن
أتوقف هنا لأتحدث عن هذا النوع المعين من النفوذ ، فيما خلا أن أقول أنه
لا يعالج ؛ كقاعدة عامة ، معالجة معقولة جدا . فالكتاب اليهود ينكرون وجوده
فى حين يعلن الكتاب غير اليهود أنه على كل شيء قدير .

ولم نحرز الصهيونية السياسية فى عام ١٩١٤ نجاحا ، وبأى معدل
فى الدوائر اليهودية التى يقال عنها انها دوائر ذات نفوذ . فلم يكن
لتنك الشخصيات البارزة بين اليهود والانجليز من أمثال أعضاء لجنة
المديرين أى اهتمام بها على الاطلاق ، بل ويجهلون وجودها بصفة عامة .
بيد أنه كان يوجد نوع آخر من النفوذ اليهودى يمارس عمله فى إنجلترا ،
وحدث أن ربطت الصهيونية السياسية نفسها به .

ولم تذهب الصهيونية السياسية بعيدا لتعثر على ذلك الصنف من
الرجال الذين يقومون بنشر مبادئها هناك . ورحل اثنان من زعمائها فى
الممتلكات الروسية الى لندن وهما المسيو تشيلنوف Tschlenow من
موسكو والمسيو ناحوم سوكولوف من وارسو وانضم اليهما
فى مهمتهما هذه رجل آخر قدر لاسمه أن يذيع صيته بين أسماء الصهاينة
السياسيين قاطبة الا وهو الدكتور شسايم فايزمان Weizmann
(المعروف باسم حايم وايزمان - العرب) .

وقد ولد وايزمان فى جروندو من بولندا قبل أربعين عاما من ذلك
الحين تقريبا . وهاجر الى إنجلترا بعد أن أمضى ردها من الزمن فى سويسرا
(حيث تعرف على تروتسكى وناقحه الآراء علنا) . ثم أصبح محاضرا فى علم
الكيمياء فى جامعة مانشستر . وقد منح قبل ذلك الجنسية البريطانية .
وهو ككيميائى قدير الى أبعد الحدود . ويجمع الى قدرته فى مجال مهنته
هذه اللباقة وتلك الصفة الاستفلائية التى تميزه عن غيره . ويحدثنا المستر
هوراس صمويل عن « وجه الدكتور وايزمان الذى يشبه وجوه الشياطين

السبعة وعن سحره المستنوم الحبيب . » ويرسم صورة له وهو يخطب في
درفة الجنود اليهود من فصائل حملة البنادق الخفيفة الملكية التي تائب
تسكرك في القاهرة أنساء الحرب فيقول : « انى أتذكر كيف كان يخطب
فيهم . لقد كان يتكلم اليهم بسهولة وألفة الواتق من نفسه ؛ بلغه ولغتهم
البيدية موضحا آراءه بتلك الهزة من كتفه وذلك التلويح الاصطلاحي من
يديه ، اللذين يشكلان جزءا من أهم الأجزاء الأساسية في لغته ، وهو يقف
على راحته وراء المنضدة ويدها غارقتان في وفاض سرواله .

« وكان السامعون يستجيبون للرجل . فكانوا جميعا طوع بسانه
جسدا وروحا ، وعلى أتم استعداد لأن يقفروا فيدخلوا جيبه عند أول كلمة
تصدر منه اليهم . وكان الرجال يهرولون وراءه وهو يدور في جنبات
المعسكر كما تتبع الجرذان الزمار الأرقط . » لكن الدكتور وايزمان كان
يستطيع أن ينفخ في مزماره دائما مستندرجا المثقف الى أوكار اجتماعاته
كما يستدرج الجندي البسيط على السواء . ولقد طغت شخصيته على الناس
في غرف الاستقبال كما فعل في المعسكرات . وقد حدثني شخص ، كان
بين الحضور في وليمة أقيمت في بيت الليدى أستور ، عن قدرته التي لا تقاوم
في الاستحواذ على الغير ، والتي رآه ينتحى بها باللورد بلفور ؛ على ما يذكر ،
بعد الغداء جانبا . وكيف أن الاثنين ظلا يجلسان معا على متكأ واحد ساعة
أو أكثر ناسيين جميع من كانوا حضورا . والذي حدث هو أنه مع مرور
ساعات كهذه أرسيت دعائم الصهيونية السياسية فى انجلترا .

أما حجر الأساس فى حد ذاته فيمكن أن يقال انه قد وضع قبل عشر
أو اثنتي عشرة سنة من تلك المحادثة التي ورد ذكرها . وقد اختفى هذا
الحادث وراء ضباب مائسستر اختفاء يطابق المراد . كان بلفور آنذاك يفوم
بالدعاية الانتخابية لنفسه (وكان ما يزال أ.ج. بلفور) فى تلك المدينة التي
كانت بؤرة هامة من بؤر اليهود . وكان رئيسه رجلا يهوديا يدعى المستر
دريفس ، فاتخذ من هذه مناسبة يستفهم فيها منه لماذا رفضت المنظمة
الصهيونية ذلك العرض الذى عرض عليها فى عام ١٩٠٣ ، وفى فترة رئاسته
هو للوزارة ، باعطاء اليهود رقعة من الأرض فى افريقيا الشرقية .

وتقول السيد داجديل Dugdale ابنة أخت بلفور ومترجمة حياته ان
هذا العرض « قد أثار فى نفسه فضولا لم يجد وسيلة لاشباعه . »
وانه قال للمستر دريفوس انه يريد أن « يتفهم أسباب هذا الرفض . »
وان هذا كان أمرا يشغل باله لأنه كان مهتما بأمر اليهود . وكان مستقبلا
اليهود كأحد موضوعات التفكير احدى شطحات ذهنه المحببة الى نفسه .

لقد ظل ردحا لا بأس به من الزمن يحس بوجود الصهيونية ، بطريقته العرجاء في التفكير ، وحين كان ذهنه يفرص في موضوع من موضوعات التفكير ويزور عنه في آن واحد ، على ما يبدو .

أما أنه كان في حاجة حقا الى « تفهم » أسباب الصهيينة في رفض العرض الافريقي الشرقي ، فذلك أمر مستبعد . اذ لا بد أن هذه الأسباب قد قدمت له ، ولو لمجرد اللياقة والاحترام ، بوصفه رئيسا للوزراء ، حين رفض العرض . كما أنها قد نوقشت مناقشة وافية في جلسات المؤتمر الصهيوني السادس . لكن بلفور قد تراجع ، على طريقته الفريدة التي هي وقفت عليه دون غيره ، عن المعرفة العلنية بأمر لعب فيه الدور الأول ، فكان لا مفر من أن يبند من ذهنه جهله المصطنع الكاذب .

ولهذه الغاية أرسل المسنر دريفوس الدكتور وايزمان ، الذي كان يهدف فيه الصهيوني المتحمس ، الى الفندق الذي ينزل فيه بلفور . وهكذا التقى الكيميائي الشاب ورجل الدولة لأول مرة . وسرعان ما نشأت الألفة بين الرجلين اللذين تختلف ظروفهما كل الاختلاف . ولم يكن الدكتور وايزمان ذريا في الانجليزية آنذاك فلاقى بعض الصعوبة في الاعراب عن أفكاره وشرح ما يريد . الا أنه قد وجد طريقة ما أخيرا . « لقد بدأت أتصيب دما بدل العرق لكي أفصح بانجليزيتي الضعيفة عما أريد . وبذلت أخيرا محاولة : لقد طرأت على ذهني فكرة فقلت : « اذا عرضت عليك باريس بدلا من لندن ، فهل نقبلها يا مستر بلفور ؟ » . هل تقبل باريس بدلا من لندن ؟ » فبدت عليه الدهشة وقال : « لكن لندن ملكنا ! » فقلت : « لقد كانت القدس ملكا لنا ولندن ما تزال بركة . » . وهذا صحيح ، كان جوابه » .

ويخيل لي أن بلفور قد اعتراه الدهول من ملاحظة الدكتور وايزمان هذه . وانتهت وهو ما يزال تحت وقع هذا الدهول الذي اعتراه منها . وقد قال للسيدة داجديل بعد سنوات من تلك المقابلة : « لقد كان من جراء هذا الحديث الذي جرى بيني وبين وايزمان أن وقفت على ذلك الشكل اليهودي الفريد في نوعه من أشكال الوطنية . » وتمضي هذه السيدة في قولها فتقول ان بلفور : « أخذ يتابع في السنوات القليلة التالية عرض التأمل الذي بدأ يتوارد في مخيلته في ذلك الحين ، وبصورة متقطعة دون شك ، وان تابعه بالنشاط الذي يدخره للحظات تأمله . »

ان الانسان ليحيز طبعا دقة تسجيل مؤلفة سيرة حياة بلفور لهذه المقابلة التي قدر لها أن تتمخض عن مثل هذه العواقب الوخيمة . بيد أنه

ليس هناك ما يجعلنا نسلم بأن موقف بلفور هذا كان موقفا حقيقيا . هل يذهل مثل هذا الشخص الأريب جدا ودفعة واحدة ، كما تذهل خادمة حين تقال لها كلمة مألوفة ؛ حين يقال له ان القدس كانت يهودية في سالف العصر والأوان ؟ هل يمكن أن يندهش هذا الدارس لحالة اليهود ، المنتحس لها ، من ادعاءات مضى عليها عقد من الزمن وهي تردد ؟ ان هذا أمر لا يصدق .

وان هذه الشهادة من الخطابية لتضع في أيدينا مفتاحا لفهم ذلك الأسلوب الذي قد يوجه به المستر بلفور مستقبل فلسطين ، أو يعاد به ليواجه مستقبل فلسطين وجها لوجه . وحين التقى بوايزمان للمرة الثانية كانت ثمانى سنوات قد مرت على لقائهما الأول ، وكانت أربعة شهور قد مرت على بدء الحرب . ولم يكن مركز الدكتور وايزمان قد تبدل قليلا في تلك الحقبة . اذا كانت انجازاته العلمية قد لفتت اليه الأنظار سريعا في مانتسستر . كما كان قد تعرف على نخبة كبيرة من أبنائها البارزين ؛ ومن بينهم المستر س.ب. سكوت رئيس تحرير المانتسستر جارديان الذائع الصيت . وكان سكوت قد أصبح تحت تأثيره من الموالين للصهيونية ؛ ومن ثم وجدت قضيتها طريقا الى أعمدة الصحف البريطانية لا يقدر بحال . أما كيف قدر لهذه الجارديان أن تتزاوج والصهيونية فيكاد هذا الأمر أن يكون أمرا طبيعيا تماما . لقد كانت هذه الجارديان لسان حال مدرسة من مدارس الفكر نجد بين صفوفها عددا كبيرا من فئة المنقذين اليهود . وكان في هيئة تحرير هذه الجريدة بالذات ؛ هيئة التحرير الموجودة في الخارج ، عدد كبير منهم . وهكذا فان وايزمان ، حين جعل من سكوت الجارديان موالين للصهيونية ، لم يفعل شيئا أكثر من بدر بذور الأعشاب في تربية أعدت لها .

وقد تم لقاء الدكتور وايزمان هذا مع بلفور في أواسط ايلول . ووجد الأول « أن المحادثة التي أجراها قبل نماسى سنوات ماتزال (طازجة) في ذهن هذا الأخير . » فاستأنفها « بصورة بعميمية » . لكن اللورد بلفور قد تساءل قبل أن يفترقا عما اذا كان يستطيع أن يقدم أى مساعدة ، من أى لون كان ، للدكتور وايزمان . فقال وايزمان : « لا يكون هذا والمدافع تزار . سأعود اليك مرة أخرى حين يصبح الموقف العسكري أكثر وضوحا . » فقال بلفور : « لا تنس أن تعود ثانية . انها قضية عظيمة جدا هذه التي تعمل من أجلها ، ولكم أحب أن تزورني كثيرا . » (عن السيدة داجديل) .

وما ان دخلت تركيا الحرب حتى شرع وايزمان يوضح أفكاره السياسية ، وقدم « مقترحات واضحة محددة تقول بانشاء وطن قومي لليهود

في فلسطين تحت الحماية البريطانية « (عن شتاين) • وكانت الخطوة التالية هي جعل الحاكمين يشعرون بها • ويبدو أن مركز التقل كان قد ابتعد قليلا عن بلفور لفترة قصيرة من الزمن • إذ لم يكن عضوا في الوزارة ولو أنه كان عضوا في مجلس الحرب • فزود سكوت وايزمان وزميليه الروسين الآخرين بكتب توصية الى اثنين من أعضاء الوزارة وهما المستر لويد جورج والسير هربرت صمويل •

أما ماذا حدث إذ ذاك فذلك ما قد أوضحه لنا السير هربرت صمويل؛ بالدقة والتفهم اللذين هما من صفاته المميزة ، في محاضرة ألقاها على جمهور خاص في عام ١٩٣٥ • لقد قال وهو يتحدث أمام الجمعية اليهودية التاريخية أن وايزمان قد استحوذ على إعجابه كثيرا ، وأنه شعر بالاضافة الى ذلك بأنه ينبغي عليه ، باعتباره أول فرد من الأسرة اليهودية يدخل الوزارة البريطانية — ولقد طلق دزرائيلي هذه الأسرة الى الأبد ليحتل كرسيها في إحدى وزارات بريطانيا — أن يدرس الحركة الصهيونية وأن يتممها • ولم تكن له بها علاقة حتى ذلك الحين • وها هو الآن يجري أحاديث مع المسيو سوكولوف ومع المبشرين الأخر بالانجيل الصهيوني ، بالاضافة الى مباحثاته مع الدكتور وايزمان •

وها هو يقول : وسرعان ما توصلت الى هذا الاستنتاج الحاسم بأنه إذا ما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ، كما كنا نتوقع جميعا ، فينبغي فصل فلسطين ، بلا شك ، عن الامبراطورية العثمانية ، واغتنام هذه الفرصة لتسهيل اقامة مجتمع يهودي كبير هناك مستقلا استقلالاً ذاتيا ، كما ينبغي أن يتم هذا تحت شكل ما من أشكال الحماية البريطانية • « وأنه قد تحدث في هذا الأمر مع السير ادوارد جراي في تشرين الثاني من عام ١٩١٤ (وهذا يدل على أن الدكتور وايزمان قد سعى لديه في هذا الأمر ، قبل أن يباشر العمل في الوظيفة التي منحت له في الاميرالية) • فقال لجراي : « قد تسنح فرصة لتحقيق أمنية الشعب اليهودي القديمة واعادة بناء دولة يهودية هناك (في فلسطين) • » ثم يضيف السير هربرت فيقول : « وكان هذا آنذاك الاقتراح الصهيوني • »

وان من عين الصواب أن نرى هذه الحقيقة توضح هذا النحو المنهجي المعتمد ؛ وان كانت بيئة منذ البداية • لقد تابع السير هربرت صمويل حديثه مع وزير الخارجية عن الكيفية التي قد تصبح بها فلسطين مركزا لثقافة جديدة • وكيف أن مرآى أناس من دم اليهود ولحمهم يحقون أشياء عظيمة في فلسطين سيرفع شأن ملايين اليهود المبعثرين في الأجزاء الأخرى

من العالم ، ويؤثر على نظراتهم للامور ، وكيف أن قرب دولته اليهودية من مصر « سيرد لانجلترا جميلها في أمر ذي أهمية حيوية بالنسبة للامبراطورية البريطانية » وتستحق هذه الكلمات الأخيرة أن نشدد عليها .

وأما الجملة التي سنوردها تاليا - وقد نقلها الخطيب من مذكراته الأصلية التي كتبها عن مقابله للسير ادوارد جراي - فهي مهمة جدا . انها تبين لنا كيف كان السير هربرت صمويل يحس بوجود العرب . لقد اعترف فقال : « ان بناء الدولة الجديدة من أساسها قد كان بالطبع مهمة ذات صفة مقزعة ، وخاصة من وجهة نظر هذه العناصر التي كان من المحتم أن نجدها في سكان فلسطين الحاليين . » وما هذا القول الا تحريف صارخ لحقائق الأشياء يستحق الملاحظة . انه يعامل العرب وهم ٩١٪ من السكان على أنهم عناصر فيهم ! بيد أن هذه سابقة في التفكير الصهيوني المعاصر وقدر لها أن تظل سابقة في التفكير الصهيوني كله وإلى أمد طويل .

ثم تابع السير هربرت صمويل كلامه الى ايهام سامعيه بأنه يمكن تطوير مصادر فلسطين الاقتصادية اذ سمح للثوع المطلوب من السكان بدخول البلاد ، واذا ماتجنب خلق «مجتمع من الحرفيين والتجار الصغار » لكن مجتمعا من هؤلاء الحرفيين والتجار الصغار هو كل ما أقيم في مدينة تل أبيب التي يبلغ تعدادها مائة وخمسين ألفا (١٥٠.٠٠٠ من بين أربعمئة ألف (٤٠٠.٠٠٠) يهودي في فلسطين . ذلك ما تكشفته عنه الأمور الآن . ولكن دعنا الآن نضرب صفحا عن هذا . ولقد أنهى السير هربرت صمويل كلامه بأن قال ان غور الحكومة الروسية قد يسبر حول هذا المشروع قبل أن ينقضى زمن طويل ، اذا ما بدت الأحوال العسكرية مشجعة . والسبب في هذا طبعا هو تركيز قوة الذين قد يهاجرون الى فلسطين من روسيا .

وقال السير ادوارد جراي ، جوابا على هذا القول ، ان هذه الفكرة كانت تستهوى عواطفه دائما ، وان هذا النداء التاريخي قوى جدا ، وانه يجبذ هذا الاقتراح تماما ، وانه على استعداد لأن يعمل من أجل تنفيذه اذا سنحت الفرصة . وانه اذا ما قدمت أية مقترحات ، من قبل روسيا أو أي دولة أخرى ، يصدد سورية فسيكون من المهم عدم الموافقة على أي مشروع لا يكون متمشيا مع انشاء دولة لليهود في فلسطين . ولقد سألتني عما اذا كنت أعتقد أنه يجب بالضرورة أن تلحق سورية بفلسطين . (استخدمت لفظة (سورية) هنا بالمعنى الضيق الكاذب) . فقلت : (لا ، بل على

العكس • ان من الخطأ ضم أماكن كبروت ودمشق لأنها تحتوى عدد ضخم من السكان الذين ليسو يهودا والذين لا يمكن ابتلاعهم وتذويهم) •

وأما الآن درس من عيوب رجال دولتنا • فها هو اللورد جراوى الذى يعرف عنه أنه من أكثر الناس إيتارا يصغى الى السير هربرت صمويل ومع ذلك لا تبدر منه ملاحظة واحدة عن أن الذى يصدق على شمالي سورية يصدق على جنوبها • اذ أن سكان فلسطين ليسوا مجرد غير يهود أساسا • لقد كانوا منذ قرون الأغلبية الساحقة غير اليهودية ، وظلوا كذلك الى يومنا هذا • أما اليهود الذين كان نصفهم رعايا دول أجنبية ، ويحملون جنسيات أجنبية ، فلم يكونوا الا ثلاثة وثمانين ألفا (٨٣٠٠٠) من بين سبعمائة وسبعة وخمسين ألفا (٧٥٧٠٠٠) • كما كان الحال قبل الحرب • لكن السير هربرت صمويل فد اقترح ؛ وهو ينكمش فرقا عن ابتلاع « عدد ضخم من السكان » فى الشمال ؛ اقترح عن طريق الاستنتاج ! ، عليه أن يكون ذا المال عام ، على الأقل ، بالمكونات الأساسية للامبراطورية التركية ، ترك هذا الاقتراح يمر من الكرام ؟!

والأدهى من هذا أنه هو نفسه قد تورط فيه بأن سأل السير هربرت صمويل عما اذا كان يعتقد انه « يجب بالضرورة أن تلحق سورية بفلسطين • » أى أن سكرتير الخارجية لم يدر بخلفه ولو للملاحظة واحدة أن سورية بلد يسكنه العرب أو أى جنس آخر من البشر اطلاقا • لقد تحدث عنها وكأنها بلد تسكنه أحجار الضامة أو أحجار السيجة ؛ وكأنها أرض يمكن أن تجزأ أنصافا أو أرباعا أو يمكن أن تحرك عليها أحجار اللعبة طبعا لتدبيراته وفنون لعباته • لكنه لم يكن من اختصاصه أبدا أن يسأل السير هربرت صمويل عما اذا كان يجب بالضرورة أن تلحق سورية بفلسطين أو لا تلحق • ان هذا أمر لا شأن للسير هربرت صمويل به من قريب أو من بعيد • وكان واجب جراى الحقيقة أن يسائل نفسه ما الذى يبرر له أن يقسم بلدا الى نصفين لكى يتسنى له أن ينفذ فى جزئه الأسفل مخططا من مخططاته هو وأصدقائه •

وتابع السير هربرت صمويل كلامه ليقول لسكرتير الخارجية ان من الضرورى أن تكون دولة اليهود فى فلسطين دولة محايدة لأنها لن تكون كبيرة بما يكفى لأن تدافع عن نفسها • وليقول انه ينبغي أن تكفل للحجاج المسيحيين حرية الوصول الى الأماكن المقدسة • وانه اذا ما أمكن الحاق بقية سورية بفرنسا فستكون فى ذلك الفائدة الكبرى ، لأن من الأفضل بالنسبة للدولة اليهودية أن يكون لها جيران أوروبيون بدلا من أن يكون جيرانها

أثراكا • ان السير هربرت صمويل ، الذى أصبح بعد سنوات قليلة أكثر
اكتراثا بالعرب ، لا يحسب حساب العرب فى هذه التوصية بأكثر مما لو
كانوا مجرد أثاث لفلسطين •

وينهى هذا القول مقابلته للورد جراى ، لكنه يضيف أنه قد زار
المستر لويد جورج فى اليوم نفسه • وتدوينه لهذه الزيارة يسير على هذا
النحو : « سنحت لى فرصة لحديث قصير مع لويد جورج حول هذا الموضوع
وكان من قبل قد أشار فى اجتماع الوزارة الى مصير فلسطين النهائى
فقال انه حريص كل الحرص على أن يرى دولة يهودية تقام فيها • »

ولأن يكون المرء حريصا على أى شئ فنلك عبارة دارجة لا معنى لها
فى هذا العصر • وما استعمالها الا ممارسة عادية لمفردات اللغة أكثر منها
ضمانا للمشاعر • وبعد ذلك بشهرين ، فى السابع عشر من كانون
الثانى وهو عيد ميلاد لويد جورج تغدى اللورد ليدل معه • فكتب فى
مفكرته بعد ذلك يقول : « يقول ل • ج • انه توجد حركة دائبة للعودة
باليهود الى فلسطين ••• انها مشروع جديد ما • وان هربرت صمويل ؛
وهذا ما يدعشه أيما دهشة ، حريص كل الحرص عليها • »

واعتقد أن هذه النبذة المستقاة تقدم لنا مقياس الحرص النسبى لدى
عضوى الوزارة • ان لويد جورج لم يفعل شيئا حتى الآن الا العبث العابر
بحلم – ويلزى عبرى سكر من أحلام اليقظة – رأى فيه يهودا يتوج من جديد
على عرش فلسطين • أما السير هربرت صمويل فقد كان يقلب الأمر جادا
ويبحثه من جميع وجوهه • لقد ظل يقلبه ويبحثه جادا لدرجة أنه سرعان
ما توصل – وان توصل بعد فوات الأوان بوقت قصير – توصل الى ما توصل
اليه من أن : « انشاء دولة مستقلة استقلالا ذاتيا أمر غير عملي • اذ فى
الأحوال التى كانت سائدة آنذاك كان خمسة أسداس السكان فى فلسطين
عربا » (ولو قال تسعة أعشار السكان لكان أقرب الى نسبتهم الحقيقية)
« وأن مثل ذلك الحل لا يمكن الأخذ به • »

ومع ذلك لاحظ أن السير هربرت صمويل لم ير فى انشاء الدولة
اليهودية فى فلسطين أمرا غير شرعى • انه لا يرى فيها الا أمرا غير عملي
وحسب • أما الحل الذى يعم وجهه شطره الآن فهو : « تنصيب اشراف
بريطاني على فلسطين جنبا الى جنب مع تقوية وتشجيع الهجرة اليهودية ،
مع منح المجتمع اليهودى أوسع أسباب الاستقلال الذاتى التى تسمح بها
الأحوال العملية • » وحصيلة هذا الكلام هى جعل فلسطين فى حال ملائم
خروج الدولة اليهودية الى الحياة من طياته بالتدريج • كما أن منح الاستقلال

الذى سيخرج المهاجرين اليهود من دائرة اشراف أهالى البلاد على البلاد .
وهكذا ففي حين لم يقترح النسير هربرت صمويل انشاء دولة يهودية فورا
كان ما يقترحه يجعل من قيام دولة عربية فى فلسطين أمرا مستحيلا فى
أى وقت من الأوقات .

وعلى هذه الأسس أعد مذكرة عجمت فى نطاق أعضاء الوزارة . وهو
يقول انه أعد المذكرة فى كانوا الثانى لكنه لم يعممها الا فى آذار . الا أنه
يخيل الى أنه لا بد أن أرسل مسودة لها الى بعض زملائه فى الوزارة ،
على الأقل ، لأن المستر اسكويث (رئيس الوزارة البريطانية آنذاك - العرب)
قد كتب فى مذكرته فى الثامن والعشرين من كانون الثانى لعام ١٩١٥
ما يلى :

تسلمت لتوى من هربرت صمويل مذكرة عنوانها «مستقبل
فلسطين» . انه يخلص فيها بأسهاب لا بأس به وبعض الحماسة
الى مناقشة مسألة الحاق فلسطين ببريطانيا مجددا . وفلسطين
بلد صغير فى حجم ويلز معظمه جبال جرداء وجزء منه لا ماء فيه .
وهو يعتقد أننا قد نزرع هذه الرقعة ، التى لا تشجع كثيرا على
الزراعة حوالى ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود الأوروبيين ، وأن
هذا سيكون له أثر طيب على أولئك الذين سيخلفهم هؤلاء وراهم .

ان لهذه المذكرة رنة طيبة جديدة من قصة الماكريد (١) صيغت
لكى تلائم روح العصر ، وأنى أعترف أن هذه الاضافة الجديدة
المقترحة الى مسئولياتنا لا تستهوينى . ولكن من العجيب حقا أن
يرى الانسان هذه الصرخة التى تكاد تكون صرخة غنائية بحنة
تصدر عن عقل هـ . ص . الراجح الرزين . انها تجسيد عجيب
لعبارة ديزى المأثورة الأثيرة لديه القائلة بأن « الجنس هو كل
شئ » .

لقد أصدر المستر اسكويث حكمه على هذه المذكرة بطريقته السوية
المتزنة التى هى من صفاته المميزة . وأن ملاحظته التى أبدىها بقوله « وهو
يعتقد أن هذا سيكون له أثر طيب على أولئك الذين سيخلفهم هؤلاء وراهم »
لتبين لنا أنه لم يكن يؤمن بالأثر الشفائى لدواء على شخص لم يوصف له
هذا الدواء وانما وصف لابن عمه . بيد أن أهم شئ ورد فى تعليقه هذا هو
ذلك الدليل الذى قدمه لنا على أن مشروع صمويل كان يهدف الى توطيئ

(١) تانكريد ، رواية من تأليف دزرائيلى (أو ديزى على حد قول المستر
اسكويث) - العرب ١٠

ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود في فلسطين (في نهاية الأمر بلا شك)
ومثل هذه الأعداد بالطبع ستجعل من إقامة الدولة اليهودية أمرا عمليا .
ولا يتوفر لدينا أى دليل على أن أيا من زعماء الصهاينة المعروفين
قد تخلى عن فكرة الإقامة العاجلة للدولة اليهودية ، في ذلك الحين ، من
أجل خاطر دولة السيد هربرت صمويل اليهودية الآجلة ، بل الواقع هو
أنه يتوفر لدينا دليل على عكس ذلك . لقد ذهب الدكتور وايزمان في
كانون الثاني الى باريس ليحس النبض في دوائر الحكومة الفرنسية .
وقد سجل اللورد بيرتي زيارته هذه في الخامس والعشرين من كانون
الثاني ، فكتب السفير البريطاني في مفكرته .

لقد زارني ادمون دي روتشيلد هذا الصباح ، وبعث الى
بعد ذلك واحدا من بني دينسه ، وهو روسي تبنت أقدامه في
مانشستر لـ « يتحدث » معي فيما أعتقد أنه مشروع مناف
للعقل ، وإن قال انه يحظى لتحييد حراي ، ولويد جورج ،
وصمويل ، وكريوري ، ولم يذكر اللورد ريدنج .

وهذا المشروع يتطلع الى جعل فلسطين دولة يهودية تحت
حماية إنجلترا أو فرنسا أو روسيا ، وحماية إنجلترا هي
المفضلة . وهما يقولان ما لا يعتقدان أن أيا من فرنسا أو روسيا
ستثير اعتراضات عليه ، وأن صانع هذا المشروع مستعد لترك
القوامة على الأماكن المقدسة ، وحتى على القدس القديمة ، الى هيئة
دولية . . . لسوف يبنون مدينة جديدة بدلا منها في مكان مجاور
لها . ويقول زائري الروسي ان مثل هذا الحل يجب أن يتم في
بحر المائة سنة القادمة أو ربما في بحر الاربعين . وهو يأمل
أنى لن أخاله حالما ! انه يقول ان اليهود هم وحدهم القادرون على
استصلاح فلسطين بالفلاحة المركزة .

وما كان للورد برتي ، وهو السفير الذى كان كل همه في حياته أن
يتحدث عن الأمور السياسية بدقيق الألفاظ وموزون العبارات ، أن يكتب
أن هناك دولة يهودية ماثلة للأذهان ، ما لم يكن « زائره الروسى » قد
تحدث معه بلا مواربة عن هذه « الدولة » . أما العبارات التى تلت عبارته
هذه فهي تذهب الى تأكيد هذا أيضا . ان قدسا جديدة ستبنى كعاصمة
يهودية . أما المدينة القديمة فـ « ستترك » ؛ أى سيتنازل الصهاينة عنها
(من أراضيهم !) لادارة دولية .

وهناك حادثة عجيبة ترتبت على هذه النية في بناء قدس جديدة كعاصمة للصهيونية ، وتستحق منا أن نقحمها هنا في غير مكانها ، في السنوات الأخيرة نشط اليهود في بناء « حديقة صواحيه هم - كما كانوا يصفونها بتواضع يخفى من ورائه النية الحقيقية - على الجانب المقابل لبيت لحم من مدينة القدس ؛ على سفح تلة عالية أو مرتفع من الأرض ، واستوجب الأمر أن يرسل التخطيط العام لهذا البناء الى حكومة فلسطين . وكان المستر س . ر . آشبي المعمارى القدير والذائع الصيت مسئولا عن تخطيط المدن آنذاك . واكتشف حين درس هذا التخطيط بناية كبيرة تشهد عن القياس في كبرها وتحتل مكان التاج من القمة ، فسأل المصمم المستر رتشارد كوفمان معمارى المنظمة الصهيونية ، ويرسم تخطيطاته وفقاً لمطالبيها طبعاً . فكان جوابه الذى نطق به بكل جد الى المستر آشى هو : « Das ist unser Parlamentsgebäude » (أى هذا هو مجلس برلماننا) فرأى المندوب السامى ؛ الذى نقل اليه الخبر ، فى هذا العزو عزوا استفزازيا ؛ أو ربما رآه سابقا لأوانه . وأصدر أمرا نتيجة لذلك فتحولت (دار البرلمان) الى « متحف الفنون الجميلة » وفى هذا الاسم الجديد خبث ودهاء لا يخفيان على أريب .

وأعود الآن الى المذكرات والمشروعات التى قدمت فى أوائل عام ١٩١٥ لقد ترك السير هربرت صمويل مذكرته تفعل مفعولها فى عقول متلقيها بعد أن وزعها عليهم . وهو يقول انها « أثارت اهتمام مجموعة لا بأس بها بين المؤيدين من الوزراء . » لقد عرف الصهاينة كيف يشنون حملتهم فى انكلترا لدرجة أن أصبح فى امكانهم أن يوجهوا اهتماما أكثر الى البلدان الأخرى ولبرهة من الزمن فعاد الدكتور وايزمان وزميله المسيو سو كولف والمسيو تشيلنوف الى باريس دون أن يؤثر فيهما جفاء برتى . وسرعان ما عاد المسيو تشيلنوف الى روسيا « تراوده آمال عريضة » ليقوم هناك بمهمة وكيل الاتصال .

أما وقد عاد وايزمان وسوكولوف الى انكلترا فقد قطعاً معظم عام ١٩١٥ فى عمل هادئ ولكنه شاق دائب وفعال . وتسجل السيدة داجريل بسذاجة ساحرة أن « الصهاينة لم يكونوا قد وجدوا طريقهم بعد حتى الى ممرات مكاتب الحكومة » ولكن كتعويض لذلك « كانوا يجتمعون من حين لآخر مع وزراء عديدين فى بيوتهم » .

وتضيف هذه السيدة داجريل شيئا الى علمنا عن حالة السير ادوارد جراى الذهبية فى ذلك الحين بقولها انه « كان يعطف من كل قلبه

على مثل الصهاينة الأعلى ، لكنه كان يخشى أن يغضب الحكومة الفرنسية ذكر الحماية البريطانية على فلسطين ، وأن يغضب كذلك بعض دوائر الرأي في حزب الأحرار الانكليز . إذ لم يكن من المرجح أن تعرض وزارة حزب الأحرار نفسها لحمل أى تبعة بشأن فلسطين ، ولم تكن فى الوقت نفسه تريد أن تراها فى يدى أى دولة كبيرة أخرى . وربما كانت تحبذ تنظيم كومونويلث يهودى فيها كوحدة سياسية مستقلة . إلا أن هذه الآراء لم يجد الإعراب عنها بصورة رسمية وإنما اشتمها الصهاينة اشتاما ، ولم يكن الصهاينة يفتقرون الى وسائل « للاشتما » أثناء تلك الدردشات التى كانوا يتبادلونها مع وزرائهم المصطفين فى بيوتهم .

ثم تمضى السيدة داجريل الى القول بأن الصهاينة لم يتركوا أى فرصة تفلت منهم فى التحدث عن أمر هذه الحماية البريطانية والحوض فيها كلما وجدوا الى ذلك سبيلا ، ولا بد أن الدكتور وايزمان قد قدم حجته مكتوبة حين سنحت له إحدى هذه الفرص وإن كانت السيدة داجريل لا تعين لنا متى وكيف سنحت هذه الفرصة . ولقد كتب فقال :

إذا كانت بريطانيا العظمى لا تريد لأحد غيرها أن يستحوذ على فلسطين فهذا يعنى أنه يتحتم عليها أن تبقى عينها عليها وأن توقف أى تسلل إليها تقوم به دولة كبيرة أخرى . وإن مثل هذا السبيل سيلزمها من المسئولية تجاه فلسطين مقدار ماتلزمها به حماية بريطانيا عليها ، مع فارق واحد ، وهو أن هذه الرقابة ستكون أقل كفاءة فى المنع من الحماية الفعلية . ولذلك فأنى أرى أن هناك ستكون أقل كفاءة فى المنع من الحماية الفعلية . ولذلك فأنى أرى أن هناك حلا وسطا يمكن الأخذ به : ألا وهو استيلاء اليهود على هذا البلد . إن عبء التنظيم كله سيقع على عاتقهم بيد أنهم سيطلعون بهذا العمل فى بحر العشر أو الخمس عشرة سنة القادمة فى ظل حماية بريطانية مؤقتة .

وكان هذا التنبؤ غاية فى الدقة ، حدث فى عام ١٩١٥ ، بكل ماحدث فى فلسطين عندئذ وحتى هذا التاريخ . بيد أن الدكتور وايزمان طبعاً قد كان دائماً فى مركز جوبتر يتدبر ويستبصر الطقس الذى يوشك هو نفسه أن يخلقه .

إلا أن جولات وايزمان فى الخارج أو فى لندن ما كان لها أن تكون كثيرة بسبب أعماله فى مانشستر ، ولذا فلا بد أن معظم هذه الفرص التى تحدثت عنها السيدة داجريل قد سنحت فى هذه المدينة عينها . إذ كانت

هذه المانشستر قد تحولت في ذلك الحين بين وايزمان وسكوت وبين المجندين الجدد الذين انضموا اليهما سريعا الى قاعدة صهيونية معدودة ، في الواقع . « ان مجموعة كبيرة من الكتاب الصهاينة قد انضوت تحت لواء هذين القائدين . وكان أبرزها الميجر (أى الرائد - العرب) نورمان بنتويش ، الذى أصبح فيما بعد النائب العام لفلسطين . ولم يكن جميع هؤلاء المجندين يعملون في مانشستر لكنهم كانوا يستمدون وحيهم والهامهم منها . أما بالنسبة للمانشستر جارديان نفسها فقد أصبح الكثير من أسرة تحريرها دعاة نشيطين للقضية . وكان أبرزهم السيدان هارى ساكر وهربرت سايدبوتام . وقد قدر للسيد ساكر وهو محام أن يصبح موثق عقود شركة روتنبرج في فلسطين ، كما قدر له كذلك أن يشتهر في دوائر معينة على الأقل باسم « ساكر الى الأبد » لقد سئل وهو يدلى بشهادة أمام احدى اللجان التي جاءت الى فلسطين في مناسبات كثيرة ، عن الأمد الذى يعتقد أنه ينبغي على الانتداب البريطانى أن يبقى فيها فكان جوابه : « الى الأبد » .

أما السيد سايدبوتام فقد أشرف على عملية تنظيم « لجنة فلسطين البريطانية » ينشر في المملكة المتحدة من خلالها نظريات الصهاينة . وأسس لهذا الغرض نشرة باسم فلسطين (ذكرناها آنفا) وما تزال الى الآن تصدر ، ويخيل لى أنها توقفت في حياتها عن الصدور لسنة أو سنتين . ولقد أثبت هذا السيد سايدبوتام أنه أكثر المدافعين عن الصهيونية السياسية تشددا وأنه أطولهم باعا . وظهر في عديد من الكتيبات مرتديا ثوب زعامة المدرسة الواقعية المثالية . وتنادى هذه المدرسة بمثالية العودة الى جبل صهيون ، وبمثالية الانتداب ، جنبا الى جنب مع امتلاك مشارف قناة السويس .

وحين كانت الصهيونية تثبت أقدامها على هذا النحو في مانشستر كانت الأحداث السياسية الكبرى ، التي قدر لها أن تؤثر على مستقبلها بدرجة كبيرة ، تحدث وتأخذ مكانها في مجريات الأمور . لقد شكل المستر أسكويث وزارة ائتلافية ، وفي آيار أصبح اللورد بلفور ، الذى كان يعف في صف المعارضة بالرغم من انتمائه الى مجلس الحرب ، الصاحب المدنى الأول للأميرالية (أى وزير البحرية - العرب) . وفي ذلك الحين كان الدكتور وايزمان يجرى تجاربه بنجاح فى انتاج المتفجرات . « وقد وضع بين يدي المستر سكوت ، « هكذا يقول المستر ج . ل . هاموند مترجم سيرة الصحفى الكبير ، « مشروعة لانتاج المواد الكيماوية اللازمة لانتاج الذخائر . فقام سكوت بعدة زيارات الى لندن ليقنع المستر لويد جورج والمستر ماكيننا

واللورد بلفور والآخرين بأهمية تجارب وايزمان . ووعدته المستر لويد جورج في صيف ذلك العام ببحث هذه المسألة حالما يتم الفصل في مسألة التجنيد الإجباري .

وهكذا تأجلت الى حين احتمال استدعاء الدكتور وايزمان (دكتوراه الدكتور وايزمان هي دكتوراه في العلوم) الى لندن حيث تسنح له فرص أكثر انتظاما في الاتصال بأعضاء الحكومة . لكن المسيو سوكولوف والآخرين كانوا ينشطون في الصالونات التي يتربى فيها أعضاء المجتمع السياسي في بريطانيا ، ويجعلون منهم شغلهم الشاغل . وكسبوا لهم فيه أتباعا ، وكسب الأتباع أتباعا ، وغدت الصهيونية موضوعا لدى أولئك الأشخاص وتلك الجماعات التي لها وزن في هذا المجتمع وفي بؤرته الاجتماعية . فأصبح المبحث الذي رآه أسكويث مغرقا في الخيال كاحدى روايات دزرائيلي ، أصبح عن طريق الاعادة والتكرار غير مغرق فيه الى هذا الحد بالنسبة لرجال الدولة الآخرين . ثم أصبح فكرة ماثلة للعيان ، ثم سرعان ما أصبح منهجا ممكنا من مناهج السلوك .

وفي كانون الأول اصطحب سكوت وايزمان ليتغدى معه على مائدة لويد جورج ولكي يدرس لويد جورج تجارب وايزمان التي تعالج موضوع تحضير الاستيوان لاستعماله في صنع الكورديت . فتقرر نقل وايزمان الى لندن ليعمل في مصنع حكومي لانتاج الذخائر شريطة نجاح تجاربه للاختبار النهائي . وحينئذ عاد الى مانشستر الى حين . وكان ذلك في حوالى الوقت الذي كان مكماهون فيه يكتب من مصر آخر الأوراق في التعهد باستقلال العرب الذى فتح كنشستر الطريق اليه .

ونجحت اختبارات تجارب الدكتور وايزمان نجاحا تاما فعين في شباط من عام ١٩١٦ في الأميرالية ، وأصبح اللورد بلفورد رئيسه ، وانصافا للدكتور وايزمان نقول انه لا يبدو أنه قد أدخل جانبه الصهيونى في وظيفته الجديدة . لكن اللورد بلفور هو الذى قام بالمبادرة في هذا المضمار . ففي ذات يوم « دخل وايزمان غرفته في عمل رسمى وحين انتهت المقابلة أقحم بلفور هذا الموضوع الآخر فقال : (أنت تعلم يادكتور وايزمان أنكم قد تنالون قدسكم اذا ما كسب الحلفاء هذه الحرب ،) وطلب اليه أن نأته مرة أخرى لأنه يريد أن يبحث معه أمر اليهود الروس والانجليز » (عن داجريل)

وتقول السيدة داغريل ان بلفور ووايزمان قد اجتمعا في بحر عام ١٩١٦ « مرة أو مرتين » بيد أن عمل القادة الصهاينة الشاق قد استمر دون

كلل ؛ سواء من خلال بلفور أو من خلال القادة الآخرين ، في بحر النصف الأول من ذلك العام . ولقد وجه المسيو سوكونوف والدكتور وايزمان جانبا كبيرا من اهتمامهما الى نشر العقيدة الصهيونية بين اليهود والانجليز . ولم يكن هؤلاء الاثنان يعلمان شيئا عن التحالف الذي تم مع العرب في ذلك العام . وفضلا على ذلك ، ففي أى يوم من الأيام كان للعرب مكان في مخططاتهم ؟

وعلى أى حال فقد كان خليقا برجال الدولة الذين كانوا يتعاملون مع الضالعين من زملائهم مع الصهاينة ، أن يشكل لديهم هذا التحالف الذي استجد فارقا كبيرا . لقد استطاعوا حتى ذلك التاريخ أن يتلوهوا بمشروع الصهاينة مضفين على تلاعبهم هذا نوعا من الشرعية . أما اليوم فالحال يختلف . فلأن يفكروا اليوم في إقامة دولة صهيونية طلب اليهم أن يفكروا في إقامتها على أرض تعهدنا الآن بتأييد استقلال العرب فهذا أمر لم يعد فيه أى أثر للشرعية ؛ سواء أخلقت هذه الدولة فورا أم بالتدريج ؟ ان ما بدءوا يفعلونه فهو في لغة الدبلوماسية فعل غير مستحب . أما باللغة الدارجة فهو فعل غير شريف .

بيد أن هناك مهربا يمكن أن يجده ، بصورة عامة ، أولئك الذين يحبون أن يجدوا مهربا . واليكم الأسلوب المأخوذ به الآن للتوصل من موائيقنا . لقد تركت الصفة الحقيقية للمطامع الصهيونية في حالة من الغموض فاستطاعت الحكومة أن تبدأ في تبني هذه الحركة - اذ ما جاء شباط الا كانت بعض القطاعات في هذه الحكومة أو بعض الشخصيات فيها قد غرقت الى أذنيها فيها - بحجة أن إعادة توطين اليهود في فلسطين موضوع يستحق الدراسة في حد ذاته . وليس ثمة فيه ما يدعو الى تصور هذا الاستنتاج أو ذاك . وقد ساعدتهم في هذه المواربة والتملص جماعة من اليهود البريطانيين كانت تجعل شغلها الشاغل في ذلك الحين في فتح أبواب الفرص أمام الصهيونية . ولم تكن خططها في ذلك الحين ، من حيث صياغتها تطالب بإقامة دولة يهودية في أى وقت من الأوقات ، بل كانت خالية من أى صفة سياسية . وكان هؤلاء الرجال المعتدلون يستشارون ويتعرف على وجهات نظرهم جنباً الى جنب مع السيدين وايزمان وسوكولوف . وبالرغم من أن اقتراحاتهم ما كانت لتقرأ الا لتلقى في سلسلة المهملات فإن مجرد حقيقة وجود اتصالات جانبية تجري معهم كانت تضفي على المفاوضات التمهيدية ؛ أو أيا كانت تسمى هذه المفاوضات التي كان القطاع المستول عنها من الحكومة طرفا فيها ، كانت تضفي عليها جوا من سعة الأفق الكاذبة المطلوب .

ويخيل الى أن الاستقامة في العمل كانت تفرض علينا أن نجد قادة الصهاينة بارتباطاتنا مع العرب ، وأن نطلب اليهم أن يكبحوا ويقللوا من غلواء مشروعاتهم طبقا لها . أو كان ينبغي علينا ، ان كان من المستحيل أن نطلعهم على ارتباطاتنا هذه ؛ اذ المرجح أنه كان ما يزال على الثورة العربية أن تبدأ في الواقع ، كان ينبغي علينا حينئذ ألا نقوم بأية خطوة نشجع بها هؤلاء الصهاينة في المضى قدما بمخططاتهم .

ولست أرى أن أحدا من أهل القاعة البيضاء (اليهودي هول) قد كلف نفسه عنا مراعاة هذه الاعتبارات والمشكلة الحقيقية هي الى أى مدى كان الرجل في القاعة البيضاء يعلم بما يفعله غيره فيها . ويخيل الى أن الوزراء بل وحتى بعض الأفراد في وزاراتهم ، كانوا يوجهون ؛ في تلك الفترة من الحرب ، أمور السياسة كل من عنده ودون أن يعلم أحدهم الآخر بها ، أو دون أن يخبر أحدهم الآخر بما يفعل أخبارا كافيا . ويخيل لي أن الحجة التي استخدمت لتبرير هذا المسلك هي أنه لما كانت هذه المفاوضات مجرد مفاوضات استكشافية فانها من شئون واختصاص الدوائر الحكومية ، وأنه سيكون هناك وقت كاف لاطلاع الوزراء على كل ما يتعلق بها ، وسيكون هناك وقت كاف ليطلع الوزراء الوزارة على كل ما يتعلق بها حين تجيء لحظة تحويلها في حد ذاتها الى سياسة قومية .

ولا سبيل الى تفسير ما حدث بغير هذا التفسير . أما أن جميع أعضاء الوزارة ؛ بما فيهم رئيس الوزراء نفسه ، قد كانوا يعلمون علما وافيا الى أى مدى ارتبطنا مع العرب ، فذلك أمر بعيد كل البعد عن كل احتمال . اذ تشير دلائل كثيرة في الرسائل التي وردت الى القاهرة قبل إبرام هذا التحالف مع العرب ، الى أن هذا الأمر قد عولج بصورة مشوشة في هذا البلد ودرس بصورة غير وافية . ويقول الكاتب (النقيب - المعرب) - وهو هنا يستمد معلوماته من لورانس الذي كان في قلب الأحداث - ان المندوب السامي قد أبرق من القاهرة يحذر مكتب الخارجية من « مغبة التقليل من قيمة تطور الحركة العربية المحتمل ، » وألج (وما أكبر دلالة هذا القول) « بضرورة وجود وحدة في الاشراف على جميع المفاوضات » .

الا أن هذا لم يبدل من الأمر شيئا في أى حال . واستمر صانعوا هذه السياسات يسيرون بها بغير اكتراث . فكان الموقف في شباط ، من حيث يمكن تحليله ، هو أنه كانت لنا معاهدة حقيقية صحيحة مع العرب و « ترتيب » معلق مع الفرنسيين و « شأن » مع الصهاينة يتطور . وكان هناك من الناس من يعلم ببعض هذا . وربما كانت قلة منهم تعلم به كله ،

وان لم يكن أحد منهم يعلم به بدرجة كبيرة من الوضوح . . . ولقد احتفظ « بالترتيب » الذي تم مع الفرنسيين في طي الكتان عن العرب والصهاينة . وأبقيت المعاهدة مع العرب في نطاق السرية عن الصهاينة . وكان الفرنسيون هم وحدهم الذين تتوافر لديهم معلومات عامة عنها فاحتفظ بضعة موظفين في الكي دورسيه بها لأنفسهم ليستخدموها في المساومة اذا ما لزم الأمر . ولم يكن هناك ما يدعو طبعا الى نقل سطر من أى شيء سري الى الصهاينة لأنه لم تكن لهم صفة في هذا الأمر . بيد أنه ما دامت لهم علاقة به فلا جدوى من جعل السرية تمتد اليهم .

وما من حاجة بنا الى أن نقول بأنه كان من المفروض أن تكون هناك سرية في زمن الحرب ، فما من أحد يبلغ به الغباء الى حد مناقشة هذه النقطة . ولكن هناك الفارق ؛ كل الفارق بين ابقاء هذه الارتباطات سرا بالنسبة للعدو وبالنسبة للدول المحايدة وبين ابقائها سرا عن أولئك الذين تمس هذه الارتباطات عنونها شئونهم الخصوصية .

وهاهما السير مارك سايكس والمسيو بيسكو يتمان الآن ، وبالسرية المناسبة ، ذلك « الترتيب » ؛ كل بالنيابة عن بلده . وها هو السير مارك سايكس يبرح لندن قبل نهاية الشهر الى روسيا ليطلع الحكومة الروسية التي أريد لها أن تكون الطرف الثالث في هذا « الترتيب » ليطلعها عليه .

وفي آذار ، حملت مذكرات ومحادثات السير هربرت صمويل والسيدان وايزمان وسوكولوف وأصدقاء قضية الصهيونية أولى ثمارها . وكانت هذه الثمرة الأولى مذكرة ترجع في أصلها على ما يظن الى السير ادوارد جراي . وكبعض الدليل على أهميتها نقول انها ماتزال غير معلومة جيدا هنا في بريطانيا . انها لم يرد عنها ذكر في هذه البلاد ، على حد ما يحيط به علمي ، الا من قبل المستر ليونارد شتاين في كتابه الصهيونية . . . أما في الولايات المتحدة فقد نشرت السيدة أندروز ، مؤلفة المؤلف المعداد ، الكبير الأهمية ، المزود بالكثير من الوثائق والمسمى بـ **فلسطين تحت الانتداب (١)** ، صورة عنها تختلف بعض الاختلاف عن الصورة التي أوردها المستر شتاين .

وقد جرى ارسال هذه الوثيقة الى سفيرنا في بتروجراد وطلب اليه فيها أن يجس نبض الحكومة الروسية بصدد موقفها من « استعمار اليهود لفلسطين » ولولا الثورة الروسية لما كان لهذه الوثيقة أن تروى النور .

(١) نشر فيما بعد في بريطانيا من قبل السيدان جورج ألن واوتوين .

فلقد نشرت الحكومة السوفيتية بعد قيام هذه الثورة عددا من الرسائل السرية من ملفات وزارة الشؤون الخارجية الامبراطورية في مجلد عنوانه الروسى « تقسيم تركيا الآسيوية » وظهر فى عام ١٩٢٤ .

وتاريخ هذه الوثيقة هو الثالث عشر من ذلك الأذار . ويبدو أنها قد أرسلت باللغة الانجليزية الى المسيو سazonoff وزير الخارجية الروسية آنذاك . والرسالة المحفوظة فى أرشيفات بتروجراد محفوظة باللغة الانجليزية ، على أقل تقدير ، وان ترجمت الى الروسية من أجل المصنف الذى نشرته السلطات السوفياتية .

وتيسيرا للقارئ أقدم الصورة التى أوردها المستر شستين عن الأصل لأن كتابه المتوسط الذى جاءت فيه أيسر على القارئ المتوسط من كتاب السيدة أندروز الذى يقع فى مجلدين ضخمين . انها تسير على هذا النحو :

مذكرة ايضاحية مقدمة من السفارة البريطانية فى بتروجراد الى وزير الخارجية المسيو سazonoff

لقد تلقينا رسالة تلغرافية من السير ادوارد جراى تقول ان حكومة صاحب الجلالة قد جذبت انتباهها مؤخرا مسألة قيام استعمار يهودى فى فلسطين . وبالرغم من أن كثيرا من اليهود ، كما هو معروف ، لا يلقبون بالا الى الصهيونية فان هناك قطاعا كبيرا من اليهود له أعظم النفوذ فى جميع البلدان سيقدر أعظم التقدير الاقتراح الذى يهدف الى الوصول الى اتفاق بصدد فلسطين يرضى الآمال اليهودية ارضا تاما .

واذا كانت وجهة النظر هذه المبينة أعلاه صحيحة فسيكون من الواضح أن هناك نتائج سياسية هامة يمكن الوصول اليها باستغلال هذه الفكرة الصهيونية . وستكون احدى هذه النتائج تحويل العناصر اليهودية فى الشرق وفى الولايات المتحدة والأماكن الأخرى ، المعادى موقفها الحالى لقضية الحلفاء الى حد كبير ، الى صف الحلفاء .

ولقد عرف المستر لوسيين وولف آمال الصهيونية فى فلسطين على النحو التالى : « اذا ما وقعت فلسطين ، كنتيجة من نتائج الحرب ، ضمن نطاق المصالح الفرنسية والبريطانية فلن يكون بعيدا على الحكومتين الفرنسية والبريطانية أن تأخذوا فى

اعتبارهما مصالح اليهود التاريخية في هذا البلد . فتؤمن كلتا
هاتين الحكومتين للسكان اليهود فيه حقوقا سياسية متساوية مع
حقوق السكان الآخرين ، وحرية دينية ومدنية ، وتلك الامتيازات
في مستعمراتهم ومساكنهم التي قد تكون ضرورية ، وكذلك
التسهيلات المعقولة للاستعمار والهجرة » .

وليس لدى السير ادوارد جراي أى اعتراض على هذا القول
الذى ذكر آنفا بيد أنه قال للمستتر وولف بكل بساطة وجوابا على
قوله هذا انه لا بد له أن يبحث هذه المسألة مع حكومات الحلفاء
وأن حكومة صاحب الجلالة ستنتظر الى هذا الأمر بعين العطف
والتشجيع .

وهدف حكومة صاحب الجلالة الوحيد هو تدبير اتفاق يكون
جاذبا بما فيه الكفاية لأغلبية اليهود لتسهيل عقد صفقة تضمن
لنا تأييد اليهود . ويخيل لحكومة صاحب الجلالة ، وهى تضع هذا
الاعتبار نصب عينيهما ، أنه اذا ما نص هذا المشروع على تمكين
اليهود من أن يأخذوا فى أيديهم ، حين تصبح مستعمراتهم من
القوة فى فلسطين بحيث تكون قادرة على منافسة السكان العرب ،
زمام ادارة الشؤون الداخلية لهذه الرقعة من الأرض (باستثناء
مدينة القدس والأماكن المقدسة) فسيكون هذا الاتفاق أكثر
جاذبية بالنسبة لأغلبية اليهود بكثير . وان حكومة صاحب الجلالة
لا تود أن تعبر عن أفضلية هذا الحل أو ذاك من حلول هذه المسألة .
الا أنه قد قيل لها ان اقامة حماية دولية على فلسطين ستقابل
بالمعارضة من جانب الدوائر اليهودية ذات النفوذ .

وان السير ادوارد ليأمر ، وهو يرسل كل هذا تلغرافيا ،
السير جورج بوشنان أن يحصل من الحكومة الروسية على رأى
صريح بصدد هذه المسألة ، وألا يدخر عليه جهدا فى أن يرسل
اليه فى أقرب تاريخ ممكن وجهة النظر الروسية بصدد هذا .

فيالها من وثيقة ! فلا يكاد يكون من المصدق أن وزير الخارجية كان
ينهى ، فى بحر عشرة أسابيع من تعهده لشريف مكة باستقلال العرب
« و بكل معنى من معانى كلمة الاستقلال ، لتسليم ادارة فلسطين
للمصهاينة . وان العذر الوحيد ! أو بالأحرى ما يشبه العذر ، الذى يمكن
أن يبرر به هذا الاقدام على هذا العمل الخسيس ، والذى هو عمليا التفسير
له ، يمكن أن يجده الانسان فى ذلك الموقف المنذر بالخطر والنكبة الذى

كانت تعيش فيه البلاد آنذاك وما ترتب عليه من اختلال حال الوزارة .
لقد كانت مائة وخمسون ألف طن من حمولات البواخر تغرق لنا في كل
شهر بفعل غواصات العدو . وكان الأتراك في موقف المنتصر في جاليبولي .
وكانت الحرب في ذلك الحين تكلفنا مبلغا يصل الى ستة ملايين من الجنيهات
يوميا ، وكان يبدو لنا ألا سبيل الى الخلاص منها ؛ ناهيك عن خروج طافر
منها . وكانت الوزارة نفسها ذاهلة موزعة اللب تفتقر الى الثقة وتحتضر .
فبدأ التفكك في أجهزة الدولة وفي نطاق الرجال الذين كان من واجبهم أن
يحفظوا عليها تماسكها .

وقد شهد اللورد كيرزون ، بعد ذلك بسنتين ، في معرض حديثه
عن توجيه أمور البلاد في تلك الفترة التي هي موضوع البحث الآن ، بأن
نظام الوزارة القديم « كان شيئا يستحيل العمل به في زمن الحرب كل
الاستحالة » وبأن « اجتماعات الوزارة كانت في معظمها غير دورية فلم يكن
هناك جدول للأعمال ولا تنظيم للعمل ، وإن أى شيء مسجل عما كان
يدور في الجلسات لم يحفظ اليهم إلا ذلك الكتاب الخاص الذى كتبه رئيس
الوزارة الى الملك والذى لم يطلع أحد على محتوياته . وكثيرا ما كان لدى
الوزارة أكثر الأفكار غموضا والتباسا بصدد ما يتعلق بمادية قراراتها .
لقد كانت دائمة غارقة في العمل » . لقد كان هناك أربعة وعشرون وزيرا .
وتلك حالة حدث بالمستر لويد جورج الى أن يعلق قائلا : « انك لا تستطيع
أن تدبر دفة الحرب بسنهيدريم (١) »

وليس هناك شك فى أن هذه المذكرة التى جرى ارسالها الى بشروجراد
قد خرجت من هذه الطامة والفوضى ومن مثل هذا الافتقار الى امتلاك نواصى
الامور . لقد تسلسلت تسلسلا من زحمة هذه الفوضى . ومع ذلك فهى أمر
لا يغتفر حتى وإن وجدنا فى الظروف التى اكتنفت ظهورها مبررا .
وسرعان ما يبرز أمام الذهن هذا السؤال : من الذى كتبها ؟ ومن هو
المستول عنها ؟ ومن ذا الذى كان على علم بمحتوياتها قبل ارسالها الى
الروسيا ؟

أهو اللورد كيتشنر الذى كان المحرك الاول للتقرب الى العرب ؟ إن
هذا أمر لا يصدق اذا اعتمدنا على هذا الزعم وحده . لأن علاقاته مع أعضاء
الوزارة الآخرين كانت تزداد فى ذلك الحين تجافيا وانعزالا وباضطراب .
انه لم يكن يوليهم كثيرا من الثقة . ولقد كتب ف.س. أوليفر ذلك المراقب
الذى كان فى معمة الاحداث ، كتب عن هذه الحكومة فقال انها كانت فيما

(١) مجلس الامة اليهودى قديما - المترجم .

يشبه الغسق بصدد العمليات العسكرية • وإذا كانت بصدد حملة الفلاندرز فيما يشبه الغسق ، ففي أى ليل مد لهم لابد أنها كانت بصدد العمليات والأفعال والتعهدات التى قمنا بها وقطعناها للحجاز ؟ أما من الناحية الأخرى فى الوقت ذاته ، وكرد فعل طبيعى فان أعضاء الوزارة الذين كانوا يقاسون المر من صمت كتشنر لم يطلعوه على خططهم • فهل أخبر بمذكرة بتروغراد فى أى يوم من الايام ؟ بل وهل درست فى أى يوم من الايام على نطاق الوزارة فى أى اجتماع من اجتماعاتها أو فى أى لقاء حكومى كان فيه من الحاضرين ؟ ان كل الدلائل تشير الى أن الأمر لم يكن كذلك ، والى أن هذه المذكرة لم تدرس على نطاق واسع فى أى من هذه الاجتماعات قط •

وهل رآها رئيس الوزراء نفسه ؟ لقد تحدث المستر أسكويث عن مقترحات الصهاينة حين قدمت اليه لأول مرة فى مذكرة السير هربرت صمويل بازدياء شديد • ولم يغير رأيه أبدا فيها • ونعتها فى مجلس العموم بعد ذلك بست سنوات بأنها مأتزال : « بئر سلم من الفرضيات الهشة الهزيلة المتعثرة اللجوج » ، مضيفا أن من الافتراضات المبالغ فيها أيضا مبالغة الزعم بأن « اليهود سيعيشون جنبا الى جنب مع العرب بفعل ادارة عادلة حكيمة وعن طريق التغلغل السلمى وبالوسائل الأخرى » •

وكتب فى عام ١٩٢٤ وهو على أرض فلسطين ذاتها وهو يحل ضيفا على السير هربرت صمويل الذى كان قد أصبح آنذاك مندوبا ساميا عليها، كتب حين كان يظن فيه انه سيتحول الى جانب الصهاينة ؛ ان كان سيتحول فى يوم ما من أيام عمره الى جانبهم ؛ كتب بدلا من ذلك فقال : « ان الحديث عن تحويل فلسطين الى وطن قومى لليهود ليبدو لى حديثا مغرقا فى الخيال ، كما قد بدا لى دائما » • فهل يعقل فى رجل من خلق هذا الرجل أن يغرى الروس على الاشتراك والمساهمة فى شىء يراه خياليا ؟ وهل كان أسكويث بالرجل الذى يقترح على انسان غيره سياسة لا يؤمن بها هو نفسه ؟

لا • ان الاستنتاج الوحيد هو أن المذكرة لم تعرض عليه قبل أن ترسل ، أو أنها على الأقل ، لم تعرض عليه بصورة وافية ، فجهل ماكان يدور حوله •

أما بخصوص وعودنا وعهودنا التى قطعناها للعرب فليست أعتقد أنه قد أطلع عليها بصورة وافية أيضا ؛ ان كان قد اطلع عليها ! وقد ذهبت أنا نفسى لألقاه فى مجلس العموم بهذا الخصوص غداة عودتى من فلسطين

في عام ١٩٢٣ . وكانت دار كارميللايت قد أخرجت لتوها مجموعة مقالاتي التي كتبتها في الدبيل ميل في شكل كتيب أوردت فيه الاجزاء الاساسية من معاهدة الحسين ومكماهون . وكانت هذه هي المرة الاولى التي تكشف فيها هذه الاشياء للرأى العام . لقد زرت المستر أسكويت ، وقد أصبح خارج كرسي رئاسة الوزارة الآن ؛ زرته خصيصا لكي أرجوه أن يفحص هذه الأوراق لكي يتسنى له أن يقول لى رأيه عن مدى متانة هذه التعهدات التي تلزمنا بتأييد استقلال العرب في فلسطين .

وكان كل موقفه في هذه المفاصلة هو موقف المستخبر . والحقيقة هي أن هذه المفاصلة التي تمت بيننا قد توسط فيها صديق لكلينا نحن الاثنين وقبلها المستر أسكويت على أساس اشباع اهتمامه بهذه الوثائق التي كشف النفاذ عنها . ولو أن اسكويت كان يعلم بها لما كان لمقابلتنا أى معنى . وحين قلت له : «أريد ياسيدى بصفة خاصة أن أريك خلاصات هذه الأوراق وانى لعلى يقين من أنها ستدهشك ، » لم يقل لى انه يعرفها . ولم يقل لى انه قد بحثها حين كان فى السلطة ولكن نسيها ، أو قال انه تصفحها تصفحا وحسب . لقد تصرف تصرف من لم يكن له بها علم على الاطلاق ، ومن أى نوع . لقد قال : « لم لا ؟ دعنى أراها » . ثم قال بعد ذلك : « اترك لى هذه لسوف أقرأها حرفا حرفا . . . لسوف أقرؤها وأتمعن فيها من ألفها الى يائها » . وأنا لم أكن أجرى معه «تحقيقا صحفيا» بالمعنى الفنى لهذه الكلمة لأن رجال الدولة فى مثل هذه التحقيقات غالبا ما يتخذون جانب الدفاع ويظهرون فى بعض الاحيان جهلا كاذبا . وانما كانت هذه مقابلة شخصية لم يعلم عنها أحد حتى هذا اليوم الا الثلاثة الذين اشتركوا فيها . وكان أثناءها على تمام سجيته وعلى غير غموض وان لم يقل الا القليل من الكلام لأن الأمر كله قد رتب على نحو يسمح لى بأن أشرح له ما أرى أكثر من أن يقول هو لى شيئا .

الا أن الغموض لا يتوقف عند أسكويت ولا عند اللورد كتشنر ، على أى حال . ان مذكرة بتروجراد التي تخل بالتزاماتنا نحو العرب لا تتفق حتى مع شخصية الرجل الذي أرسلت باسمه . فهل كان اللورد جراى ضحية أخرى من ضحايا السرية فى دوائر الحكومة البريطانية ؟ وهل درس فى يوم من الايام ، وقبل أن يضع توقيع على هذه المذكرة ، أوراق التحالف العربى الانجليزى الأصلية بأمعان ؟ لقد كان فى ذلك النحى ينوء كاهله تحت عبء ساحق من العمل الزاخر ، وحين كان اتجاهه السائد هو طلب الخطوط العامة فقط لجميع الوثائق التي تعرض عليه ما عدا المهمة منها أهمية قصوى . وتقرير أى من هذه الوثائق هام فهو فى يد الموظفين

الكبار الدائمين وخاصة ما يتعلق منها بالقطاعات التي تقع على أطراف الميدان المتراعى الجنبات للشئون الخارجية في زمن الحرب . وقد يكون سكرتير الخارجية قد سمع سميثا ، وبصورة مقتضبة فقط ، عن بعض التقارير المتعلقة بالتفاهم مع الحجاز ، في ضوء الصراع الناشب في الجبهة الغربية .

والحقيقة هي أنه يبدو من الاسراف في الخيال أن يفترض الانسان من الوهلة الأولى أن سكرتير الخارجية قد ظل دون اطلاع على هذا الأمر الذي تقع مسؤوليته على عاتق حكومته ، أو أنه اطلع عليه بصورة غير كافية . ومع ذلك فإن كلماته ، التي قالها هو بنفسه حين طرحت هذه المسألة للمناقشة في مجلس اللوردات ، قبيل نهاية الشهر التالي وهو شهر آذار ، تؤكد صحة هذا الافتراض . ولقد فتحت هذه المناقشة بمبادرة من اللورد آيلنغتون Islington أكثر المناضلين شجاعة وشهامة ودأبا وذكاء من أجل انصاف العرب منذ أن بدأت هذه المشكلة . ولقد استشهد بمقتطفاتي من وثائق الحسين ومكماهون وبين بأجلى الوضوح الى أى مدى مشغولة ذمتنا بها ومقيدون نحن بها . وقد انتظر المجلس كلمة اللورد جراى بكل اهتمام لا يمكن أن يتصوره انسان . اذ كان هو الوزير المسئول في ذلك الحين الذي جرى فيه قطع هذه الموائيق . وأيا ما كان لدى اللورد جراى من كلام فقد توقع المجلس أن يكون مساهمته في هذه المناقشة فصل الخطاب .

ومع ذلك فقد كانت هذه الصفة الوحيدة التي افتقرت اليها كلمته . لقد قال انه لا ينوي أن يخوض في التفاصيل حول النقاط التي أثارها اللورد آيلنغتون واللورد سايدنهام (وقد تحدث اللورد سايدنهام على أسس شبيهة بأسس اللورد آيلنغتون) . والتفصيل هو ذلك الشيء بعينه الذي كان المجلس ينتظره طبعاً . بيد أنه سرعان ما اتضح للمجلس أنه لا يستطيع أن يقدمه له . لقد تحدث بطريقته المعهودة فيه الصادقة المهذبة ولكن بدا عليه أن لا الملم لديه . فكان كثير اللف والدوران والغموض بصدد الحقائق . وقال ان الاتفاقات السرية أمر لا غنى عنه أثناء الحرب . ولو أن جميع ارتباطاتنا التي ارتبطنا بها في زمن الحرب ينظر اليها ككل واحد فسنجد بينها حتما ما أسماه بـ « التناقضات » ، فقال « انى أعتقد أن من المحتمل كل الاحتمال أن توجد فيها تناقضات » . وقال انه لا يعتقد أن أيا منها يعود الى فترة توليه كراسى الوزارة . ولكنه لم يكن يعلم . واعترف أنه لم « يراجع ذاكرته ليستعيد بها » ما هي تلك الاتفاقات السرية التي عقدت في تلك الفترة . (والحقيقة الجديدة بالملاحظة كل الجدارة هي

أنه بعد أن راجع ذاكرته فيما بعد لم يحاول أبدا أن يبحث عن مناسبة لينكر فيها التزامنا في فلسطين نحو العرب .

ولقد طالب فعلا في كلمته هذه التي القاها في مجلس اللوردات بأن تقدم اليه معلومات ؛ طالب بوجوب أن تقوم الحكومة بنشر جميع هذه الأوراق لكي تنظف شرفنا . وقال ان أصول نصوص هذه الارتباطات تأخذ طريقها الى الناس « عن طريق مصادر أخرى » . واتفق مع أعضاء المجلس على أن مركزنا صعب ، على حد ما وصفه به فقال : « انه موقف صعب حين يقارن (تصريح بلفور) بالعهد التي قطعنا للعرب دون شك » .

ولقد تحدث اللورد جراي ، وهو يدلي بهذا الاعتراف ، وكأنه غريب على الجبين تكشف هذه العهود له لأول مرة وكأنها أمر جديد . فكيف يكون ممكنا في هذه الظروف الافتراض بأنه قد دبح بقلمه مذكرة بتزوير هذه مع علمه الكامل بالمعاهدة الانجليزية العربية ؟ فهل حقا هو الذي دبحها بنفسه ؟

وهذا يجعلنا نغير اهتماما أكبر الى هذه المذكرة ، ويجعلنا نعلق أهمية كبرى على تحليل هذه المذكرة . هذه الخطوة في الطريق الذي أدى الى تدنيس شرف التزامات بريطانيا العظمى . واني أسأل القارئ بدوري أن يراجع نصها تبعا لذلك .

ان هناك فقرة واحدة لا غبار عليها ألا وهي مقولة المستر لوسيين وولف المعتازة . وليس في هذه المذكرة شيء آخر يمكن أن يطرى . كما ان هناك عبارتين تلفتان النظر بصورة خاصة . وأولاهما هي عبارة : « اتفاق بصدد فلسطين يرضى الآمال اليهودية ارضاء تاما » . أما ثانيتهما فهي عبارة صيغت بصورة خرقاء وتقول : « اذا ما نص هذا المشروع على تمكين اليهود من أن يأخذوا في أيديهم — حين تصبح مستعمراتهم من القوة في فلسطين بحيث تكون قادرة على منافسة السكان العرب — زمام ادارة الشئون الداخلية لهذه الرقعة من الارض فسيكون هذا الاتفاق أكثر جاذبية بالنسبة لأغلبية اليهود بكثير » فاللغة الانجليزية في هذه العبارة مضبضعة وغير أصلية (١) ان كلمة for يجب أن تقرأ مع كلمة enabling . وكلمة

« if the scheme provided for enabling the Jews, when their colonies in Palestine are sufficiently strong to be able to complete with the Arab population, to take in hand the administration of the internal affairs of the region, then the agreement would be much more attractive for the majority of Jews. »

provided ليست هنا اسم مفعول وانما هي ماض بسيط . وهي تعنى :
« اذا ما جعل هذا المشروع من الممكن بالنسبة لليهود ، حين ١٠٠٠ الخ »
وليس : « اذا ما نص ١٠٠٠ الخ » .

ولست أعتقد أن سكرتير الخارجية هو الذى صاغ هذه التركيبية ،
وان كان الظاهر أنها من تأليفه . ان كل ما فيها يشير الى أنها قد أخذت
من أحد النصوص الصهيونية الخاصة غير المعترف بها وأدخلت فى هذه
المذكرة بحالها . كما تشير الى أنها لم تكتب أول ما كتبت بالانجليزية .
ثم ان الإشارة التى جاءت بعد هذه التركيبية تذهب الى تأكيد أن هذا هو
ما حدث فعلا . فهى تقول ان : « حكومة صاحب الجلالة لا تود أن تعبر عن
أفضلية هذا الحل أو ذاك من حلول هذه المسألة » . والواضح هو أن
هذا المديح الأخير أو المديحون الآخرون لهذه الرسالة غريبون بالنسبة
لهذه التركيبية فى حد ذاتها .

والشئ نفسه يمكن أن يقال بصدد التركيبية السابقة : « اتفاق بصدد
فلسطين يرضى الآمال اليهودية ارضاء تاما » . فبصدها يضع المديح أو
المديحون هذه الملاحظة : « اذا كانت وجهة النظر المبينة أعلاه صحيحة » .
انه أو انهم هنا ينقلون حرفيا .

وهناك فى هذه المذكرة التواءات أخرى يكاد يستحيل عزوها الى
سكرتير الخارجية . ان كلمات : « قطاعا كثير العدد وله أعظم النفوذ » من
اليهود ، والتى أعتقد أنها من تأليف القاعة البيضاء (الهوايتهول) ، تختفى
بعد نطقها مباشرة ويوضع فى مكانها قبيل خاتمة الرسالة تعبير مغاير كل
المغايرة هو « أغلبية اليهود » ، ان من الصعب على المرء أن يقدم مطالب ،
لا تقدمها الا الامم ، باسم قطاع من الناس ؛ مهما كان هذا القطاع كبيرا
وذا نفوذ . أما باسم أغلبية اليهود فيمكن أن يقدم هذا المطلب (أيا كانت
قيمتها) وبدون الاساءة الى علم الرياضيات . ومن ثم فقد أفسح المجال
فى سياق الرسالة لاستبدال كلمات : « قطاعا كثير العدد وله أعظم النفوذ
« من اليهود » بكلمتى « أغلبية اليهود » ، أن يتم . وكان هذا الاستبدال
عملا غاية فى الدقة والمهارة .

وربما كان أسوأ شئ فى هذه المذكرة هو الطريقة التى تدحر بها
جانبا مثل المستر لوسيين وولف العليا فى الاستعمار الصهيونى فى فلسطين
لصالح مخططات الصهاينة السياسيين . وكان المستر لوسيين وولف فى

« If the scheme made it possible for the Jews, when their colonies, etc. » (١)

نلك الحفبة من الزمن رجلا شهيرا الى أبعد الحدود ، وناشرا فديرا وله باع طويل فى التنسئون الخارجية • وكان المتحدث الرسمى باسم بعض المؤسسات الكبرى فى عالم اليهود البريطانيين كالجمعية الانجلو يهودية، ولجنة نواب اليهود البريطانيين ، التى قدر له فى الواقع أن يمثلها بعد أربع سنوات فى مؤتمر الصلح • ولهذا فقد كان هذا التعريف للأمال اليهودية فى فلسطين الذى قدمه الى مكتب الخارجية - وبناء على طلب هذا المكتب - تعريفا يزكى نفسه من نفسه لدى الهيئات الممثلة لليهود فى هذا البلد (بريطانيا - المغرب) • وكان يمكن له ، على ما أعتقد ، أن يزكى نفسه لعرب فلسطين لو أنهم علموا به • انه لا يتضمن أية ادعاءات بالملكية كاذبة ولا أية مطالب أو امتيازات لا مثيل لها فى التاريخ • لقد طالب المستر لوسيين دولف ومن يتحدث باسمهم من اليهود بأن تكون لمستعمرهم «حقوق سياسية مساوية لحقوق السكان الآخرين» و «حرية دينية ومدنية» و «تسهيلات معقولة للاستعمار» وحسب • لقد طالبوا بالاختصار بأن يقوم المستعمرون اليهود بتأهيل أنفسهم لنيل حقوق البشر الطبيعية فى فلسطين وبأن تمنح لهم هذه الحقوق بالتالى •

ومن هنا ، من هذا الاستشهاد بمقولة المستر وولف أو بخطته ، نعلم أن الحكومة البريطانية قد واثتها فرصة فى ربيع عام ١٩١٦ • لقد قدم اليها مشروع يحظى بتأييد المراجع اليهودية المعتمدة ، ونتاج لعقول يهودية ، ويتفق والتزاماتنا التى كنا قد قطعناها للعرب لنونا • وكانت مزايا هذا المشروع من الحسن بحيث لا يكون فى الامكان اغفاله • بيد أن كل ما فعله سكرتير الخارجية أو كل ما فعله ذلك الرجل أو أولئك الرجال المسئولون عن كتابة هذه المذكرة التى أرسلت باسم سكرتير الخارجية ، هو أن يذكروه ، وأن يقولوا بلا اكتراث انهم «لا اعترض لديهم عليه» ثم يسقطوه من حسابهم الى الأبد •

ان الفرصة فى انتهاج سياسة ليس من شأنها أن تخلق مشكلة اسمها «مشكلة فلسطين» ، ولا عداوة مع المسلمين ، ولا إلقاء بالمسيحيين فى اليم لتخفيف حمولة السفينة خشية الغرق ؛ سياسة تحمل فى طياتها برنامجا شريفا لليهود ، ان هذه الفرصة لم تفلت منا وانما تجنبتنا عن عمد وادراك • ولكن القاعة البيضاء كانت واقعة آنذاك فى أحابيل مشروعات الصهاينة السياسيين التعسفية المدمرة • وان بعض كلمات للسيدة داغديل فى هذا المقام تستحق منا أن نوردتها هنا • انها تقول : « فى ربيع عام ١٩١٦ بدأ الصهاينة (أى الصهاينة السياسيون من أمثال السيدين وايزمان وسوكولوف) يعقدون لهم صلات بالادارات الحكومية

الكبرى ، التي يحتاجون الى كسب ودها احتياجهم الى عطف الوزراء ، على الأقل ، حين تحين حفا تلك اللحظة التي يزجون فيها بأنفسهم فى معترك سياسات الدول المتحالفة . وكان متحدثون بلسان هيئات معينة من هيئات اليهود غير الصهيينة» (أى «الصهاينة» الحقيقين الذين كانوا يتطلعون الى صهيون روى) « فد ذهبوا معهم سلفا الى مكتب الخارجية والفوا بكل نقلهم فى المشروعات الاخرى انى كانت توضع لمساعدة اليهود فى الامبراطورية الروسية وفى غيرها من الدول . وتوصلوا الى فرض نظرية على مكتب الخارجية لسياسة فلسطينية لا تعترف بشىء أكثر من «الاهتمام التاريخي» الذى يبديه «معشرهم» نحو ذلك البلد . وان كلمة « الجنس » لم تستخدم فى هذه النظرية » .

تم تنابع قولها فتقول : «وظل الصهاينة لبعض الوقت يجهلون وجود هذه النظرية بعد تقديمها الى مكتب الخارجية . وربما كان المعادون للصهيونية لا يعلمون حق العلم ذلك الاهتمام الذى كان يوليه بعض الوزراء للصهيونية» ولقد صيغت هذه الحقيقة الاخيرة صياغة ليقة ، بيد أن القارىء سيدرك أى نوع من المواقف هذا الموقف الذى ترجع بالاشارة اليه .

وان هذا «الاهتمام بالصهيونية» المشار اليه لتوضحه الجمل التالية التى جاءت فى مذكرة بتروغراد . اذ تمضى المذكرة ، بعد أن تعلن أن ليس لدى سكرتير الخارجية أى اعتراض على مشروع المستر وولف ، لتعرض مشروعا مختلفا عنه كل الاختلاف وسيحظى بالتأييد كما هو واضح منه كل الوضوح . وما من حاجة بنا الى القول ان هذا المشروع لم يفصل بكلمات كثيرة . وان التنصلات لتصاحب الفقرات التى أوضح فيها تفضيل الحكومة لهذا الحل بمنتهى الوضوح . ان هذه المذكرة لتضج بهذه التنصلات ضجيج غرفة التحقيق فى مخفر الشرطة . ولكن كلما أمعنت الحكومة فى انكارها لتفضيل أى رجل بعينه دللت على تفضيلها لهذا الحل الخاص الذى سيكون « جذابا بالنسبة لأغلبية اليهود » .

انها تقول ، فيما يمكن لى أن أسميها «بعبارة الخيانة» فى هذه المذكرة ان مشروعا سيتمكن المهاجرون الصهاينة بمقتضاه من التزايد فى العدد فى فلسطين بحيث يصبحون أندادا للعرب فيمنحون حينئذ سلطات الحكومة ، سيكون حقا مشروعا «أكثر جاذبية بالنسبة لأغلبية اليهود بكثير» . كما تقول فى الوقت عينه بكل وضوح ان «الهدف الوحيد لحكومة صاحب الجلالة هو تدبير اتفاق يكون جذابا بما فيه الكفاية بالنسبة لأغلبية اليهود » . فاذا كان هذا لا يبين ، وبلمسة ضرورية من التحايل والخداع اللفظي لا

أقل ولا أكثر ، أن الحكومة ترغب فعلا في تبني المشروع المذكور فعندئذ لا يكون لأى من الاقوال أو العبارات قاطبة أى معنى على الاطلاق •

لقد وضع المستر وولف المسكين أهل فلسطين في اعتباره بكل شهامة • أما في هذه العبارة الخائنة من مذكرة مكتب الخارجية فان الاشارة الوحيدة التي جاءت عنهم لتتبع في ذلك الترتيب الذي أعد لكبتهم • ولن يكون لهم حتى أن يحظوا بالعزاء من حماية دولية تنصب عليهم لأن هذه الحماية ستقابل بالمعارضة من جانب « الدوائر اليهودية ذات النفوذ » ولا بد وأن هذه الدوائر اليهودية ذات النفوذ قد كانت جماعة وايزمان سوكولوف واصدقائهم ! ولقد كانت فكرة هذه الحماية الدولية مائلة للاذهان ونوقشت معهم كاقترح منفصل بالرغم من أن اتفاقية سايكس وبيكو لم يقدر لها أن تبرم الا بعد ستة أسابيع أخرى أو نحوها • ولم تكن هذه الجماعة تعلم بها • ولقد عارضها زعماء الصهاينة منذ البداية خشية أن يحكم نفوذ الكنيستين اللاتينيتين والاورثوذوكسية ، الذي سيقوم بالتعبير عنه ممثلو البلاد التي تدين بالولاء لكل منهما ، على مخططاتهم بالفشل والبوار •

وهناك نقطة أخرى ينبغي علينا أن نذكرها هنا ، ألا وهي أن عبارة الخيانة هذه تختلف في صورتى المذكرة اللتين نشرتا • ان هناك ، كما سبق لى واسلفت القول ، اختلافات عدة بين الصورة التي أوردها المستر شتاين والصورة التي وردتها السيدة أندروز • بيد انه ليس بينها اختلاف يستحق الذكر الا هذا الاختلاف • فهنا ، وحيث تتحدث صورة المستر شتاين عن مشروع لـ « تمكين اليهود من أن يأخذوا في أيديهم ، حين تصبح مستعمراتهم في فلسطين من القوة بحيث تكون قادرة على منافسة السكان العرب ، زمام ادارة الشؤون الداخلية لهذه الرقعة من الارض » ، تتحدث صورة السيدة أندروز عن « مشروع (*) يعطى لليهود ، حين يبلغ مستعمرهم في فلسطين مركزا يمكنهم من منافسة العرب في القوة ، وادارة شئونهم الداخلية في ذلك البلد » •

ان صورة المستر شتاين تفترض قيام هيمنة يهودية على الشؤون الداخلية ؛ تفترض تعيين وزير يهودى للداخلية • أما صورة السيدة أندروز فتفترض قيام حكم ذاتى صهيونى فى المناطق الصهيونية • ولكى

* Project
suggestion
فى حين ان الكلمة التى جاءت فى نص المستر شتاين مكانها
هى كلمة - العرب •

أحل هذا التباين تقدمت الى السلطات السوفيتية بطلب نسخة من النص الأصلي لهذه المذكرة ، واستفهمت فيه في الوقت عينه عما اذا كان هذا الأصل مكتوبا حقا بالانجليزية . وكانت هذه السلطات كريمة معي ومرحبة بطلبي وأكدت لي أنه مكتوب فعلا بالانجليزية . بل قد قالت في البداية انها ستحاول أن تزودني بصورة مصورة منه . ان صورتني شتاين واندروز ترجمتان من أصول أجنبية الى اللغة الانجليزية .

وحدث قدر معين من الإبطاء تسلمت بعده النص ، ليس بالانجليزية، ولكن صورة عن النسخة الروسية الرسمية . ثم تلا ذلك رجاء لم يلبي بإرسال الأصل الانجليزي ، ولكن برجا أن أذكر أي فقرات معينة أحب أن أعرف نصها الانجليزي . وكان هذا خيبة أمل بالنسبة لي الى حد ما . لكنني فعلت كما طلب لي لأن فحص النسخة الروسية الرسمية ، وهي في حد ذاتها ترجمة ، لم يأت بنتيجة . وفي الجواب الذي تلقيته جاءت النبذة الوحيدة التي تحتوى على النص الانجليزي للفقرات التي ذكرتها والتي تستدعي الملاحظة ؛ جاءت في نهاية الجملة الخطيرة . وفحوى هذه الجملة هو أن بريطانيا العظمى ترغب في أن تجد ترتيبا يمكن اليهود حين يصبحون من القوة بحيث ينافسون العرب من «أن يأخذوا في أيديهم ادارة الشئون الداخلية لهذا اللواء » .

ولذلك فان فلسطين قد وصفت في هذه المذكرة التي أرسلت الى المسيو سارونوف من لدن السير جورج بوشناف بالتيابا عن السير ادوارد جراي ، بأنها لواء . وأن اليهود ستكون لهم ادارة شئون الداخلية (وهذا يطابق صورة المستر شتاين) حين يكون تعدادهم في فلسطين من الكبر بحيث ينافسون عربها . لقد قصد لفلسطين بموجب هذه الخطة أن تسلم للحكم الصهيوني دون ما تفكير في أهلها العرب الابدى السرعة التي يتم بها التفوق عليهم في العدد ، أو التي يمكن بها تقليلهم الى حد التساوي مع اليهود . أما حق العرب الطبيعي في أرضهم ، والارتباط الذي ارتبطنا به لثونا بمنحهم استقلالهم اذا حاربوا في صفنا فقد أغضى عنهما الطرف، على حد سواء .

ويكفي هذا القدر عن هذه الوثيقة المخزية ؛ يكفينا هذا القدر عن باكورة مجموعة هذه الوثائق التي التحمت فيها السياسة البريطانية بأهداف الصهيونية السياسية ، وتحالفتا معا . ويتعكس هذا التحالف في هذا الأصل المركب المشبص ، الذي يبين تركيبه وتشبيصه بمنتهى

الوضوح والجلء ، والذي جاز على البعض على أنه صوت وزير الخارجية وحده .

وليس هناك الا دفاع واحد ؛ أو ما يشبه الدفاع ، يمكن أن يقدم لصالح هذه المذكرة ، ان كان هناك من يود الدفاع عنها . اننا نجد في مكان منها صراحتها الخاصة بها . لقد أوضحت فيها على الأقل الاسباب الداعية الى تبني قضية الصهيونية السياسية ، بدون مصانعة أو نفاق .

ان هذه الرسالة لم يقصد لها أن تصل الى الرأي العام طبعاً ، ولذلك أمكن الاستغناء عن النفاق بلا شك . ان الحكومة لا تشير الى شيء فيها الا الفرصة الأساسية وتقتصر الاعتراف بالمشروعات الصهيونية كصفقة سياسية تجارية : لك نصف بنس ولى بنس . ومثل هذه المساومات هو في الواقع بضاعة التحالف الشائعة . ولقد كان التحالف مع العرب أيضا مسألة هامت وخذ . ولكن لما كان جميع أولئك الذين فرضوا على بريطانيا معاضدة هذا النمط التعسفي من أنماط الصهيونية قد صوره للأمة على الدوام على أنه عمل ناصع البياض وله هالة من المقاصد المنزهة عن كل غرض ، فان من المريح جدا للنفس والمرضى للضمير أن نكشف حقيقة ونعريها بمثل هذه الالفاظ الذي يستخدمها رجال الاعمال كـ «استغلال» الفكرة الصهيونية و « احراز نتائج سياسية هامة » .

أما الطريقة التي أريد بها تحقيق هذه النتائج فهي مثيرة جدا للاهتمام . لقد كانت روسيا حليفاً تعسفاً في ذلك الحين ، بمعنى أن سوء معاملتها لرعاياها اليهود قد جلب عليها سخط اليهود في جميع أنحاء العالم . وكانت أعمال العنف التي تمت في هذا البلد ضدهم في السنوات الأولى من الحرب ، والتي لم يكشف النقاب عنها هنا في بريطانيا العظمى ولكن نشرت في الولايات المتحدة ، قد عمقت من عداة اليهود لهذا البلد . فجعلهم هذا العداة يتصرفون ببرود تجاه قضية رفاق روسيا في السلاح . بل كان موقفهم تجاه قضية الحلفاء معاديا الى حد كبير في الواقع ، كما تعترف بذلك مذكرة بتروجراد . واذا ما تزوجت حكومة بريطانيا العظمى من الصهيونية السياسية فقد تضع حدا لهذا العداة . ولقد تعهد قادة الصهاينة في انكلترا في ذلك الحين وما تلاه بأن ينتهي . وقدموا ضمانا خاصا بذلك الى الولايات المتحدة .

لقد كانوا يعرفون ما الذي يريدون . وبعد حوالي اسبوعين من ارسال مذكرة جرای الى سارونوف عقد في فيلادلفيا اجتماع للمنتظمات اليهودية في جميع أنحاء البلاد . وكان السيد القاضي براندين Brandeis الصديق

المقرب للرئيس ويلسون ومستشاره ، أحد الذين خطبوا في هذا الاجتماع .
 وقر قرار الاجتماع على استغلال الظروف التي تسببت فيها هذه الحرب
 لتأمين الحقوق الكاملة لليهود في كل مكان . ان أية قوانين أو نظم متبعة
 في التمييز والتفرقة يقاسى منها اليهود يجب أن تلغى . وقد حظى هذا
 البرنامج ، الذي هو ممتاز طبعاً من حيث كونه برنامجاً « حظى بتأييد
 واستحسان الكثير من الرسميين في الحكومة وبخاصة سكرتير الحرب »
 (عن كالين) .

وكانت هذه بداية . ولم يمض زمن طويل الا أضيف تأييد الخطط
 الصهيونية من أجل جعل فلسطين يهودية الى برنامج فيلادلفيا . بيد اني
 سأترك الآن الصهاينة وخططهم هذه وأعود للحديث عن العرب . ويغني
 ألا يتصور القارئ أن أي تقسيط لهذا الموضوع أو أي انتقال من موضوع
 لآخر في هذه الحكاية قد تم لغير ما سبب . اذ لا شيء أكثر لزوماً من
 ضرورة تبين هذا التناقض بين الطريقة التي تبنت بها الصهيونية ساستنا
 وتبنوها بها وبين الطريقة التي واصل بها العرب تحالفهم معنا في ميادين
 القتال وتحت أعواد المشانق .

الفصل الثامن

استعدادات من أجل الثورة العربية - كيف يموت العرب في
سورية - فيصل وجمال - الثورة تندلع - اتفاقية سايكس
وبيكو - « مشروع تشرين الأول » الصهيوني - الصهيونية
السياسية تصبح « معضلة معقدة » - الصهيونية السياسية
تصبح « أمة صغيرة »

لم يرفع العرب لواء الثورة عندما أبرم التحالف مع بريطانيا • ولقد
كانت هناك أسباب عسكرية معقولة لهذا التأخير ، وبخاصة الحاجة إلى
حصيلة أكبر من العتاد والأسلحة الحربية • والقاهرة هي نفسها التي طلبت
التريث • ويمكن القول ان العرب قد بدءوا يحاربون في صفنا قبل أن تكون
في يد أى منهم بندقية • فالشريف ، كما رأينا ، « كان قد جرد الجهاد من
شوكته » (عن ليدل هارت) وكان ، كما يقول كتاب تمبرلي القيم تاريخ
مؤتمر الصلح ؛ حين يرجع بالاشارة الى فترة ما قبل الثورة ، « قد قدم
من قبل خدمات لا تحصى الى الحلفاء » • وهذا المؤلف لا يستخدم كلمة
الوصف « لا تحصى » الا اذا كانت هذه الخدمات لا تحصى فعلا • فلندع هذا
التقدير لا يبرح أذهاننا •

وحين أبرم الحسين هذا التحالف كان الجلاء عن جاليبولى قد جعل
الأتراك في مركز حسن • ولم يعد جمال باشا قائد القوات التركية في
سورية - وقد انزاح عنه كابوس جاليبولى - يحتاج الى توخي الحذر في
سلوكه تجاه العرب • وواتته ذريعة أخرى للأفعال العنيفة التي أخذ يقوم
بها الآن نتيجة للاهمال الذي لا يصدق - ولا نقول أكثر - الذي صدر عن
موظفى مكتب القنصل الفرنسي العام في بيروت •

ولقد قلنا في فصل سابق ان اختيار المسيو جورج بيكو ، الذي أسرف على الاستقصاء الذي قامت به الحكومة الفرنسية في الشرق الأدنى ، تم وكلت اليه مهمة التفاوض من أجل وضع ترتيب أنجلو فرنسي مع السير مارك سايكس ، لم يكن اختيارا موفقا للقيام بهذا العمل . لقد كان حتى نشوب الحرب قنصلا فرنسيا عاما في بيروت . وقد رأينا أن الممثلين الفرنسيين في سورية كانوا قد زجوا بأنفسهم في تحضيرات العرب للانتفاض مع تركيا هناك . وأن المفاوضات المحلية كانت قد تركزت الى حد كبير جدا في بيروت . وأنه تحتم على هذا القنصل العام أن يرحل عن البلاد حين انضمت تركيا الى العدو . ويبدو لي أنه ليس بالملوم شخصا بصدده ما حدث بعدئذ ، لكن مسئوليته العامة كرئيس لهذه البعثة تدخل في دائره هذا اللوم . ويقينا أنه كان من عدم الفطنة والحصافة اختياره بعد ذلك في بعثة الى دنيا العرب . وفي القنصلية كانت هناك أوراق كثيرة تتضمن التعاملات بين بعض أعضاء الجمعيات السرية العربية وبين السلطات الفرنسية أو سلطات الحلفاء . وقد أعدمت هيئة القنصلية عددا كبيرا منها قبل إخلاء المكان لكن رزمة لا بأس بها منها كانت مودعة في غرفة علوية فنسيت .

وقد وكل الى الولايات المتحدة أمر القوامة على القنصلية ، لكن جمالا ، الذي لم يكن يأبه بالولايات المتحدة ، كسر الأختام التي أغلقت بها الأبواب وأجرى تفتيشا دقيقا أسفر عن اكتشاف الأوراق المنسية . وكان من قبل قد أمسك بطرف الخيط من التمرد الذي دبر في تموز من عام ١٩١٥ واعتقل عددا من زعماء جمعية الاصلاح في بعلمبك ودمتقى ويافا ومدن سورية الأخرى . ولم يمض وقت طويل حتى جرى اعتقال ستة وعشرين آخرين من أفضية عكا وصور . ونصبت محكمة عسكرية في عاليه من أعمال لبنان لتحاكم هؤلاء المعتقلين ، ومن يعتقل بعدهم من العرب ، بتهمة التعاون مع العدو وتدريب تمرد ، وحكم على خمسة منهم بالاعدام ، من بينهم نائب سابق لمفتي صيدا .

لكن محكمة جمال كانت ما تزال تفتقر كلية الى دليل ضد كثير من العرب الذين كانوا محل شكوكه ، فكان أن حصلت من القنصلية الفرنسية على هذا الدليل المطلوب في ربيع عام ١٩١٦ . وبعد أن ترك جمال السوريين الذين لهم علاقة بهذا الأمر بعض الوقت يورطون أنفسهم فيه أكثر وأكثر ، فرض على سورية حكما اراهيبيا غاشما ، متخذة من ذلك ذريعة . وقدم أولئك الذين وجدت أسماؤهم مسجلة في الوثائق المستولى عليها الى المحكمة ، بعد أن ألقى القبض عليهم ، فشنقوا على رؤوس الأشهاد .

ولم يكن هؤلاء هم الضحايا الوحيدون لجمال . بل ان جمالا الذي كان يلقب بالسفاح قد أخذ ينتقى آخرين على هواه . أو سمح لمروسيه أن ينتقوهم لمجرد الشبهة أو بناء على أسس موضوعية .

وأخذ يمارس سياسة اقتربت أكثر الافتراء من تدمير جميع السكان . لقد استدعى اليافع الذين هم دون سن الرشد الى القرعة العسكرية وقذف بهم الى الجيش . وأرسل آباءهم الى المنفى بعد أن جعلهم يتسازلون عن ممتلكاتهم الصغيرة . وبيعت بيوتهم على رؤوسهم من قبل السلطات العسكرية التي استأثرت بمعظم أثمانها . وقيل للملاك هذه البيوت والأراض العرب أو للفلاحين أصحابها الذين كانوا يرحلون عنها انهم سيعطون أراضى فى تركيا الآسيوية تعويضا عنها . لكن هذا كان ذريعة لنقلهم الى سيفاس أو أنقرة أو بعض البقاع الأسوأ منهما بدرجة كبيرة جدا ، حيث يتروكون تحت رحمة مصيرهم التعس . وفى بعض ولايات سورية أو ألويتها لم يترك عربى مسيحي واحد تقريبا ، لأن المسيحيين هم الذين انصب عليهم غضب جمال ، على الأخص .

وانخفض عدد السكان بما يقرب من الثلث . وفى دمشق والقدس كان البؤس مفرعا . وفى شوارع بيروت كان الناس يخرون مغشيا عليهم من شدة السغب (الجوع) .

وجذبت أحوال سورية ، حتى فى حماة لظى الحرب المستعمرة وأهوالها المروعة ، اهتمام الناس فى جميع أنحاء العالم . وحاولت الدول المحايدة أن نقتع الأتراك بالكف عن هذا الاضطهاد العام للسكان فلم تصب محاولاتها فى البداية نجاحا . بيد أن القسطنطينية سرعان ما استبد بها القلق من هذا الشعور الدولى الشامل الذى أخذ يتعاظم ضدها . وهكذا سمح للقاصد الرسولى فى القسطنطينية أن ينظم عملية لتوزيع مبالغ ضخمة من المال أرسلها البابا له لصالح المنكوبين . وحذت حذوه هيئات أخرى . وبواسطة المتعهد العالمى بتوزيع الصدقات - الولايات المتحدة - أرسلت ثلاث يواخر هى التينيسى ، و دى موان ، وشستر الى الموانئ المصرية واتجهت الى يافا فى الدرجة الأولى ووزعت أقوات الغوث هناك .

. ولقد قاسى اليهود فى فلسطين ما قاساه العرب ، فلاحق الدمار بعدد من مستعمراتهم ، وبخاصة ما كان منها قريبا من الحدود المصرية ومن محور الحرب . وسرقت الماشية وقطعت الأشجار . وأصدر جمال باشا (فى وقت لاحق أثناء الحرب) بيانا ضد الصهيونية ، ليس له ثمة باعث حقيقى . لأن قلة من يهود فلسطين آنذاك كانت تؤمن بالصهيونية السياسية . فلقد

جاء معظم هؤلاء اليهود الى فلسطين باعتبارها منشأ عقيدتهم الدينية فقط . ثم اتبع هذا البيان فيما بعد باصدار أمر يلزمهم به بالنزوح عن البلاد « بناء على ضرورات عسكرية » ، ولم يطبق هذا الأمر في القدس لكن نحو اثني عشر ألفا من اليهود قد طردوا من البلاد في حالة من الاملاق والبؤس الشديد . ونقلتهم بواخر الولايات المتحدة الى الاسكندرية . وقد كنت آنذاك في مصر . واني لاأذكر جيدا ذلك الرتل الطويل من العربات وهي تتقاطر عبر شوارع الاسكندرية مكتظة بالمهاجرين وامتعثهم البائسة في طريقها الى المخيمات التي أقيمت لهم في ضواحيها .

وأصبح عدد كبير من اليهود في فلسطين ؛ وكانوا رعايا لروسيا ، أعداء لتركيا تأصل في قلوبهم عداؤها . ولقد حصل أربعون ألفا منهم أو نحو ذلك ، على حقوق المواطنة (بفتح الطاء) التركية . وسجن أو طرد من البلاد نحو ثمانية آلاف رفضوا التجنس بها . فكان وضع هؤلاء وضعاً فائق الغرابة . لقد طردوا من روسيا بفعل سوء معاملة روسيا لهم وها هم الآن توقع بهم هذه المعاملة السيئة الجديدة لأنهم روس . انهم لم يهتموا في يوم من الأيام أبداً أدنى اهتمام بالعطف على موقف روسيا من هذه الحرب ، كما قد يتصور الانسان . وان حفنة واحدة فقط من بين هسذه العشرات الآلاف قد عملت على تقويض الحكم التركي بصورة أو بأخرى . ولقد قاست هذه الحفنة ما قاساه العرب . وهناك حالة أسرة عارونسون التي التحقت بخدمة مخابرات الحلفاء وكشف أمرها فانتحرت ابنة لها لكي تنجو من أشكال الانتقام التركي المألوفة .

ولقد قدمت عدة شخصيات يهودية تنتمي الى الهيئات اليهودية في فلسطين للمحاكمة في عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ بانهاقات ملفقة ، وأرغمت على مباحرة البلاد بعد فترات من الاعتقال . بيد أن السكان اليهود كان يتوفر لديهم نوع من الضمان من وجود مجموعات صهيونية في برلين والقسطنطينية، وفي نيويورك والعواصم الأخرى المحايدة . وقد استطاعت المستعمرات اليهودية عن طريق هذه المجموعات أن تستخدم دائما نفوذها لتحويل بين الأتراك وبين أن يمارسوا ضدها تلك المظالم الشنيعة التي كانوا يمارسونها ضد العرب . و « بهذه الطريقة » ، يقول التقرير الرسمي الصهيوني بصدد أحوال اليهود في فلسطين إبان الحرب ، « سنحت الفرصة المساعدة من الخارج في كل مناسبة من مناسبات الخطر السياسي أو الاقتصادي الخطرين . ولا يمكن ايضاح حقيقة أن فترة الحرب قد تركت اليشوب (أى المستعمرات اليهودية ككل) سليمة عمليا في فلسطين الا من خلال هذه الحماية التي قدمتها على هذا النحو المنظمة الصهيونية » .

وكان الهر بروده ، القنصل الألماني العام في القدس ، والجنرال كريس فون كريسنبشتاين رئيس البعثة العسكرية الألمانية لدى تركيا (والعفل المدير للهجوم على قناة السويس) وقنصل اسبانيا والولايات المتحدة ، وكالات حماية أخرى • « لقد تلقى الموظفون الرسميون الألمان خلال الحرب تعليمات من مكتب الخارجية (في برلين) ومن السفارة (الألمانية) وللبعثة العسكرية (الألمانية) في القسطنطينية بوجوب أن يؤيدوا المصالح الصهيونية • وكانت هذه التعليمات تطاع دوما من قبل هؤلاء الموظفين ، بغض النظر عما اذا كانوا كأفراد يعطفون أو لا يعطفون على الآمال اليهودية • » (التقرير المذكور آنفا - العرب)

هذه هي الظروف التي سادت ابتداء من عام ١٩١٤ حتى نهاية عام ١٩١٦ • وفي عام ١٩١٧ جعل خطر تقدم البريطانيين ، صبر جمال والآخرين ينفذ ، فأخذوا يبطشون بكل من هب ودب لأدنى شبهة ، وبدأ النفي بالجملة الى مصر •

بيد أن العرب وضعوا طبعاً في موقف مغاير • ان انضمامهم الى أعداء الأتراك قد أسبغ على معاناتهم صفة مغايرة • صحيح أن الكبت والقمع اللذين كانا يوقعان بهم قد كانا مرعبين في أسلوبهما ، وعلى نطاق غير حكيم ، حتى من وجهة نظر الأتراك • بيد أن معظمها من حيث المبدأ كان يتمشى والمنطق • انهم يشكلون خطراً مانلاً لا نسله المستعمرات اليهودية •

وكنتيجة عكسية ، أهلهم هذا الذي يقاسونه لعطف وشكران الدول المتحالفة • انهم يلاقون الموت على أعواد المسانق وفي المناسبي من أجل استقلالهم في الدرجة الأولى ، وفي سبيل بريطانيا وفرنسا أيضا ، المطالبين بكل معنى من معاني الشرف بأن تردا لهم جميلهم في ساعة الانتصار ، ناهيك عن الوفاء بما قد قطعتاه لجنسهم من عهود ووعد •

لقد قلت قبل قليل ان كبتهم وقمعهم كانا مرعبين في أسلوبهما • فلقد دأب جمال باشا على اقامة حفلات الاعدام فيدعو أصدقاءه الى حضور شفق من يدان بالهروب من الجيش وبالتخاير مع الحلفاء وما الى ذلك من أفعال • وكان عدد من هؤلاء الضحايا من أهل فلسطين • لقد أعدم اثني عشر شاباً معا وفي يوم واحد في القدس • وأعدم مفتي مدينة غزة ، أحمد عارف الحسيني الحسيني وابنه كلاهما • وهما ينتسبان الى العائلة نفسها التي ينتسب لها جمال بك الحسيني الذي جاء عدة مرات الى لندن كموفد من العرب ، والمنفي الآن من فلسطين مع من نفى من زعماء الشعب الآخرين •

وينتسب الى هذه العائلة أيضا مفتى القدس الأكبر الهارب المتجىء الى سورية (الفرنسية) .

كما أعدم كذلك شابا من العائلة العربية الفلسطينية الكبيرة الأخرى المنافسة لعائلة الحسيني ، وهي عائلة النشاشيبي . وكذلك أعدم سليم الأحمد العبد الهادي ، عم عوني بك عبد الهادي ؛ أحد الموقعين على معاهدة فرساي وأمين سر الملك فيصل ، والذي كان الى عهد قريب أحد المعتقلين في معتقل صرفند ، والذي نفى من فلسطين وحرم عليه دخولها . ولقد جاء النذير الى سليم العبد الهادي قبل أن يلقي الأتراك القبض عليه لكنه أبى أن يفر قائلا : « اذا فررت فسيصبون جام انتقامهم على عمي حافظ (باشا) ولا أريد له أن يهان وهو في هذه السن . لسوف أبقي هنا » . ثم أجرى حسابا دقيقا لكل شيء يملكه ووقع على سند مديونية قبل أن يذهب الى المنشقة بنصف ساعة وهو يقول : « ان يدي لا ترنجف . ولماذا ترنجف ؟ اني أموت فداء لبلادي » .

وفي فترات مختلفة حكم على كثيرين آخرين من قبل المحكمة العسكرية المركية بالموت . أذكر منهم عبد الحميد زهران (هارب) ، وشفيق بك المؤيد (زائر المسيو بومبار . حكم عليه بسبب علاقاته مع الخلفاء) ، وشكري بك العسلي (بسبب اتصاله بالمسيو اوتافي) ، وعبد الغني العريسي ، وسيف الدين الحبيب (لتوقيعه على بيان سري ينادي باستقلال العرب) ، ومحمود الحمصاني ، وصالح بك حيدر ، ورفيق رزق سلوم ، وعبد الوهاب الانجليزي (من أصل صليبي) ، وعينمو حميد ، وعارف الشهاب (لدعوته للثورة بين قبائل الصحراء) ، وعبد الكريم الحبيب ، والشيخ أحمد الطيراق ، وعلى أفندي الأرمنازي ، وحافظ بك السعيد (من يافا ، ومحمود الأضم ، ونايف أفندي تيللو ، ومحمد مسلم بن عابدين ، وسعيد أفندي الكرهي ، وسليم بك الجزيري (من « العربية الفتاة ») ، وأمين لطفي بك (لمحاولة نشر العصيان والتمرد بين زملائه الضباط) ، وعبد القادر الخرساء ، ورشدي الشماع ، ومحمد الشملي ، وجورج حداد (من الجمعية اللبنانية المسيحية) ، وسعيد عقل ، وبثرو بولي . لقد أعدم هؤلاء وفي وسعي أن أضيف أسماء كثيرة أخرى الى هذه القافلة .

كما حكم بالاعدام غيايبا على حقي بك العاصي ، والشيخ رشيد رضا ، وفارس نمر (الدكتور فارس نمر صاحب جريدة المقطم التي تصدر في القاهرة ، والتي تدين لها بريطانيا بالكثير لما أسدته لها خلال السنوات

الكثيرة التي سبقت وأعقبت الحرب) وعلى خمسين آخرين ، طبقا للاجراءات
القانونية التركية . ولقد جاء في نص حكم المحكمة ما يلي :

لقد تأمر هؤلاء الأشخاص على سلب البلاد العربية عن الحكم
العثماني ، وعلى أن يجعلوها تقع في قبضة الاحتلال العسكري
البريطاني ، تم تخليق إنجلترا فيها بعدئذ خلافة عربية ملحقة
بمصر . كما قاموا أيضا بدور نشط في جميع الصفقات التحضيرية
للعصيان . لقد حضروا للعصيان وأسهموا في تنظيمه بدور .
وجميعهم هاربون .

كما نفى ثلاثمائة من أعيان فلسطين الى آسيا الصغرى والى المجاعة
التي تترتب على هذا النفي .

وفي غمرة هذا الحكم الرهيب عاد الامير فيصل الى دمشق . لقد عاد
طاهريا ليستأنف الفيام بدوره كضابط في الجيش التركي . أما في الحقيقة
فقد عاد ليضم جهوده الى جهود الجمعيات السرية السورية ، ولكي يجعل
العمل في سورية يتواءم مع الثورة التي حانت ساعتها في الحجاز ، لكنه
اكتشف أن جميع الفرق العسكرية العربية قد رحلت عن سورية لدرجة أن
هذا البلد قد بات في قبضة جمال . فأرسل رسائل الى أبيه في الحجاز
ينصحه فيها بالتريث الى أن يصبح في الامكان ترتيب شيء في الشمال
يتضافر مع خطته .

ومع ذلك فقد تحتم عليه الآن أن يفاسي الكثير من المتاعب والآلام .
لقد جعل جمال من عملية دعوته لحضور تنفيذ أحكام الاعدام معنى خاصا .
وكان هذا التنفيذ يتم على نحو مفزع مذهل رهيب . ولقد قال شاهد عيان
يصف هذه الضحايا : « انهم لا يشنقون بالضبط ، وانما يعلقون من أعناقهم
على هيكل من الخشب مرتكزة أخامص أقدامهم على مقعد » فكانوا في نوبات
تنسجهم يوقعون المقعد ويتأرجحون ببطء . وكان يتحتم على فيصل أن يظل
يشهد هذا المنظر المروع ويتصنع اللامبالاة . فكان جمال ينظر اليه من
طرف عينيه بين الفينة والفينة ويعلق على المشهد تعليقات ماحنة . لقد
كان يرتاب في فيصل ولكنه لا يستطيع أن يبرهن على أن له علاقة
بهذه الجمعيات التي ينتمى اليها هؤلاء الذين يشربون كأس الموت في
حضوره .

وفي احدى هذه المناسبات الكثيرة البغيضة ؛ ولا أظن أن فيصل قد
شهدها ، أعدم اثنا عشر شابا مرة واحدة . وكان أبرز هؤلاء محام شاب
- نال رخصة المحاماة في باريس وترافع في محاكمها - وهو من أنسباء

أسرة عبد الهادي ، ويدعى محمود المحمصاني • ولقد نصبت المشنقة في أحد ميادين بيروت • وكان نظام حكم الشبان الأتراك قد أعاد تسمية هذا الميدان من جديد فسماه ويا للسخرية « ميدان الحرية » ! وخارج النطاق الذي كان الجنود يضربونه حول الميدان ، كان الشعب يقف ويرقب في صمت • وحين استدار الجلاذ في اللحظة الأخيرة الى المحمصاني وسأله ان كان لديه رغبة أخيرة يود أن تجاب ، طلب هذا الأخير أن يتحدث للشعب وصرخ بأعلى صوته موجهها كلامه للشعب الواقف في الميدان بأنه مذنب : « انني مذنب » ، قال : « ان كان في تعشق الحرية وفي الرغبة في أن أحرر بلادى جرم • لقد رغبت في أن أحررها ، واني - وأنا أبعد ما أكون عن التندم على أى شيء فعلته لكى أكسب الحرية لها - لفخور بأن أكون أول ضحية في سبيلها • ان مما لا نطقه نحن العرب - الذين نبتنا من واحدة من أعرق الحضارات التى عرفها العالم حتى اليوم - التفكير فى الاحوال المزرية التى وضعتنا فيها قطعان الأناضول البربرية • لقد ضيقنا ذرعاً بنير الأتراك الوضع • » •

ولطم الجلاذ الشاب العربى على فمه لكمة جعلت فمه يتدفق دما بيد انه واصل صيحته : « لقد تخلصنا من عبوديتكم ، وعبنا تغتالونا • وان القضية التى نسعى من أجلها ستخلد ذكرنا • ان ساعة الخلاص آتية • فليستقط الأتراك ! وليحيا العرب ! ولتعش فرنسا صديقة للعرب ! » وظل يصرخ ويجاهد حتى قلب الجلاذ المقعد من تحت قدميه وأطبق بيديه على عنق الضحية بكل ما أوتي من قوة • وشرب الأحد عشر الباقون كنوس حتفهم الواحد تلو الآخر ، اما بهدوء واما بصراخ وبهتاف باستقلال جنسهم وبأسماء الدول التى تمد لهم يد المساعدة كما فعل المحمصاني •

فماذا كان يمكن أن يدور بأذهان هؤلاء الرجال ، وهم يجودون بأرواحهم في سبيل بلادهم ، وفي سبيل قضية الحلفاء المرتبطة بقضية بلادهم ، والذين لم ينسوا أن يحيوا الحلفاء في لحظاتهم الأخيرة : ماذا كان يمكن أن يدور بأذهان هؤلاء لو أنهم عرفوا كيف سيعاملهم هؤلاء الحلفاء في النهاية • وليس هذا بالموضوع الذى نتوقف عنده الآن •

ولا يكاد أحد ممن لاقوا حتفهم في حضور فيصل يجهل علاقة فيصل بالحركة العصبانية التى ينتمون اليها ، لكن أحدا منهم لم يخنه أبدا • ولقد كان ثلث سوروية على الأقل - وحسب التقديرات - مرتبطا بالجمعيات السرية، ومع ذلك فلم يقدر ولو لرجل واحد بينهم أن يكون على استعداد لأن يشتري حياته وحرسته أو حياة وحرية أبيه أو ابنه أو أخيه بخيانة الأمير •

لا . ولو رجل واحد ، برغم أن عشرينات من الرجال قد شنت بصورة
بربرية ، وبرغم أن آلاف مؤلفة قد ماتت بفعل المجاعة وسوء المعاملة .

وليس يعجزنا أن نتصور ما هي مشاعر فيصل وهو يشهد هذه
الاستعراضات الرهيبة . ومع ذلك فإن ملامحه لم تضطرب . ويسجل
لورانس أنه لم ينفجر الا مرة واحدة و « صرخ قائلا ان هذه الاعدامات
سنكلف جمالا كل ما يحاول أن يتفاداه . وتطلب الأمر تدخل أصدقائه في
الفسطينية ؛ الذين هم من أهم رجالات تركيا ، لكي ينقذوه من هذه
الكلمات المنهورة . » وكان جمال قد هدده في إحدى نوبات زهوه اما بالاعدام
أو بالنفى .

أما فيما يهم القائد التركي فلقد أصبح فيصل الآن رهينة . بيد أن
فيصلا لا بد ان كان قد لعب لعبته بمهارة فائقة فاحتفظ بطريقة ما بأصدقائه
في الفسطينية الذين أنقذوه من جمال . زد على ذلك أن جمالا لم يكن
على يقين من موقف فيصل الحقيقي . انه لم يكن يخامره أدنى بؤس في
الخلاص فيصل لتركيا . ولكنه ظن أن مما يتفق وسياسة الحجاز في ذلك
الحين الابقاء على رباطه بتركيا كأمر تفرضه الضرورة . وكان مما يلائم
سياسة تركيا في الوقت عينه ، وللأسباب نفسها ، الابقاء على ارتباط
الحجاز بها . فكان أن تعلق سلامة فيصل بهذا الحيط الواهي .

بيد أن عزيمة فيصل لم تهن . وواصل الاتصال ببقية المنظمات
السرية العربية . ولو أن الرأس المدبر لهذه الجمعيات كان في الحجاز آنذاك
أكثر من كونه في سورية ذاتها . لقد هرب الى هناك عدد كبير من زعماء
العرب ، وأخذوا يتشاورون مع الشريف في مكة أو في جدة . كما واصل
فيصل مراسلاته النديرية مع والده عن طريق « موالى الأسرة الطاعنين في
السن ، الذين هم فوق مستوى الشبهات ، والذين كانوا يغدون ويروحون
على طريق سكة حديد الحجاز ، يحملون الرسائل في أجربة السيوف ، أو
مخيلة في كعوب نعالهم ، أو مكتوبة كتابة سرية لا ترى ، على علب من
الورق المقوى لا تثير الشبهة . » (عن لورانس) .

وأبرق الحسين الى جمال بلهجة جريئة فقال : « يجب أن تكف عن
اضطهاد العرب . وينبغي عليك أن تصدر عفوا عاما في سورية وفي بلاد
الرافدين . » والذي جعله يجرؤ على ارسال هذه البرقية وبمثل هذه
العبارات ، هو أنه كان قد شكل في ذلك الحين وحدة عسكرية أخرى ؛ فرقة
من الهجاة ، ليدعم بها حسب زعمه ، الجيش التركي حين يعاود غزو مصر .

وكانت لهذه الرسالة البرقية نغمة نصيحة تصدر عن حليف أصيل . بيد أن فرقة الهجانة هذه لم تذهب الى ما هو أبعد من المدينة . والحقيقة هي أنه قد قصد لها أن تكون نواة للقوة التي كان يتوهم بها الهجوم على الأتراك . وكان الحسين على أي حال يحترق حكام تركيا الجدد . فلقد قال لأنور في وجهه ذات مرة انه « شاب جاهل » .

ومن دمشق صدرت لفیصل نصائح بتوخي المزيد من التأني . كما جاءت من مصر نصيحة مماثلة . فلقد كانت الأسلحة والذخائر ترسل الى الحسين عن طريق السير ريجنالد ونجيت حاكم السودان وكان في هذا العمل نوع من البطء . و « كان السير هنري مكماهون لا يكف عن الالحاح على الشريف بتأخير الشروع في عملياته العسكرية الى أن ينيسر تجهيزه بالسلاح تجهيزا كاملا للقيام بمهمته » (عن التاريخ الرسمي للحرب) .

الا أن قرار الحسين كان قد قرر ، فأرسل الى فیصل أمرا بالمجيء الى الحجاز بحجة وضع القرتيبات النهائية لارسال فرقة الهجانة الى الميدان ، والقيام بتفقدتها قبل ارسالها . فطلب فیصل الاذن من جمال بالذهاب لهذا الغرض لكن « السفاح » لم تنطل عليه الحيلة تماما . ولا بد أن نظرة ساخرة ملأت وجهه العريض حين أجاب على فیصل فقال : « سأرافقك بنفسي وسيكون القائد الأعلى أنور معنا وسيستعرض فرقته » .

وأيا كانت الشكوك التي كانت نساور فیصلا حتى ذلك الحين، فانه أدرك أن ساعة الثورة قد دنت . ولم يكن مرد ذلك الى أن الفرصة قد باتت مواتية جدا ، ولكن لأنه قد بات من المؤكد أن أنور وجمالا سيتخذان ، بعد أن يريا الأمور في الحجاز بعينيهما ، كافة الاجراءات الكفيلة بمنع أية فرصة في الثورة من السنوح هناك أبدا .

وهكذا ذهب الباشوات وفیصل الى الحجاز معا . واتخذ التفقد الموعد مجراه . وان أكر فقرات كتاب لورانس أعمدة الحكمة السبعة العظيم امناعا هي التي تصف ما أعقب ذلك .

« وفي النهاية سارت الأمور على ما يرام ، وان كانت سخرية العرض مفزعة » . كان أنور وجمال وفیصل (يرقبون) معا الأفواج وهي تكسر وتفر وتقبل وتدبر وتستدير في السهل المترب خارج بوابة المدينة ، طاردة مطاردة في معركة صورية من معارك الهجانة ، أو تهمن جيادها سحا وصخبها على الطريقة العربية من غابر الأزمان . فتساءل أنور وهو يلتفت الى فیصل : « وهل اولاء جميعا متطوعون للحرب المقدسة ؟ » « نعم » قال فیصل :

« وهل هم على أتم استعداد لأن يحاربوا حتى آخر قطرة من دم أعسداء المؤمنين ؟ » « نعم » ، قال فيصل مرة أخرى . ثم جاء كبار العرب ليقدموا اليهما . فانتحه به الشريف علي بن حسين ، من مذحج ، جانباً وهمس له : « هل نقتلهما الآن يا مولاي ؟ » فما كان من فيصل إلا أن قال : « لا . انهما ضيقانا » .

لقد ندر حتى أن يرى الشرق مثل هذا السمو الخلقى في التكايد الذي قرأناه هنا . ان كل كلمة خرجت من شفتي أنور أو من شفتي فيصل كان لها معنيان ، معناها الظاهر ومعناها المستبطن . فكنا اذا هما يتحادثان يلعب كل منهما بوساوس الآخر .

« وأمعن الشيوخ في الاستنكار لانهم كانوا يعتفدون انهم يستطيعون أن ينهوا الحرب بضربتين . وكانوا مصممين على أن يغلبوا فيصل على أمره ، فتحتم عليه أن يسير بينهم ، بعيداً عن مرمى السمع ولكن بحيث تقع عليه كل عين ، تتوسل اليهم أن يبقوا على حياة الدكتاتورين التركيين اللذين اغتالا أخلص أصدقائه على أعواد المشائق . ونحتم عليه أخيراً أن ينتحل الأعذار وأن يعود بضيوفه الى المدينة على عجل ، وأن يقيم حرساً على قاعة الاستقبال بعبيده الخصوصيين ، وأن يرافق أنور وجمالاً في طريق عودتهما الى دمشق ليجنبهما الموت في الطريق . وقد علل هذه الحفاوة المتكلفة الساقطة بحقيقة أن من شيمة العربي التضحية بكل شيء للضيوف . لكن أنور وجمالاً ، وقد ارتابا أسد الارتياح مما ساهده ، ففرضا على الحجاز حصاراً شديداً وأمرأ بارسال تعزيزات كبيرة الى هناك . » .

ان تونر هذا المسهد لهو من الشدة بحيث يجعلك تتخيل أن روح فيصل لابد وأنها قد أصبحت هشة وتحطمت . لكنه ظل طوال الطريق الى دمشق يبسم وبهتس ويبس للصدقيين اللذين يبعثهما ؛ المعدوين اللذين يتسنى لو يقتلهما . وركز كل اهتمامه على حماية هذين الحاكمين اللذين وطن كل همه على تدمير حكمهما ، حتى أصبحت دمشق على مرمى النظر . وهاهو الآن أصبح بدوره في الشرق لكن والده قام بدوره على خير وجه . فطلب الحسين عودة فيصل . لقد كتب اليهما بضرورة أن يكون لديه حتى يسوس القبائل التي لا تبدو غير ثابتة في ولائهما ، والتي كانت مقلقة وتتجمع بصورة لا تبسر بخير .

وعن غير طيب خاطر وتردد ، ترك جمالاً فيصلاً يعود . وها هنا امعان آخر في التكايد . لقد اعتمد جمال على كبح فيصل لجراح القبائل ، ابتغاء للنزول من جانبه ؛ اعتمد على تأخيره الى حين ، لحظة من الزمن سيتكفل هو

(جمال) باتخاذ كافة التدابير لكي لا تحين هذه اللحظة أبدا . وهكذا كر فيصل عائدا الى عشيرته ، على أن يبقى جمال حاشيته كرهينة في دمشق .

ووصل فيصل الى مكة في غرة حزيران . « وبعد ذلك بأربعة أيام امتطت حاشيته خيولها وأوغلت شرقى دمشق في الصحراء وأطنبت على شيخ إحدى القبائل البدوية . » وكان هربها هربا موفوتا سبق تدبيره . وفي الخامس من حزيران عينه رفع فيصل العلم العربي فانضمت أمة أخرى الى الحلفاء . « وراح في دنيا الأحلام أقل الألمان في التعاون مع الاسلام في تنفيذ خطط القيصر العالمية . » هكذا يقول لورانس .

وفي مصر بوغت الذين ينعاملون مع العرب بوغت نصفهم بسبب نصائح الأناة التي أرسلت من هناك ، وبوغت النصف من جراء الإبطاءات التي نجمت عن مركز فيصل الغريب . ان أحدا لم يكن قد تصور قيام هذا العمل بهذه السرعة . وقد صعق المكتب العربي في القاهرة من رسالة مفاجئة جاءت من زورق من زوارق الدورية في البحر الأحمر . وقد نقل هذا الزورق الحربي هذه الرسالة بأسلوب الشريف نفسه فقال ان « ساعته قد باتت دائية . » ولقد طلب أن يرسل اليه بعض الممثلين الانجليز ليقابلوا الأمير عبد الله . وكان الملتقى « شاطئنا صحراويا يقع الى الجنوب من جدة . » وهو بقعة تعرف بخليج النسيخ ممجة . وكان الكوماندور هوجارت ، الذي يقص علينا هذه الرواية ، أحد الذين خفوا الى هناك في طراد . فوجدوا بدلا من عبد الله أخاه الشاب زيدا ، الذي أخبرهم أن عبد الله لم يتسن له الحضور لأنه خرج لينهض القبائل التي كان قد أحضرها للثورة منذ أشهر . وعبد الله هو المسئول عن حالة القلقلة لدى هذه القبائل وعن « تجمعها الذي لا يبشر بخير » . وهو السبب الذي تذرع به الحسين لطلب عودة فيصل . لقد تفتق ذهن الشريف عن حيلة بارعة من السخرية ، فلعب بها على جمال لعبة تخلو من كل متعة . أما على أصغر أبنائه فقد كان وفيصل نفسه بطبقان على المدينة . وكانت الثورة قد شبت منذ ثلاثة أيام وخرج الشريف الى الردهة من محل اقامته وفي يده بندقية ، وأطلق بنفسه رصاصة البدء فيها .

واذن فقد بدأت الثورة جزافا الى حد ما . لكنها كانت في وقتها . اذ أن فيصلا قد رأى قبل أن يعود الى بلده تلك الاستعدادات التي كانت تجري من أجل ارسال تعزيزات عسكرية الى الحجاز . وكانت هذه التعزيزات تتألف من قوة قوامها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل بقيادة

خيرى بك . ومما زاد في قوتها وجود فصائل ألمانية فيها واخصائيون ألمان من مختلف الأنواع . وقد تقرر لهذه القوة أن تزحف على مكة وتخضع العرب بعد أن تنزل من القطارات في المدينة حيث تنتظرها هيئة أركان وسرايا من كافة قطاعات الخدمة في الجيش التركي . وعلم فيصل بكل هذا عن طريق أعوان للجمعيات السرية العربية في الجيش التركي .

وكان بين هؤلاء الألمان عملاء منوطة بهم مهام سياسية . إذ لم يكن الاستيلاء على الحجاز الا خطوة تمهيدية لشن حملة حرب دعائية كبيرة ، ورشوة ، وتسرب من الأبواب الخلفية ، في المناطق البريطانية التي تمتد حول الخليج الفارسي والتي هي بوابات الهند . وكان رئيس هؤلاء العملاء الألمان رائدا يدعى فون شتوتزنجن وهو رجل قدير احتل مكانة من التاريخ لم تكن رفيعة به بسبب خطاب توصية كان يحمله . وهذا الخطاب من عاتله ألمانية ذات نفوذ ؛ من كوئتيس تدعى فون شليفن ، تسير فيه فقرة الاطراء بهذا الرجل على هذا النحو : « انه لا يقحم شخصيته على الغير ، وليست فيه تلك الصفات التي تجعل من الألماني شخصا ممقوتا في أغلب الأحيان في الأجزاء الأجنبية من العالم » .

وطبقا لما يوضحه لنا الكابتن (النقيب) ليدل هارت (الذي استند الى تسجيله لهذه الأحداث بكل امتنان واعتراف بالفضل من جانبى) فان هذه القوات التركية الألمانية لو تمكنت من الاستيلاء على الحجاز فتغلغت الى الجنوب التعزيزات التي جاءت بها ، لكان معنى ذلك بكل بساطة سقوط عدن حيث كانت حاميتها صغيرة . وكانت قواتنا المحلية هناك قد أرغمت على التراجع الى داخل هذه المدينة من الأراضي الواقعة الى داخل البر منها ، وحوصرت هناك من قبل فرقة تركية . ثم فكت قوة من المتطوعين الهنود هذا الحصار عنها في الشهر التالي ، لكننا بقينا في موقف الدفاع في عدن منذئذ فصاعدا . ولو تم احتلال هذا المكان قبل وصول الهنود لتحتم علينا أن نرسل اليه حملة عسكرية لاعادة فتحه فتضيف بذلك متاعب الى متاعبنا الكثيرة وقلقا الى قلقنا الذي كان شديدا في ذلك الحين ، ولكانت دعاية شتوتزنجن ، التي كانت تسير في الجزيرة العربية سير جيش عرمرم ، عرت جناحي مصر . ويقول ليدل هارت ان درء هذا الخطر « لم يكن أهون الخدمات التي أسدتها الثورة العربية الى بريطانيا » .

ولذا ينبغي على المرء أن يذكر الخامس من حزيران من عام ١٩١٦ باعتبارها التاريخ الذي سددت فيه ضربة عظيمة لصالح قضية بريطانيا العظمى وحلفائها . وأن العرب أنفسهم هم الذين ضربوا هذه الضربة ،

وأنهم قد بدءوا منذ ذلك اليوم ينفذون نصيبهم من المعاهدة التي دخلوا فيها طرفا مع بريطانيا . لقد بدءوا بداية كريمة جريئة شجاعة . والحق أنها بداية منهورة اذا أخذت من زاوية حساب التجهيزات الحربية لوحدها . اذ كان لدى فيصل واخوته ما يقرب من خمسين ألف رجل تحت امرتهم ولكنك لم تكن تجد بين كل خمسة محاربين أكثر من بندقية واحدة بندقية واحدة قديمة لا أكثر ولا أقل . ولم تكن لديهم مدفعية ولا بنادق سريعة الطلقات .

وكان لدى الأتراك عدد من الرجال في الحجاز أقل . كان لديهم خمسة عشر ألفا من الجنود . لكنهم كانوا على درجة حسنة من التنظيم العسكري والتأسيس العسكري . وكانت نسندهم المدفعية ؛ سواء مدفعية الميدان أو المدفعية الخفيفة ، وكان لديهم سلاح كامل من البنادق السريعة الطلقات .

وكان الأتراك لحسن الخط موزعين على عدة حاميات ، فأخذهم هجوم السريف المفاجيء على حين غرة ، فطردهم من مدينة مكة في بحر أسبوع . ولعب القذف بالفنابل من البحر والجو دورا كبيرا في سقوط جسد في السادس عشر منه . وسلمت الحامية التركية التي كانت تتألف من ألف وأربعمائة رجل . وفي بحر ذلك الشهر عند الاستيلاء على رابغ وينبع ؛ وينبع هذه ميناء المدينة . وبادر السير ريجنالد ونجيت بارسال طاقم مدفعية جبلية مع ست بنادق سريعة الطلقات الى الشريف توا وبواسطة السفن . وكان على هذين الطاقمين جماعتان من الجنود المصريين تحت امرة ضباط مسلمين . كما جاءوا كذلك بثلاثة آلاف بندقية ، من نوع أو من آخر ، ومعها كثير من الذخيرة .

وبالرغم من أن هذه الانتفاضة قد تناقلت أخبارها الصحف في انجلترا الا أن أدنى اشارة الى أنها نتيجة لنحالف لم تجر على لسان أحد على الاطلاق . ولقد قيل ان وحدات بريطانية بحرية قد قصفت بنيرانها الحامية الأتراك في جدة ، ومراكز عسكرية أخرى لكن هذا الأمر الكبير قد أمكن عزوه الى المناوشات الطبيعية مع الأتراك . أما عن السفن المحملة بالأغذية التي أرسلناها الى مدن الاسلام المقدسة فقد قيل انها مجرد دليل على الصداقة .

وقد نشرت جريدة التايمز أخبار هذه الانتفاضة بعد سبعة عشر يوما من قيامها ، وكرست افتتاحيتها لها . وها هي تعترف الآن بأن « حركة الاستقلال العربية قد بلغت أوجها ، » وتخص بالمديح النبريق الأكبر وأولاده . ثم بعد عشرة أيام أو نحوها أخذت التفاصيل عن هذه الانتفاضة

تقل . وكانت وسائل المواصلات فى ذلك الحين صعبة ، وكانت الرقابة على الصحف شيئاً سهلاً .

وحتى حين اتسعت شهرة لورانس ، أبقت الجهات الرسمية تفاصيل ثورة العرب ، التى طبقت الآفاق ، فى نطاق من الكتمان يدعو الى التعجب . ومر ما يزيد عن عام على انتهاء الحرب قبل أن تنتشر الرسائل المتعلقة بعمليات الحجاز . كما قدر لماثر لورانس الشخصية أن تضيف على الحرب التى اضطلع بها العرب جواً من المغامرة كاذباً فطغى هذا الجو فى بلادنا على ما يمكن أن تسمى بالحقائق القانونية لهذه الحرب؛ وبخاصة على حساب الديون والمدفوعات بين بريطانيا والعرب ، ذلك الحساب الذى لا سبيل الى انكاره بماذا تدين بريطانيا للعرب وماذا قدمت لهم وفاء له ؟

وهذا هو السبب فى اطلالى الشرح ، الى حصد ما ، عن كيفية بدء الثورة العربية . وسوف أفصل فى مكان لاحق من هذا الكتاب كيف انتهت . ويجب أن نؤكد هنا أن هذه الثورة لم تكن من عام ١٩١٦ وحسب عام ١٩١٨ قطعة من الموسيقى المتسار بأى حال من الأحوال ؛ لم تكن شيئاً يشبه وقع حوافر جياد وصيفات أودبن (١) بسر فى موكب عسكري الى ميدان القتال ، ويسمع خارج مسرح الحرب « بعيداً » . بل هى على العكس من ذلك تماماً . لقد كان ذلك الجزء من العمليات الحربية للدول المتحالفة الذى تم التعاقد عليه بوضوح لا يقبل المغالطة ، وطور بصورة نزيهة شريفة وتنوع بالنجاح بكل معنى من معانيه ، اللهم الا بالوفاء الكامل به من قبل أولئك الذين تعاقدوا عليه . . . الوفاء الشريف ! أما أين كان هذا النهب من الوفاء من قبل هؤلاء الشركاء المستبدين الأقوياء الحائذين فكان فى سورية (سورية كلها بما فيها فلسطين - المغرب) . ولقد اعترف الفرنسيون أخيراً وفى عام ١٩٣٦ بدينهم هذا فى المعاهدة السورية الفرنسية وحين يتم التصديق على هذه يكون الفرنسيون قد وفوا العرب حفيهم فى جزئهم من هذا البلد . . . ولقد وفينا نحن بجزء من ديننا هذا فى العراق ، لكننا مازلنا نستمر فى الحنث به فى فلسطين .

وحين كان فيصل ينسل من دمشق ليجازف بكل ما فى يديه فى ميدان القتال ، قمنا نحن ، ان أردنا الصديق ، بأولى التحضيرات فى انكلترا للحنث

(١) اسطورة ترويجية تقول ان ملكاً اسمه اودبن كان يخرج وصيفاته الى ساحة القتال لينتقين من يضعى بهم من جيوشه فى ساحتها وكان يسن فى موكب عسكري - المغرب .

بهذا العهد . اذ كانت مفاوضات السير مارثيس سايكس والمسيو جورج بيكو قد انتهت وتم ابرام الاتفاقات ، التي توصلنا اليها ، من قبل حكومتيهما في آيار من عام ١٩١٦ . ولما كانت لهذه الاتفاقات صفة المعاهدة الدولية فقد سميت بـ « معاهدة سايكس وبيكو » .

وكانت هذه المعاهدة مخططا منمقا وضعت فيه مساحات كبيرة من آسيا تحت حروف ابجدية وصيغت بعدة ألوان . فكانت جميع أراضي تركيا التي لم تقهر بعد أن قد جزئت الى خمس مناطق . فكان لكل من فرنسا وبريطانيا العظمى منطقة ادارة ومنطقة نفوذ ، ثم تكون هناك بعد ذلك منطقة دولية مطابقة لفلسطين تقريبا : أما الدولة العربية في سورية فقد قدر لها ، ويا للسخرية ! ، أن تتألف من منطقتي النفوذ البريطاني والفرنسية . أو بمعنى آخر ستنشأ دولة أهلية بدمشق كعاصمة لها على مثلث من البلاد يقع بين المنطقتين اللتين ستحكمهما فرنسا وبريطانيا حكما مباشرا ، وتكون هذه الدولة تحت حكم حاكم غربي . لكن الجزء الشمالي منها سيكون تحت النفوذ الفرنسي وتقدم فرنسا وحدها له المستشارين أو الموظفين الاجانب ، وتكون لها الأولوية في المؤسسات وفي القروض . أما الجزء الجنوبي فيكون تحت نفوذ بريطانيا وتكون صفة هذا النفوذ ماثلة لنفوذ الفرنسيين .

وان من الصعب على الانسان أن يتصور شيئا أكثر شللا من هذه الدولة « العربية » . ولا بد أن تصميمها الخيالي المضحك قد خطر لواعينه في نهاية غداء ، من أحد أطباق القشدة النابوليتانية (١) المثلجة حيث توضع مناطق نفوذ الفانيليا والفراولة على الحلوى المستقلة !

وجريا على هذا النسق من الأفكار لونت المنطقة الخامسة بلون الشيكولاته . وهذه المنطقة هي منطقة فلسطين « الدولية » حيث « ستنشأ ادارة دولية يتقرر شكلها بعد التشاور مع روسيا ، ومن ثم بالاتفاق مع الحلفاء الآخرين ، ومع ممثلي شريف مكة » . وقد أعطت المنطقتان الاداريتان كليهما ، وشطرا كبيرا من الأناضول الأوسط وساحل شمالي سورية الى فرنسا ، بينما أعطت لبريطانيا أراضي الرافدين وميناءي حيفا وعكا من سورية .

وكانت معاهدة سايكس وبيكو هذه ، التي قدر لها فيما بعد أن تعدل

(١) نسة الى مدينة نابولي .

وتعدل وأن تشكل أساس معاهدة سيقر المجهضة ، كانت لا تتفق طبعاً مع
عهودنا للعرب الأسبق منها ، ولو بأي حال من الأحوال .

ولقد جعلت هذه المعاهدة الجديدة من الدولة العربية السورية هزءاً
فكتبت على فلسطين أن تبتز من أراضيها . وانتزعت من الشريف ما قد
أعطى له . والأدهى من ذلك أنها فعلت هذا سرا ، ودون أن تشير إليه
أدنى إشارة ، حين كان ابنائهم ورجال قبائله ، في تلك اللحظة بعينها ،
قد بدءوا معركتهم وفاء بكلمته . ومن ثم فإن معاهدة سايكس وبيكو صحيفة
ليس لها ، وأيم الحق ، مكان من الكرامة والشرف بين صحائف بريطانيا
القومية .

وهي وإن كانت خربة الذمة بالمفهوم العام ، فإنها تملك في الوقت
عينه فعلاً نقطة تحفظ عليها ماء وجهها . إنها ليست غادرة وزائفة غدر
وزيف تصريح بلفور الذي جاء بعدها . فلقد حصلت من الفرنسيين على
الاعتراف بمبدأ استقلال العرب . وكانت فرنسا قد حرنت هنا ، وأبت
الاعتراف بهذا الاستقلال مهما اتصف بصفت الحماية الفرنسية أو
البريطانية . وها هي فرنسا تمنح موافقتها لهذا المبدأ . ولقد ساهمت
فعلاً ، وبعد المداولات المتراخية ، في انجاح الثورة العربية من خلال معونة
النقيب بيزني الشجاع ورجاله البواسل ، على وجه التخصص . وقد جاءت
شروط هذا التأييد الفرنسي في وثيقة وقعت في آيار أيضاً من قبل السير
ادوارد جراي والمسيو كامبو (Cambon) السفير الفرنسي في لندن ، وأعلن
فيها أن حكومتيهما قد « قبلتا بمحض إرادتهما أن تعترفا بدولة عربية
مستقلة أو اتحاد كونيديرالي لدول عربية مستقلة تحت حكم أحد الرؤساء
العرب ، وأن تحميا هذه الدولة أو هذا الاتحاد . » وخط التشديد من
وضعي أنا . وكنا قبل أربعة أشهر قد اعترفنا باستقلال العرب في جميع
الأراضي التي يسكنها العرب .

ولقد تجوهر هذا في وثيقة سايكس وبيكو . أي أن المادة النائية
من هذه المعاهدة قد أشارت إلى وجوب استئناف المفاوضات مع العرب في
حين أنها كانت قد بلغت منتهاها منذ زمن . وأما إن كانت هذه المادة الغريبة
قد اعتبرت أن هناك ما يبرر وجودها بسبب الشرط الذي علقه الشريف
على معاهدته من أنه سيمترك المطالب الفرنسية جانباً على أن يتم الاتفاق
بصددها بعد أن تضع الحرب أوزارها ، فذلك مالا يتضح هنا . أما فيما
يخص بريطانيا فإن هذه المفاوضات مع العرب قد انتهت ، وإن الاعتراف

« بدولة عربية مستقلة أو باتحاد كونفيدرالى لدول عربية مستقلة » قد سبق التسليم به وبصورة لا سبيل الى الجدل فيها .

وعلى أى حال ، هناك نقطة أخرى فى هذه المعاهدة تحفظ عليها ماء وجهها . اذ يخيل لى أنها تبين بالرغم من ذلك الحديث عن استئناس المحادثات ، أن هناك شخصا ما له يد فى هذه المعاهدة ، كان يدرك الموقف الحقيقى بين مكة وبريطانيا العظمى . وهذه النقطة لم يعرها أحد انتباها ، وان كانت تستحق قدرا كبيرا منه . لقد تضمنت المعاهدة بحفظا بقضى باستشارة وأخذ رأى الشريف غداة تقرير شكل الادارة الدولية فى فلسطين نهائيا .

وقد يكون هذا الاستراط وجد طريقه الى هذه المعاهدة ليرضى حسن نية السير مارك سايكس تجاه العرب ، المعروفة عنه . وليس الذنب ذنبه أن جاءت هذه المعاهدة باترة لاستقلالهم .

لقد كانت الخطوط التى رسمت له تسير فى اتجاه الالتقاء مع مطالب الفرنسيين فقط ، ووافق بموجبها على أن تضم الموصل فى احدى منطقتيهما . وفى هذا دليل أكيد ، على أنه كان على علم تام بمعاهدة الحسين ومكماهون ، وقد أمر بأن يفض الطرف عنها اذ أن منطقة بلاد الرافدين قد احتفظ بها فى هذه المعاهدة للنفوذ البريطانى ، وما كان من الممكن استبدال هذا النفوذ البريطانى بالنفوذ الفرنسى بدون الحصول على موافقة الشريف ، وهو الطرف الآخر فى هذه الصفقة ، اذا أرادت بريطانيا أن تكون وفية بعهودها .

اما ان كان يعلم بنصوص هذه المعاهدة العربية الانجليزية أو أمر بالتفاوض عنها فقد كان ذلك دورا بائسا بالنسبة لسايكس المسكين . اذ كانت مكافآته الوحيدة هى أن ينحى عليه المستر لويد جورج باللائمة فيما بعد . فلقد ردد هذا فى مؤتمر الصلح ظالما السير سايكس فقال : « ان مارك سايكس هو المسئول عن هذه الاتفاقية التى تسبب لنا كل هذه المتاعب مع الفرنسيين . لقد تفاوض فيها بالنيابة عنا مع بيكو ؛ ذلك الفرنسى الذى فاز منه بنصيب الأسد . » (عن ليدل) . والحقيقة هى أن سايكس قد أمر بأن يذهب الى مدى بعيد فى التنازل لكى يرضى الفرنسيين . أما فيما يتعلق به هو نفسه فليست معاهدته هذه بأكثر من صورة مجزأة مرسومة اجزاؤها على رقائق كثيرة من الخشب ، من هذا النوع الذى يتلهى به بعض الناس ويقتلون وقتهم فى محاولة جمعها الى بعضها البعض بحيث تكتمل الصورة وتضج ماعتها . ولم تكن دوره فيها الا أن يصف قطعها

البريطانية التي أرسلت اليه في حقائب رسائل داوونج ستريت المصنوعة من الجلد الأحمر .

وهكذا ففى حين قد يكون الفضل فى وضع عبارة التشاور مع شريف (أو شيخ ، كما ورد فى نصها) مكة ، راجعا اليه ، فأغضب الطن أنها من صنع رجل ما فى القاعة البيضاء ذى ضمير أو أنها ديجت بناء على أوامر صدرت منه . لقد تكدر شخص ما ، بل وربما أكثر من شخص ، من هذا الانتهاك لذلك المينساق الذى يكفل للعرب اقامة نظام حكم وطنى فى فلسطين وليس نظاما دوليا . وكان هذا العمل هو أقل تعويض ممكن عن ذلك الانتهاك . لكنه لم يكن يعدو التوصل الى ضم ممثلى الشريف بن أولئك الذين سيقومون بوضع شروط هذا الحكم الدولى . وربما ثم هذا العمل على أمل أن يكون الممثلون العرب ، عادة المباحثات ، فى مركز يسمح له بأن يعطلوا جميع اجراءاتها .

ولم يكن هناك ما يسبب ايراد اسم الشريف فى هذه الوثيقة ، غير وخز الضمير ، اذ لم يكن حتى يوم توقيعه للمعاهدة مع مكماهون الا مجرد سادن لأماكن المسلمين المقدسة فى بلاد العرب ومجرد سيد للحجاز . أما مركزه كمتحدث رسمى بلسان جنس العرب فى فلسطين وفيما عداها، فلم يجيء اليه الا من خلال مفاوضة تلك المعاهدة . ولذلك ، فأيا كان هذا الشخص الذى مد للشريف هذا المركز فى المفاوضات التى ينتظر اجراؤها فى المستقبل بشأن فلسطين بموجب معاهدة سايكس وبيكو ، وكائنا من كان فى هذه الدوائر التى تسمى بالدوائر الحكومية ، فانه كان يعلم حق العلم بالمعاهدة الانجليزية العربية ، ويدرك الالتزامات التى التزمنا بها تجاه العرب والتى تعاقدا عليها .

وليس فى هذا الوضع المعقد المستتر دليل يفضى بنا الى التحقق من شخصية ذلك الرجل ذى الضمير ، أو أولئك الرجال ذوى الضمائر ، الذى أو الذين ، لا بد انه أو أنهم قد أعطوا موافقتهم على هذه العبارة حين عرضت عليهم ، حتى لو كانت هذه العبارة من وضع السير مارك سايكس . أما على من عرضت فذلك سر مرة أخرى . فمن الناحية الاسمية أو الشكلية نقول أنها لا بد أن عرضت على «الحكومة» . أما من من أشخاص هذه الحكومة ، والى أى جماعة من جماعات هذه الهيئة التى تضطلع بوظيفتها بصورة غريبة بنتمى ، قد درس هذه المعاهدة ومهرها بتوقيعه فأنه بذلك هو العليم . وأغلب الظن أن ذلك الرجل الذى تتغلب فيه شهامة الخلق ونزاهة الضمير ، والذى كان فى مركز يسمح له بأن يدخل

هذه العبارة أو يؤمن ادراجها في المعاهدة ، هو السير آرثر نيكولسون
المسكرتير المساعد لمكتب الخارجية . . ذلك الرجل الذي نبه المسيو
بيكو من قبل بوجود المعاهدة الانجليزية العربية . بيد أن ذلك مجرد
رجم بالغيب .

والشيء الواضح البين هو أن ذلك الادخال لاسم الحسين في معاهدة
سايكس وبيكو يضع مذكرة بتروجراد التي أرسلت قبل ذلك بثمانية
أسابيع في وضع لا تحسد عليه . لقد وضع العرب في المذكرة ، ان أردنا
الصدق ، لا لشيء الا لغرض مسحهم وازالتهم من فلسطين . وان هذا
التناقض بين هاتين الوثيقتين ليكشف لنا بكل جلاء ذلك التناظر بين
سياسات بريطانيا في تلك الفترة . فبناء على أوامر من السير ادوارد
جراي كان السير ماك سايكس في بتروجراد فعلا بقصد الحصول على
موافقة روسيا على تدويل فلسطين ، في ذلك اليوم عينه ، الثالث عشر
بين آذار ، الذي قدمت للروس فيه تلك المذكرة التي أرسلت باسم
السير ادوارد جراي ، والتي تستهجن ذلك التدويل ؟ فأي دور حقيقي
كان لجراي أن يقوم به في هذه الافعال ؟

وأيا ما كانت تستحق هذه الافعال من نعوت ، فبوسعنا أن نلاحظ في
هذا المقام النهج الذي أرسيت به دعائم الصهيونية في عام ١٩١٦ هي
ما تزال في أوائل أيامها . ان هناك شيئا واحدا ، من بين هذه المتناقضات
والتناقضات وما هو أسوأ منها ، يمكن أن يؤخذ على حدة ، وأن يتابع
حتى منتهاه . وذلك هو الاعتراف ، الذي لا جدال فيه ، بيهودنا القائمة
للعرب الذي ورد في اتفاقية سايكس وبيكو . ثم وقبل أن تنقضي بضعة
أشهر قامت في لندن حكومة جديدة ، فعدلت هذه الانزلاقة نحو العدل
والانصاف . ولكنها ما تزال ماثلة للعيان ، من حسن حظ الحقيقة .

ففي خلال صيف عام ١٩١٦ اعتري نشاطات ممثلي الصهيونية
في بريطانيا توقف . وربما كان انطلاق شرارة الثورة العربية هو الذي
كبح هذه الأنشطة الى حين . بيد أن المرجح هو أن أحداثا عظيمة قد
أقصت هذه الأنشطة عن الميدان . . معركة جوتلاند ، وهما السوم
(Somme) ، ودخول رومانيا الحرب . كما أقصتها عن الميدان كذلك
أحداث مؤسسية . . ففي الخامس من حزيران كتشنر من الاوركني (١) وأقصى
معه ، يا للأسف ! ، أي اعتبار للعرب ككيان انساني .

١٧ شانه عن مكتب (او وزارة) الحرب البريطانية نة الى اسم الشارع الذي
تقع فيه - المغرب

وخلفه كسكرتير للحرب المستر لويد جورج وسرعسان ما خرجت
همسات الصهيونية ، في الوقت الذي كانت فيه البلاد والحمة تستفيد
من حمية السكرتير الجديد ومن قوته الدافعة ومن قوته الواقعة ، أخذت
همسات الصهيينة تفح في اذنه ، التي لا تميز بين الرخيم وبين الناشز
من الأصوات ، فتفعل فيها فعل الوحي والالهام .

ولقد اعتزت الثورة العربية ، بعد انطلاقتها الجريئة الشسجاعة ،
انتكاسة الولى . فلقد قوبل اقدام العرب وتهورهم ، وقوبلت مباغتة الأيام
الأولى ، بالمعدات التي أطلقها الأتراك من عقالها الآن ودفعوا بها الى الميدان .
ولم تكن لدى العرب مدافع سوى المدافع المصرية ، ولم تكن هذه المدافع
بالفعالة لأن مدافع الأتراك كانت أبعد منها مدى . وبدون تأييد من مدفعية
أقوى من هذه المدافع ؟ يظل الأتراك في المدينة عقدة يصعب حلها . ولقد
فشلت محاولة لاكتساح هذا المكان بالرغم من أن فيصل وعليا طلا يركبان
فرسيهما في حماة القنابل المنفجرة لكي يعودا رجالهما على تقبل هذه
المستحدثات (بالنسبة لهم) المربعة الرهيبة ، كأمر مألوف . وأوقع
الأتراك بالعرب في ضاحية العوالى مذبحه . « لقد أنتهكت اعراض مئات
الأهلين وذبحوا ، وضربت البسوت بالمدفعية ، والقى الأحياء والأموات في
النيران على السواء » (عن لورانس) .

وأنزلنا بحارتنا في رابع حيث كان عزيز المصرى قد انطلق ليدرب
المتطوعين من السوريين والعراقيين في وحدات نظامية ، فما جاء الخريف
الا كان لديه القان بالملابس الخاكية الحقت بالقوات التي كانت تحارب
تحت امرة الأمر فيصل وأرسلت الطائرات ؛ أربع طائرات ممتازة ، الى
رابع لتغلب كفة « الثلاثة والعشرين مدقعا ، التي كان معظمها قديما بطل
استعماله ، والتي كانت من أربعة عشر طراز » . وفي يوم من أيام أواخر
تشرين الأول (أكتوبر) الحق لورانس بالجيش العربى . وكان قبصل في
ذلك الحين يقوم بقطع مواصلات الأتراك . وكان عبد الله « بثلاثة مدافع
رشاشة يحاصر المدينة » .

وكان الأتراك قد خلعوا الشريف حسين ، بعد وصول انباء الثورة
الى القسطنطينية وعينوا آخر بدلا منه يدعى على حيدر . وكانوا قد جاءوا
بعلى حيدر هذا الى المدينة ، حيث كانوا يجمعون قوة هائلة للزحف بها على
مكة وخلع الحسين . ولما كان خط سيرها المتوقع لا بد أن يمر برابع ، كان

الرد العربي الانجليزى عليه هو تحصين رابع • وتم ذلك بتعاون من الاسطول والطيران • لكن حرب العرب لم يكن لها اصدقاء كثيرون فى مصر حيث كانت المسئوليات العسكرية والسياسية موزعة بصورة فوضوية ومربكة • ويقول لورانس ان « ضباط الأركان كانوا يتنبئون بقرب فشلها وتعليق رقبة الشريف على مشنمة تركية » •

وفى أثناء ذلك الحين ، كانت هناك قضية أخرى ؛ بعيدة عن اعمال الحرب فى الصحراء وعن خطر المشنقة ، تحرز تقدما لها • كانت الدهقانة الجميلة العام ٠٠٠ الصهيونية تعرض مغاتها على هذا البلد أولا ثم ذاك وكانت تنظم نفسها فى الولايات المتحدة بنجاح كبير ، الامر الذى كان يعنى شيئا كبيرا بالنسبة لها ، اذ كان فى الولايات المتحدة ثلاثة ملايين يهودى من كل يهودى العالم • وكانت هذه الملايين الثلاثة تتركز فى المدن الكبيرة حيث يكون لنفوذها أكبر الاثر • وفى الثانى من تشرين الأول أصدرت معظم المنظمات الصهيونية الرئيسية فى الولايات المتحدة بيانا مشتركا ، ضخمو فيه قرارات مؤتمر فيلادلفيا لغاية مبيتة وقد طالب هذا البيان بالحقوق الكاملة لليهود حيثما كانوا يعيشون فى هذا العالم ، كما طالب طبعاً بالغاء جميع القوانين والأنظمة التى تتحامل عليهم ، فقال البيان موضحا : « وليكن واضحا للأذهان أن عبارة « الحقوق الكاملة » ينظر اليها على أنها تتضمن :

١ - الحقوق المدنية الدينية والسياسية •

٢ - تأمين وحماية حقوق اليهود فى فلسطين •

وكان هذا البند الثانى يحتاج الى كل ما يستطيع أن يوليه مؤلفوه له من « نظر » و « فهم » لكنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء التوقف لبسط وجهة نظرهم هذه ! فحسبهم أن جعجعوا بها فى داخل الولايات المتحدة أو فى خارجها بكل بربرة وضجيج ! أما فى انجلترا فقد قاموا بعمل منظم أحسن تدبيره •

وقد قدر لتقرير رسمى صدر عن المنظمة الصهيونية فيما بعد أن يشرح هذه الحال فيقول :

كانت الامور فى ذاك التشرين الاول من عام ١٩١٦ قد بلغت مرحلة أحست فيها المنظمة الصهيونية أن لها الحق فى أن تقوم أيضا رسميا عن

وجهة نظرها بصدد حكومة فلسطين في المستقبل في حالة وقوعها
تحت حكم انكلترا وحكم فرنسا .

وكانت هذه خطوة كبيرة الى الامام ، لها علاقة تنسجم طبعاً مع
التطورات التي كانت تحدث في الولايات المتحدة ، اذ لم تكن آراء المنظمة
الصهيونية قد قدمت بصورة الى الحكومة البريطانية حتى ذلك الحين بالرغم
من دخولها من قبل في اضاير مكتب الخارجية . وها قد آن لها
الآن ان تقدم كبيان رسمي ، وبصورة غير رسمية الى هذه الحكومة كما لو
كان للمنظمة الصهيونية اهلية دولية معترف بها وتناثر بتقدم انجلترا
وفرنسا في البلاد السورية . أما متى اكتسبت هذه الصفة فهذا امر يستغرق
على كل اكتناه . بيد أن هذه الوثيقة التي تدعى هذه الاهلية قبل الاوان
قد قدمت بمهارة من قبل القادة الصهاينة وقيلت من قبل الحكومة البريطانية
بمهارة أيضاً . ومن ثم فقد وقع الاعتراف بهذه الاهلية المذكورة بالرغم من
عدم وجودها .

وكانت هذه الوثيقة وثيقة مطولة الى حد ما . ويمكن تقسيمها الى
سبت نقاط هامة . لقد طالبت فترة منها بتأسيس شركة يهودية مساهمة
تكون غايتها اعادة توطين فلسطين بمستوطنين يهود . ولم يكن مشروع
هذه الشركة المساهمة شيئاً جديداً . . لقد طلب من السلطان عبد الحميد
في زمن سابق أن يدرس مشروعاً مماثلاً . كما انه قد كانت له سوابق
بريطانية لها أكثر الصفات جاذبية . وكان مبيتاً لهذه الشركة ، دون شك
أن تتحول في مدى قريب الى حكومة ، وبسهولة أكثر من تلك السهلة
التي تحولت بها شركات الى حكومات . . في الهند وفي جنوب افريقيا
مثلاً .

وتكون لها في الوقت عينه السلطة . في أن تمارس حق التملك
بالشفعة في أراضى التاج وغيرها من الأراضى وفي أن تحصل ، بقصد
الاستعمال الخاص ، على جميع ، أو أى من الامتيازات التي قد تمنحها
الحكومة أو الحكومتان صاحبتا السيادة في أى وقت من الاوقات .

وحين يقرأ الانسان هذا الكلام لا بد أن يبرز في ذهنه هذا السؤال
« ولماذا تكون هناك حكومة صاحبة سيادة أصلاً ؟ » اذ أنه سيكون للشركة
الصهيونية المساهمة أن تملك أمة أراضى في فلسطين وفي أى وقت تشاء
وأن أمة امتيازات قد يحصل عليها أى انسان أو قد يكون حصل عليها

فعلا ستنزح منه وتعطى لهذه الشركة المساهمة ، فلا يبقى « للحكومة صاحبة السيادة » شيء تفعله الا الأعمال الكتابية من التسليم بكل شيء وانتزاع الملكية من كل انسان • (وما حدث فعلا ، بالرغم من أنه أمر قد لا يبدو مصدقا ، هو أن الخطوط العامة لهذه النبذة قد طبقت فعلا في بحر ما يقرب من خمس سنوات ، لصالح امتيازات روتنبرج الآتمة) •
وهناك عبارة أخرى هي كما يلي :

لما كان السكان اليهود في فلسطين يشكلون مجتمعا له قومية وديانة واضحتان متميزتان فسوف يعترف به رسميا من قبل الدولة أو الدولتين صاحبتي السيادة كوحدة قومية منفصلة •

ويمكن الانسان بالمثل أن يعلق على هذه العبارة فيقول ، لما كان السكان اليهود في فلسطين لا يشكلون قومية متميزة ولكنهم موزعون بين جميع قوميات أوروبا الشرقية وبعض قوميات أوروبا الغربية وآسيا ولما كان ثلاثة أرباع هؤلاء السكان لا يعطفون على الصهيونية وظلوا يشجبونها حتى بعد أن قدمت الى فلسطين ، ولما كان نعرف اليهود على أنهم كيان ديني أو على أنهم أتباع عقيدة دينية واحدة قد رفض ، ومازال يرفض من قبل الصهاينة السياسيين ، فلا يبدو أن هناك سببا واحدا يدعو الى الاعتراف •• الخ • الاعتراف رسميا هنا الا بثلاث وحدات منفصلة من الضلال والمغالطة •

الا أن هناك عبارة في هذه الوثيقة لها أكبر الدلالة • ألا وهي العبارة التي ورد فيها ذكر العرب • والشيء المدهش أنهم قد وجدوا لهم مكانا في وثيقة صهيونية في ذلك الحين • ولكن على أي نحو جاء هذا الذكر ؟

ان السكان الحاليين ، وهم القليلون جدا ، والفقراء جدا ، والذين لا يتوفر لديهم قسط من التدريب والخبرة بحيث يجعلهم قادرين على أحداث تطور سريع ، يحتاجون الى ادخال عنصر جديد وتقدمي بين السكان يرغب في تكريس كل طاقاته لأعمال الاستعمار طبقا للنظم الحديثة •

والعرب أو « السكان الحاليون » ، كما جاء في هذه الفقرة المذكورة أعلاه ، كان تعدادهم في ذلك الحين نحو ٦٧٥٠٠٠ • وفلسطين من حيث الاتساع ليست الا مجرد مقاطعة • وليست هذه على أي حال ، بالحقيقة التي تغل أيدي المنظمة الصهيونية • لقد نفت العرب من ذهنها دون أي تفكير في عواقب الأمور ، بعد ما ظنت أن التعليق على وجودهم بأنهم « قليلون وفقراء » ينهي هذه المشكلة • ولأن يكون الشيء قليلا وفقيرا فتلك

هى الجريمة العظمى فى نظر نمط من التفكير هو فى حد ذاته ، ويا للعجب !
 قليل وفقير .

ومن ثم فإن هؤلاء العرب القليلين فى فلسطين بمئات ألوفهم يحتاجون الى « ادخال عنصر جديد وتقدمى » بينهم . وما أندر العبارات التى تحمل هذه الاهانة البالغة . وقد يصعب على الانسان أن يعثر على عبارة فى مثل وقاحة هذه العبارة . فأى حق للصهاينة فى الحديث عما يحتاجه العرب ؟ لا حق من أى نوع كان .

ومع ذلك والأدهى من هذا ، وسواء أكانت هذه العبارة وقحة أم كان المخطط الذى هى جزء منه وقحا ، هو أن الحكومة البريطانية قد ذهبت مشروع الشركة المساهمة هذا ، باعتباره حجر الأساس . فالتقرير الصهيونى يقول : « يبدو من الحكومة أنها تعتبر المطالب المتضمنة هذا المشروع كأساس للمناقشة . ومنذئذ سارت المفاوضات فى طريقها قدما وأفضت المحادثات مع رجال الدولة كأفراد « أفضت الى مباحثات ذات صفة رسمية أكثر . وأحرزت الصهيونية اعترافا بها باعتبارها إحدى المشاكل المعقدة المرتبطة بالشرق الأوسط من ناحية ، وباعتبارها مسألة إحدى القوميات الصغيرة من الناحية الأخرى » (عن التقرير الرسمى الصهيونى)

وهنا موطن الداء . ولا يتسنى للانسان أن يقدم دليلا أوضح من هذا الدليل هذه السفسطات التى بست للعرب المساكين أن يطردوا بها من ديارهم وبوصع فيها أغراب فى أماكنهم . ان دعائم الصهيونية ؟ أعنى الصهيونية السياسية ، لم تتورط فى هذا المركز الذى هبط عليها من السماء فحسب ، بل دفع بها الى الأمام الى ما هو أبعد من هذا . لقد أصبحت الصهيونية السياسية مشكلة « من المشاكل المعقدة المرتبطة فى الشرق الأوسط » . لقد أدرجت فى غمضة عين بين المشاكل التى تستوجب على الحلفاء أن يواجهوها شيئا فشيئا .

وهذا الدور الذى ادعته الصهيونية لنفسها على هذا النحو دور ليس له سند من أى قانون من القوانين ، ولا من أى صك ، ولا من أية ظروف سياسية كانت سائدة آنذاك أو ساءت قبل ذلك ، فى أى وقت من الأوقات فى حقبة تمتد الى ما يزيد عن ألف عام كرا الى الوراء . فالصهيونية السياسية كحقيقة سياسية لم تكتسب فى أى يوم من الأيام أى مركز خارج أدمغة مخترعيها القريبى العهد . الصهيونية السياسية لم تكن

شيئا مزروعا في تربة الشرق الاوسط ولا كان لها مكان بين المشاكل التي تركتها الامبراطورية العثمانية بوفرة كبيرة الى من جاءوا بعدها .

لقد جرى جس نبض الامبراطورية العثمانية فرفضت ادخال هذه الصهيونية بين عواملها الكثيرة المعقدة . لقد رفضت أن يكون في داخلها بطين يهودي . ولم يسبق لرجل دولة في العالم أن أرق نفسه بالخوض في الصهيونية . كما لم يرت أي رجل دولة في العالم عن أسلافه في الكرسي أضياف مملوءة بمفاوضات قام بها أسلافه هؤلاء ، ولها علاقة بها . فالصهيونية بكل بساطة لم تكن مشكلة على الإطلاق . ولقد كان هناك مشكلة يهودية في شرق أوروبا . أما في فلسطين فلم تكن هناك مشكلة وبات في النية الآن زج هذه المشكلة في مكان لم يسبق لها أن وجدت فيه لكن هذا العمل إنما هو خلق مشكلة أخرى . . خلق شيء يختلف كل الاختلاف عن تلك المشكلة . أما أن يقول قائل ان الصهيونية مشكلة معقدة مرتبطة بالشرق الأوسط فهذه لعمرى فرية ممنوعة ليس بعدها فرية أما مكانها الحقيقي في دنيا السياسة فهو أنها نظرية بدأت لتوها تمارس ألعيبها في لندن وباريس ونيويورك .

وأما صفة التعقيد التي قرنت بها فهي محض أكذوبة . وأن هذا المسمى بـ « التعميد » لا يدل على شيء في الواقع الا على صعوبة العثور على مقولة تكون من الغموض بما يكفي لاختفاء النية في الحاق فلسطين ببريطانيا ، ان عاجلا وان آجلا .

بيد أن هذه السفسطة لم تحصر نفسها في نطاق جعل الصهيونية السياسية تتسلل من أوكارها على هذا النحو لتقبع بين مشاكل الشرق الأوسط . فلقد كسبت الصهيونية بهذه الغربة عينها كذلك « الاعتراف بها كمشكلة مرتبطة بمشاكل القوميات الصغيرة » . وان لها فعلا هذا الارتباط . والكلمة الفعالة في هذه العبارة هي ، كما يقول المستر ج. ب. مورنون ، كلمة « مرتبطة » . فبالزيد من المهارة والخبت قلب ذلك الشيء الذي لم يكن شيئا على الإطلاق وإنما ضخم الى مشكلة ، قلب من جديد الآن من مشكلة وضخمت هذه المشكلة المكذوبة الى أمة صغيرة عن طريق قرنها بذيل مختلف البلاد الصغرى .

والدهاء في هذا التدبير والاختلاق لا يخفى على عين . ففي عام ١٩١٦ كانت الأمم الصغيرة تتجمع لتوها لتعرض التماساتها على دول الحلفاء (المأمول نصرها) . وكونت مع بعضها البعض قافلة سياسية . أو ان

شئت قل قطارا سياسيا . وستنطلق هذه الدول معا حين تحين اللحظة ،
وتدوى صفارة هذا القطار لينهب الارض الى محطة المنتهى حيث تجرى
الاستعدادات لاستقبال السلام المنصر . وكان الصهاينة السياسيون
على أهبة الاستعداد لهذا تماما . فأعدوا عربية صغيرة علقوا عليها لافتة
مكتوبة عليها هذه العبارة : « المشكلة الصهيونية » ليقرنوها بسرعة في
ذيل العرببة الأخيرة وبدون لفت للأنظار . وسوف يواصل القطار نفث دخانه
وستختفى هذه اللافتة في مكان ما من الطريق . وعندئذ تمر أمام رصيف
الوصول عربية مكتوبة عليها عبارة « الوطن القومي لليهود » في ذيل
عربات تشيكوسلوفاكيا ، ولتوانيا ، ولاتفيا ، والأخريات الباقيات . وهذا
المخطط كله غاية في البساطة . بيد أن فرصة مشاهدة هذه المناورة
لا تسنح كثيرا .

وكفانا هذا القدر عن مشروع تشرين الاول . ففي حين كان الشهران
الأخيران من عام ١٩١٦ مكرسين في انحلترا لد « مباحثات الرسمية » التي
ترتب على تقديم هذا المشروع ، كانت هناك مفاوضات من نوع آخر يقوم
بها لورانس في الحجاز مع الأمير فيصل ومع مولود المخلص ، المجند
السابق في الجيش التركي من العرب والذي تطوع في الثورة ، ومع القادة
الآخرين . لقد كانوا يجلسون في المحمرة ويتحدثون عن اعداءات جمال
في سورية . ولقد قاطع بعض العراقيين من أعضاء « الفتاة » « الأشداء »
لورانس ذات مرة بحدة فقالوا ، معربين عما يخالجهم ، ان جمالا على حق
لأن من شنعهم قد ضبطوا يتخابرون مع الخلفاء ، ولأنهم كانوا على استعداد
لأن يقبلوا السيادة الفرنسية ، والسيادة البريطانية أيضا . وهذه جريمة
في حق القومية العربية .

« فابتسم فيصل ، وغمز لي بطرف عينيه أو كاد يغمز لي . وأسمنت ؟
قال موضحا . « ان الضرورة هي التي تربطنا الآن بالبريطانيين . ويسرنا
أن نكون أصدقاءهم . ونحن شاكرون لهم معونتهم . ونتوقع الفائدة في
المستقبل . لكننا لسنا رعايا بريطانيين ، ولو لم يكن بيننا كحلفاء هذا
البون الشاسع لكننا أكثر ارتياح بال »

وأضاف أحد البحارة الذين كانوا ينزلون على الشاطئ في رابع من
البوارج الحربية كل يوم : « وعما قريب سيمكنون هنا نياالي نم يقيمون
هنا دوما ويستأثرون بالبلاد . » وتأمل فيصل قليلا ثم قال : « أنا لست
حجازيا بحكم تنشئتي ، لكنني والله غيور عليه . وبالرغم من أنني أعلم

أن البريطانيين لا يريدونه فاني مع ذلك لا أدري ماذا أقول . فهل حين أخذوا السودان لم يكونوا يريدونه أيضا ؟ انهم يتعطشون للبلاد البائسة ليبئوها . وهكذا فقد تبدو الجزيرة الغربية في أعينهم ثمينة ذات يوم » (عن لورانس)

فهل نلوم فيصلا اليوم على هذه الدعابات المليئة بالشكوك بالرغم من أننا أعطيناه العراق في النهاية ؟ لقد نفس عنها فيصل في تلك الليلة الأولى التي قضاها لورانس مع الجيش العربي . وفي الصباح التالي تجول لورانس بين رجال القبائل « المتنطقين بنطاقات الذخيرة » ولبضعة أيام أخرى . ثم عاد الى مصر وقدم تقريراً ضد ارسال حملة بريطانية الى رابغ . وسر هذا التقرير الأركان العسكرية في مصر ، كما سر هيئة رئاسة الأركان في لندن ، وكانت هذه الهيئة ضد ارسال أى نوع من قوات الحملات حتى لو كانت تتألف من ثلاث أو اربع كتائب .

وبضربة غير عادية جعلت شمسة لورانس الحربية الجديدة هيئة الأركان في مصر تصبح أكثر سخاء بالمؤن والأسلحة لاصحاب العرب بدرجة ما كان يجرؤ على توقعها بالطبع . وارسلت كذلك بضعة نفر من الضباط الاكفاء ليشهدوا من أذر الثورة . وبمساعدهتهم واصل العرب الحرب . بيد أن انتكاسة أصابتهم دون المدينة في كانون الأول . لكن العدو لم يستغلها لحسن الحظ .

وكانت صدمة من نوع آخر قد وقعت قبل ستة أشهر أو نحوها . لقد نادى علماء مكة بالشريف « ملكا على الأمة العربية » . وكان هذا أمراً غير دستوري قبل وصول الشريف الى اتفاق مع الأمير ابن سعود الذي كان حتى ذلك الحين قويا في قطاعه الاوسط من الجزيرة العربية ، وقبل التوصل الى اتفاق مع الرؤساء الآخرين الأقل من ابن سعود شائنا ، والذين كانت لهم جيوب قوية في هذا المكان أو ذاك من الساحل ومن قبل كان الشريف قد وعد كذلك ، في المراسلات التي جرت بينه وبين المندوب السامي ، لأن يحترم الاتفاقيات البريطانية القائمة مع هؤلاء الرؤساء . بيد أن هذا اللقب في حد ذاته ، ومن جميع الوجوه ، كان أكثر ، من أى شيء عداه ، كشفا للثقاب عن المعاهدة العربية الانجليزية التي ظلت مستورة حتى ذلك الحين ، بحيث يستحيل ألا يكون مفزعا بالنسبة للندن . وهكذا ألبن الحسين بمزيج من المجادلات والضغط الى التسليم بقبول لقب « ملك الحجاز » - الأقل احراجا - الى أن يصبح الموقف أكثر وضوحا - على حد ما قيل له .

وربما كانت هذه بادرة شؤم بالنسبة لشرف الوفاء بالمعاهدة العربية الانجليزية في المستقبل ، لو أنها أدركت • وإن أحداثا يمكن أن توصف بأنها أكثر من مشؤمة ، ولكنها مخفية عن العرب ، قد حدثت • لقد عاد السير مارك سايكس للظهور في القاهرة مرة أخرى • وغداة زيارته للمندوب السامي ، « أبدى ملاحظة له أثناء الحديث وهو يبسط خريطة • فقال : (ما رأيك في معاهدتي ؟) » (عن ليدل هار) • وكانت هذه أول كلمة يسمعا السير هنري مكماهون في حياته عن معاهدة سايكس وبيكو ! فلم يمكث في مصر طويلا بعد أن تلقى هذه الصدمة • ويقول لورانس : « ان الدسائس التي حيكت ضد السير هنري مكماهون قد بلغت غايتها ، قد نجحت وانتهت باستدعائه الى انكلترا • »

وفي أوائل كانون الأول حل المستر لويد جورج محل المستر أسكويث في رئاسة الوزارة • وتسلم خلف السير هنري مكماهون مهام منصبه في بداية كانون الثاني التالي • وحل عام ١٩١٧ الذي شهد انتصارا كبيرا للصهيونية السياسية •• لكنه شهد هزيمة كبرى للأمانة السياسية •

الفصل التاسع

خطوات الصهيونية السياسية « الرسمية » الأولى في لندن - برانديز
وبلفور - لورانس والوعود البريطانية
اليهود يعارضون الصهيونية - الترتيبات الأولى للانتداب - المعارضة
اليهودية في الولايات المتحدة للصهيونية .

اعتراف فرنسا

لخصت اللجنة التنفيذية الصهيونية خط سير الصهيونية الحاسم في
بريطانيا بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٧ كما يلي : « لقد وضعت ، خلال الأشهر
الأولى من الحرب ، أسس تفاهم وثيق مع رجال الدولة الذين يوجهون
أقدار بريطانيا . ولم يكن الزمن قد أصبح مواتيا بعد لإصدار أى تأكيد
رسمي من قبل الحكومة البريطانية بالتأييد . لكن جوا قد خلق ، وبات
للمرء أن يأمل - إذا ما توفرت ظروف سياسية مناسبة - الحصول على
تأكيد كهذا . وخلال العامين التاليين ازداد جو الصداقة والود حرارة .
وكان للبذور التي بذرت في عام ١٩١٤ أن تحمل ثمارها حين أصبح المستر
لويد جورج رئيسا للوزارة وأصبح المستر بلفور سكرتيرا للخارجية . »

وهذا الازدياد في حرارة جو الصداقة والود ان هو الا تعبير صريح
عن ذلك الضباب المتكاثف الذي فقد فيه أعضاء الحكومة في عام ١٩١٦
كل أثر لمتابعة أفعال بعضهم البعض ، والذي ناول فيه أشخاص متسترون
بالظلام مشروعات قدرة الى متسلمين لا تميزهم العين . وكانت نتيجة هذا،
على أى حال ، هي أن قادة الصهاينة قد ضبطوا يققون على باب مكتب
الخارجية حين انقشع هذا الضباب أو كف عن التكاثف . وفي شباط
جرى أول اجتماع ، لا تستر فيه ، بينهم وبين مندوب مفوض عن الحكومة .
وكان السير مارك ساباتس هو هذا المندوب المفوض .

وخلال أشهر الغموض الستة ، أو نحوها ، التي سبقت هذا الاجتماع ، لم يكن القادة الصهيينة بين الفينة والفينة يدرون ماذا يصنعون ، بالرغم من أنهم قد استغلوا هذا الغموض الى أبعد حد كما رأينا . . لقد تاهوا فيه قليلا ، ولقد واصلت الاحداث العامة سيرها أيضا وعلى نطاق يستنزف جهد الحكومة . فارغمت أحوال روسيا ، وانشغال فرنسا وبريطانيا منذ زمن بالموقف في اليسوفان ، ومشاكل الوزارة البريطانية لمشاكل بريطانيا في حد ذاتها ، مشروعات الصهيينة على الانزواء في المؤخرة . . حقا لقد استقبلت مذكرة بتروجراد استقبالا لا بأس به من روسيا ، لكن روسيا نفسها كانت قد بدأت تنهار :

وأكد اضطراب الحال في روسيا ضرورة الحصول على مساعدة الولايات المتحدة بالنسبة لقضية الحلفاء . وكان يظن أن العقبة الأساسية في الولايات المتحدة التي تقف في وجه تبنيها لقضية الحلفاء هذه ، تكمن في قوة الأمريكيين الألمان . وكان معظم هؤلاء الألمان يهودا . وسرعان ما انتهى ذلك الركود في الاهتمام بالصهيونية حالما عرضت من جديد ، وعلى اعتبار أن هذا الاهتمام الآن هو بمثابة وسيلة لكسب انعطاف الأمريكيين الألمان حول قضية الحلفاء .

أما قبل ذلك ، وبينما كان مكتب الخارجية ينتقل من يدى السير ادوارد جراى الى يدى اللورد بلفور ، فلم يكن يبين من قادة الصهيينة طرف الا في فترات متقطعة . بل وقد تكون مذكرة تشرين التي قدموها أذهلت تلك الجماعة التي يمكن أن تسمى بـ «الجماعة ذات الضمير الحي» في مكتب الخارجية ، والتي كانت في مركز يسمح لها بأن تذب الصهيينة عن أبواب مكتب الخارجية وتجعلهم يقفون بعيدا عنه ، حين كان حمايتهم الكبار مشغولين بالازمات ذات المكانة الاولى .

ان أوفى تسجيل لكيفية ارساء هذه العلاقات مع الحكومة الجديدة قد قدمه لنا المستر صمويل لاندمان في الثانى والعشرين من شباط وفى الأول من آذار فى مقالتي انطباعيتين أرسل بهما الى مجلة « وولندجورى » (يهود العالم - المغرب) . وكان المستر لاندمان ؛ وهو أحد زعماء المراجعين وهؤلاء هم أكثر قطاعات الصهيونية تقدما ، كان سكرتيرا للمسئو سوكولوف فى ذلك الحين . ثم أصبح فى حين لاحق سكرتيرا للمنظمة الصهيونية العالمية . ولذا فهو عليم بهذه الأمور . ان هناك بعض التعليقات يمكن أن يقال بصدد هاتين المقتاتين . بيد أن فى وسعنا هنا أولا أن نورد مجملا للحقائق التي وردت فيهما ، على حد ما يفصلها به هو .

واذن فهو يقول ان السير مارك سايكس ، استنادا الى ما كتبه هذا الأخير عن نفسه ، قد حاول أن يكون متصلا بالرأى السائد لدى معشر اليهود الامريكيين ، دون أن يصيب كثيرا من النجاح . وفى وسعى هنا أن أضيف أن السير مارك سايكس كان فى ذلك الحين سكرتيرا مساعدا فى مكتب الحرب ، وأن هذا المنصب لم يكن منصبا اداريا على أى حال . وكان هذا اللقب هو لقبه الرسمى لكنه كان فى الحقيقة يقوم بعمل ضابط اتصال بين مكتب الحرب وبين مكتب الهند ، ومنظمات الاستخبارات ، وهيئات أخرى ذات أهمية كبرى .

وكان من عادته أن يدور على مناصب السلطة يوميا . ويوفق بين معلوماتها . هذا فضلا عن مقابلات الجنرالات الذين يعودون من الجبهة فى اجازات ، ومقابلة السفراء والوزراء المفوضين وجميع أخلاط الناس من ذوى المكانة والمناصب الكبيرة بشرط أن تكون لديهم معلومات جديدة بهمه الاطلاع عليها . وكان مجلس الوزراء يوليه أذنا صاغية طبعاً لقد كان بالاختصار رجلا له أعظم النفوذ .

وليس من العسير على الإنسان أن يخدس لماذا لم يصب نجاحا فى محاولاته مع الامريكيين الالمان . وأغلب الظن أنه قد حاول ، بالاشتراك مع « الجماعة ذات الضمير » فى مكتب الخارجية ، أن يقوم بنشاطه فى هذا المضمار من خلال زعماء اليهود البريطانيين ، من خلال قطاع لوسيين وولف ، ومن خلال مختلف الربانيين (أى الحاخامين) الذين كان هدفهم الوحيد اقامة مركز يهودى روحى وثقافى فى فلسطين .

وأعود الآن الى المستر لاندمان . انه يقول ان السير مارك سايكس كان ذات يوم يشكو عدم نجاحه فى حضور المستر جيمس مالكولم « وهو رجل ارمنى بريطانى مرموق » على حد وصف المستر ويكهام ستيرله . والمستر مالكولم هذا رجل باليولى ينتمى الى أصل ارمنى . بيد أنه بريطانى من عدة أجداد بريطانيين . وكان على صلة ببعض الصهاينة المتحمسين . وها هو ذا يقول للسير مارك سايكس انه كان ينبغى عليه أن يتوجه الى الصهاينة السياسيين : « انك تسير فى الطريق الذى لا يوصلك الى غايتك » ، قال . « فالانرياء اليهود ، ورجال الدين اليهود الذين تقابلهم ليسوا القادة الحقيقيين للشعب اليهودى » ، ومن ثم فإن الصهيونية السياسية أو الصهيونية القومية - كما يسميها المستر مالكولم - هى مفتاح التأثير والنفوذ على الكيان اليهودى فى الولايات المتحدة ، بل وحتى على ما هو أبعد من ذلك . ثم قال المستر مالكولم ان هناك طريقة لجعل

اليهود الامريكيين مؤيدين للحلفاء قلبا وقالبا ، وانه يعرف رجلا في أمريكا قد يكون أقرب المقربين الى الرئيس ويلسون ، وانه يمكن ، عن طريق هذا الرجل ، تحويل تفكير الرئيس الى الاشتراك الفعال في هذه الحرب الى جانب الحلفاء ، ان كان في مقدور رجل واحد في هذه الدنيا أن يجعله يفعل ذلك . (أما الرجل المعنى بهذا الكلام فهو القاضي لويس برانديز قاضي محكمة الولايات المتحدة العليا) .

ثم أردف المستر مالكولم قائلا : «ان في وسعكم بهذه الطريقة وحدها أن تكسبوا عطف اليهود في كل مكان عليكم . وهذه الطريقة هي أن تعرضوا عليهم أنكم ستحاولون أن تحرزوا فلسطين لهم . » فقال السير مارك سايكس ، وفلسطين المدولة في معاهدة تترأى أمام ناظريه مخضوبة بلون الشيكولاته ، ان ذلك مستحيل . فقال مالكولم ، الذي كان يعلم (على ما أرى) عن دخائل وعلاقات اللورد بلفور والمستر لويد جورج أكثر مما يعلمه سايكس عنهما ، انه ينبغي على أخينا الاخير هذا أن يطرح هذا الموضوع أمام الوزارة بأي شكل من الاشكال . فكلّم سايكس اللورد ملنر (Milner) في هذا الامر . وحين أبلغ مالكولم بهذا تحدث مالكولم مرة أخرى عما يمكن احرازه من خلال نفوذ القاضي برانديز . ولقد كانت دوافع المستر مالكولم هذا دوافع منزوعة عن الغرض . اذ كان يؤمن بالصهيونية السياسية كقوة سياسية . وكان يعتقد بأنها ستكون ذات نفع كبير لقضية الحلفاء في أمريكا .

وبعد المزيد من المحادثات استقر الرأي (اذ لم تجد الوزارة ، أو لم يجد أولئك الاعضاء من أعضائها الذين جس نبضهم وصار التقرب اليهم ، أي عقبة ، على ما يبدو ، تقف في طريق عقد معاهدات مناقضة لمعاهدتنا القائمة) ؛ استقر الرأي على وجوب القيام بمفاوضات بهدف الحصول على تأييد غرب الأطلسي ، وعلى أساس احراز فلسطين لليهود . وكان المستر مالكولم قد قال من قبل باصرار ألا فائدة ترجى من السعي لدى القادة الصهاينة ما لم يكن هناك شيء مما يشبه عرضا واضحا محددا، يعرض عليهم .

وها قد أصبح الآن لأخلاق من الناس شأن بهذا الأمر ؛ بما فيهم المستر هرينبرج رئيس تحرير جريدة الجويش كرونكل . فكانت هناك اجتماعات في بيت الدكتور وايزمان الكائن في أديسون رود ، منذ أن جاء الى لندن من مانشستر . وفي هذا البيت التقى مالكولم بوايزمان للمرة الأولى على ما يبدو . وكان المستر هرينبرج همزة وصله بالحركة ، على

ما أظن . ثم اجتمع السير مارك سايكس بالمسيو سوكولوف والدكتور وايزمان عدة مرات ، بعلم وموافقة السير موريس هانكي سكرتير الوزارة الحربية .

وفي وسعنا هنا أن نورد فقرة بالتسمام والكمال من مقالة المستر لاندمان . انه يقول :

بعد أن تم التوصل الى تفاهم بين السير مارك سايكس وبين وايزمان وسوكولوف ، انعقدت التية على ارسال رسالة سرية الى القاضى براندين مؤداها أن الوزارة البريطانية ستساعد اليهود على كسب فلسطين في مقابل الانعطاف اليهسودى الفعال ، وفي مقابل تأييد قضية الحلفاء في الولايات المتحدة بحيث ينجم عن هذا رجحان جذرى لصالح الحلفاء فيها . وقد جرى ارسال هذه الرسالة بالشفيرة عن طريق مكتب الخارجية . وكان من بين أهم السكرتيرين المساعدين في ذلك الحين السير رونالد جراهام الذى لم يكن السير مارك سايكس يخفى عنه سرا . وكان طوال تلك الفترة التى أمضاها في مكتب الخارجية معنيا بالصهيانية لا يخيب له رجاء . وقد جرى ارسال رسائل كذلك الى قادة الصهيانية في روسيا لرفع معنوياتهم وبقصد الحصول على تأييدهم لقضية الحلفاء النى كان قد لحق بها بعض الضرر من معاملة الروس السيئة لليهود . كما أرسلت كذلك رسائل الى قادة اليهود في البلدان المحايدة . فكان من نتيجة ذلك تقوية مشاعر اليهود المنعطفة على الحلفاء ، في كل مكان .

وعن طسريق الجنرال ماكدونوه الذى كسبه المستر فيتزموريس الى صفنا (المستر فيتزموريس هو المستر ج. هـ . فيتزموريس ، الذى كان ترجمانا للسفارة البريطانية في القسطنطينية لسنوات عديدة ، وكان رجلا ذا نفوذ عظيم .) استطاع الدكتور وايزمان أن ينال من الحكومة البريطانية الموافقة على اعفاء نصف ذرية من الشباب اليهود من الخدمة العسكرية استخدمهم في العمل النشط الفعال لصالح القضية الصهيونية . وكان العمل بالتجنيد الاجبارى ساريا آنذاك ، ولا سبيل الى اعفاء أحد من الخدمة الفعالة في الجبهة الا من يشتغلون بعمل ذي أهمية قومية . واني لأتذكر الآن الدكتور وايزمان وهو يدبج كتابا الى الجنرال ماكدونوه (مدير العمليات العسكرية) ويستثير فيه نخوة

المساعدة فى الحصول على اعفاء من الخدمة لـ ليون سيمون ، وهارى ساكر ، وسيمون ماركس ، وهيامسون تولكوفسكى ، ولى أنا . وقد نقلت بنساء على رجاء الدكتور وايزمان من مكتب الحرب (المخابرات العسكرية - الفرع التاسع) حيث كنت أعمل آنذاك الى وزارة الدعاية ، التى كانت تحت رئاسة اللورد نورثكليف ، ثم الى المكتب الصهيونى فيما بعد ، حيث شرعت فى العمل فيه فى حوالى أيلول من عام ١٩١٦ . وقد وصل سيمون ماركس الى هذا المكتب وهو بملابس الخاكي فعلا ، وشرع توا يقوم بمهمة تنظيمية . وكانت مهمة هذا المكتب ، كما لا يخفى على أحد ، هى أن يكون على اتصال بالصهيونيين فى معظم البلدان . ومنذئذ فصاعداً وللسنوات عديدة اعتبرت الصهيونية حليفة للحكومة البريطانية ، فأصبح كل عون ومساعدة من كل دائرة من دوائر الحكومة أمراً قريب المنال . وما كانت نقف فى طريق الرجل مصاعب فى الحصول على جواز السفر أو مصاعب سفر حين يكون مزكى من مكتبنا . فلقد قبلت لدى مكتب الداخلية ، على سبيل المثال ، شهادة وقعتها أنا فى ذلك الحين ، كدليل على وجوب معاملة أحد اليهود العثمانيين كأجنبى صديق ، وليس كأجنبى عدو ، كما هو الحال مع الرعايا الاتراك .

وهذه لعمري فقرة كاشفة . ونجد مصداقاً لاحدى النقاط التى وردت فيها لدى السيدة داجديل ، التى تعين الفترة التى بدأ منها استخدام الشيفرة الرسمية من قبل الصهاينة . فهى ، اذ تتحدث عن تقديم برنامج تشرين الاول ، تضيف قائلة :

ولقد حدث فى هذا الشهر عينه شئ لا يكاد يكون أقل دلالة من هذا العمل . . . لقد سمح للدكتور وايزمان وللمسيو سوكولوف أن يتصل أحدهما بالآخر ، وبالزعماء الصهاينة الآخرين فى الخارج ، عن طريق برقيات ترسل عن طريق مكتب الخارجية الذى كان ينقلها بالشيفرة .

فحين يكون الدكتور وايزمان أو المسيو سوكولوف فى القارة (أوروبا) فانهما يتمتعان بالامتياز نفسه لدى السفارات أو المفوضيات البريطانية .

وبهذا النص الذى أوردناه لتونا عن المستر لاندمان ، نصل الى المقابلة «الرسمية» التى تمت فى شباط من عام ١٩١٧ ، والتى جاءت فى مدونته هذه ، والتى أعقبت هذه الصفقات التى وصفها . أما فيما يتعلق

بمدونته هذه فانيسك ما ينبغي أن نخرج على ذكره . انه يخضع لشباط وايزمان هنا لنشاط المستر مالكولم وبدرجة كبيرة جدا ، وبخاصة في المرحلة الاولى على الاقل . وما من شك في أن أثر هذا الزعيم الصهيوني ، وأثر المسيو سوكولوف أيضا ، قد كانا أقل بروزا بالنسبة للرأى من بروزهما بالنسبة للمطلع العليم ببواطن الامور ، في أواخر عام ١٩١٦ ، لكن مذكورة بتروجراد دليل قاطع على أن الصهيونية الغومية أو السياسية هي التي كانت مدرجة في مشروعات الحكومة البريطانية في ذلك الربيع ، وليست فلسطين الدولة . وما كان لأحد أن يضعها في ذلك المكان لدى الحكومة البريطانية غير الدكتور وايزمان وشركاءه . وربما كان مارك سايكس يجهل أمر الصهيونية . انه يجهل أمرها بناء على ما يدعيه المستر لاندمان ، الأمر الذي يعنى أنه لم يطلع على مذكرة جرى الى الحكومة الروسية وقت أن كان يفاوض الحكومة الروسية فيما جاء فيها ! ولو صح هذا فما أشبهه بتلك السياسة التي كانت تنفذ آنذاك ! وبالحال من مادة طيبة حقا !

أما الزعم بأن المفاوضات بين الحكومة ذاتها وبين الدكتور وايزمان كانت قد وصلت الى حالة من التوقف ، وبأنهما انما أنقذت عن طريق تدخل المستر مالكولم من الانهيار ، وبأنه قد أنقذ بالتالى المشروع الانجلو صهيوني بما كان عليه من صياغة آنذاك ، فيخيل لى أن هذا الزعم قد حمل ما لا يطيق . ويمكن أن يقال دون الحط من قيمة الدور الذى قام به المستر مالكولم ، بأى حال من الاحوال . ان سقوط وزارة ومجيبى وزارة أخرى الى كراسى الحكم خليق به أن يوهن العلاقات مع القادة الصهاينة الى حين . وفى حالة وجود بلفور ولويد جورج فى السلطة فلا يمكن أن يكون الوهن . الا ابطاء مؤقتا . ويجب ألا يغيب عن البال أن للصهاينة السياسيين خلافاتهم الداخلية التي لا بد أن تلون ما يكتبون . وفى الصراع على الزعامة الذى تطور فيما بعد بين شردمة وايزمان وشردمة برانديز ينكمش أو يتضخم نصيب زعماء كل جماعة من جماعات الصهاينة فى العمل من أجل القضية الصهيونية منذ بدايته ، تبعا لآى من هذه الجماعات بالذات ينتمى الكاتب الذى يقرأ له القارئ .

وقد يزعم زاعم أيضا أن تبجح الصهاينة يكسب فى بعض الاحيان أناسا موالين للصهيونية مقتنعين بعقيدتها من بين الجنرالات والسكرتيرين المساعدين الذين يتصرفون طبقا للتعليمات التى تصدر اليهم من رؤسائهم ومن الوزارة بالتالى وحسب . وليس هناك دليل يقودنا الى معرفة دوافعهم . . . قد تكون هذه الدوافع عن اقتناع وقد تكون نفعية بحته .

وبهذه التحفظات يمكننا الآن أن نتابع قصة الأحداث منطلقين من ذلك الاجتماع الذى عقد فى شباط من عام ١٩١٧ • لقد عقد هذا الاجتماع فى دار الدكتور موشيه جاستر • وجاستر هذا رجل قدير بين شرازم الزعماء الصهاينة المتزايدة عددا • وقد وقع فى عين السير مارك سايكس موقعا جدي حسنا •

ولم يكن السير مارك سايكس بين الحاضرين فى ذلك السابغ من شباط بوصفه سكرتيرا مساعدا لوزارة الحربى ولكن بصفته فردا • • • « بصفته الشخصية » وما هذا الحال الا وهم من تلك الأوهام التى تضى على الدبلوماسية جوا تطمح اليه النفوس • أما حين كان يرسم معاهدته مع المسيو بيكو ، فقد كان على التقيض من ذلك • • • كان حاضرا بوصفه موظفا كبيرا فى مكتب الخارجية •

وفى بيت الدكتور جاستر وجد ، بالاضافة الى مضيفه ، اللورد روتشيلد ، والسير هربرت صمويل ، والسادة جيمس دى روتشيلد ، وكووين ، وبستونيش ، وهارى ساكر ، والدكتور وايزمان ، والمسيو سوكولوف • وما من شك فى أنهم كانوا جميعا حاضرين بكل صفاتهم الشخصية وغير الشخصية التى يمكن أن تخطر على البال • ولم يكن هذا الاجتماع ، وأيم الحق ، اجتماعا بكل معنى الاجتماع • • • لولا أن ذينك الرجلين من آل روتشيلد اللذين أضفيا شرف اسمهما على هذا الاجتماع كانا ممن ظهروا فى مقدمة السفينة الصهيونية السياسية فى وقت هو من قرب العهد بما يكفى لأن يوضح لنا المراد من هذا الاجتماع • انهما لم يعودا فى غرفة الآلات ، أو فى مكان الدفة من الحركة الصهيونية ، فى ربه دون مرتبة رهوسهما المدبرة • وكان الدكتور وايزمان والدكتور جاستر والمسيو سوكولوف ، من الناحية الأخرى ، يتولون ضبط سرعتهم وتعيين طريقها • وكان هناك داعية آخر من دعاة هذه الحركة الصهيونية السياسية قدر له أن يصبح فيما بعد النائب العام لإدارة فلسطين ، هو المستر بنتوتيش • وكان هذا البنتوتيش قد كتب فقال : « ان سيادة الدولة ليست أمرا حيويا بالنسبة للمثل الأعلى اليهودى القومى • » لكنه شدد على ضرورة منح المنشآت الصهيونية والمستعمرين الصهاينة فى فلسطين امتياز « الحقوق الخاصة » التى لا تعدد السيادة مادامت تغتصب من أهل البلاد حق الاشراف على هؤلاء المستعمرين ومحالهم التى يستوطنونها • كما كان قد تحدث أيضا عن الرقعة التى تمتد من البحر الأبيض المتوسط حتى الفرات واصفا إياها بأنها « فلسطين الكبرى » وقائلا انها تزخر بالروابط التاريخية اليهودية ، وانها تصرخ مناداة « سكانا ينقذونها

من ضياع وتعتقن القرون . » وكان من رأيه أن « الاستعمار اليهودي قد
يمتد » الى هذه البلاد .

أما السير هربرت صمويل فكان يمثل أيضا أشكال الصهيونية التي
تقول ببلوغ الهدف تدريجيا . لقد كان يهدف الى إقامة ذلك الشكل من
أشكال الحكومة في فلسطين الذي يتمخض في المدى الطويل عن حكم
يهودي . أما المستر هاري ساكر فكان ما يشبه الوكيل لمصالح غير اليهود
وممثلا مباشرا للعاملين في جريدة المانتستتر جارديان .

فيالها من مجموعة مركبة اذا أخذت ككل . لقد كان كل واحد من
الحاضرين يحمل في رأسه دولة صهيونية تخلف عن دول الآخرين ، لكن
بعضهم كان من « عدائي المسافات الطويلة » كالسير هربرت صمويل ،
وبعضهم من « عدائي المسافات القصيرة » وعلى نطاق لا تستثنى منه
القفزات الطويلة ولا الجريبات القصيرة . ولهذا لم يعرض هذا الاجتماع على
السير مارك سايكس مقترحات ايجابية ، وانما تحدث حديثا محددا ولكن
بصورة عاثمة . فقليل للسكرتير المساعد لوزارة الحرية انه يجب ألا يكون
هناك تدويل لفلسطين لأن الصهاينة يرغبون في حماية بريطانية « مع اعطاء
اليهود كامل الحقوق لكي يتطوروا كامة » . وكانت هذه هي المرة الأولى
التي تستخدم فيها كلمة « يجب » مع حكومة صاحب الجلالة . أما هذا
الطريق على هذه الحماية الذي جاء في مذكرة بتروجراد والذي أوردناه فيها
في هذا الكتاب فكان ما يزال مستورا بعد .

وقرر هذا الاجتماع أن يضيق نطاق المفاوضات ويحصره في عدد
قليل من الناس (وربما في بضع سياسات بمحض الصدفة) ووقع
الاختيار على المسيو ناحوم سوكولوف ، الذي كان الوكيل الأول للجنة
التنفيذية الصهيونية العالمية ، ليواصل هذه المفاوضات مع السير مارك
سايكس . ورتب أن ينضم المسيو بيكو اليهما ليكون ممثلا للحكومة
الفرنسية . وأجرى هذا مناورة مع سايكس في اليوم التالي . « وهكذا
افتتح ، » كما يقول التقرير الرسمي الصهيوني عن هذا الحادث ، « فصل
في المفاوضات التي انتهت بعد تسعة أشهر بتصريح بلفور . »

وقد أرسلت محاضر هذا الاجتماع فورا وبالتسيفرة الى المنظمة
الصهيونية في الولايات المتحدة . وكان امتياز استعمال الشيفرة الرسمية
هذا امتيازاً منطقياً بكل تأكيد . اذ بدأت المنظمة الصهيونية في الولايات
المتحدة بكون لها يد في رسم السياسة البريطانية وفي تنظيم الشؤون
البريطانية .

وبعد هذا الاجتماع الذي تم بين السير مارك سايكس والمسيو بيكو وقادة الصهاينة توالى الاجتماعات ، وكذلك عقدت اجتماعات أخرى أقل رسمية بين الدكتور وايزمان وبين مختلف رجال الدولة ومختلف الناشئين . تم انصرم شهر شباط هذا بالليل غير هذا ، مما له فائدة تذكر . . . اللهم الا ارسال نظرة حانية الى العرب الأبرياء السرفاء الذين كانوا يتحركون آنذاك شمالا نحو الوجه ، الواقعة على أطراف الحجاز ، ويمسون للمرة الأولى حدود استقلالهم الجديد ، كما كانوا يظنون . وتقع الوجه هذه على الساحل ، على بعد يزيد على مائتى ميل الى الشمال والغرب من المدائن . واحتلالها يعنى تهديد سكة الحديد ، التى تمتد المدائن بالحياة ، من ناحية جناحها . ومعناه أن المدائن ذاتها ستكون مهددة بالعزل اذا ما قطعت سكة الحديد تلك .

وكان لورانس مع فيصل ، ويواصلان الزحف راكبين أو ماشيين على الأقدام . وكان معهما خمسة آلاف رجل يمتطون الجمال ويزحفون عبر الصحراء نحو هدفهم . . . هدف نصفه حقيقى ونصفه الآخر تصورى . وفتح العرب الخمسين ميلا الأخيرة وزادهم الماء وحده اذا لم يكن لديهم ما يأكلون . لكنهم لم يأبهوا بذلك من جراء قوة ذلك الدافع الذى كان يدفعهم . فيقول لورانس : « لقد كان التقدم صوب الوجه أهم شأغل يشغلهم . وكانت هذه هى المرة الأولى ، منذ عهد لا تعيها الذاكرة ، التى يترك فيها رجال قبيلة مراتعهم ، ويسرون فيها فى أراضى الغير مسيرة مائتى ميل ، يحملون معهم متاعهم وأسلحتهم وطعامهم ، ودون مطمع فى النهب والسلب ، أو طلب للثأر . » وفى ذات ليلة أشار زعيم بدوى شاب موجهها نظر لورانس الى تجاوىف الشعاب الرملية « التى كانت تبين وتختفى بومض وخبو نيران المفارز العسكرية المبعثرة . لقد طلب منى أن آتى وأنظر . وشملها بحركة من ذراعه وهو يقول مبتسما : « اننا لم نعد أعرابا بل شعبا . »

وفى الليلة التالية ، وكل رجل من هؤلاء الرجال يدرك جيدا مايمكن فى مخاطرتهم العظيمة هذه من مخاطر ، ردد شيخ قبيلة أخرى هذا الحاطر عينه مرة أخرى على مسمى لورانس والى حد كبير . وكان شيخا عجوزا فى هذه المرة ويدعى عودة بن زويد . لقد صحح هذا كلمة كان لورانس قد قالها عن جيشهم فقال له بكل رزانة وجد : « انه ليس جيشا . انه عالم يزحف على الوجه . »

وسبقتهم الى الوجه فرقة أخرى من المتطوعين العرب جاءوا من اتجاه

آخر ، فاستولت على الوجه الآخر . واشتركت مدافع بارجة بريطانية في
ارهاب الحامية التركية . وتم انزال البحارة البريطانيين فيها بعد أن مهد
لهم العرب سبيل النزول . فتدفقت القبائل العربية للانضمام تحت الاعلام
العربية . « وكانت الطرق المفضية الى الوجه تعج بالمتطوعين والرسائل
وبشيوخ القبائل الكبار الذين جاءوا ليقسموا يمين الولاء . » وجعلهم
فيصل يقسمون بالقرآن « على أن يتوقفوا حين يتوقف ، وعلى أن يسيروا
حين يسير ، وعلى ألا يطيعوا أى تركى ، وعلى أن يعاملوا بالرافة كل من
ينطق باللسان العربى ، وعلى أن يقدموا الاستقلال على الحياة والأهل
والأموال . »

وقد ردت الرمال أصداء هذا الايمان . كما شهد آذار انجازات
عملية أخرى تتم في لندن . فلقد أرسل مكتب الخارجية مذكرة الى الوزارة
الحربية يوضح فيها الفوائد التي تعود على بريطانيا من تأييدها للصهيونية .
وكانت الثورة الروسية قد اندلعت في الناني عتصر منه . فظن أنه لما
كانت هناك شخصيات يهودية كثيرة مشتركة في هذه الثورة فقد يصبحون
أكثر تحجيذا لاستمرار التحالف مع الدول العربية اذ اقدم لهم هذا
(الحلوان) . فاستغل زعماء الصهاينة هذا الوضع ليخرجوا عننا وبفحة
الى معارضة اتفاقية سابكس وبيكو . لقد كانوا يعلمون شيئا عن هذا
المشروع البريطاني العام لتدويل فلسطين بيد أنهم لم يكونوا يعلمون بعد
أنه مشروع سبق الفصل فيه وضمن في اتفاق انجلو فرنسى . لكنهم
الآن قد حصلوا على معلومات عنه ؛ عن خطوطه العامة ، من مصدر
فرنسى .

وتعطينا السيدة واجديل فكرة عن هذا الوضع الذى كان قائما
آنذاك ، فتقول : « تعلقت أول مقابلة جرت بين الدكتور وايزمان وبلفور
في مكتب الخارجية » ، ويلاحظ القارىء هذا الارتقاء الجديد الذى طرأ على
وضعية الدكتور وايزمان . « فى آذار من عام ١٩١٧ ، بالمتاعب الناجمة
عن المطالب الفرنسية والايطالية في فلسطين . فاقترح بلفور أن أحسن
شئ يمكن عمله ، اذا ما تعذر الوصول الى اتفاق مع الفرنسيين ، هو جعل
الحماية الانجلو أمريكية المشتركة هدفا . فخالج الشك الدكتور وايزمان
في سلامة العمل تحت امرة سيدين قد تكون مبادئهما العامة فى الادارة
متباعدة جدا . لكنه وأصدقاؤه كانت تكدرهم أكثر من هذا بكثير الاساعات
عن تفسير فرنسى بريطانى لفلسطين ، يضع طبريا وجزءا من الجليل
في أيدي الفرنسيين . والحق هو أن هذا كان مدار اتفاقية سايكس
وبيكو ، التي كانت قد تسربت الى الناس أطراف منها . »

فلسطين اليكم الحقيقة – ٢٢٥

أما أن للعرب حقوقا في فلسطين لا يبيح لأية دولة أوروبية المطالبة بها ، وأن ذلك البلد يأهله العرب ، فهذه حقائق متعبة تجاهلها اللورد بلفور ؛ بكل مناصرة طبعاً . ونصح ، هو ومارك سايكس ، القادة الصهيونية بأن يذهبوا الى باريس وروما ويلحفوا عليهما بما يريدون . ففعلوا . لقد قرروا أن يحاولوا أولا مقابلة مراجع الكي دورسييه . وفي وسعنا هنا أن نستشهد بالمسرح لاندمان مرة أخرى .

لقد أسدى المستر مالكولم مرة أخرى خدمة جلي للقضية الصهيونية . لقد كان ، بوصفه عضوا في الوفد الارمني القومي . على معرفة شخصية بكبار الرسميين الفرنسيين المتوطة بهم أمور الشرق الأدنى ، وبخاصة المسيو جوت والمسيو بيكو والمسير دي مارجرى . وكان هؤلاء المفاتيح الثلاثة لأغراض الصهاينة . فذهب مالكولم الى المسيو بيكو أولا ومهد السبيل أمام سوكلوف . وكان سوكلوف هذا قد حاول من قبل أن يكسب تأييد اليهود الفرنسيين في محاولة كسب مصفين له من بين أعضاء الحكومة الفرنسية فلم يفلح . وبذلت جمعية « الحلف الاسرائيلي » كل جهد لاقتناعه بعدم فتح موضوع الصهيونية مع الوزراء .

بل حتى لم يستطع البارون ادمون دي روتشيلد (صديق فلسطين الحميم) وصديق الزعماء الصهاينة أن يسأل الحكومة الفرنسية أن تتخلى عن دورها التقليدي كحامية للمسيحيين في الشرق الأدنى لصالح بريطانيا . فكان الموقف على هذه الدرجة من التعقيد لدرجة أن سوكلوف كان يشك كثيرا فيما اذا كان سيجد أذنا صاغية في الكي دورسييه . الا أنه تغلب على جميع هذه العقبات بمساعدة مالكولم . وقرأ زعماء اليهود الفرنسيين بالذهول والاضطراب الشديد في جريدة الطان Tems أن المسيو بيكو وزير الخارجية قد استقبل المسيو سوكلوف . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل اكتشفوا أيضا أنه قد دعي فعلا أن يبقى حتى يتناول الغداء معه . فاتصل المسيو جاك بيجار والمسيو سيلفان ليفي ، وكلاهما من جمعية « الحلف الاسرائيلي » بالفندق الذي ينزل سوكلوف فيه ليتثبتا من صحة ما سمعا ، فانتهى بهما الأمر الى أن يدعواهما نفسيهما المسيو سوكلوف .

ان مساندة سكرتير الخارجية البريطانية والشخصيات الأخرى في الحكومة البريطانية قد تجوّهلت في هذا التحصيل . في حين كانت هذه المساندة العون الأكبر بالنسبة للمسيو سوكولوف . وهو فضلا عن ذلك قد التقى بالمسيو بيكو في لندن في صباح اليوم الذي أذقب اجتماع السابع من شباط . حقا ان المسيو بيكو لم يكن مشجعا للمسيو سوكولوف آنذاك . بيد أن هذا الدبلوماسي قد أردك ، حين قام سوكولوف بزيارته في باريس ، الى اى مدى قوى كان ذلك التأييد الذي يتجمع في إنجلترا مساندا للصهيونية السياسية .

بيد أن ما هو جدير بالاهتمام كل الجدارة هنا ، في نحصيل المستر لاندمان ، هو هذه الصراحة بصدد موقف اليهود الفرنسيين . ان الحال في باريس هو نفس الحال في لندن . فزعماء اليهود والفرنسيين لا يحبون ضلال الصهيونية ولا مقترحاتها التي تهدف الى الاستيلاء على فلسطين . وقد ظل المسيو سيليفان ليفي ، وكان ابرز اليهود الفرنسيين وأعظمهم مكانة ، وكان ينتمي الى الكوليج دي فرانس ، ظل مناهضا عنيدا ، ومنافحا لا تلين له قناة ضد النظريات الصهيونية السياسية .

وقد مكث سوكولوف ورفاقه قرابة شهر في باريس وتغلبوا أخيرا على نفور الحكومة الفرنسية منهم . « أما كيف تغلبوا على هذا النفور » ، فتقول السيدة داجديل . « انه أمر لا دخل له بهذه القصة » . وربما لن يدخل في أى قصة أخرى أبدا ولو أن الوعد بتغيير موقف الولايات المتحدة قد لعب دوره بلا شك . « وقد أرسلت النتيجة عبر الاطلنطي من قبل المسيو سوكولوف من باريس الى زعماء الصهاينة الأمريكيين في الرابع والعشرين من نيسان . لقد اتفق مكتب الخارجية الفرنسية معهم على أن انتصار الحلفاء في الشرق الأوسط سيبنى الاعتراف بالصهيونية . » (عن السيدة داجديل) .

أما في إيطاليا فان من المشكوك فيه أن يكون المسيو سوكولوف قد توصل الى اتفاق واضح محدد كهذا يبرق به الى شركائه في الولايات المتحدة ، وان كان يبدو عليه أنه راض بما فيه الكفاية من نتيجة الزيارة التي قام بها الى إيطاليا ، حيث مهد السير مارك سايكس له السبيل لدى الفاتيكانيان ، ولدى المستشارية ، ولدى السفارة البريطانية ، أحسن تمهيد . وقد فتحت محادثاته التي أجراها في الفاتيكانيان باب

الحديث عن وضع الأماكن المقدسة بالنسبة للعالم المسيحي في دولته الصهيونية .

ويقص علينا السيدان وايد ودي هاعاس في مؤلفهما المشترك انه من روما « كان يبرق بكل انجاز الى المنظمات الصهيونية عبر أسلاك البرق التي كانت تشرف عليها الحكومة البريطانية . » كما كان الرسل البريطانيون يقومون بنقلها أيضا . »

وكان هذا دليلا على قوة نفوذ الزعماء الصهيونية المتعاطمة ، والتي كان هذا الامتياز التلغرافي سمة خارجية من سماتها ، لدرجة أنه تسنى لهم أن يحاولوا التوصل الى إلغاء معاهدة سايكس وبيكو . والأدهى من هذا أنهم قد نجحوا في التوصل الى ذلك ٠٠٠ أو في التوصل الى ما هو معادل لإلغاء تلك الاجزاء منها التي لا يرضون عنها . ان الحكومة الفرنسية لم توافق على الاعتراف بالصهيونية وحسب ، بالرغم من أنه لم يكن لها مكان في أحكام معاهدة سايكس وبيكو ، بل محيت من أصل هذه المعاهدة المنطقة الدولية أيضا ... ان شيئا لم يصرح به أو يكشف عنه النقاب بصورة رسمية ... لكن التدويل قد اختفى ، الى الأبد . وحين أصبحت وثائق سايكس وبيكو المعدلة هذه أساسا لمعاهدة سيفر المؤودة ، في عام ١٩٢٠ ، كانت تلك العبارة منها التي تقضى بالتدويل قد اختفت ، وكان قد اختفى معها كذلك ذلك الاشتراط ذو الضمير الذي يقضى بوجوب أن تستشير الهيئة الدولية الحاكمة المتوقع قيامها في فلسطين ممثلي العرب قبل أن تصرف في مستقبل هذا البلد وأهله ... » لقد كان هذا التدويل يلقي ، على حد ما ورد في مذكرة بتروجراد « يلقي المعارضة من جانب الدوائر اليهودية ذات النفوذ !!! » أو كما يبين لنا كتيب كتبه المستر سايدبوتام حين يقول : « في عام ١٩١٧ أخذت آراؤنا بصدد التسوية التي ستتم بعد الحرب تصطبغ بصبغة واقعية أكثر ، ورسخها دخول الولايات المتحدة الحرب » .

وكان لدخول الولايات المتحدة هذا آثار هامة على مصير فلسطين من عدة نواح . فقد جرى اصدار بيان هنا عن أهداف الحرب في الشرق الأدنى بمبادرة من الحكومة . وكان موجها بصفة خاصة الى جهود الولايات المتحدة . وهو يجرى على هذا النحو .

لقد اقترح تبني ما يلي باعتباره الخطوط العامة لمشروع يهدف الى إعادة توطين اليهود في فلسطين وفقا للأمال القومية اليهودية :

١ - أساس التوطين :

الاعتراف بفلسطين وطناً قومياً لليهود .

٢ - وضع السكان اليهود في فلسطين بوجه عام .

يكون للسكان اليهود الحاليين أو الذين يذهبون الى فلسطين في المستقبل أن يتمتعوا في جميع أرجاء فلسطين وينالوا كافة الحقوق القومية والسياسية والبلدية .

٣ - الهجرة الى فلسطين :

تمنح الحكومة صاحبة السيادة على فلسطين حقوق الهجرة الى فلسطين لكافة يهود جميع البلدان ، كاملة وغير مشروطة .

٤ - تكوين شركة مساهمة :

تمنح الحكومة صاحبة السيادة على فلسطين ترخيصاً لشركة يهودية لتعمير وتطوير فلسطين . ويكون لهذه الشركة أن تحصل على أية امتيازات للقيام بأعمال ذات صفة عمومية ، قد تكون منحت أو تمنح من الآن فصاعداً من قبل هذه الحكومة صاحبة السيادة على فلسطين ، ويكون لها أن تقوم بتنفيذ هذه الامتيازات . وتكون لها حقوق التملك بالشفعة في أراضي التاج أو الأراضي الأخرى التي لا تكون مملوكة ملكية خاصة أو ملكية دينية (أراضي الوقف - العرب) ، وتكون لها كذلك مثل تلك الصلاحيات والامتيازات التي تكون أمراً مألوفاً في صكوك الامتياز أو أنظمة هيئات الاعمار المماثلة .

٥ - الاستقلال الطائفي الذاتي :

يكون للطوائف اليهودية في كافة أرجاء فلسطين أن تتمتع بالاستقلال الذاتي في كافة الأمور التي تؤثر على راحتها الدينية ، أو الطائفية ، وعلى تعليمها .

فماذا كان هذا البيان « البريطاني » عن أهداف الحرب في الشرق الأدنى ؟ إنه ، مرة أخرى ، لا يعدو كونه ، وثيقة صهيونية أخذت منهم واعيد إعلانها . إنه برنامج تشرين الأول السابق بكامله ، وبإضافة عبارة « الحكومة صاحبة السيادة » وعدة عبارات أخرى من العبارات الأصلية

عادت الى الظهور فيه من جديد . ولقد وصف هذا البيان حين اصدر للمرة الاولى باسم « برنامج تشرين الاول » بأنه « أساس للتباحث » بين الصهاينة والقاعة البيضاء . وما حل هذا الحين الا كان هذا « الأساس » قد زحف وتحول الى البناء الأساسي لبيان الحكومة الوزاري عن سياستها ... فياللسحر :

وليس مضیعة للوقت أن نتوقف هنا لنلخص تلك الخطوات السحرية التي توصلت بها الصهيونية الى هذا المركز المذهل الذي اكتسبته بيان نيسان هذا . فلنتمعن في مراحلها . ان الصهيونية تخلق أولا وقبل كل شيء الباب بعض المشتغلين بالأدب . وقليل من الكتب التي تعرض نظرياتنا ترد الى انكلترا ، وهي في الدرجة الأولى أما بالروسية أو بالألمانية . وتحمل حفنة من الصهاينة المشتغلين بالأدب نفسها الى انكلترا كذلك وترجم عقيدتها الى هذا البلد بكل معنى كلمة الترجمة . وتجد ثقافتهم هذه وسطا ملائما للنمو في ذهن عضو من أعضاء الوزارة من بنى دينهم . وتظل هذه الثقافة تموج في ذهنه حتى ينفس عنها على الورق في شكل مذكرة . وتنتقل هذه المذكرة الى زملائه في الوزارة فتظل تتطور من خلالها ، وترد اليها اضافات من المتأدين أو المستأدين الأصليين ، حتى تتحول الى مذكرة أخرى هي مذكرة بتروجراد التي تستفسر نصف استفسار عن هذه الصهيونية ، وتعلن نصف اعلان عن الفوائد التي ستنتج عن رعايتها ، اذا ما أمكن العثور على شكل مرض لها .

ولكى يهيا هذا الشكل فان دعاة هذه العقيدة يقومون بشبوبيها وتفصيلها تبعا لذلك بأسلوب يصفونه بأنه رسمي . لكنه أسلوب رسمي بالنسبة لهم وحدهم ماداموا لا يتمتعون بأى صفة رسمية . وتقدم هذه الصورة الجديدة الى وزير بريطاني . الى السفير البريطاني في باريس . ويعترف بها بعدئذ بوقت قليل أو تقبل بالأحرى كمكاتبة رسمية صادرة من قبل مرجع من مراجع الحكومة البريطانية . ومن ثم يتحول مقدموها ومؤلفوها أنفسهم الى أشخاص رسميين بطريق حتمي .

وتكون الخطوة التالية بالنسبة لدهاقنة الصهاينة ، الذين أصبحوا الآن أشخاصا رسميين ، تقديم وثيقة جديدة . . . تقديم أحدث تجسيد لكل ما سلف ، ألا وهو برنامج تشرين الاول . وتقول الحكومة البريطانية انها ستولى هذا البرنامج الاعتبار ومن ثم تشارك فيه نصف مشاركة . ثم سرعان ما تخرج هذه الحكومة أخيرا ببيانها عن أهداف الحرب ، الذي يتكشف عن انه مطابق لوثيقة تشرين تلك في كل ما هو مهم .

وهكذا يصبح ما بدأ فكرة ، بعيدة عن التحقيق ، في رءوس بضعة أغراب
في أطراف أوروبا البعيدة ، يصبح عقل وسياسة الامبراطورية البريطانية ،
وبالرغم من أن هذه التطورات كلها قد حدثت في بحر ثلاث سنين
فإن عنف عملياتها قد فات على الملاحظة وبدأت كأنما هي أمر يتفق
وناموس الأشياء .

بيد أن الواقع هو أن نمو الصهيونية لم يكن طبيعياً على الإطلاق .
وهو لا يرقى في التشييد الى شيء يقرب من خدعة شجرة المانجو ...
هذه الخدعة التي تمارس الآن في صورة سياسية لها وعلى أوسع نطاق
وبأكثر الايدي خفة في تاريخ اغواء السياسة والساسة .

وفي ذلك الشهر عينه الذي أخرجت فيه شجرة المانجو أزهارها
حدث حادث آخر مثير . لقد غادر اللورد بلفور بريطانيا في زيارة الى
الولايات المتحدة . وكان الهدف الأساسي من هذه الزيارة هو توثيق
عرى العلاقات مع ذلك البلد . وكان آنذاك قد انضم الى الحلفاء في
ميدان القتال . ونجح بلفور في هذا المنحى نجاحاً يدعو الى الإعجاب .
ولكن كان في ذهنه كذلك هدف أقل الا وهو دفع المشروع الانجليزى
الامريكى الصهيونى خطوة الى أمام . فقابل المستر برانديز ، الزعيم
الصهيونى المتمتع بثقة الرئيس ويلسون ، وورقة الصهيونية الراحلة في
الولايات المتحدة ، بعد وصوله اليها بوقت قصير ، في حفلة اقيمت له في
البيت الأبيض . « انك أحد الأمريكين الذين طالما تقف الى لقائهم ،
« قال بلفور » . وبعد يوم أو يومين جرى بينهما أول حديث من حديثين
... ويبدو من تلك البوادر التى ما زالت حية من تلك المحادثة أن بلفور
قد وعد الصهيونية بتأييده الشخصى ، وكان من قبل قد فعل هذا الشيء
مع الدكتور وايزمان . لكنه الآن سكرتير الخارجية البريطانية . « (عن
السيدة داجديل) .

ويبدو لى ان السيد القاضى برانديز قد اخذ يؤكد لبلفور
باستمرار ، وطوال مدة اقامة البعثة البريطانية ، رغبة
الصهاينة الأمريكين في أن يروا إدارة بريطانية تنصب على
فلسطين . وأنه لم يبد تشجيعاً كبيراً لفكرة اشتراك الولايات
المتحدة في الحرب ، ملاحظاً أن معظم المواطنين الأمريكين
يعارضون الحرب وأنه يجب ألا يلتزم بمسؤوليات تخرج
عن هذا الاتجاه الشعبى . وكانت رسائل الدكتور وايزمان
وبرقياتة تجعله دائماً مطلعاً أو في الاطلاع على وجهة النظر

البريطانية . وقد قال وايزمان له ان انكلترا ليست متلهفة على إلحاق فلسطين بها ، وقد لا تهتم بأن تعارض التدويل الذى سيكون ماحقا بالنسبة للآمال الصهيونية ، لولا تلك العاجزية التى تتراعى لها من فكرة التوطين اليهودى على نطاق واسع . ومن ثم يجب أن تكون السياسة الصهيونية بذلك المطلب البسيط من اقامة حماية بريطانية على فلسطين ، ورفض كل مشروعات أخرى من شأنها أن تثير الغير (بكسر الفين وفتح الياء) الجديدة ، والسعى إلى اقامة نوع من الاشراف المشترك . وقد تلقف الصهاينة الأمريكيون هذه النقطة .

ومن ثم فإن السيدة داجديل ، التى أوردت عنها هذه النبذة تكتشف لنا مزمرة (ولو انه اكتشاف جاء متأخرا نوعا ما بالتأكيد) أن « دبلوماسية قومية يهودية قد خرجت الى حيز الوجود » .

فذلك الـ «مطلب البسيط من اقامة حماية بريطانية على فلسطين» تحتوى على شكل ما من أشكال « الاشراف المشترك » قد وصف قبل ذلك بستتين فى مذكرة وايزمان ، الذى قال فى هذه المذكرة : « لذلك أرى أن يؤخذ بالحل الوسط : يأخذ اليهود البلاد ، ويقع على عاتقهم عبء تنظيمها كله ، ولكن يعملون فى مدى السنوات العشر أو الخمس عشرة التالية فى ظل نظام من حماية بريطانية » . وهذه كلمات قد صيغت ، والحق يقال ، بمنتهى الدبلوماسية . أما شدة تقدير ما الذى يمشيه أخذ البلاد - هذا من قبل اليهود بالنسبة لأهل العرب فإن وصف تلك العملية بأنها « عبء التنظيم كله » ليس بالشئ الذى تشتمر منه نفس مؤلفة كتاب الأمير .

وأيا ماكانت الصورة التى تم التعبير بها عن مشروع الحماية هذا فإن برانديز والصهاينة الأمريكيين قد تبناه . ولقنه برانديز للرئيس ويلسون . ولم تكن انظمة « الانتداب » قد تفتت عنها الاذهان بعد . وقبل أن تنتهى زيارة بلفور أنهى بلفور إلى الرئيس خبر اتفاقية سايكس وبيكو (شأنها فى ذلك شأن جميع المعاهدات السرية المخجلة) ولكن ليس هناك ما يدل على ان الرئيس ويلسون قد ألقى إليها كثير بال . أما عن المعاهدة العربية الانجليزية فإن بلفور ، كما قد يتخيل الانسان ، لم ينبس ببنت شفة . ويخيل لى كذلك أن المستر برانديز لم يخبر بخبر هذا الهيكل العظمى الموضوع فى خزانة مغلقة .

وبينما كان سكرتير الخارجية ما يزال في الولايات المتحدة جرت محاولة لنقل أخبار معاهدة سايكس وبيكو الى مكان يختلف عن هذا المكان كل الاختلاف . لقد ذهب السير مارك سايكس والمسيو بيكو الى جدة ليخبرا الملك حسين بخبرها . وقد تم هذا بمبادرة من سايكس ، وإن كان الواقع هو ان الحكومة الروسية الجديدة كانت قد فضحت جميع الاتفاقيات السرية التي تقسم الشرق الأوسط ، وانها كانت تستعد لنشرها ، فكان لا مفر للحكومة البريطانية من أن تكون صريحة . ويقول الكاتبين ليدل هارث : « ولكي يخففا من وقع الصدمة ، ذهب سايكس وبيكو الى الحجاز في أوائل آيار ليتسنى لهما أن يشرحا للحسين ولقيصل الخطوط العريضة لهذه المعاهدة ، ونوايا الحكومة البريطانية » . وقبل أن يصلا الى الحجاز ، كان هجومنا الأول على فلسطين - والذي شنه السير أركيبالد موراي ، في الساس والعشرين من آذار ، بهدف احتلال غزة كمقدمة للزحف على القدس ، - قد أخفق في بلوغ غايته . وكانت قد جرت محاولة ثانية كذلك ولحق بها الفشل أيضا ، فأصبح واضحا أن الاستيلاء على فلسطين أمر لا يمكن تحقيقه الى حين .

وغير هذا من خطط هذين المبعوثين . ويتابع الكاتبين ليدل هارث كلامه فيقول : « وفي الوقت الذي وصلا فيه كان انهيار الهجوم البريطاني على غزة قد جعل آفاق سورية بعيدة جدا . ومن ثم رأى المبعوثان أن من الأفضل أن يبقيا معاهدتهما تحت ستار رقيق من الضباب حين يترجمانهما الى الملك حسين . وربما ساعدتهما في ذلك مصاعب الترجمة العربية وقد ساعدتهما فعلا . ففي اليوم الذي اجتمعوا فيه . وكان التاسع عشر من آيار - سرح السير مارك سايكس بالملك حسين في حديث طويل ، يجري على النهج البرلماني في بلادنا ، ولم يفهما أحسده فهما تماما . وكان أقلهم فهما المترجم الذي كان يونانيا . فكان الذي نقله المترجم الى الحسين بعربية ركيكة أعسر فهما . فأخذ الحسين يصرخ قائلا : « لست أفهم ما تقول ، » وبضرب بيده على فخذه حيث يحتفظ بمعاهدته مع مكماهون في جيب خاص من جيوب قبائه . انه لم يكن يدعها تخرج من حوزته أبدا . وجرب السير مارك حديثا آخر ، وثالثا المترجم وهو يبذل المزيد من الجهد . وضرب الملك حسين بيده على فخذه مرة أخيره وصرخ قائلا : « كفى ! لقد فهمت ! » فانتبهت الاجراءات . ولم يلح الزائران طلبا للمزيد من الحديث لأن الحسين كان قد استشاط غضبا . ان ما وقر بذهنه مما استطاع أن يفهمه من تلك اللغة العربية

الانجلو هيلينية هو أن الدافع من وراء هذه الرحلة اقناعه بأن يتخلى كلية ، وفي نفس المكان والزمان ، عن حقوق العرب في الألوية الساحلية من سورية التي كان قد وافق على أن « يفض طرفه عنها » فقط الى أن تنتهى الحرب .

وكان فيصل مع أبيه في هذه المناسبة التي وقعت في إحدى ضواحي جده . وكذلك الحال مع عدد من الزعماء السوريين الذين كانوا في الحجاز آنذاك ، فاعتراهم ما اعتراه من كدر واشمئزاز ، رغم أنهم لم يتبينوا من هذا الأمر أكثر مما تبينه الحسين . وقد سأل فيصل الكولونيل (العقيد) نيوكومب ، رفيق لورانس في السلاح ، والذي كان بين الحاضرين ، عما يعنيه هذا كله ، فقال نيوكومب لفيصل بكل بساطة ، وهو يثق في الوعود التي سمعها : « ان كل ما أخذه قد وعد به . » ورحل سايكس وبيكو في اليوم التالي .

وكانت شائعات عن تقسيم سايكس وبيكو قد وصلت في ذلك الحين الى معسكر القوات العربية بصورة متناثرة تتناقلها الأفواه ، عبر خطوط القتال التركية . ويقص علينا لورانس كيف تملص من سؤال سألته إياه « نوري شلعان المجوز » الذي أرسل به ، على ما يبدو ، ليتحرى منه الخبر . فأعطاه لورانس - وشأنه في ذلك شأن نيوكومب ، وان كان في الحقيقة أقل ثقة في عهودنا منه ، لكنه كان يشاطره الرغبة نفسها في عدم تدمير ما لدى العرب من ثقة واطمئنان الى عهود البريطانيين - أعطاه جوابا مطمئنا . وكان نوري يحمل مجموعة من الوثائق وسأل أيا من هذه العهود البريطانية المتضمنة فيها بصدق . « وكانت هيئته تدل على أن نجاح أو فشل فيصل يتوقف على حواشي . فكانت نصيحته التي لفظتها ، وخيبة الفأل تأخذ بحواشي ، هي أن يصدقوا أحدث هذه المتناقضات تاريخيا . » والواضح هو أن مجموعة طوابع نوري شلعان المجوز من التصريحات البريطانية لم تكن تحتوى على أحدث ما ظهر منها حقا .

وفي الوقت ذاته طلب زعماء عرب آخرون من لورانس أن يوقع على ظهر وعود الحكومة البريطانية باستقلال العرب . أنه لم يكن لديه « أى علم سابق أو مستبطن عن عهود مكماهون وعن معاصرة سايكس وبيكو . » لكن بصيرته أنبأته بأننا « اذا ما كسبنا الحرب فستكون العهود التي قطعناها للعرب حبرا على ورق . ومع ذلك فقد كان الهام العرب هو ادانتنا الأساسية في كسب الحرب في الجبهة الشرقية . ولهذا

أكدت لهم ان بريطانيا ستفنى بكلمتها نصا وروحا * وبهذا الموساة قاموا بالأعاجيب ، لكن بدلا من أن أكون فخورا بما قمنا به معا ، كنت بالطبع أشعر بمرارة الخجل على الدوام . »

لكن لورانس ، حين نمت الى علمه معلومات دقيقة عن اتفاقية سايكس وبيكو ، اتخذ موقفا مغايرا وأخير فيصلا خبرها بصراحة . « كنت قد فضحت لفصل ، لحسن الحظ ، وجود هذه المعاهدة ، واقنعتة أن ملاذه الوحيد مساعدة البريطانيين بكل ما يسعه الجهد ، لكيلا يستطيعوا بعد الصلح ، ويا للعار ! ، أن يسقطوه من حسابهم غداة تنفيذها (أى تنفيذ معاهدة سايكس وبيكو) . فى حين أنه لو يفعل العرب ما أقصد إليه فانه لن يكون هناك أى حديث من جانب واحد عن اسقاطهم . ورجوته ألا يعول على عهدنا ، كما فعل أبوه ، ولكن على قوة أدئه هو لدوره . »

ولكن يجب على لورانس وعربه أن يفسحوا الطريق الآن ، كما فعلوا فى الحياة ، لنسوق فيه تطور الصهيونية فى قارتين . ففى آبار اعترى الصهيونية عارض جديد . لقد أصابها نكسة . لقد أصابها شىء أهم بكثير من مجرد التدهور العابر فى الاهتمام بها الذى أتينا على ذكره فى مستهل هذا الفصل . فلقد بلغت المعارضة فى اوساط اليهود أنفسهم للصهيونية السياسية ، التى لم يسمع أحد عنها فى بريطانيا حتى الآن الا أقل القليل ، بلغت أوجها بل لقد امتدت حتى الى مجال الحكومة . وان كان هذا الامتداد قد حدث فى وقت لا حق ... ان بابا قد فتح رويدا رويدا ونفذت الى غرف الاستقبال الحارة نفحة من النسيم الطلق فتوقفت شجرة المانجو الكاذبة عن النمو تحت ملاءة الحاوى !

ومنشأ هذه النكسة يكمن فى ذلك العدد المتزايد من الأشخاص الذين واتاهم أن يسمعوا بذلك المركز المتزايد خطره الذى أحرزه هذا البرنامج الصهيونى السياسى . فلقد انتهك هذا البرنامج مبادئ اليهود البريطانيين انتهاكا خطيرا ، وشغل أنهار الصحف اليهودية . وفى العشرين من آبار شرح الدكتور وايزمان ، وهو يترأس مؤتمرا خاصا لمندوبين عن الجمعيات التأسيسية اليهودية فى بريطانيا العظمى ، سياسة حزبه فى بيان عام * (وسوف أورد فى الحال ، ما كان فى جعبته من كلام) * وبعد ذلك بأربعة أيام ، أرسل السيدان ألكسندر ومونتفيور ، رئيسا لجنة النواب البريطانيين اليهود ، والجمعية الانجلو يهودية ، على التوالى ،

وقد اثارهما هذا البيان ، بيان احتجاج الى جريدة التايمز باسم اللجنة المشتركة لهاتين الهيئتين .

لقد أعلننا أن اللجنة المشتركة للشؤون الخارجية في هاتين الهيئتين المذكورتين ترى من الضروري ، على ضوء البيانات والمناقشات التي نشرت مؤخرا بصدد توطيّن يهودى مزعم تحقيقه فى فلسطين على أساس قومى ، أن تسجل ما ترى فيها من رأى . وقد استهلا بيانهما بإعلان عطفهما على الصهيونية لو أنها نفذت بأسلوب ليس له علاقة بالسياسة . ثم أعلننا تمسكهما بمقولة آيار من عام ١٩١٦ (أى مقولة المستر لوسيين وولف التي وضعتها مذكرة بتروجراد على الرف) . ثم تابعا بيانهما الى القول بأن « اقامة قومية يهودية فى فلسطين مبنية على النظرية القائلة بأن اليهود لا وطن لهم ، سيكون من شأنها دوس اليهود فى طول العالم وعرض باعتبارهم أغرابا فى مواطنهم الأصلية ، وتقويض وهدم المكانات التي اكتسبوها بالجهد الشاق والتعصب المتواصل كمواطنين فى هذه البلاد ورعايا من رعاياها » .

وأوضحا أن نظريات الصهيونية السياسية تهدم الأساس الدينى لليهود . وسيكون البديل الوحيد للأساس الدينى :

قومية يهودية دنيوية مجندة على أساس واه شامض من الجنس والخصائص الانوغرافية . لكن هذه القومية لن تكون قومية يهودية بأى معنى روحى . أما اقامتها فستكون تنكرا لجميع المثل العليا ولجميع الآمال التي تجعل من بقاء الحياة اليهودية فى ذلك البلد أمرا يذكى نفسه لدى الضمير اليهودى ولدى العواطف اليهودية ، وبناء على هذه الاسس ، تستنكر اللجنة المشتركة لهيئة النواب البريطانيين اليهود والجمعية الانجلو يهودية بكل دأب واصرار مقترحات الصهاينة (السياسيين) القومية .

ان الجزء الثانى من البرنامج الصهيونى الذى أثار ريب هذه اللجنة المشتركة هو ذلك الاقتراح الذى يقول بمنح المستوطنين اليهود فى (فلسطين) حقوقا خاصة معينة ، فضلا عن تلك الحقوق التي تتمتع بها بقية السكان ، وبأن هذه الحقوق ستضمن فى صك امتياز وتباشر تنفيذها شركة يهودية مساهمة ان مبدأ الحقوق المتساوية لجميع الطوائف الدينية فى جميع البلدان التي تعيش فيها اليهود هو مبدأ هام وحيوى بالنسبة

لهم . فاذا ما قدر لهم أن يضربوا أسسوا المثل في فلسطين
بتجاهلهم هذا المبدأ فانهم سيدينون أنفسهم بأنهم انما طالبوا
به لدوافع أنانية بحته . وسيجدون أنفسهم ، في البلاد التي
ما يزالون فيها يكافحون من أجل نيل هذه الحقوق المتساوية ،
في موقف لا يحسدون عليه .

وقد اختتم كتاب الاحتجاج هذا بهذه الكلمات :

ان هذا الاقتراح (الصهيوني السياسي) اقتراح غير
مقبول على الاطلاق لأن اليهود أقلية بين سكان فلسطين ، وربما
يظنون كذلك زمنا طويلا ، وربما يورطهم في أعنف العداوات
مع جيرانهم من الأجناس والأديان الأخرى ، الأمر الذي يلحق
أفدح الضرر بتقدمهم ويعرقله ، وتكون له أصداء مفرقة في
طول الشرق وعرضه . ولات ساعة مندم .

ونحن في غنى هنا عن تبيان الى أى مدى كانت هذه الوثيقة
بعيدة النظر وبصيرة ، وإلى أى مدى محقة ومعقولة . ولو أن هذه
النصائح قد ألقى إليها بال لكان وضع بريطانيا واليهود اليوم مختلفا .
لكن الدكتور وايزمان وصحبه كانوا يبذلون آنذاك جهودا فوق طاقة
البشر ليحركوا هذه الأمة المبعثرة (أى اليهود) ، في كل بلد من بلدان
الحلفاء ، في مطالبة موحدة باقامة نظام من الحماية البريطانية على
كومونويلث في فلسطين ، « على حد ما تقوله السيدة واجديل . وقد
بلغت هذه الجهود أوج غايتها على الأرض البريطانية وانضم اتباع لهم
قيمتهم الى عملية (التحريك) هذه . فكتب الحاخام الأكبر آنذاك
الى جريدة التايمز ليقول ان كتاب الكسندر ومونتفيور لم تعتمد
لجنة النواب البريطانيين اليهود أو الجمعية الانجلو يهودية ، وان
هاتين الهيئتين لم تعط لهما ، في الأغلب ، فرصة لدراسة محتوياته .
وقد كتب اللورد روتشيلد كذلك ، كتب من ترمج بارك فقال :
« اننا نحن الصهاينة لا نستطيع ان نرى كيف أن اقامة دولة يهودية
مستقلة ذاتيا وتحت رعاية وحماية من احدى دول الحلفاء » يمكن
أن تكون مدمرة لولاء الرعايا اليهود للبلدان التي هم أعضاء فيها ،
أو أنها قد تكون مدمرة لهذا الولاء . » ولقد أثبت في الكتاب الذي
نشرتموه كذلك مسألة الشركة صاحبة الامتياز . لقد كنا نشعر دائما
أنه اذا ما قدر لفلسطين أن تستعمر من قبل اليهود فلا بد من اقامة
اداة منظمة (بكسر الظاء - المعرب) لاستقبال المهاجرين ولتوطئتهم ،

وتطوير الأرض ، ولكي تكون وكالة توجيه بوجه عام . وفي وسمى أن
أؤكد مرة أخرى أننا نحن الصهاينة ليست لدينا أية رغبة في الحصول
على امتيازات على حساب القوميات الأخرى ، وإنما نرغب فقط في أن
يسمح لنا أن نكون سادة مصائرنا ، جنباً إلى جنب من القوميات
الأخرى ، في دولة مستقلة ذاتياً تحت سيادة إحدى دول الحلفاء »

وأنا الذي شددت على بعض كلمات اللورد المجل . وإن عدم
التصريح باسم تلك الدولة من الدول المتحالفة التي ستكون صاحبة
السيادة على فلسطين لهو أمر جد محترم في رسالته هذه . يبدو أن
أهم ما جاء فيها هو ظهور ذلك التفاف في هذه المرحلة المبكرة من أن
الصهاينة « إنما يرغبون فقط في أن يكونوا سادة مصائرهم ، جنباً إلى
جنب مع القوميات الأخرى » . فلقد كشفت هذه اللعبة الشطرنجية
الافتتاحية أكثر وأكثر مع توالي السنين ، هذه ال « جنباً إلى جنب » ،
التي تستحق الاعجاب ، في خطط الصهيونية التي وضعتها لكسب
فلسطين . لكن اللورد روتشيلد قد أدخلها هنا عن حسن نية بلا شك .
إنه لم يعرف أدنى اهتمام للمعاني التي تحتوى عليها عبارة « جنباً إلى
جنب » ، هذه . إن هذه العبارة تعنى وجود شخصين أو هيئتين
قوامهما متكافئة ويعملان ، أو نعملان معا - وعن طوعية وطيب خاطر -
عملاً يعود عليهما بأرباح متساوية وتحصلان منه على توسع متكافئ .
وهي تستخدم في أغراض الدعاية لأنها تعنى هذا . ولكن حين نكون
أحدى هاتين الهيئتين قوية - كما هو الحال في فلسطين . والأخرى
ضعيفة - حين تكون إحدى هاتين الهيئتين غنية والأخرى فقيرة ٠٠٠ حين
تكون إحدى هاتين حاذقة خبرة والأخرى بسيطة متواضعة ٠٠٠ حين تكون
هاتان الهيئتان في الحقيقة تنشدان غايتين متناقضتين فإن من الضلال
والأفك والبهتان استخدام عبارة « جنباً إلى جنب » بقصد اظهار
أنشطة متقاربة بينهما .

بيد أن ما هو أعجب من هذا الكتاب الذي كتبه اللورد روتشيلد،
في هذا المقام ، هو رد الدكتور وايزمان الذي كتبه بوصفه رئيساً
للاتحاد الصهيوني البريطاني . لقد ساق في رده هذا نقطتين ، أولاهما
قوله : « أما أن اليهود قومية فهذه مسألة من مسائل الحقيقة التي
لا مرأى فيها . لقد ظلت أغلبية ساحقة منهم تعتقد اعتقاداً راسخاً
دائماً أنهم قومية ، وشاركها في هذا الاعتقاد أناس من غير اليهود في
جميع البلدان » . وما من شك أن هذه المقولة ، التي طرحها الدكتور

وايزمان على هذا النحو ، مقولة قابلة للمناقشة . كما أن من المرجح أن اختلاف الرأي بصدها لن يكون مرادفاً لذلك الخط الذي يقسم الناس بصدد الصهيونية السياسية . وليست تهمنى هنا هذه النقطة الأولى التي ساقها الدكتور وايزمان بقدر ما تهمنى نقطته الثانية : التي هي محل اهتمامي هنا .

أن الصهاينة (قال متابعاً كلامه) لا يطالبون باحتكارات أو امتيازات شاملة في فلسطين ولا هم يسمعون إلى أن تدبر شركة صاحبة امتياز أى جزء من أجزاء فلسطين بما يلحق الضرر بمصالح الآخرين . فان مبدأ وجوب أن تتمتع كافة الأجناس والمثل في فلسطين بكامل الحرية وأقصى العدل ، قد كان دائماً وسيظل أبداً مبدأ أساسياً بالنسبة للصهيونية باعتبارها حركة ديموقراطية . وإن الصهيونيين لوانقون من أن الدولة الجديدة صاحبة السيادة التي يملكون أن تحظى بها فلسطين كنتيجة للحرب ستستترشد بهذا المبدأ عينه في إدارتها لهذا البلد .

والذي يقول هذا الكلام هو الدكتور وايزمان يتوجه بحديثه إلى قراء التايمز ، أى بمعنى آخر إلى الجمهور البريطانى . وما من تعليق على ادعائه هذا أفضل من أن أورد هنا مرة أخرى العبارات التي توجهت بها المنظمة الصهيونية ، التي كان زعيما لها في بريطانيا ، إلى أعضاء الحكومة البريطانية في « بيانها الرسمي » الذي أصدرته في تشرين الأول السابق .

١ - تكون للشركة اليهودية صاحبة الامتياز السلطة في أن تمارس حق التملك بالشفعة في أراضي التاج والأراضي الأخرى ، وأن تنال منافعها الخاصة بجميع الامتيازات أو أى من الامتيازات التي قد تمنح ، في أى وقت من الأوقات من قبل الحكومة صاحبة السيادة أو الحكومات صاحبة السيادة .

٢ - ولكون السكان الحاليين قليلين جداً في العدد ، وفقراء جداً ، ويتوفر لديهم أقل الدراية والتدريب اللازمين لحدوث تطور سريع ، يلزمهم ، ادخال عنصر جديد وتقدمي في عناصر السكان .

ويخيل لى أنه يستحيل أن يصدق المرء أن الصهاينة قد جرعوا على أن يعلنوا للملا أنهم لا يطالبون بأية احتكارات أو امتيازات لأنفسهم ،

وعلى أن يقرروا لجميع الأجناس في فلسطين بكامل المعدل ومطلق الحرية ، بعد أن قدموا مثل هذا النوع من المطالب للحكومة البريطانية . . .
انهم في الخريف يدعون بشيء وفي الربيع يدعون نقيضه ! ولكن دعونا ننابع أقوال الدكتور وايزمان مرة أخرى . ان الحال - ولنستخدم هذه العبارة التي تفتقت عنها عبقريته - تستدعي أن نورد جزءا من ذلك الخطاب الذي ألقاه في العشرين من آيار ، والذي اثار اثارة السيدين الكسندر ومونتفيور بالدرجة الاولى .

ان ذلك البيان لم يكن مصادفة اذ أن الاجتماع الذي ألقاه فيه قد عقد خاصة لهذه الغاية ، وحضره جمهور معين . لقد عقد لكي « تنسلي رسالته حول الموقف السياسي لكونه يؤثر على الحركة القومية اليهودية وتنقل الى الجمعيات اليهودية من خلال مندوبيها » . ولقد استشار الخطيب قبل أن يتلو خطابه هذا ، أولئك الاعضاء في الحكومة الذين كانت بينه وبينهم معاملات فجاء خطابه ، بعبارات منقذ عليهما . وخط التشديد الذي كتبت به بعض العبارات في هذا النص الذي أسوقه ، من وضعي أنا .

قال الدكتور وايزمان :

سأحاول هنا أن أوضح ، بكل ما أوتيت من قدرة على الايضاح ، ما هي مشروعاتنا ، وكيف نعتقد أننا سنكون قادرين على تنفيذها . ودعوني ، قبل أن أفعل ذلك ، أن أجلو نقطة أو نقطتين . وقد لا أكون جانبت الصواب اذا ما وصفتهمما بأنهما اساءتي فهم أو أنهما مما يمكن تسميته بالعبارات الخاطئة ان المرء ليقرأ دائما في الصحف ويسمع دائما من أصدقائه اليهود منهم وغير اليهود على السواء ، أن ما تطمح اليه الحركة الصهيونية هو انشاء دولة يهودية في فلسطين فورا . بل ولقد ذهب أصدقاؤنا الأمريكيون الى ما هو أبعد من ذلك فحددوا حتى شكل تلك الدولة بأن بشروا بجمهورية يهودية . ونحن اذ نرحب من كل قلوبنا بهذه التباينات كتعبيرات أصيلة عن ارادة اليهود القومية ، فاننا لا نستطيع أن نعتبرها من السياسة المأمونة العاقبة في شيء مهما يكن في الوقت الراهن ، فيجب أن يكون واضحا لدى كل من يقف في غمرة عمل المنظمة الصهيونية - كما يجب أيضا الاعتراف به بكل صدق وإخلاص - أن الاحوال لم تنضج بعد لاقامة دولة على هذا النحو . اذ ينبغي أن تبني الدول ببطء وروية وبالتدريج . . . أن تبني

بتعقل وصبر .. ولذلك فنحن نقول أنه إن كان خلق الكومنويلت اليهودي في فلسطين هو مثلنا الاعلى النهائي وهو هدف تسعى اليه المنظمة الصهيونية أجمع - إلا أن الطريق اليه يتألف من سلسلة من المراحل البيئية . واحدى هذه المراحل البيئية ، والتي آمل أنها آتية عما قريب كنتيجة للحرب، هي أن توضع بلاد فلسطين الجميلة تحت حماية دولة قوية عادلة كبريطانيا العظمى ، فيستطيع اليهود نصيب جنساح هذه الدولة أن ينشئوا ويقيموا ذلك الجهاز الادارى الذى سيمكننا من تنفيذ المخطط الصهيونى ، دون أن نتدخل فى الوقت نفسه فى المصالح الشرعية للسكان غير اليهود . وقد خول لى أن أقول لكم ان حكومة صاحب الجلالة مستعدة لأن تؤيد خططنا .

وأول شيء يمكن أن يقال بصدد هذا الخطاب أنه لا يتفق مع سياقنا الحالى ولا محل له فيه . فسياقنا الحالى هو الخلافات الداخلية بين اليهود وصفة الشركة صاحبة الامتياز المقترح انشاؤها . بيد أن له من الأهمية بالنسبة للمسائل الكبرى فى القضية الفلسطينية بحيث يكون من الضروري الاشارة فوراً اليه .. الى هذه النقطة موضوع الكلام . فنقد ألقى الخطاب فى آيار من عام ١٩١٧ ، أى قبل سنتين ونصف من خروج عصبة الأمم الى حيز الوجود ، وقبل مايقرب من ثلاث سنوات من « منح » بريطانيا الانتداب على فلسطين . وهكذا فقد فضح كل الدجل والاختلاق « الانتدابين » أيا ما افتضاح . أما « التزامات بريطانيا » فقد عراها من ذلك الثوب الذى كان يستر خداعها وبهتانها .. ففي أواسط عام ١٩١٧ كانت الصفقة مرتبة فى الخفاء وسلفاً ، فبيت « لبلاد فلسطين الجميلة » أن تأخذها بريطانيا العظمى ، وأن ينفذ المخطط الصهيونى تحت جناحها . وأن هذه الخطة قد تربت فى كنف هذين الفريقين . وأن الدكتور وايزمان قد سمح له (دون تحفظ) أن يؤكد موافقة البريطانيين على تأييد هذا المخطط الصهيونى . حسنا اذن ، ولا اسبيل لكم الى الفكاك أو التهرب .

ولتعد الى المسألة التى نحد بصدددها . لقد كتب وايزمان الى جريدة التايمز ، بعد أربعة أيام من القائه خطابه هذا ، أن الصهاينة لا يطالبون بأية امتيازات أو احتكارات فى فلسطين . فهل كان خطابه هذا الا اعلانا بأن المنظمة كلها تسعى من أجل احتكار أعلى .. أو من أجل كومونويت يهودى ، كما أسماه . فالصهاينة - كما أوضح - سيستطيعون تحت

الحكم البريطاني انشاء ذلك الجهاز الادارى الذى سيمكنهم من تنفيذ مخططهم هذا فى فلسطين ، وعن طريق سلسلة من المراحل البنية • • لقد بيت لبلد من بلدان العرب أن يتحول الى بلديهودى • أما حكومة صاحب الجلالة فهى على أتم استعداد لأن تؤيد هذه الخطة !

وكلمة خطة هذه انما هى تعبير مهذب لكلمة مخطط • وفى وسعنا أن نترك للقارىء الحكم عليه ، والحكم بصورة خاصة على الحكومة التى أيدته ، بما يخطر بباله من الفاظ يداها خليفة بهما •

وبعد نشر كتاب الدكتور وايزمان بزمن قليل ، أرسل ثمانية عشر يهوديا بارزين بريطانيى المولد ، بيانا آخر فى الأول من حزيران ، والى التاييمز مرة أخرى ، أعلنوا فيه تضامنهم مع السيدين الكسندر ومونتفيور • وكان من بين هؤلاء اللورد سوايتليخ ، والسير ماتيوانان ، والسادة ايزيدور سبيلمان ، وارنسست فرانكلين ، ولورى ماجنوس ، واسرائيل جولانز • وبالرغم من أن نفوذ وايزمان كان يزداد قوة ، تلقى الموقعون كثيرا من التأييد من اخوانهم اليهود ، فثبتوا فى معارضتهم للصهيونية طوال الأشهر التى تلت ذلك • ويعترف المستر لاندمان فيقول : « وكما حاولت الشخصيات الهامة بين اليهود الفرنسيين ، بكل ما اوتيت من جهد ، أن تبعد الصهيونية عن حكومتها ، كذلك فعلت بالضبط الشخصيات الهامة الانجليز يهودية ، وباقصى ما وسعها من جهد ، أن تبعد الصهيونية عن الحكومة البريطانية • »

وفصل المستر لاندمان ما حدث فيما يلى :

أخبرنا السير مارك سايكس أنه لابد من عمل شيء نقنع الوزارة به بقوتنا فاضطر القادة الصهاينة الى قبول التحدى • وكان من الضرورى ضرورة قصوى أن نقنع الوزارة أن اليهود البريطانيين صهاينة قلبا وعقلا ، بسبب ذلك الانكار الذى تسمعه دوما من الشخصيات اليهودية البارزة •

فنظمت حملة سريعة بين أعضاء لجنة النواب اليهود ، وحين رثى أن فى الامكان الحصول على اغلبيه قدم اقتراح موال للصهيونية وتمت الموافقة عليه بأغلبيه وضد رغبات وخطب الرئيس دافيد الكسندر ؛ العضو فى مجلس البلاط ، وآخرين من أصحاب مناصب الشرف • فاستقال الرئيس والمستر هنريك فتركا الميدان خاليا للصهاينة •

والخطأ الوحيد في هذا القول هو الزعم بأن جميع أعضاء الوزارة كانوا في حاجة الى اقتناع . ان بعض أعضائها لم يكن يهتم بأن يقوم بعمل مضاد لهذه المعارضة الانجلو يهودية المسجلة . لكن المستر لويد جورج واللورد بلفور كانا لا يابهران برغبات اليهود البريطانيين على الإطلاق . لقد قر قرارهما على أن يصانعا الصهيونية السياسية ، ولم يكونا يرغبان فقط الا في أن يجد الصهاينة لهما وسيلة ما يتفاديان بها ، ببعض المعقولية ، هذه العقبة اليهودية التي لم يكونا يابهران بها في حد ذاتها .

ويجب أن نضيف هنا ان هذا الأمر كله قد مر دون أن تحس به جمهرة الشعب البريطاني ، بالرغم من اشارات الدكتور وايزمان وخصوصه الى « المناقشات المستمرة في الصحف » . والصحف اليهودية، التي احتلت هذه المناقشات مكانا كبيرا منها حقا ، لا توزع خارج نطاق الطائفة اليهودية . أما الصحف اليومية التي تقرأها الأغلبية الساحقة من الناس فقد عالجت هذه الأزمة الصهيونية العابرة معالحة سطحية ، ان كانت قد عالجتها أصلا . لقد كانت الكتب والخطابات التي تعرضت لها هنا أخبارا تافهة عرضت خلال أسبوع بضج بالأخبار الهامة . وبالرغم من أن هذه الخطابات قد ظهرت في جريدة الملكة الأولى فان هذه الجريدة ليست من الجرائد التي تقرأها الملايين . وقد خصصت التابض هذه نفسها مقالة افتتاحية واحدة لهذا الموضوع ، مقالة انعطفت نحو وجهة نظر الدكتور وايزمان . لكنه كان انعطافا على أحسن درجة تنعطف بها جريدة التايمز ، والتي لا تزيد على درجة انعطاف برج بيزا ، انعطاف له أثره ولكن دون أن يتماذى في ميله كثيرا .

وعند هذا الحد انتهى الشجار على صفحات الجرائد حتى السابع عشر من حزيران حين جرى انعقاد اللجنة المؤلفة التي يتحدث عنها المستر لاندمان . وحدثت مناقشات حامية وصدر القرار الذي يشجب احتجاج الكسندر ومونتفيور بأغلبية خمسة أصوات ، ست وخمسين صوتا ضد واحد وخمسين صوتا . وبينما استقال المستر الكسندر من رئاسته للجنة النواب اليهود ، وقفت الجمعية الانجلو يهودية ، من الناحية الأخرى ، مع المستر مونتفيور (وهو الأمر الذي لا يقوله المستر لاندمان لنا) . وقد صدر بيان فريد مفرد ، بهذه المناسبة ، من قبل اللورد روتشيلد الذي أنكر « بكل شدة » ولكن بصورة تثير أشد الدهول ، بالتاكيد ، أن « أى مشروع صهيونى قد جرى تقديمه حتى الآن الى الحكومة أو أنه قد جرى التفكير في تقديم أى مشروع لا يضمن لجميع سكان فلسطين بفض النظر عن الجنس أو العقيدة الدينية أو في الحقوق المملكنة » .

وبعد هذا اختلفت عن أنظار الرأى العام هذه المعركة بين الآراء لكنها ظلت تحتدم فى ميدانها الخاص ، ونقلت كذلك الى خارج بريطانيا

لكنها ظلت تحتدم في ميدانها الخاص ، ونقلت كذلك الى خارج بريطانيا العظمى . وقام في الولايات المتحدة شعور معاد لهذه العقائد الصهيونية الجديدة هذه . وقدمت شخصيات يهودية قيادية عددا من الاحتجاجات . وكانت كلها تستند في الدرجة الاولى الى أن هذه الصهيونية السياسية تدمر الديانة اليهودية بوصفها محورا وملتقى جميع اليهود .

وان مما يسجل بالامتنان لبعض من احتج من هؤلاء أنهم قد أضافوا ان الصهيونية السياسية تعنى الافئات على سكان فلسطين العرب وطردهم من بلادهم .

وبصد النقطة الاولى أعلن المستر جاكوب شيف قائلا : « انى اعتقد انى لا أجنب الصواب كثيرا ان قلت أن ما بين خمسين الى سبعين فى المائة من هؤلاء الذين يوصفون بأنهم قوميون يهود اما ملحدون أو لا أدريون ، وأن الأغلبية العظمى من قادة هؤلاء القوميين اليهود لا يهتمون أدنى الاهتمام ، على الإطلاق ، بالديانة اليهودية » . وفى مدينة يافا خطب رئيس المجمع السنوى للمؤتمر المركزى للبرانيين الأمريكين ، فى شهر حزيران ، فى مستمعيه على هذا النحو : **ما جئت الى هنا لتشاجر مع الصهيونية . ان فى نيتى فقط أن أعلن أننا ، كبرانيين وقفوا أنفسهم على خدمة**

الحرب . ومنوط بشفاهم ان تحرس المعرفة ، ومن أفواههم ينبغى على الشعب أن يطلب القانون لأننا نرسل رب الجنود، لا مكان لنا فى حركة يتكلم اليهود فيها على أسس عنصرية أو قومية ، من أجل دولة سياسية أو حتى من أجل وطن مكفول قانونا ان على عائقنا يقع الالتزام بحمل هذه الفكرة الرئيسية التى أولاها اليهود مذ خلق الطاعة والإيمان ، وترديدها على الدوام وبلا كلال ، وأن إسرائيل الدينيّة التى أجازها التاريخ وقبلها ، ينبغى ألا يضحي بها على مذبح إسرائيل العنصرية البحتة التى أوجدتها المخططات الدنيوية المعاصرة . وإذا ما ضحي بها فإن الطالب الدينيّة ليهود عصرنا ، ناهيك عن الاعتبارات الأخرى ، لا يمكن أن تشبع .

وقد عرى هذا الخطاب مغالطة من المغالطات الأساسية التى تقوم عليها الصهيونية السياسية السياسية تعرية ما بعدها تعرية ومزق رداء « الحقوق التاريخية » الكاذب الذى تتذرع به للقيام بإنشاء مجرد نوع جديد من أحدث « تخطيطات المدن » .

وبصد النقطة الثانية تحدث المستر ماير شوازباكر ، الذى كان رئيسا لمحكمة الأحوال الشخصية فى مدينة بنسلفانيا فأصاب كبر الحقيقة . وقد مكنته دقة ذهنه القانونية من أن يبز بقوله كل قول . لقد أوضح فقال :

ان الديموقراطية تعنى أن يختار الناس الذين يعيشون فى بلد من

البلدان حكامهم وأن يحتفظ هؤلاء الناس بحقوقهم الانتخابية هذه إما أن تمنح هذه الحقوق السياسية لجميع من الصهاينة (كذلك الجماعة السياسية التي كانت تتصدى لقيادة اليهود في ذلك الحين) يتطلع الى الاستيلاء على حكومة شعب موجود في فلسطين ، فذلك اعتداء على أبسط مبادئ الديمقراطية وانتهاك لها . اذ لا يمكن أن يكون لهذه الحقوق الأساسية المعطاة لهم أى معنى عملي ما لم يكن هدفها الافتئات على هذا الشعب الموجود في فلسطين وتجريده من حقه في أن يحكم نفسه بنفسه بأن تفرض عليه ارادة أشخاصا من الخارج قد لا يكونون رأو فلسطين في حياتهم وقد لا يربونها أبدا .

ان كلمة « افتئات » كلمة قانونية نادرة . وهى في الانجليزية مأخوذة من أصل هولندى ، ومعناها التجاهل غير القانونى للحقوق والمطالب الشرعية لصالح فرد آخر أو جملة أفراد آخرين لا حق لهم فيها . لقد استخدم قاضينا هذا وصفا ينطبق كل الانطباق للتعبير عن ذلك العمل غير الشريف الذى كان يستعد للانقضاض على حقوق العرب .

كما أثبت الرأى المعارض الأباطيل الصهيونية السياسية وجوده في القارة الأوروبية أيضا . ففي ايطاليا طالب السنيور لوزانى ، وهو رئيس وزراء سابق ، وبهودى في حد ذاته ، بوجوب أن يسعى اليهود الى العيش في فلسطين كمواطنين أحرار وليسوا كسادة . وفي فرنسا أعلن المسيو راينك أنه خصم للصهيونية وطن نفسه على محاربتها . وقال هذا اليهودى البارز : « ان القدس ملك لجميع الأديان . ونحن نعرف تاريخها منذ ثلاثة آلاف عام . أما المملكة اليهودية فلم تعدم أكثر من خمسة قرون ، على أكثر تقدير » . وليته ناقش مسألة أبعادها أثناء هذه القرون !

لكن المسائل التي أثارها هذه التصريحات والبيانات قد قوبلت في أمريكا وأوروبا كلتاهما بالاغضاء والتجاهل . وفي انجلترا كانت أصلاب المستر لويد جورج ، واللورد بلفور ، واللورد ملتر - وسرعان ما لحق بهم الجنرال سمطس - الذين كانت رؤوسهم متشعبة بخليط من المشالية الكاذبة ، والبراعة ، والدهاء ، والافتتان بأفانيسص التوراة ، والحذلقه العبرية ، والأمور التي تملئها الضرورة أيضا ، والاعتراف بالجميل ، والمساومات السياسية ، منحنية على المخطط الصهيوني السياسى . وكان اللورد سيسل (وكان اسمه آنذاك اللورد روبرت سيسل) الذى كان مكلفا بالإشراف على مكتب الخارجية أثناء أن كان بلفور في الولايات المتحدة ، كان « قد أصبح صهيونيا مؤمنا بها إيمان بلفور تقريبا » . (عن السيدة واجديل) . وفي مكتب الخارجية شرح له واندمان « اعتراضات (الصهاينة) على تقسيم فلسطين بين انكلترا

وفرنسا ، هذا التقسيم الذي وصفه بأنه حكم سليمانى على أسوأ ضرار . (عن السيدة واجديل) . وما من شك فى أنهما قد ناقشا هذا التقسيم بمنتهى الجدية والخطورة ، دون أن يدما لاي سؤال أن يقحم نفسه على أفكرهما ، بصدد نوعية هذا الحكم السليمانى ، الذى يقضى بذلك التقسيم على نطاق أوسع الذى يريدون أن يفسموا به سورية كلها .

وقبيل نهاية نيسان أدرك مكتب الخارجية ، طبقا لما نقلوه السيدة واجديل ، « أدرك مكتب الخارجية ببعض خيبة الفئال » (وخط التسيديد هنا من وضعى أنا - المؤلف) « أن الحكومة البريطانية متورطة ولات من فكاك » . بيد أنه يصعب على المرء أن يرى كيف يمكن أن يكون « مكتب الخارجية » خائب الفئال مما يراه سكرتير الخارجية مشجعا الى أقصى حد . فلقد عاد فى حزيران الى إنجلترا مفتبطا من انتشار هذه الأحبولة الصهيونية . ولقد أعلن فى واشنطن فقال : « أنا صهيونى » ثم عاد الى إنجلترا « وقد وثق لوين من أحاديثه مع القاضى برانديز ، ومما علمه منه عن موقف الرئيس ، أن سيكون هناك عطف فعال على قضية الحلفاء » . (عن السيدة واجديل) وهكذا نرى أن من المعقول الافتراض بأن خيبة الفئال هذه التى تعزوها السيدة واجديل الى مكتب الخارجية كلمة كانت مقصورة على عضو أو عضوين من أعضائه . ويوجد هنا افتراض آخر كذلك بأن بعض الرجال فى هذا المكتب المذكور قد تذكروا العرب ، على الأقل ، وتذكروا عهودنا قد حلت منذ زمن بعيد ، أو أقصيت عن هذا المكتب ، وتكون خيبة الفئال هذه قد نشأت من الخوف من كون لويد جورج وبلفور ينعجلان الخطى .

وفى ذلك الحين تبنت وزارة الشؤون الخارجية فى باريس ، أى الشئ المقابل لمكتب الخارجية فى لندن ، قضية الصهيونية . وأصدر المسيو كامبون بانيابة عن حكومته مذكرة تتحدث عن دول الحلفاء قتلوا انها « كعمل من أعمال الانصاف والتعويض » تسهم بحمايتها « فى بعث القومية اليهودية فى ذلك البلد الذى نفى منه شعب اسرائيل لقرون عديدة خلت » .

وقد جرى ابراق هذا الاعتراف الفرنسى بالقومية اليهودية فى فلسطين ، بانفرحة والسرور - أن كانت هناك حاجة لأن نقول ذلك - الى مختلف الأوساط اليهودية ، عبر أسلاك البرق فى جميع أنحاء العالم . وكان الجلى أن هذا العمل أن هو الا خطوة تمهيدية لتقوم الحكومة البريطانية باصدار بيان عام . وتم القيام بالخطوة الرسمية الاولى نحو هذا الهدف بعد وقت قصير . لقد زار اللورد روتشيلد ، هو والدكتور وابزمان صحبة ، اللورد بلفور فى مكتبه بالمكتب الخارجى و « أوضحا له أن وقت اصدار بيان صريح محدد بالتأييد والتشجيع قد حان » . (عن السيدة واجديل) .

الفصل العاشر

كيف كتب « تصريح بلفور » - مدبجوه الحقيقيون - تكتيكات القاضى
برانديز - « العصبه البرانديزية » المعارضة اليهودية فى انجلترا -
نشر التصريح

لم يكن وصول المبعوثين الصهيونيين الى مكتب الخارجية
والتماسهما اصدار تصريح بريطاني بالتأييد مفاجأة بالنسبة لسكرتير
الخارجية طبعاً . اذ ان جميع المفاوضات التى جرت منذ شباط كانت
تذهب هذا المذهب الوحيد من وجوب تمنى بريطانيا قضية الصهيونية
علناً . فلقد جرى وضع وتخطيط وتدبير مقولات مختلفة ، كالمقولة
التي اعلنت في تشرين الأول السابق ، وأضعة نصب عينها هذه
الغاية . ومن ثم فان زيارة هذين الموفدين الى اللورد بلفور والتماسهما
اصدار بيان لم تكن تعدو حركة مسرحية . وليس معنى ذلك أن الوقت
كان قد حان ، بالنسبة له ، لكي يصدر بياناً ولكن معناه بلغة الجيش
أن الوقت كان قد حان ، بالنسبة له ، لكي يعلن عن نفسه ببيان . لقد
كان بلفور يعرف دوره في هذه المسرحية التي تتفق ومذهبه في
التمثيل .. فنطق الكلمة التي تعلن البدء بدوره ، وسأل زائرته أن
يقدمها له « مسودة يطرحها أمام الوزارة الحربية للتصديق عليها » .

ويجب أن نلاحظ هنا أن معنى ذلك أنه كان مطلوباً من حكومة
صاحب الجلالة أن تحدد سياستها في هذه الوثيقة التي توشك أن
تصدر . وكانت طريقة سكرتير الخارجية في تحضيرها هي أن يطلب
من الدكتور وايزمان وزميله الفخري أن يزوداه بمسودة لسياسة
حكومة صاحب الجلالة هذه ! وحالماً تقدم هذه المسودة للورد بلفور
يقوم اللورد بلفور بوضع هذه السياسة التي رسمها الدكتور وايزمان
سياسة لحكومة صاحب الجلالة بين يدي حكومة صاحب الجلالة
لتوافق عليها . وليس هناك شك في أن جدران مكتب الخارجية قد
شهدت وتسترت على كثير من المشاهد الفريدة في نوعها وأخفتها بين
أركانها . بيد أنه يخيل لى أنها قد ودت في هذه الحالة لو تميل فتلتقى
مع بعضها البعض ، امعاناً منها في الحيلة ، لتخفى عن الأبصار ذلك

المشهد المزرى الذى ترى فيه سكرتيرا للدولة يطلب من زائر جاء من روسيا أن يجود عليه بمسودة ترسم لحكومته هو الاجراءات التى ينبغى عليها أن تتخذها . فكان هذا الموقف من المواقف التى تسمى بالمواقف الجبرتية ، ولو لم تكن لمسائل الترف والامانة القوميين الكبرى به علاقة لكان موقفا جبرتيا حقا (١) .

وانطلق الصهاينة فورا يجهزون هذه المسودة من مدخوراتهم . وقد وكل هذا العمل فى شهر آب الى « لجنة سياسية تتألف من أعضاء فى المنظمة الصهيونية . وكان بعضهم من المقيمين فى هذا البلد ، وبعضهم من مختلف بلدان القارة ، ممن يختلفون الى هذا البلد بين حين وآخر ، فكان يطلب اليهم ان يسهموا بجهدهم كلما زاروا انجلترا . وكان من أعضاء هذه اللجنة السادة آشاد هاعام ، وكووين ، واتبخر ، وهياسون ، وماركس ، وسيف ، وليون سسيمون ، وتولكوفسكى ، وجابوتنسكى ، وهارى ساكر . وكان المستر لاندمان سكرتيرا لهذه اللجنة .

واسماء هؤلاء السادة ذات خطر كبير ، لانهم هم الذين انطلقوا يعملون فى تدبيح ما قدر له أن يعرف فيما بعد باسم « تصريح بلفور » ، جنبا الى جنب مع قادتهم البارزين ، ونحن مديون بمعرفة هذا الدور الذى قاموا به فى هذا العمل الى المنظمة الصهيونية بالدرجة الاولى . هذه المنظمة التى اعتراها الزهو فكشفت فى تقاريرها صفقات كم كانت تود القاعة البيضاء لو ظلت طى الكتمان .

وبالاضافة الى هؤلاء المسهمين المذكورين آنفا ، فهناك آخرون ممن اشتغلوا فى هذا « التصريح البلفورى » فى الولايات المتحدة . ولقد أشرنا من قبل الى أهمية الصهيونية فى الولايات المتحدة كعامل فى هذه المسألة . بيد انه لا يعرف عن تداخل الصهيونيين الأمريكيين فى توجيه دفعة سياسة الادارة الأمريكيين نصف أو حتى ربع ما نعرفه نحن من تداخلهم فى توجيه دفعة سياسة الحكومة البريطانية . وأن أكثر شيء أسفت عليه ، وأنا أكثب هذا الكتاب ، هو أنى لم أكن فى وضع يسمح لى بأن أعبر الأطلنطى لأتقصى ما حدث فى صالونات الولايات المتحدة السياسية قبل اصصدار وإعلان تصريح بلفور هذا ، ولأتقصى بوجه خاص الظروف التى حدثت بالرئيس ويلسون الى تبنى قضية الصهيونية ومفاهيمها . ولست أعنى بهذا الكلام أن هناك ثمة ما يدعونى الى الطعن فى سلامة طوية الرئيس . لا أبدا . أما أنه قد زل فهذا أمر

(١) مقلوبا راسا على عقب وفوضى بدرجة تثير الضحك والتندر ، وجاء هذا الوصف فى الانجليزية من اورا جلبرت وسوليفان الشهيرة التى تميزت على غيرها بالفوضوية فى كل شيء والتمثيل الشاذ بقصد إثارة الضحك والترفيه على المشاهدين العرب .

واضح تمام الوضوح . والسبب في هذا راجع الى جهله بأمور هذا البلد البعيد الذي حاول أن يقرر مصيره . وله في جهله هذا جانب يعفر . . وليس جهله هذا كجهل المستر لويد جورج العايب ولا كجهل اللورد بلفور المتعمد . لقد أخذ الرئيس على عاتقه ، حين وصلته اشاعات عن أحوال سورية الحقيقية ، مسئولية عمل من شأنه أن ينظف من ذكراه ما علق بها من شائبات ، على الأقل . وعلى أى حال، فبدون الايام ، الكامل بكل ما حدث فيما يمكن أن توصف بأنها دوائر البلاط في البيت الأبيض ، سيظل أى تلخيص أو سرد لقصة فلسطين الحديثة ناقصا ولا مفر .

وعلى أى حال ففى وسعنا أن نضيف اضافة أخرى الى ما يعرف عموما في هذا البلد عن الأحداث التى حدثت في أمريكا بهذا الصدد . وهذه الاضافة تنسجم انسجاما طبيعيا مع قصة الأشهر القليلة التى سبقت اصدار هذا التصريح . وسيكون من الضروري في هذا المقام أن نتحرف عن خطتنا العام هنا ونوغل قليلا في الماضي البعيد قبل أن نعود من جديد ونواصل التحديف فيما تم في أمريكا وأوروبا من أعمال في صيف عام ١٩١٧ .

ان جزءا كبيرا من العمل الذى تم في الولايات المتحدة يرجع الى ما قام به المستر لويس برانديز الذى كان قد أصبح آنذاك أوسع الصهاينة نفوذا في ذلك البلد وأخطرهم شأنا . لقد كان محاميا مشهودا له بالكفاءة أحب الرئيس أن يجعل منه مدعيا عاما في العام الذى سبق اندلاع الحرب . لكن هذه الرغبة لم يكتب لها أن تتحقق . الا أنه عين في عام ١٩١٦ عين عضوا في المحكمة العليا في الولايات المتحدة . وقد أكد الرئيس نفسه وجود علاقات وثيقة بينه وبين برانديز .

. . لقد أعلن وودرو ويلسون فقال : « لقد امتحنته بطلب مشورته بصدد واحدة من أعقد المسائل العامة وأكثرها تحجييرا ، إذ كان لزاما على أن أكون عن تلك المسألة رأيا » . (عن دى هاعاس) .

والواقع هو أن برانديز كان يأتي في المرتبة الثانية بعد الكولونيل هاوس في ذلك المستوى المزدوج الذى يتألف من الصداقة مع رئيس الدولة ومن النفوذ . ولم يكن صهيونيا في شبابه . ومترجم سيرته وهو المستر جاكوب دى هاعاس ، هو الذى جعل الأفكار الصهيونية تدخل عليه في بوسطن حين كان قد أصبح رجلا بارزا . وقد ألقى برانديز أول خطاب من الخطب التى قالها لصالح هذه الجماعة في عام ١٩١٣ . ويضيف المستر دى هاعاس فيقول : « ولقد أدرك برانديز في وقت مبكر من شتاء عام ١٩١٤ وجه الشبه بين المثالية الأمريكية وبين أهداف الصهيونية . ومن ثم لم يتردد في التقرب من الرئيس ويلسون الذى أبدى عطفه تجاه أفكار برانديز الصهيونية ، ومن ثم

انتقل برانديز الى بحث مستقبل فلسطين مع السفيرين الفرنسي والبريطاني في واشنطن .

وتبعاً لذلك يمكن القول بأن الصهيونية قد بدأت كقوة عالمية في الولايات المتحدة . لقد ارتقت الى مرتبة منح فيها اعتباراً قومياً قبل أن يحدث هذا في إنجلترا بزمان طويل . هذه النقطة نقطة ذات مغزى كبير ولا يدري بها الا القليل من الناس . ثم يتابع المستر دى هاعاس كلامه ليقدم لنا نتفة فريدة عجيبة من المعلومات . انه يقول ان السير سيسل سيرنج - رايس ، سفيرنا آنذاك لدى الولايات المتحدة ، كان يعطف منذ زمن على السياسة الصهيونية الخاصة بفلسطين . « لقد نقل لنا ان الحكومة البريطانية تحبذ برنامجاً للنوطين اليهودي في فلسطين كان أكثر تماسكاً من ذلك الذي جرى النص عليه فيما بعد ، في تصريح بلفور الشهير ، بكثير » .

وهذا الحديث عن هذا « البرنامج التماسك » لا يتفق أدنى الاتفاق مع موقف المستر اسكويت ، رئيس الوزراء في خريف عام ١٩١٤ . لأن المستر اسكويت لم يسر في طريق الصهاينة مسافة تزيد عن رفعه لحاجبيه دهشة وهو يقرأ مذكرة السير هربرت صمويل الافتتاحية بخصوصها ! ولم يحدث له في يوم من الايام أن ذهب الى ما هو أبعد من هذا المدى ! فما هو التفسير إذن ؟ أما أن المستر دى هاعاس قد جانب الصواب تماماً في حقائقه هذه ، أو أن مشروعاً ما « للتوطين اليهودي » قد جرى رسمه وتبنيه من قبل أعضاء آخرين في وزارتنا التي كانت تضطلع بالحكم آنذاك ، دون علم رئيس الوزراء . وكلا هذين المذهبين يبدو أمراً بعيداً عن الصدق ولا يقبله عقل ، بالرغم من تلك الظروف الفوضوية التي كانت تسود القاعة البيضاء خلال تلك الأشهر الأولى من الحرب ، والتي وضعناها في الفصل السابع . وقد يكون التفسير الممكن لهذا هو أن وثيقة ما قد وجدت طريقها الى السفير البريطاني في واشنطن من رئيسه أثناء ان كان السير أدوارد جرى غارقاً في ملاطفاته الضبابية للصهاينة خطباً لودهم ، وأن أخباراً عنها قد تسربت في ذلك الحين الى الرقباء الصهاينة الذين كانوا يطوفون حول دائرة الدولة (١) والبيت الأبيض ، فهول من هذه المذكرة الاستشعارية الحساسة للنبض التي قد يكون جرى قد أرسل بها الى مرعوسيه السفير المذكور ووصفت بأنها « مشروع متماسك » .

وهناك تفسير آخر ، وقد يكون أقرب الى الصدق ، وهو أن هذه الوثيقة مدار هذا الكلام لم تنشأ من لندن وإنما من واشنطن . . . وربما جرى ارسال أحد المشروعات الصهيونية التي كانت تتداول

(١) وزارة الخارجية الامريكية .

آنذاك الى لندن . . الى مكتب الخارجية ، ثم جرى تفسير أى عطف قد يكون أبدى نحوه ووصل خبره الى واشنطن فتناولته الأفواه وأخذت تزيد عليه حبة حبة ، جرى تفسيره على أنه عرض بتبني هذا المشروع .

بيد أن ما يبدو واضحاً ، على أى حال ، هو أن اتصالاً مع الصهيونية السياسية قد جرى وضع أسسه من قبل السفيرة البريطانية في واشنطن في بداية فترة الحرب بالذات . ولا يبدو أن شيئاً ذا بال قد نتج من وراء هذا الاتصال في غضون عام ١٩١٥ ، ولكن في ربيع عام ١٩١٦ استؤنف هذا الاتصال . إذ كان التودد والغزل الذي يقوم به ساستنا نحو الصهاينة يتخذ شكلاً واضحاً محدداً شيئاً فشيئاً . . وكان ذلك الوقت هو الوقت الذي جرى فيه إرسال مذكرة جرائ الفريية الى الروسية . وإذا أخذنا بما يقوله المستر دى هاعاس ، فإن المباحثات الدبلوماسية قد استؤنفت مع الرئيس ويلسون ومع السفير البريطاني . وهو يعدد لنا بالتفصيل الظروف التي كانت سائدة في ذلك الحين والتي أدت الى هذا الاستئناف ولكنه لا يبين لنا من الذي مثل الجانب الصهيوني في هذه المباحثات ، لكنه يختتم كلامه قائلاً : ان التأكيدات التي تلقيناها « والتي اختصرت الى مذكرة من ستة أسطر موهورة بهذين الحرفين (و . و) كانت مرضية وكافية تماماً » . وان المزيد من العلم عن هذه المذكرة الرئاسية التي تتألف من ستة أسطر ، ليستحق الجهد الذي نبذله في ذكره ، لكننا لن نبعد كثيراً عن الحقيقة أن افترضنا أنها كانت تعهداً بتأييد مزاعم صهيون في فلسطين اذا ومتى تحين فرصة ندفعها الى أمام .

وبدخول الولايات المتحدة الحرب في السنة التالية حانت هذه الفرصة . إذ كان مركز الرئيس في مجالس الحلفاء مركزاً قوياً ممتازاً . وفي آيار ، وحتى قبل مجيء بعثة بلفور الى امريكا « انتهز مناسبة ليتيح فرصة ثمينة لبحث مشروعات الصهاينة بصدد فلسطين ، فلم تذهب هذه الفرصة سدى » . ومرة أخرى أقول انه كان بوسع المستر دى هاعاس الذي انتقل عنه هذا الكلام ، ان يفصح القول أكثر قليلاً . (وأعتقد انه ينبغي على أن أوضح فأقول ان المستر دى هاعاس واحد من طليعة صهاينة الولايات المتحدة . ولست أوافقه فيما يقول لكنى أعرف فيه رجلاً حريصاً على كشف الحقيقة كما يراها وعلى أن يقدم لقرائه الحقائق . انه يأخذ بأيدي قرائه دائماً فبقودهم الى البسبب المطلوب ، حتى وان كان من هوايته أن يوارب هذا الباب لهم فيتيه نصف مفتوح . وقد لعب دوراً رئيسياً في المفاوضات الانجليزية الأمريكية الصهيونية التمهيدية . ولذا فهو في مركز يؤهله لان يقدم لنا حصيلة معتمدة لما حدث) .

كان الموقف في أوائل الربيع ، أى قبل وصول بلفور ، موقفاً عجبياً نوعاً ما ويدعو إلى الفضول . وها أنذا أخص ما دونه المستر دى هاعاس عنه . كانت دائرة الدولة ، أى وزارة الخارجية في الولايات المتحدة ، تعارض في إصدار بيان يعطف على آمال الصهاينة من قبل بريطانيا العظمى إلا بعد أن تحبزه فرنسا وإيطاليا كلتاهما . فى حين كان الرئيس عازماً على أن يساعد قضية الصهاينة إلا أنه قد عارض مشروعا بلفوريا ، كان يحوم في الأفق في ذلك الحين ، ويقضى بوجوب أن تضطلع الولايات المتحدة بالسيادة المأمولة على فلسطين أو أن تشارك بريطانيا العظمى فيها .

وكانت كلمة « السيادة » هي الكلمة الدارجة في ذلك الحين ، والتي كانت تتخذ شكلاً وسمناً ومعنى ومبنى - كما رأينا - في مختلف الوثائق الصهيونية وغيرها التي كانت تعالج مستقبل فلسطين . ولم تكن كلمة « الانتداب » قد اخترعت بعد . أما ما جعل ذلك الموقف غريباً فهو أن الولايات المتحدة لم تكن في حرب مع تركيا . « ولهذا حدث هناك لبعض الوقت بعض الحيرة والارتباك بصدد هذا المشروع البريطانى الخاص بفلسطين ، (أى أن هذا المشروع هو الذى خلق الحيرة والارتباك) ، الذى بدا منه أنه يعترف بالحكومة صاحبة السيادة (على فلسطين) . وقد خلق هذا الاعتقاد بأن تركيا ستظل هذه الدولة صاحبة السيادة (على فلسطين) ارتباكاً كبيراً ولكن جلت حقيقة هذا الأمر بعد أن جرى تبادل برقيات محمومة محيرة ، لقد اتضح أن البريطانيين يعنون بهذه (الدولة صاحبة السيادة) (على فلسطين) الولايات المتحدة ، ولو أنهم تركوا باباً مفتوحاً لهم ليدخلوا منه » .

وقد قال المستر دى هاعاس فصدق القول . ففيمما يتعلق بمسألة السيادة كان ضرب اللورد بلفور على وتر فكرة السيادة الانجلو أمريكية المشتركة أو حتى على وتر فكرة الاشراف الامريكى مجرد تسلية ولهو . ان أيا من هاتين المفكرتين لم تقترب أبداً من ميدان السياسة العملية .

واهم نقطة نشأت عن هذا الارتباك الذهني الذى حدث في الولايات المتحدة بصدد شخصية الدولة ذات السيادة على فلسطين مستقبلاً ، هي النقطة التي تبين لنا بعد جميع أولئك المهتمين بقضية فلسطين عن حقائقها . وهي نقطة أهم من سابقتها بكثير . انهمس لا يعرفون شيئاً عنها . وكان أكثرهم جهلاً بها المستر برانديز نفسه الذى كان قد أعلن في خطاب له أن « الصهيونية ليست بالحركة التي تسعى الى ان تنتزع من الأتراك السيادة على فلسطين عشوة » . ولما كان برانديز ديمقراطياً ، من حيث المبدأ ، في كل شيء غير مسألة فلسطين ، فان احتجاجه هذا بأنه ليس منضمّاً الى حركة تهدف الى

اجتثاث الأتراك من فلسطين لا يدل إلا على أنه يعلم أقل القليل عن فلسطين ، بغض النظر عن هذه الأفكار الخاطئة التي يحملها عنها .
انه يظن أن الأتراك هم أهل وسكان هذا البلد الأصليون ، ولهم حقهم الطبيعي في السيادة عليها ، ومن ثم يتضح لنا انه كان لا يعلم شيئا عن وجود العرب ، شأنه في ذلك شأن الرئيس ويلسون * وقد قدر للرئيس ولبرانديز كلاهما أن يعلموا فيما بعد بوجود العرب فيها * وأن يستفيدا بما علما ، كل على طريقته الخاصة .

وكانت الخطوة التالية في تقدم الصهيونية في الولايات المتحدة ، مع مقدم اللورد بلفور الذي جاء ببعثة كبيرة معه . وقد سبق لنا أن قدمنا بعض التفاصيل عن اقامته هناك ولكن هناك تفاصيل أخرى نضيفها هنا . لقد وجد هو وأعضاء بعثته الادارة الأمريكية كلها مشبعة بالأفكار الصهيونية تشبعا شديدا ، اللهم إلا دائرة الدولة الأكثر حذرا من غيرها والأوسع اطلاعا . ويعود هذا في الدرجة الأولى الى المسيو برانديز . وكان برانديز هذا منظما قديرا .. من ذلك النوع الذي يوصف بالرجل العملي . وكان مبدؤه في العمل هو انه لا ينبغي على الصهاينة أن يعقدوا الاجتماعات ويكتبوا المقالات والادب فحسب ، لكي ينشروا أفكارهم وآراءهم . ان للصهاينة ان يقوموا بهذه الأشياء ، بيد أن ما هو ضروري جدا وأساسي هو أنه ينبغي على الصهاينة ان يثبتوا أنهم ذوو نفع في جميع الطوارئ وفي هذه الأوضاع الجديدة التي خلقتها حاة الحرب التي تهدد الأرض الأمريكية . ولديهم ميزة وجود علاقات تربطهم بجميع أجزاء الكرة الأرضية عن طريق بني دينهم . ولم يكن هذا المبدأ لدى برانديز مبدأ دعائيا بحتا ، بالطبع ، بل كانت في برانديز مسحة حقيقية من حب فعل الخير . ولكن كان هذا المبدأ في الوقت نفسه مبدأ دعائيا .. ودعائيا مذهشسا . فإذا ما اكتشف شيخ من شيوخ الولايات المتحدة ، أو موظف مدني من موظفيها ، أو جندي من جنودها ، أو قنصل من قناصلها ، أو مواطن بسيط من مواطنيها أن في إمكان رجل نشيط ذكي أن يساعده على التغلب على مصاعبه ، ثم علم فيما بعد ، ان عاجلا أو آجلا ، أن هذا الرجل صهيوني ، فان من الطبيعي أن يستنتج ذلك الشيخ أو ذلك الموظف المدني ، أو أنا كانت شاكلته ، أن لابد أن تكون هذه الفكرة الصهيونية فكرة طيبة .

ويصف المستر دي هاعاس هذه الخطة البرانديزية بوضوح تام ، فالى السياسة الدفاعية (أى سياسة ابقاء المنظمة الصهيونية بمنأى عن النفوذ الألماني الذي لم يكن شيئا يسيرا) يقول المستر دي هاعاس تقديم الخدمات للموظفين وكبار الرسميين الأمريكيين بلا مقابل كسبت تقديم الخدمات للموظفين وكبار الرسميين الأمريكيين بلا مقابل كسبت المنظمة الصهيونية الأمريكية صداقة وود أولئك الذين لم يكن من

المستطاع التأخير عليهم دوماً بالمحاولات الملحة . ولم يكن هدفنا هو مجرد الاحتفاظ باحترام الرئيس ويلسون نفسه لنا وبتعاونه السماح معنا ولكن كان هدفنا التغلغل في كل مسربة من مسارب ادارته ، وفي كل الأجهزة والبعثات الدبلوماسية والتقنسية البريطانية في هذا البلد » (خط التشديد من وضعى أنا - المؤلف) وجعلها تتشرب بفهم منعطف على الصهيونية » .

وكان للمستردى هاعاس نصيبه في حملة النفع النافع هذه . وكان هو الذى اقترح على المستر برانديز انشاء « دائرة التحويل » على سبيل المثال . وقد اضطلعت « دائرة التحويل » هذه بمهمة تحويل المبالغ النقدية من أشخاص يعيشون في الولايات المتحدة الى اقاربهم الذين يعيشون في مناطق الحرب في أوروبا وفيما وراءها . وها هو ذا الوصف الذى كتبه منشئها عنها .

لقد خدمت دائرة التحويل اليهودى وغير اليهودى على السواء بدون أن تتفاضى من المراسل أو المرسل اليه اجرا . وكانت تشعباتها تمتد في جميع مناطق الحرب التى يحتلها الحلفاء وفي جميع أرجاء تركيا وسورية وفلسطين حتى شرقى الأردن وبغداد . فأصبحت ادارة تبحت عن الناس فى عالمين منفصلين وتجدهم وتربطهم ببعضهم البعض . وكانت تقوم بتسليم النقود فى ظروف رومانتيكية . وغالبا ما كان الرسول الذى يقوم بهذه المهمة يتعرض لأخطار كبيرة . وعمليا لم يضع مليم واحد من تلك الملايين التى جرى تسليمها . لقد بدأت بالاضطلاع بمهمتها هذه باستخدام مكاتب دائرة الدولة (أى مكتب الخارجية فى الولايات المتحدة) كوسيلة للاتصال والارسال والائتمان ثم أصبحت شيئا فشيئا على درجة من النجاح والثقة لدرجة أن خزانة الولايات المتحدة استخدمتها فى تسليم مبالغ ورسائل لا تستطيع الحكومة أن تسلمها الى المرسلة اليهم بنجاح .

لقد رغب عربى يقيم فى بوسطن ان يرسل بضعة دولارات الى صديق له فى البتراء . وأراد يونانى فى تيرهوت من ولاية انديانا أن يصادق شخصا ما فى الأناضول . وأرادت الكنيسة اليونانية فى الولايات المتحدة أن تتصل برئيس الاساقفة فى القسطنطينية . وأراد اليهود أن يساعدوا عائلاتهم فى بولندا . كما جرى تسكين الشكاسيم الذين طردوا من القدس فى مخيمات لاجئين فى الاسكندرية . كما وجدت النقود التى جمعت فى أمريكا طريقها الى السجن فى دمشق ، والى معسكر الاعتقال فى حلب ، حتى وصلت الى المسجونين فى بروصا .

وقد ظل الايصال الأخضر الذى تقوم دائرة التحويل التابعة للجنة التنفيذية الصهيونية المؤقتة (والننى كان المستر برانديز رئيسا لها) باصداره ، ظل لفترة من الزمن « عملة متداولة لدى التجار » فى جميع أنحاء فلسطين . وبذلك جعل قرار الأتراك بأقفال المصارف الصهيونية حبرا على ورق . . وربما قدر المرسلون هذا العمل الذى قدم لهم بلا مقابل . . وربما علم بعضهم فيما بعد كيف كان الذهب ينقل عبر مسالك جبال طوروس . وكانت دائرة التحويل هذه بخدماتها غير الموقوفة على نوع معين من الناس ولجميع الناس على السواء فريدة لا مثيل لها فى التاريخ اليهودى . وربما لم يولها الناس العاديون بين الصهاينة شطرا من تفكيرهم فى يوم من الأيام لكن الحكومات كانت تقدر ما تقوم به . لقد كانت تقدر لها تلك الابتكارات التى لا تنتهى فى أساليب النقل التى تتطلبها جبهة القتال المتغيرة المتنقلة ، لدرجة أن السفارات فى العواصم الأوروبية كانت تدفع النقود سلفا بناء على رجاء يصدر عن السكرتارية التنفيذية فى نيويورك .

إن هذه التفاصيل التى يقدمها لنا المستر دى هاعاس ناطقة وتوفر علينا التعليق والتبيان . لقد كانت دائرة التحويل هذه جزءا من مخطط عام كان فى حد ذاته مخططا يدعو الى الإعجاب . وما من أحد يحب أن ينكر عليه المديح الذى يستحقه بسبب نفعه للصغير والكبير ، وبسبب أنزعة الانسانية فى محتواه ، وبسبب القدرة والمقدرة على تنفيذه . لكنه قد جاء للمنظمة التى ابتدعته بالفائدة المرجوة من ورائه - وهو الأمر الذى أجهد المستر دى هاعاس نفسه فى تبيانه لنا . لقد وضع هذا العمل جهاز الحكومة الأمريكية فى مركز المدبونية الادبية تجاه الصهيونية . لقد خلق استعدادا هائلا لدى عدد كبير جدا من الناس ، وبخاصة لدى أولئك الذين يرجح فيهم أن يكون عطفهم على الصهيونية ذا قيمة ، للانحياز لصف قضية الصهاينة .

لقد اُحصت الصهيونية (يقول المستر دى هاعاس) اتباعها فى كل مدينة أمريكية ، وجرى تسجيل هذا الجيش العرمرم من البشر بالتدريج . واستخدموا حين دعت الحاجة فى تقديم تلك الخدمات التى كسبت عطف واحترام أولئك الأشخاص الذين تعد توقعاتهم فى الأمور الكبرى . وقد تكفلت المنظمة الصهيونية بدفع نفقات تلك الخدمات ، وهى نفقات تافهة الى أبعد الحدود ، وكانت العوائد التى عادت علينا من وراء هذه الخدمات على شكل ثقة فى قدرة المنظمة الصهيونية على انجاز ما تقوم به ، الأمر الذى خلق احساسا واسع المدى بالثقة فى هذه الحركة .

أى إذا أردنا أن نصوغ هذا القول المراد الإفصاح عنه فى الجملة الأخيرة غير الواضحة بعض الشيء نقول ان أولئك الرجال « الذين تعد توقيعاتهم » قد راوا ما يستطيع الصهاينة أن يفعلوه فأولوا ثقتهم لتلك الحركة التى خلقها هؤلاء الرجال القديرون . ويقدم لنا المستر دى هاعاس مثالا على ذلك الثواب الذين نالوه فى النهاية وهو الامتيازات التى منحت للوحدة الطبية الصهيونية الأمريكية حين أقلت الى فلسطين ، والتى جعلتها تقف على قدم المساواة مع منظمة الصليب الأحمر الأمريكية . لقد ختمت جوازات سفر هذه الوحدة ب « درع داوود » رسميا . وبهذا منحت صفة قومية ودولية لهذا الرمز الصهيونى . فكيف تم هذا ؟ ويجب ان نلاحظ أنه لم يتم يفضل الصداقة مع أعلى الدوائر الرسمية وحسب .

ان كلمة « افتح يا سمسم » التى جعلت مثل هذا العمل المزدوج ممكنا دفعة واحدة ما كان لها أن تأتى من أعلى . بل العكس . لقد تم انجاز هذه المهمة من أسفل الى أعلى . ولم يصبح أمرا ممكنا إلا لأن تقديرا للصهيونية ، بفضل أسلوب برانديز فى إثارة الاهتمام الفردى بقضيتنا ، كان قد تسرب وتغلغل فى كل دائرة من دوائر الحكومة ، فكان هناك صهيونى متفهم ، فى كل دائرة من هذه الدوائر على استعداد لأن يمهّد السبيل الى الاتصالات الضرورية ولأن يقوى أواصرها ، كلما دعت الحاجة . (وخط التشديد من وضعى أنا - المؤلف) .

ولما كانت الجهات المعنية بهذا الكلام تشمل دائرة الحرب ، والخزانة ، وقسم الجوازات ، والبحرية ، والجيش فانا نرى الى أى مدى كانت الصهيونية تسيطر على مسالك الحكومة فى الولايات المتحدة . فأى فرصة كانت أمام العرب فى مثل هذا الوضع ؟ وما أقل ما كانوا يعلمونه ، فى مراعهم على ضفاف البحر الأحمر البعيدة من هذه التدبيرات وعوامل النفوذ التى كانت تتجمع لتنكر عليهم أرثهم الموروث ولتخفى وجودهم بالذات .

وأعود الآن الى تلك الاستعدادات والتحضيرات التى كانت تجرى على قدم وساق للحصول على « بيان التأييد والتشجيع » ذاك . فى واشنطن ، وفى ذلك الربيع من عام ١٩١٧ ، انسجم بلفور وبعثته مع تلك الادارة المصهينة ، فمددوا أرجلهم على راحتها . ولقد لخص بلفور ، « حين كان فى واشنطن موقفه الخاص (من الصهيونية) فى جملة واحدة ، (أنا صهيونى) » (لقد اجتمع وتشاور مع برانديز ، كما رأينا) . « ولكن فى حين كان بلفور وبرانديز مجتمعين كلما سمحت باجتماعهما الظروف ، كان صهاينة آخرون يجتمعون مع كل أولئك

الأعضاء في هذه البعثة البريطانية الذين كان يعتقد أن من المرغوب فيه انماء تفاهم معهم ، ويتناقشون معهم مشكلة فلسطين » . (عن دى هاعاس) .

ولقد عاد بلفور الى أرض الوطن ببعثة مشبعة غاية الاشباع بمفاهيم الصهيونية ، وأجرى منابلاته الرسمية مع الدكتور وايزمان واللورد رونسيلد . وبدأت عملية صياغة التصريح في كلا جانبي الأطلسي . وفي إنجلترا « دُبحب صور كبيرة مختلفة ، من قبل أعضاء كثيرين في اللجنة السياسية (الصهيونية) ، للمقولة المقترحة » . (عن التقرير الصهيوني الرسمي) . وأخذت المسودات تروح وتجيء من مكتب الخارجية واليه .

وكذلك راحت وجاءت عبر المحيط . « وقد دبح عدد كبير من هذه المسودات في لندن وارسل به عن طريق وسائل مكتب الحرب الخاصة الى الولايات المتحدة لكي تستعين بها اللجنة السياسية الصهيونية الأمريكية » (عن دى هاعاس) وقد ساهم الرئيس ويلسون نفسه في هذه الصياغة أو أنه قد قام ، على الأقل ، بإيلاء الصور التي جاءت من إنجلترا عينا مدققة ومراجعة محصنة . « وبناء عليه اتسع ميدان المناقشة الدولية فقدمت جميع المسودات التي صيغت لهذا التصريح المقترح الى البيت الأبيض للموافقة عليها » . (عن وايز ودى هاعاس) .

وكانت جميع المسودات التي كتبت في البداية تهتدى بصمسك الامتياز الذي اقترح للشركة اليهودية ، وبيان أهداف الحرب ، الصهيوني الاصل طبعا ، والذي صدر في شهر نيسان الأسبق ، وبرنامج تشرين الاول ، وما الى ذلك . وكانت هذه المسودات مطولة بوجه عام فرائها الحكومة أطول كثيرا مما يجب . ويقول تقرير تلك المنظمة أن « بعض المسودات الصهيونية كان مفصلا ومطولا . لكن الحكومة لم ترد أن تقيد نفسها بما هو أكثر من بيان مبدئي عام » . الا انها قد أطلقت ، وهي العاجزه على ما يبدو عن كتابة مثل هذا البيان في حين أطلقت يد صنائعها الصهاينة في تدبيح صيغة أقصر .

وسرعان ما جرت الأقلام بهذا البيان المبدئي العام الجديد . وفي الثامن عشر من تموز قدم اللورد روتشيلد البيان البلفوري الى اللورد بلفور ، بعد أن وافق الرئيس ويلسون عليه ، وبدأ كل شيء كأنما قد انتهى . واليك نصه :

ان حكومة صاحب الجلالة ، بعد دراسة أهداف المنظمة الصهيونية ، تقبل مبدأ الاعتراف بفلسطين كوطن قومي للشعب اليهودي وبحق الشعب اليهودي في أن يبني حياته القومية في فلسطين تحت حماية توضع أسسها غداة إبرام الصلح في أثر خروج ناجح من هذه الحرب .

وترى حكومة صاحب الجلالة أن من الضروري أساسا لتحقيق هذا المبدأ منح الاستقلال الداخلي الذاتي للقومية اليهودية في فلسطين ، وحرية الهجرة لليهود وإنشاء شركة يهودية وطنية مستعمرة لاعادة توطين هذا البلد ولانمائها الاقتصادي .

أما شروط وأشكال الاستقلال الذاتي الداخلي ، وصك الامتياز للشركة اليهودية الوطنية المستعمرة فينبغي ، في رأى حكومة صاحب الجلالة ، أن تبوب بالتفصيل وأن تعين بالاشتراك مع ممثلى المنظمة الصهيونية .

ويجب أن يلاحظ أن هذا هو البيان الذى أراد المستر لويد جورج واللورد بلفور أن يصدره لو لم يحدث في ذلك الحين شيء جديد . لقد كان في نية الحكومة أن تعترف بكل فلسطين كوطن قومي لليهود ، وأن تمنح « الاستقلال الذاتي الداخلى » للقومية اليهودية منذ البداية . وكان مقدر للصهاينة أن ينزلوا في هذا البلد كحكام . أما الهجرة فتكون حرة ، دون أن تعتورها عقبات . وأما الشركة صاحبة الامتياز ، أو الهيئة صاحبة الامتياز ، كما أصبح اسمها فيما بعد ، « فستوطن » البلاد كما لو أنها كانت خالية من الناس .

لكن كل ذلك لم يتم . إذ طاف الصهاينة بهذه المسودة المذكورة أعلاه على كثير من الناس في ذلك الحين لدرجة أنها نمت الى علم الشخصيات اليهودية الهامة بين معشر اليهود البريطانيين .

إن رجالا من أمثال لوسيين وولف أو كلود مونتغيور أو السير ماثيو ناثان لم يطلب اليهم طبعاً أن يسهموا بدور في التدبير والصياغة ، ولكنهم كانوا يعلمون أنها كانت تعد . وبعد أن حصلوا على نصوصها جددوا فضالهم الذى بدءوه في الربيع . فأرسلوا الى الوزارة « عرائض معادية للصهيونية » . وهذا هو ما يصف به الصهاينة الاحتجاج الذى وقعه هؤلاء على البيان المقترح اصداره .

وكان من نتيجة ذلك أن طلبت الوزارة إعادة صياغة البيان
فاختفت منه الشركة صاحبة الامتياز ، ولو أن ذلك قد يكون راجعا الى
أن القائمين بها قد وجدوا صعوبة فى جمع المبالغ الكافية لدفعها فى
الميدان .

وكانت المقولة الجديدة كما يلى :

١ - تعترف حكومة صاحب الجلالة بمبدأ وجوب أن
يعاد بناء فلسطين كوطن قومى للشعب اليهودى .

٢ - تبذل حكومة صاحب الجلالة غاية ما فى وسعها من
جهد لتأمين انجاز هذا الهدف ونبحث جميع الأساليب
والوسائل الضرورية مع المنظمة الصهيونية .

وكانت هذه جاهزة فى الثامن عشر من ايلول ، بعد شهرين من
المفاوضات وتبادل وجهات النظر مع مختلف الأطراف . وقد وافق عليها
الرئيس ويلسون لكن اليهود البريطانيين الذين عارضوا سابقتها ، حاربوا
هذه الصورة الجديدة بعزم وبسالة وتصميم كما فعلوا دائما . فهذه
الصورة ما تزال تسلم فلسطين للمنظمة الصهيونية « تعيد بناءها » .
كما يمكن كذلك العمل فوراً بحرية الهجرة والأحكام الأخرى التى جاءت
فى نص مسودة تموز ، بموجب الفقرة الثانية من هذه المسودة الجديدة .

ان ادوين مونتاجو والسير فيليب ماجنوس وزملاءهما من معشر
اليهود البريطانيين قد نالوا بوقفهم هذه ، التى حالت دون اصدار
أى من هذين التصريحين البلقوريين ، سواء ما أعد منهما فى تموز أو ما أعد
فى ايلول ، التقدير والامتنان الأبدى منا . وأن من أهم المهم هنا ، بصدد
صفة الصهيونية السياسية ، والكشف عن طبيعتها ، أن نعلم أن رجلا من
اليهود قد حالوا بينها وبين تنفيذ ذلك الاستيلاء التعسفى الأثيم على
فلسطين الذى كانت تبيته ، ولذلك فإن العرب مدينون لهؤلاء اليهود
المستقيمين النظار بدين كبير .

الا ان ما هو أهم من هذا أيضا هو أنه لولا كفاح هؤلاء لسلمت
الحكومة البريطانية أيضا فلسطين للمنظمة الصهيونية . ففى كلا المقولتين
المذكورتين تجاهلت الحكومة العرب تجاهلا تاما ، وكأنهم لا وجود لهم .
ولهذا فها هنا جواب لا معقب عليه على الانتكارات التى لا تحصى ، والتى
قيلت فيما بعد وطوال عشرين عاما ، من أن الحكومة البريطانية لم تنو
فى يوم من الأيام .. أبدا .. أبدا أن تضع فلسطين فى أيدي الصهاينة .

وما هذه الإنكارات والاحتجاجات الا أكاذيب . إن هذا هو ما انتواه
المستر اويد جورج واللورد بلفور (وشركاؤهما) في هذا الأمر . وهذا
هو دليلنا المدعم بالوثائق الدامغة .

أما وقد ووجه رئيس الوزراء وسكرتير خارجيته الآن بصعوبة
إصدار وثيقة لصالح اليهود يعارضها معظم اليهود بكل ما أوتوا من قوة ،
فقد اضطروا الى أن يطلبوا تعديل هذا التصريح من جديد . فأعدت مسودة
جديدة . وأرسلت الى الدكتور وايزمان ، والمسيو سوكولوف ، والسير
فيليب ماجنوس ، والمستر مونتفيور ، والسير سسيوارت صمويل ،
والمستر ليونارد كوهين ، والرباني الأكبر (الدكتور هرنز) ، برجاء أن
يعملوا رايهم فيها كتابه . ويحدث المسر لاندمان عن هذه الحركة على
أنها حركة كان يتوقف عليها الشيء الكبير بيد أن من الصعب تصديق
هذا الكلام . اذ كانت الحكومة تعلم أن أغلبية هؤلاء الذين استشارتهم
سيؤيدون هذه المسودة الجديدة التي ما تزال مرضية بالنسبة للصهيونية
السياسية التي كان لها دورها المعهود في تدبيرها . . انها مرضية
بالنسبة لها ان لم يكن كل ما سبقها من مسودات مرضيا لها !

ان فلسطين لم تعد تذكر في هذه المسودة الجديدة كوطن قومي
للشعب اليهودي ، بل أعربت الحكومة عن رغبتها في أن ننشئ « وطنا
قوميا للشعب اليهودي » في فلسطين . وقد سفح قدر هائل من مداد
الطباعين وانتفخت أوداج كثير من الخطباء وبددت أنفاسهم لتبيان دلالة
هذا التبدل في المقولة . وان كل ما تدل عليه ان هو في الواقع الا افتقار
الى الشجاعة من جانب الأشخاص الحكوميين المتورطين في هذه الجريمة .
لقد اصابهم الدعر حين جوبهوا بتلك المعارضة اليهودية وجبنوا عن
الاعلان بأنهم سيحمون عملية تحويل فلسطين دفعة واحدة وفورا الى
وطن قومي يهودي . فقررروا أن يعلنوا حمايتهم على القسط الأول من
هذه فقط . ان قلوبهم لم تخزهم فيغيروا موقفهم . انهم لم يتبصروا
ويعبدوا تقدير موقفهم على ضوء معاهدتنا مع الحسين . . انهم لم يقوموا
بأى محاولة لاستشارة أى ممثلين للعرب أو أن يشترطوا مقدما اجراء
هذه الاستشارة ، وأن يعدوا بالقيام بها حالما يصبح ذلك ممكنا . لقد
سددوا في غوايتهم واستمروا في محاولة عقد هذه الصفقة الخئون .
بيد أنهم أخذوا يصوغونها بصورة مغايرة . . وبدءوا يختارون كلماتها
بحذر شديد .

ولم ينخدع أولئك الرجال الذين أجبروهم على تنكب هذا المسلك الأكثر حرصاً وحذراً . لقد استمر المستر ليونارد كوهين ، رئيس اللجنة اليهودية للأوصياء ، والمستر مونتغيور والسير فيليب ماجنوس الذي كان عضواً في البرلمان عن دائرة جامعة لندن ، استمروا في الاحتجاج بالنيابة عن اليهود البريطانيين . وكان من بين اعتراضاتهم الرئيسية الاعتراض على إبقاء كلمة « قومي » في نص التصريح . وكانوا على حق في هذا بالطبع لأن الاحتفاظ بالصفة « العومية » كان أمراً خطيراً كل الخطورة ، ولأن كلمة « قومي » كلمة خطيرة المفزى والدلالة . ومعنى ألا يكون لليهود وطن اجتماعي أو وطن ديني بل يكون لهم « وطن قومي » ، معناه أن جرنومة الدولة اليهودية المستقبلية قد وضعت في هذه المعادلة . كما أن غزو الصفة العومية لهذا « الوطن » المزعوم يجرد اليهود الذين يمينونه من أي ولاء لأي دولة تؤسس على حق جميع سكان سورية أو سكان أي جزء من سورية في الاقتراع العام .

ولا يولى المدافعون عن الصهيونية والمعدرون لها ، على مختلف ألوانهم وأشكالهم ، كثيراً من الاهتمام لهذه النقطة . وهم يفضلون أن ينمصلوا من الحديث عن المضامين الواضحة والمفريات الكامنة وراء هذا الاحتفاظ بكلمة « قومي » في المسودة الجديدة . ويفضلون أن يجدفوا في جدل أجوف حول الأثر المختلف الذي يحدثه قرن أداة التعريف بتلك الكلمة من عدمه ، وحول المعنيين المتناقضين لعبارة « وطن قومي » وعبارة « الوطن القومي » . ولكن ليس هناك ثمة سبب على الإطلاق يدعو القارئ الذي يريد أن يفوص في لب هذه القضية أن يضع وقته سدى في تفسير لغة اللورد بلفور ذات الوجهين .

وبالرغم من محاولات السير فيليب ماجنوس وأصدقائه احتفظت الحكومة بهذه الكلمة الخطيرة « قومي » في المسودات التي كتبت تالياً . لقد أصر الصهاينة السياسيون على وضعها في هذه المسودات وكذلك فعل الضالعون في الوزارة معهم احتساباً لوجههم . لكن المعارضة لم تلق بسلامتها . وقد وجدت في المستر أدوين مونتاجو مكافحاً نبيلاً وزعيماً لا تلين له قناة . واستطاع هذا بوصفه سكرتيراً لشئون الهند أن يطرح القضية أمام الوزارة . إذ حين ووجه بمسودة تموز البلورية التي أوردناها لتونا ، أو ووجه بالأحرى بهذه المسودة الصهيونية التي كتبت لبفور فتناها « فتح نيران هجومه في أواخر شهر آب بمذكرة احتجاج هادئة تمس شغاف القلوب » (عن السيدة واجديل) .

والأكثر من هذا أنه نجح في تحطيم مواقع خصومه . وظلت حكومة بريطانيا لفترة قصيرة من الزمن تفكر في التخلي عن سياستها الموالية للصهيونية ، وكادت تفعل ذلك .

ولدينا شهادة السيدة داجديل على هذا . انها تقول : « لقد أصاب الوزارة ما هو أكثر من الاهتزاز ، لأن بلفور في الرابع والعشرين من أيلول قد رد على كلمة نائف » (ضد الإبطاء) « صدرت عن أحد موظفي مكتب الشؤون الخارجية الذي يرأسه قائلاً : ونعم . ولكن بما أن الوزارة قد بتت (في غيابي) في هذه المسألة لغير صالح الصهاينة فاني لا أستطيع أن أفعل شيئاً بعد أن يعكس القرار » .

وان كل ما نوضحه لنا « ابنة أخ بلفور هو أنه لم يكن يشك في قدرته على جعل هذا القرار يعكس . فالظروف التي كانت في ظلها نجتمع الوزارة آنذاك لا بد أن ساعدته . هذا وناهيك تماماً عن سلطانه هو . لقد كانت اجتماعات الوزارة الحربية غير مقصورة على أشخاص معينين بالذات لايجوز لغيرهم حضورها ولا يجوز لأي منهم أن يتخلف عنها . فلفور نفسه لم يكن عضواً فيها لكن المستر لويد جورج كان يدعو لحضورها وقتما شاء . وكان ينبغي عنه أحياناً من يحضر . ولقد حضر هو أو نائبه أربعة أخماس اجتماعاتها . وكان الجنرال سمطس يحمل كذلك دعوة مفتوحة لحضور اجتماعاتها في ذلك الصيف . وكان أعضاؤها الدائمون رئيس الوزراء واللورد كرزون واللورد ملتر والسيددين بونارلو وهندرسون والسيد ادوارد كارسون . وكانت جلساتها كثيرة . وفي كل صباح؛ بل وكانت تنعقد مرتين أو ثلاث مرات في اليوم . وغالباً ما كان يحضرها كثير من الناس الآخرين، لأنه كان في وسع أعضاء الوزارة الحربية أن يجلبوا معهم كبار موظفي دوائريهم وخبرائهم ليدلوا أمامها بشهاداتهم أو يقدموا لها مشورتهم . وكان يجري البت في الأمور المطروحة بين أيديها في بعض الأحيان في التو واللحظة من قبل جميع أعضائها مجتمعين بيد أنه كان من الممكن كذلك أن يترك لأعضاء منفردين أن يقدموا تقريراً حاسماً عنها لها أو كانت تترك كذلك لتتولى تقريرها لجنة من اللجان إذ أنهم كانوا جميعاً في أشد حالات القلق والتوتر وغارقين في العمل الى آذانهم .

وفي واحد من هذه الاجتماعات غير المنتظمة سسيطر مونتاجو على الموقف . ولكن لم يكن من الصعب على بلفور أن يقلب الموائد حين خلا الجو من مونتاجو ولم يعد يقف في طريقه . إذ من سوء حظ فلسطين أن كان يتحتم على مونتاجو أن يرحل عن انكلترا في الرابع عشر من تشرين الأول

فى رحلة سيقى برنيبها الى الهند ولها علاقة بالاصلاحات النى تحمل اسمه .
أما عن الأعضاء الآخرين فى هذه الوزارة فصلا عن بلفور كان سمطس
وملنر وهندرسون . وبارنز الذى خلف هندرسون (موالين للصهاينة حتى
آخر ذرة فيهم . » لقد قالها لوييد جورج رئيس الوزراء بصراحة انه
لا يستطيع أن يفهم اليهود المعادين للصهيونية . أما المستر بلفور والجنرال
سمطس واللورد ملنر والمستر بارنز ممثل حزب العمال البريطانى فكانوا
جميعا يؤيدون بصراحة اصدار تصريح . فكان من الطبيعى أن يحزنوا
فى موقف المعارضة واليهودية « . (عن دى هاعس) . وما من شك
أن المستر لوييد جورج كان صريحا فى قوله هذا لكننى أشك فيما اذا كان قد
أخفق فى فهم حجج هؤلاء اليهود المعادين للصهاينة . ان ما كان يجب
أن يفهمه هو أنهم قد سمحوا لمشاعرهم أن تفوت عليهم فرصة دائمة القطوف
مليئة بالأرباح السياسية . وان من الغريب حقا من هذا السياسى التشاد ،
الذى كان دائما ينقذ بلاده فى يوم الانين ويدمرها ويلحق بها الخراب
فى يوم الثلاثاء ، أن يكل الى المستر مونتاجو ، ايمانا منه بقدرته ، تنفيذ
أبعد التغييرات السياسية مدى فى امبراطوريتنا الشرقية ، فى حين يرفض
أن يصغى الى نصيحته فى موضوع أثبت فيه مونتاجو قدرته هذه عينها
فضلا عن اثباته موهبة ولدتها الخبرة ونبتت فيه من دمه الذى ينتسب
اليه .

ولقد حدثنى أدوين مونتاجو نفسه ، ذات يوم من عام ١٩٢٣ وفى
بيته فى لندن ، ببعض الاسهاب عن الطريقة التى توسل بها رئيس
الوزراء واللورد بلفور الى تذليل العقبات أمام هذا التصريح الموالى
لصهاينة . وكانت هذه المحادثة محادثة شخصية ، وسارت على ذات النهج
الذى سارت عليه محادثتى مع المستر اسسكويت ، الى حد كبير ، ولكنها
كانت أطول وأوفى . ومونتاجو نفسه هو الذى طلب الى أن أزوره . لقد
قال انه لم يول أدنى اعتبار لعهودنا السابقة التى تعهدنا بها للعرب . وأن
هذه المسألة كلها قد عولجت كانما هى شأن خاص بين بريطانيا العظمى
وبين الصهاينة ليس لأحد دخل فيه .

ان شيئا لم يدرس ويبحث كما يجب بل درس كما تدرس العجالة
من القمح . اذ ما ان حل الخريف حتى كانت كواهل أعضاء الوزارة تنوء
بواجباتها العديدة وبالآزمة العامة التى كانت تأخذ باطراف البلاد وتلابيها
فى ذلك الحين ، حين كانت أقدار الحلفاء فى حالة جزر شديد حقا . فكان
الوضع السائد الذى تميزت به الوزارة فى ذلك الحين هو ألا يخرج الوزير
عن نطاق ميدانه الخاص وأن يسلم بما يقوله الوزراء الآخرون بشأن

مبادئهم الخاصة • وقد حاول رئيس الوزراء وبلغور أن ينتهيا من أمر هذا المشروع في أسرع وقت ممكن إذ كانت تتلبس رأس كل منهما فكرة محددة • وقد قال لي المستر مونتاجو ان نصوص هذا النصريح وعواقبه لم نحل ، حتى اليوم الذي رحل فيه الى الهند ، كما يجب ، من قبل جميع أعضاء الوزارة وان مغازيها ومراميها وخطورتها لم ننسشف بالتأكيد من قبل أولئك الأعضاء غير المنحازين بصورة تمكنهم من أن يعطوا السبيل على زملائهم الضالعين المتواطئين مع الصهاينة • ومع ذلك فقد ظلت بعض المقاومة أو بعض الشك تعمل في الوزارة ، والفضل في ذلك راجع في الدرجة الأولى الى اللورد كرزون • وقوى هذا المعارضة الانجلو يهوديه المستمرة في الخارج • ان كرزون كان غير مفتنع بفكرة الصهيونية السياسية • وقيل نهاية تشرين الأول سطر مذكرة عن فلسطين فصل فيها سياسة نطبق فيها كالسياسة التي عرصها لوسيين وولف والتي تكفل لجميع الملل حياة هادئة في ديارها المقدسة ، ولجميع الافراد حقوقا متساوية والتي تقول بأنه « قد يكون في الامكان تنميد مشروع ما لشراء الأراضي ولتوطين اليهود العائدين » •

وقد كتب كرزون فقال : « ان كانت هذه هي الصهيونية فليس هناك نمة تسبب لكيلا نكون جميعا صهاينة • وأرى لزاما علي ، ان كان الحال كذلك ، أن أعرب بكل سرور عن تمسكي بسياسة كهذه ، لكنها ، فيما اعتقد من دراستي لها ، سياسة قد أخذت بتوسع من الآمال الرومانتيكية والمثالية لكثير من القسادة الصهاينة الذين قرأت آدابهم • وأيا كان هذا الذي تفصله فانها لن تقدم ، في رأيي ، وطنا قوميا ، ولا وطنا ماديا ، بل ولا حتى وطنا روحيا ، الا لما لا يزيد عن قطاع صغير من الشعب اليهودي » •

وهذا يبين لنا أن موقف اللورد كرزون كان مرتبكا الى حد ما • لقد ظن أن عيب هذه السياسة التي وافق عليها هو أنها لا تضم كثيرا من اليهود • ومع ذلك فهو لم يحبذ الصهيونية السياسية « الرومانتيكية » التي كانت تضم الكثيرين منهم • ان موقفه موقف معقد • والواضح هو أن معارضته للتصريح لم تكن تقصوم على أساس متين لديه ولذلك ألقى سلاحه أخيرا •

وقد يكون أجبر على القاء سلاحه • إذ في النهاية — وحين كان هذا النصريح يتأرجح فوق نار متأججة وبوشك أن يحترق — نعد صبر الصهاينة ، أو أخذ بهم القلق كل مأخذ ، فمارسوا الضغط على الحكومة من خلال

الولايات المتحدة » • كان مولد الضغط في الولايات المتحدة « يقول المستر دى هاعاس • وللمرة الثانية « تطلع الدكتور وايزمان الى المساندة من أمريكا ليبطل أنر المعارضة في لندن ، حيث كان الوضع السياسي غدير مسجع بعض الشيء » • فجري التلميح الى الحكومة البريطانية (وليست هذه هي المرة الأولى) بأن الصهيونية قد ترغم على الارتقاء في أحضان العدو • وقدمت مذكرة نهائية الى بلفور من اللورد رونسيلد والدكتور وايزمان يطلبان فيها اصدار التصريح • وقد افترحت هذه المذكرة أن •

تبحث المسألة على ضوء المصالح الاستعمارية والمبادئ التي ندافع عنها الدول المؤتلفة • • ولذلك فنحن الآن نناشدكم منح هذا التصريح لنا • وسيمكننا هذا من المضي قدما في تجميع ونوئيق الرأي العام اليهودي في بلدان الائتلاف لابطال أس كل هذا التأثير المنبسط للهم الذي نحاول صحافة العدو ممارسته بالتلويح لليهود بعود غامضة • (عن دى هاعاس)

وخط التشديد من وضعي أنا • ومع ذلك فهناك قرينة أخرى من الأقوال الموالية للصهيونية (وقدمت لي أنا شخصيا في عام ١٩٢٣) ، أكثر من هذه وضوحا • لقد رئي أني في مقالة من مقالاني لم أنصف الدكتور وايزمان في خدماته التي خدم بها الحلفاء (والواقع أن خدماته هذه شيء لا يخطر ببالي أن أشكك فيه) وقيل لي أنه في هذا المازق الذي نتحدث بصدده « بتدخله الشخصي قد جعل الميزان الصهيوني يميل لصالح الحلفاء وهزم عرضا ألمانيا » فانما كان يجري البحث فيه بصورة جدية في ذلك الحين من قبل الفروع غير الموالية للحلفاء في المنظمة الصهيونية •

ولقد حدث بعد هذه الانذارات المذكورة أعلاه وبعد تلك المذكرة الانذارية من روتشيلد ووايزمان - ان أردنم الحق - أن مارس النفوذ الأمريكى أثره على الحكومة البريطانية بصورة حاسمة • ويعالج الكتاب الذين يسخرون أقلامهم في خدمة الشعار الصهيوني هذه المرحلة الأخيرة بطرائق مختلفة • فالمستتر شتاين يحصر نفسه في حدود القول بأنه « قد حدث هناك بعض الابطاء والتأخير قبل أن توافق الوزارة رسميا على اصدار بيان عام » ، وان كان يذكر في معرض حديثه عن مرحلة أسبق أنه « حين حانت لحظة اتخاذ قرار في أواسط عام ١٩١٧ أيد الرئيس ويلسون الصهاينة بكل ثقل نفوذه » •

أما المستر فيليب جرافز فهو يعرضها لنا على هذا النحو : « وأخيرا وصلت المفاوضات الى نتيجة ناجحة والفضل في ذلك راجع في جزء منه

الى تدخل الرئيس ويلسون ، الذى كان المستر برانديز القاضى ، والذى هو واحد من أحسن من عرفناهم من الصهاينة الأمريكين ، قد سعى لديه ، • أما التقرير الصهيونى الرسمى الذى جرى بحيره فى أوروبا فى جو تأكله الغيرة من تزايد الهيمنة الأمريكية فيقول ان الرئيس ويلسون قد أرسل « رسالة شخصية الى الحكومة البريطانية يعرب فيها عن موافقته على فكرة إصدار بيان مؤيد للصهاينة » •

ويجب علينا أن ننشد الامام الصادق بما حدث لدى السيدين وايز ودى هاعاس • ان الصورة الفردية التى يقدمها لنا دى هاعاس شخصيا عما حدث هي : « ان صعود أسهم الأمريكين فى مجالس الحرب قد دفع الحكومة البريطانية الى أن تطلب موافقة الرئيس ويلسون ورضاه عن صيغة التصريح قبل إصداره • وقد سلمت المسودة التى أرسلتها حكومه الى حكومة الى الزمرة البرانديزية لأخذ موافقتها عليها » • (وخط المنسديد من وضعى أنا) •

وليس هناك كلمة أحسن من الكلمة التى استخدمها المؤلف ليصف بها فوراً أولئك الأشخاص الذين كانوا آنذاك يسيرون الرئيس ويلسون ويعينون صفة الادارة الأمريكية (فيما يتعلق بفلسطين) - « الزمرة - البرانديزية » • وكان هذا النص الذى أرسلت به الوزارة البريطانية لتأخذ عليه موافقة • هذه الجهات مصوغا كما يلي :

ان الوزارة ، بعد المناقشة التمهيدية ، تقترح هذه المقولة المعدلة -تنظر حكومة صاحب الجلالة بعين العطف الى انشاء وطن قومى للجنس اليهودى فى فلسطين وستبذل أقصى ما فى جهدا من محاولات لتيسير بلوغ هذه الغاية ، مع العلم تمام العلم بأنه لن يفعل شيء من شأنه انتهاك الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين ، والأهلية السياسية التى يتمتع بها فى أى بلد من البلدان أولئك اليهود الذين هم راضون كل الرضا (هكذا) بقوميتهم ومواطنتهم الحالية •

وقد حولت هذه الرسالة الى زمرة برانديز فلم ترض عن خاتمه هذه الصورة البريطانية للتصريح الذى يريدونه •• ان أقل شيء فيها هو أن هذا الخليط المتعدد المناكب والجوانب بريطانى الأصل • وقد أخضعه وايز ودى هاعاس ، على حد قولهما « الى أدق مراجعة وتمحيص تمليهما الضرورة » • أما من حيث وجهة نر الزمرة البرانديزية فهو يضع الصهيونية « على أساس من السخط ، الأمر الذى هو غير مرغوب فيه

الى أبعد الحدود » • « ولذلك فقد افترحوا على الكولونيل هاوس في الخامس عشر من تشرين الأول تقييد الجملة الحتمية بحيث تقراً : أو الحقوق والأهلية السياسية التي يتمتع اليهود بها في أي بلد آخر » • وانهما ليوضحان في مؤلفهما المشترك الخديعة الكبرى أن : « المسودة النهائية قد جرى تعديلها من قبل مؤلفي هذا الكتاب • وبعد التشاور مع القاصي برانديز قدمت الى الكولونيل هاوس الذي نقل هذه الصورة الى الرئيس ويلسون • فأصدرت الوزارة الحربية البريطانية هذا النص النهائي بناء على موافقته وعلى طلب صريح منه » •

وكان في السابع عشر من تشرين الأول أن أبرق ويلسون بموافقته هذه على هذا النص المعدل بيدي السيدين وايز ودي هاعاس • وبهذه القدر لا بد أن صفة هذا التصريح قد اتضحت الآن لأي انسان بما فيه الكفاية • ان هذا التصريح لم يبق في انكلترا وحسب على المسودات الصهيونية بل ان النصيب الأمريكي فيه ، أو الذي يسمى « بالنصيب الأمريكي » على زعم أنه كان من صنع الرئيس ويلسون أو من صنع وزرائه ؛ ان هذا النصيب كان من صنع الصهاينة أيضا • ولم يكن المسنر ويلسون أو الكولونيل هاوس الا مجرد آلتين توقعان أو تنقلان النصوص بين الطرفين الحقيقيين • وقد أعطيت هذه النصوص كافة الامتيازات التي كان يجب أن تمنح فقط للبيانات المستقلة التي تصدر عن الرئيس وعن ادارة الولايات المتحدة •

وبهذه الخلاصة الغنية بالمعلومات الكشافة التي اوضحنا بها كل شيء في مكانه تنتهي قصة الأصول المباشرة الذي خرج منها هذا التصريح، والظروف التي صدر فيها • وفي لندن جرى تحويل كلمة Race (جنس) الى People (شعب) • • لقد قبلت تعديلات وايز ودي هاعاس • وتلا ذلك أسبوعان من الإبطاء قبل أن يظهر هذا البيان في جدول أعمال الوزارة • وفي الثاني من تشرين الثاني اسدل الستار على المشهد الختامي •

ولا بد أن بعض قادة الصهاينة كانوا في ذلك اليوم ينتظرون في غرفة مجاورة لغرفة اجتماع الوزارة لأن هذا الحادث ، كما يؤرخ له المستر لاندلمان ، قد جرى الاعلان عنه بلسان السير مارك سايكس (الذي قدر له أن يندم فيما بعد على دوره في الأمر كله) • • لقد خرج مرتبكا من غرفة الوزارة ورد بنبرات تتفق تماما وهذه المناسبة قائلا لزمرة الآباء المجتمعين ، « انه ولد » •

وأما رسمياً فقد أرسل بابل السعاح هذا ، الذى نتج من جريمة
تعدد الأزواج ، على شكل كتاب من سكرتير الخارجية الى اللورد روتشيلد .
وهذا نصه :

وزارة الخارجية

فى الثانى من تشرين الثانى لعام ١٩١٧

عزيزى اللورد روتشيلد

من دواعى غبطتى الجمّة أن أنقل لكم بالنيابة عن حكومة
صاحب الجلالة التصريح التالى ، بعطفنا على الآمال الصهيونية
اليهودية ، الذى عرض على الوزارة فوافقت عليه .

ان حكومة صاحب الجلالة لتتنظر بعين العطف الى مسألة
اقامة وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى وسنبذل أقصى
ما فى وسعها من مساع لتذليل احراز هذه الغاية ؛ مع العلم
تمام العلم بأنه لن يفعل شئ من شأنه المساس بالحقوق المدنية
والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة حالياً فى فلسطين أو
الحقوق والأهلية السياسية التى يتمتع اليهود بها فى أى بلد
آخر .

وأكون مدينا لكم بالجميل اذا ما تكرمتم فأبلغتكم هذا
التصريح الى علم الاتحاد الصهيونى .

صديقكم المخلص

آرثر جيمس بلفور

ولا شئ أكثر انارة للسخرية الهمجية من هذا السطر الأخير ، قد جرى
به قلم فى يوم من الأيام ! لكأنى به هو فى حد ذاته يسخر من بلفور .

الفصل الحادى عشر

تحليل تصريح بلفور - صفته التذليلية وعباراته الخداعة

هناك الكثير مما ينبغى علينا أن نقوله بصدده هذا التصريح الذى تسرب الى الصهاينة سرب الماء باحتنا عن منبعه ، فى ذلك اليوم الثانى من تشرين الثانى (نوفمبر) لعام ١٩١٧ . لكن أول شيء ينبغى أن نقوله هنا عن تصريح بلفور هذا ، هو أنه قد وزن جيدا حتى أدنى جرة فلم قبل أن يصدر . انه تصريح لا يحتوى على أكثر من سبع وستين كلمة ، وزنت كل كلمة منها وزنا دقيقا قبل أن نوضع فى صياغته النهائية ، اللهم الا اسم الحكومة التى صدر باسمها ، وبضعة حروف من حروف الوصل والعطف البريئة .

وليست هذه الوثيقة الخطيرة الشأن جملا من جمل اللغة الانجليزية يفدر ما هى فسيفساء لفظية ، ظلت مسوداتها تغدو وتجيء فى داخل انكلترا وعبر المحيط ليتولاها بالتحقيق والتمحيص نحو أربعين صائغا ، نصف متعاونين ، نصف متنافسين مع بعضهم البعض ، يحذفون هذه العبارة ويأخذون بتلك بعد تفكير شديد . وأخيرا وبعد لآى شديد اختيرت هذه التشكيلة الأخيرة من الألفاظ ، من بين مايتوفر لديهم من حصيلة من مرفوض العبارات ومقبولها ، ثم جرى التصديق عليها ووضعها فى صيغتها النهائية . ولم يسبق لتصريح أبدا أعد بمثل هذا الطول الزمنى الذى أعد به هذا التصريح ، ولا أخرج بمثل ما أخرج به من عناية ، أو صيغ بصورة أوعى مما صيغ بها .

وعلى هذا يتفق جميع المعلقين من مختلف الآراء . ويقول المستر ليونارد شتاين فى كتابه الصهيونية « ان تصريح بلفور لم يكن بأى حال من الأحوال الا سمة عرضية عابرة . وانما أصدر كميان سياسى مدروس بعد مداولات مطولة » . أما فى كتاب تاريخ مؤتمر باريس للمصلح لتمبرلى

فقد جاء أن « التصريح قد درس دراسة دقيقة في كل معانيه ومرامييه ومغازيه ، وتعرض للتغيير والتبديل مرارا وتكرارا ، قبل أن تخرج به الحكومة البريطانية للعالم » . وكتب المسيو فاحوم سوكولوف في كتابه تاريخ الصهيونية ، ومؤلفه هذا مؤلف هام آخر ، أن « كل فكرة ولدت في لندن اختبرت في أمريكا من قبل المنظمة الصهيونية . وكل اقتراح صدر من أمريكا لقي أشد العناية والاهتمام في لندن » . وكتب المسنر وايز ، الذي كان في مركز يؤهله حقا لأن يكون مطلعاً على مجرى الأمور ، فقال ان « تصريح بلفور ظل في طور الخلق قرابة سنتين . . . ولم يجر تأليفه بصورة فردية بل جماعية » . وأكد المسنر لويد جورج لمستمعيه وهو يلقي خطاباً في ويلز في عام ١٩٣٠ ؛ أكد بعبارات غريبة أن هذا التصريح « قد أعد بعد تفكير شديد ، ليس من حيث سياسته وحسب بل ومن حيث صياغته الفعلية كذلك » .

واذن فهناك نقطة واحدة لاجدال فيها . وهي أنه أيا كان هذا الذي سنجده في نصريح بلفور هذا فإنه قد صمّن فيه عن عمد ، وأنه لم يجيء في نصه شيء مصادفة . وأنه ان كان فيه نوع من الغموض فهو غموض جاء عن قصد . وأنه اذا كان غامضاً ، فان الأميرال الذي يأمر مدمراته بأن تنشر ستارا من الدخان ، أميرال غامض .

والمهم هنا ، أهمية ما بعدها أهمية ، أن يقر هذا في الأذهان قبل أن يقال المزيد . ومرد هذا هو أن الخلاف الدائر حول فلسطين ، فيما يتعلق بهذا التصريح ، قد وجه وجهة خاطئة لبعض الوقت . فقد قام البعض بتقديم دفاع عنه يضرب صفحا عن مضامينه الفعلية ومركز على صياغته اللفظية . فوصف بأنه « قد صيغ صياغة لا روية فيها » أو بأنه يحتوى على مضامين لم تدرك حين جرت كتابته . أو بأنه ليس محدد الالفاظ كما ظن فيه . أو قيل على العكس من ذلك تماما ان الكثير جدا يقرأ بين سطوره .

وربما كانت تكمن ، وراء هذه التعليقات التي كتبت ، نوايا طيبة في كثير من الأحيان . بيد أن تصريح بلفور ، ويا للأسف ، قد اتخذت منه سلسلة من الحكومات المتعاقبة في بلادنا دعامة للسياسة البريطانية في فلسطين . ويقول البعض ، بناء على ذلك بوجوب قبول هذا التصريح على علاته و « بكل عيوبه » . ويقولون ان تمحيصه قد يكشف أنه قد كتب عن سوء نية ، لكن فضح سوء النية فيه ، سيكون في الوقت عينه فضحا لها في سلوك البلاد ذاتها ، اذ أن إحدى حكومات بريطانيا العظمى قد نشرته ،

وأكدته وتبينته الحكومات التي جاءت بعدها ، وقد لا يكون هؤلاء الناس ، الذين جنبوا عن تمحيصه ، قد طرحوا أفكارهم هذه لأنفسهم على هذه الصورة من الصراحة العارية ، لكن هذا هو ما كانوا يحسونه فعلا في قرارة قلوبهم . ومن ثم فإن الطريق الذي ظنوه مفتوحا لهم لانقاذ شرف البلاد ، كما يوهمو ، هو القول بأن هذا التصريح قد صيغ صياغة غير دقيقة . ومن ثم فقد تابعوا الجدل على هذا الأساس فاستعرضوا ذكاءهم في حل ألغازه ومرامييه وطعموا عملهم هذا بقليل من النقد الاستنكاري .

وبهذه الطريقة استطاعوا ربما التهرب من الاعتراف بأن هذه الوثيقة التي أصدرت على نطاق الأمة واعتمدت باسم الأمة ، لم تكن الا قطعة من الدجل والخداع المخطط المرسوم . وهذا هو السبب في أننا قد ظللنا نسمع ، ولسنوات عديدة حتى الآن ، من رجال الدولة ، ومن رجال الدعاية والنشر ، ومن الساسة ، ومن اناس من أعضاء الجمهور كذلك ، تأكيدات بأن كاتبى هذا التصريح اما أنهم لم يكونوا يعنون ما يبدو من هذا التصريح أنهم يقولونه أو أنهم لم ينجحوا في أن يضمنوه ما كانوا يعنون . كما خرج علينا مدافعون آخرون عنه بتفسيراتهم الخاصة المفرضة . وكانت تفسيرات المستر تشرشل بهذا الصدد معقدة وصلدة ، تعقيدا وصلادة منسربات جحور الديدان في الرمال !

وقد يكون وراء هذه الأعذار والتأويلات التي تتنافى والمنطق والحقيقة، بعض حسن النية ، على هذا النحو . لكنها نية تترجم في التطبيق الى شيء يجلب الخزي والأسف والعار . ولست أنوى هنا أن أسير على هذا النحو الذي اختط على هذه الشاكلة . اذ مادام تصريح بلفور قد صدر دون أن يكون هناك مبرر لاصداره فلست أرى أن هناك ثمة ما يدعوني الى أن انتحل له عذرا . وليس مما يجلب السرور على قلب المرء طبعاً أن يتخذ هذا الطريق وأن يركب هذا المركب (كما أسلفت قبل قليل) . ليس مما يفتح شهية المرء أن يعرى بلاده أو أن يعرى على الأقل أولئك الذين يتحدثون باسمها . لكن عالم ١٩٣٩ ليس فيه متسع لاستعراضات الوطنية الكاذبة أو التظاهرات الجوفاء بالوطنية الجبانة كما أنه لا توجد أى فائدة من ورائها . اننا نريد لانجلترا أن تعترف بأثامها ، ومن ثم تأخذ مكانها على رأس الأمم بسبب قوة ضميرها الحي النقي .

ولنعد الى تصريح بلفور ونحن نحمل هذا في رؤوسنا . لقد بلغ هذا التصريح أسماع الناس في التاسع من تشرين الثانى حين جرى نشر كتاب للورد بلفور في الصحف . ولقد صدر طبعاً على شكل رسالة

بريطانية بحنة تتضمن مفهوما بريطانيا بحثنا . وقد جعل من كل انسان معنى به ، أو له علاقة به ، ضحية لهذا التمييز الزائف . لقد طلب الى الشعب البريطاني أن يصدق أن هذا التصريح انما هو نتاج غير مغشوش انتجته حكومته . وفد لجمهوره اليهود على أنه ضمان لم يصدر الا عن ضمير الوزارة البريطانية ، فساعد بالنالى على ايقاعهم فى شرك الحركة الصهيونية السياسية . أما بالنسبة للعرب ، فقد أعلن عليهم ؛ حين أعلن على أرضهم أخيرا (وهو الأمر الذى لم يحدث الا بعد مضي وقت طويل) ؛ والذى كان بالنسبة لهم أيضا نصا اشترك فى نديجه صهيانية من مختلف الاجناس والفوميات ؛ أعلن عليهم على أنه صوت بريطانيا . وفيل لهم انه تعهد صدر لصالح الصهيانية ولم يقل لهم أن الصهيانية هم الذين كتبوا معظمه . وطلب اليهم أن يحترموه على أساس أن الحكومة البريطانية قد أعلنته للعالم قاطبة ، وبوحى عظمتها الوطنية ، بعد أن أولت تلك الحكومة المذكورة تفكيرها هذا الخطير ، الضيق الأفق ، الفريد فى نوعه ، لـ « منسكلة فلسطين » ١٩١

ولكن صريحا تماما بصدد هذه النقطة . ان عبء الحداد والدجل لا يقع على عاتق حكومة عام ١٩١٧ وحدها لأنها استشارت الصهيانية قبل ان تصدر بصريحها هذا . ولقد كان مما يسقيم مع المنطق تماما ، فيما يتعلق بالنسكل المجرد لهذا البيان المشرح (بغض النظر عن جميع الاعتبارات الأخرى) ، أن يطلب الى الصهيانية أن يقدموا مالدتهم من أفكار بصدد أنواع المعاضدة والنسجيج «التي يطمعون فى الحصول عليها» وكان للحكومة أن تدرس كل ما يقدمه لها الصهيانية وأن تجرى المزيد من المشاورات معهم حتى يتم الاتفاق على نص نهائى . ولو أن هذا النص ؛ بغض النظر عن ماهيته ، قد نشر على أنه اتفاق بين الطرفين ، وعلى أن الحكومة البريطانية على استعداد لأن نرعه لكنت صيغة التصريح ، والحالة هذه ، لا غبار عليها . ولكانت هذه الصيغة صادقة أمينة حتى وان كانت السياسية المتضمنة فيها غير شريفة ولا سبيل للدفاع عنها .

الا أن هذا التصريح النثائى - وفى وصفنا له بكلمة نثائى مبالغة فى نصيب الحكومة من عملية صياغته - قد أصدر على أنه تأليف حكومة صاحب الجلالة وحدها . وفى هذا اختلاق وكذب . وقد جرى استعراض الكلمات بنصها فى السنوات التالية أيضا ، أمام أعين العرب وبغباء لا يلين ، على أنها التزام مقدس قطعتة بريطانيا العظمى لليهود ، وحتى بعد أن افترض أن مختلف الصهيانية هم الذين صاغوا هذا الالتزام بأنفسهم ولأنفسهم ،

وانهم كانوا وراءه فى جميع مراحلہ . وهذا يجعل الوزارة التى جاءت بعد وزارة عام ١٩١٧ شريكة فى هذا الخداع الذى بدأتہ الوزارة المذكورة . وهو خداع لا يخفف من بشاعته الا ذلك الجهل الذى لا يغتر ، فى حالة أعضاء معينين فى هذه الحكومات .

أما الصهاينة أنفسهم فهم فى موقف أحسن فى هذا الأمر ، من موقف شركائهم البريطانيين . ولكى ننصعهم نقول انهم هم أنفسهم الذين كشفوا للناس عن الظروف الحقيقية التى صيغ هذا التصريح فيها . وقد فعلوا هذا بعد فترة لا أستطيع أن احدها بالضبط لانى لم أقرأ جميع المنشورات الصهيونية والكتابات الصهيونية التى لم تكن تتوقف عن الصدور أبدا . بيد أن المنظمة الصهيونية قد كشفت عن دورها فى إصدار هذا التصريح فى الفترة التى لا تتجاوز أربع سنين من نشره ، على وجه التأكيد . وقد يكون هذا الكشف قد جرى فى وقت مبكر . هذا الذى يصل اليه علمى . ولست أقول ان دوافع المنظمة الصهيونية هذه كانت دوافع نظيفة . اذ أن كل شئ كان يسير فى ذلك الحين لصالحهم ، على ما يبدو ، والحبل على غاربہ . ويخيل لى أن أناسا فى قيادة هذه المنظمة لم يستطيعوا مقاومة اغراء الشهرة فى عيون اتباعهم من الصهاينة فكشفوا عن ذلك الدور الهام الذى لعبته قيادتهم من وراء ستار فى إصدار هذا التصريح . وعلى أى حال فقد كان بيانهم فى هذا الصدد بيانا صريحا .

فلنحل الآن نص هذا التصريح . « ان حكومة صاحب الجلالة لتنظر بعين العطف الى اقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين . الخ » وغالبا ماتكتب هذه الجملة الأولى وفيها عبارة « وطن قومى » مكتوبة بحروف كبيرة لكن اللورد بلفور قد استعمل فى النسخة الأصلية ؛ على حد ما جرى نشرها فى جريدة التايمز ، الحروف الأقل من هسذه لفتنا للأنظار ؛ أو ما يسميه أصحاب المطابع حروف « الحالة الدنيا » ، ليقدم بها صنيعته . اذ لم يكن يستطيع هو أو شركاؤه ادعاء اختراع هذا الاسم ، الذى راود خيال ليون بنسكر قبلئذ بخمسة وبلاتين عاما فى أوروبا . ولم يكن بنسكر نفسه ينوى تطبيق هذا الاسم فى فلسطين اذ قال : « وينبغى علينا ألا نقيده أنفسنا بالمكان الذى قطعت فيه حياتنا السياسية بعنف » ، (عن شتاتين) بالرغم من أنه لم يدخر جهدا فى بناء المستعمرات اليهودية فى هذا البلد ، كما فى أى مكان آخر . لكن بلفور وزملاءه تبنوا هذا الاسم من البرامج الصهيونية ومسوداتها واستفادوا من غموضه . اذ أن عبارة « وطن قومى » ؛ سواء اكانت مكتوبة بحروف كبيرة أو بلا

حروف كبيرة ، كانت فى عام ١٩١٧ عبارة جديدة بالنسبة لمعظم الناس .
وكان من الطبيعى ألا يستطيع أحد أن يدرك لها معنى لأنه لم يكن لها معنى
متعارف عليه . ومن ثم فقد وصعت فى مجال الممارسة فى فلسطين دون
أن يكون لها معنى .

أما فى وثيقة رسمية أعلن تأييد الحكومة البريطانية لهذه المؤسسة،
فكانت جميع قواعد السياسة وأصولها تقضى بوجوب أن تحدد الحكومة
للأمة ما هو بالضبط هذا السئ الذى تؤيده قبل أن تفقد نفسها بهذا
التأييد . أما ألا تفعل الحكومة ذلك فمعناه أن تتعهد بريطانيا العظمى
(ناهيك عن مسألة ما اذا كانت تملك الحق فى إصدار مثل هذا التعهد
أو لا) . بتقديم عونها الى شئ لا يستطيع أحد أن يقول ما هو . فخلق
اذن بهذا الافتقار عينه الى التحديد - وهو الأمر الذى لا يغفر فى حد
ذاته - أن يجد طريقه الى الديباجة التى وصف فيها هذا التصريح بأنه
« تصريح بالعطف على الآمال اليهودية الصهيونية » ، لكن أحدا لم يقدم
لنا مفتاحا لمعرفة هذه الآمال . فما هى هذه الآمال اليهودية الصهيونية ؟
ان أحدا لم يعرفنا بها . فكيف تأتى لحكومة بريطانية أن تمنح عطفها
للغز ؟

والحقيقة طبعاً هى أن هذه العبارات التى لا يدرك معناها قد
قد استخدمت لا لشيء الا لأن معناها لا يدرك ، ولأنه يمكن تفسيرها كما
يحلوا للمفسر أن يفسرها . ان فيها سيماء الوعد باعطاء تأييد الحكومة
لما يريد الصهاينة فى فلسطين . . لدولة يهودية يتم التوصل الى انشائها
من خلال حكم وهمى يشترك فيه اليهود والعرب معا . وكان هذا هو
المعنى أو التفسير الذى قيل فى النهايه من قبل أولئك الصهاينة الذى
اسهموا فى صياغة التصريح . وكان هذا هو المعنى الذى طلب الى الصهاينة،
والى اليهود بوجه عام أن يفهموا أن التصريح يحمله . وما من شك أن
خيبة الفأل قد اعترتهم لأن حقوق الحكم لم تمنح لهم كاملة ، وعلى الفور .
بيد أنهم كانوا وانتقن من أنهم سيستطيعون تهيئة ظروف فى فلسطين
تتحمل فى طياتها نهاية سريعة لمرحلة الانتقال هذه ، بأسرع مما يتوقع .
ولم ترد الحكومة من جانبها أن تسبغ على هذا التصريح ؛ منذ البداية
بالذات ، من مفاهيم الصهاينة الا ذلك القدر الذى تسمح به السلامة .
اذ كلما زادت امكانية السلامة ؛ كلما ازدادت قوة قبضتها على البلاد ،
وكلما أغرى الرخاء المادى الدنى جماهير العرب ، ووزنت معارضة الباقين
واتخذت الاحتياطات لمجابهتها ، فعندئذ نستطيع الحكومة أن تزيد من

تأييدها لهذه المؤسسة الصهيونية بدرجات متوسع فيها ، حتى تقوم الدولة اليهودية فى النهاية .

أما من الناحية الأخرى فقد احتفظت الحكومة لنفسها بطريق مفتوح للتراجع فى حالة قيام معارضة مخيفة فى داخل بريطانيا وخارجها ، واحراز هذه المعارضة نجاحا ضد هذا التواطؤ الرسمى مع الصهيونية السياسية . فصيغ التصريح ، والحالة هذه ، حتى يمكن تفسيره ، بقصد التملص منه ، على أنه لا يعدو تعبيراً عن اهتمام ودى بالحركة الصهيونية وغير ملزم تجاهها بشئ . فاذا ماوصل الأمر الى هذا الحد فيمكن القول عندئذ : ماذا تساوى عبارة « تنظر بعين العطف » فى دنيا التعهدات بالتأييد ؟ شيئا تافها ؟! انها يمكن أن تحمل على أنها لا تعنى شيئا أكثر من أن ترسل الحكومة نظرة حانية على « الوطن القومى » فتسر اذا نجحت خطط الصهاينة ، وتأسى اذا ما فشلت ، ولكن أسمى من لاناقة له ولا جمل .

والخلاصة هى أن طريق الحكومة النقت بطريق الصهيونية ، فراق اللقاء فى عين الحكومة . فتباطأ الانان وأخذ كل منهما يغمز للآخر . ثم اتفقا على أن يسيرا معا . والى هنا وكل شئ على ما يرام . ولكن اذا مانشأت المتاعب فى الطريق وقبل الوصول الى البيت ، فعندئذ نستطيع الحكومة أن تعود من حيث آتت . متلا . والواقع أن الصياغة النهائية لهذا التصريح كانت معتركا كبيرا من معتركات الذكاء . لقد جعلت المعارضة ، التى قامت ضد المسودة النهائية ؛ وبالرغم من أنها ما زال تسلم بكل شئ فى قرارة نفسها للصهاينة ، الى صياغة تفتح لها ؛ اذا مادعت الضرورة ، بابا للهروب من أى التزامات محددة ، مهما كان نوعها . ولقد بن صياغة الحكومة فى هذا المضمار صياغة الصهاينة الذين ظنوا أن الحكومة قد باتت من المؤكد مكبله فى أيديهم ، وقد كانت الحكومة تواقه الى أن تضع فى اقدامها تلك القيود ، التى مدت أقدامها لها ، لكنها فضلت الآن أن تصوغ بحيث تستطيع أن تجعل قدميها تفلتان منها كملجأ أخير اذا لم تجد ملجأ غيره . انه خداع من الدرجة الأولى . أما الى أى مدى يليق أن يصدر عن بريطانيا العظمى فى تصريح فهذه مسألة أخرى !

ويسود فى العبارة التالية نفس الخبث والمكر اللذين يسودان فى العبارة الأولى . ان الحكومة « ستبذل كل مافى وسعها لتسهيل بلوغ هذا الهدف » . فما الذى يفهم من هذا « التسهيل » ؟ فمعنى « تسهيل » هو أن تمد يدك بالمساعدة بصورة ايجابية . ولكنها تعنى بالمثل ألا تضع

عقبة في الطريق ؛ أى أن تساعد بصورة سلبية • ان هذه الجملة قد ركبت على النسق نفسه الذى ركبت عليه سابقها فى الواقع ، أى أنها تفى بالغرض من تقديم يد المساعدة الفعلية ، ويكون فى الوقت عينه سارا أمام الناس يخفى وراءه الاهتمام السلبي • كما أنها اذا ما اقتضت الضرورة منفذا للهرب • وحال الصياغة اليهودية فيها هو حالهم فى الجملة السابقة، فهم قد رأوا نواة مقاصدهم قد ضمنت فى هذه الكلمات التى اسعملت فيها •

بيد أن طبيعة وعد بلفور لا تتضح تماما الا حين نصل الى الجملة الأخيرة منه « •• مع العلم تمام العلم بأنه لن يفعل شيء من شأن انتهاك الحقوق الدينية والمدنية للجماعات غير اليهودية الموجوده فى فلسطين ، أو الحقوق والأهليات السياسية التى تتمتع بها اليهود فى البلاد الأخرى • »

ان القسم الأول من هذه العبارة هو « الضمانة » المزعومة التى أعطيت لعرب فلسطين والتى تحميهم من العدوان الصهيونى • أما فيما يتعلق بهذه الحماية فانها تذكرنى بتجربة مر بها أحد أقربائى • لصد حذر حين كان على وشك النزول من سفينة فى زاوية مستتره فى أحد مراسى السفن فى بلد بعيد ، أن يأخذ معه أقل القليل من النقود ، وأن يكون أولا وقبل كل شيء « على حذر من الشرطة » والتحذير نفسه ينطبق على هذه الجملة « الوقائية » •

وهى لا تبدو ، عند الوهلة الأولى ، أنها قد صيغت بالدهاء نفسه الذى صيغت بها سالفاتها • فالنية فى الخداع ظاهرة فيها بجلاء •• ان وصف العرب « الجماعات غير اليهودية فى فلسطين » رُبّما مخادع ولا ينطلى على أحد • وفى الوقت الذى صدر فيه هذا التصريح كان تعداد سكان فلسطين قرابة ٦٧٠٠٠٠ وكان تعداد اليهود بينهم ٦٠٠٠٠ • ورفع اليهود هذا رقم فضفاض لكنه معقول •• اذ ليس هناك احصاء دقيق نستشهد به •• وفى تقرير كتب عن فترة لاحقة ورفعته الادارة العسكرية الى عصبة الأمم ورد المجموع الاجمالى لليهود ك ٥٥٠٠٠ • وورد فى مذكرة من مذكرات الحكومة فى عام ١٩٢٠ ، تاليا للفترة السابقة ، ك ٦٥٠٠٠ • ويمكن أن تحذف بعض الارقام من التقديرات التى قيلت عن تعداد السكان اليهود فى فلسطين فى فترة ما قبل الحرب • اذ تتراوح هذه التقديرات بين دقة تقرير لجنة شو الذى يقول ان عددهم هذا لا يبد أنه كان ٦٠٠٠٠ على الأقل وبين تقدير المستر بننويتش الذى يأخذ فى اعتباره احتمالات المستقبل والذى يقول ان عددهم كان ١٠٠ ٠٠٠ •

ويقول المستر شتاين ان تعدادهم كان يربو على ال ٨٠٠٠٠ . فاذا أخذنا بهذا التقدير الأخير واسمطنا منه ٢٥٠٠٠ كنقصا حدث في أيام الحرب وينفق والأرقام التي نوفر لدينا عن أولئك الذين فقدوا من جراء الموت أو النفي (وخسائر العرب في زمن الحرب أكبر بكثير من حيث الواقع والنسبة) فان ٦٠٠٠٠ كمجموع اجمالي لهم افترض عادل ومنصف لفترة عام ١٩١٨ - ١٩١٩ .

وهكذا فأمامنا فلسطين الآن وفيها ٩١٪ من سكانها عرب و ٩٪ يهود في الوقت الذي صدر فيه هذا التصريح . انها بحر من العرب فيه قطرة من اليهود . وكان نصف اليهود هؤلاء حديسي العهد بالمجيء الى هذا البلد .

فماذا فعل واضعو تصريح بلفور ازاء هذه الحقيقة التي لا سبيل الى نكرانها ؟ . لقد انطلقوا منذرعين بشتى الحيل والحجج الحسيسة وبحجة حماية مصالح العرب ، يحاولون اخفاء هذه الحقيقة في كون العرب يشكلون من جميع الوجوه سكان البلاد وأهلها . لقد سموهم « الجماعات غير اليهودية في فلسطين » ! لقد سموا الكثرة اللاذلة ٠٠٠ سموا الى ٦٧٠٠٠٠ للا ٠٠٠٠ ! سموا ال ٩١ من كل مائة للا ٩ ! . وادنا حدود حذوهم فيماكانك أن نسمى الشعب البريطاني « الجماعات غير القارية في بريطانيا العظمى (١) » . وما أليقه وصفا لو وصفت الجماهير العاملة بأنها « الجماعات غير المتبذلة في العالم ، » ! أو الأصحاء بأنهم « العناصر غير الطريحة الفراش بين النائمين ، » ! أو العقلاء بأنهم « قطاع غير المجانين عن المفكرين ، » ! أو أعشاب البراري بأنها « ذلك الجزء من المراعى الذي لا ينتمى الى فصيلة العليق » .

ولكن هناك بالطبع ما هو أكثر من مجرد هذه التسمية العددية المجافية لكل منطق في هذا الاستخدام بعباراة « الجماعات غير اليهودية في فلسطين » ليوصف بها العرب . انها تزوير . وقد اقترف بقصد اخفاء النسبة الحقيقية بين العرب واليهود ، ومن ثم ليجعل من عملية كبت الأول أمرا أيسر . ان هذا الأمر لهو بمثابة أن تصف سكان الجبال وسكان السهول في بيان رسمي بأنهم « الجماعات غير الايرلندية الموجودة في اسكتلندة » ، حتى يمكن اعتبار المستعمرات الايرلندية العنصر الهام في سكان الأراضي الواقعة الى الشمال من نهر التويد . وبهذا ييسد

(١) القارة تعبير يوصف به البر الاوروبى دون الجزر البريطانية .

الاسكتلنديون وكأنهم لا شيء غير جماعات مبعثرة في أرجاء التربة الكاليدونية . ومن ثم يمكن مباشرة أعمال نزع الملكية ضد الاسكتلنديين بسهولة أكثر من ذي قبل . وإن يدعو إلى الرثاء حقا أن يلقوا لم يكن مرغما على أن يحاول في اسكتلندا ما قام هو وأصدقائه الصهاينة بتنفيذه في فلسطين . . . كلما كان السياسي أرعن دنيئا كلما قلت حيلتك إزاءه .
فقل اللهم العوض .

ولقد قلنا حتى الآن أن هذه العبارة تبدو عند الوهلة الأولى وكأنها ليست من الدهاء في شيء ، لأنها مفضوحة الخداع . لكن الإنسان حين يتمعن فيها للمرة الثانية يتبين أنها مأكرة جدا على طريقتها الحسيسة . إنها تعول على الجهل العام على جهل الناس . إذ ماذا كان الشعب البريطاني ، الذي ضعضعته الحرب ، يعرف عن تكوين سكان فلسطين في عام ١٩١٧ ؟ وماذا كان يهود الروسيا المضللون (بفسح اللام الأولى - المترجم) يعرفونه عن تكوين سكان فلسطين في عام ١٩١٧ ؟ بل وماذا كانت جمهرة أي شعب ، في أي بلد خارج نطاق بلدان الشرق الأدنى ، تعرف عن تكوين سكان فلسطين في عام ١٩١٧ ؟ لا شيء .

والذي حدث هو أن صانعي هذا التصريح قد عولوا على هذا الجهل . لقد أخفوا حتى اسم العرب ذاته فسموهم بـ « الجماعات الموجودة في فلسطين » وكأنهم جماعات من الرهبان هامت في هذه البلاد واتخذت لها فيها مقاما هنا أو هناك ! أما لفظة « الموجودة » التي وصفوا بها هي الممسة الأخيرة من الفرشاة الكذوب . والانطباع المقصود للقارئ أن يفهمه من هذا الوصف هو أن هؤلاء العرب قد استطاعوا فقط أن يبقوا على قيد الحياة ، وأن مستكشفنا قد عاد من فلسطين وقدم تقريراً للورد بلفور قال فيه أنه اكتشف جماعات غير يهودية تعيش في التلال !

ومن ثم فإن المواطن العادي يستنتج حين يقرأ هذا التصريح : أن أولى هذا الأمر المزيد من التفكير ، وهذا أمر مستبعد ، يستنتج أن الخطوات السلمية التي يجب اتخاذها ، سيجري اتخاذها بموجب نصوصه لحماية البقايا المتفرقة من الأجناس الأخرى من غير جنس اليهود الذين قد يعيش عليهم في الديار المقدسة . وهذا هو ما قصد به أن يستنتجه . أما بالنسبة لأي أفراد يشذون عن هذه القاعدة ويتوفر لديهم من الاهتمام في معمعان هذه الحرب ما يجعلهم يناقشون هذه الألفاظ التي استخدمت في صياغته فقد أعد لهم ما ظن أن جواب شاف . « أن كلمة جماعة هي اللفظ السليم الذي يجب استعماله في هذا المقام لأن سكان فلسطين »

ينقسمون الى جماعات اسلامية ومسيحية ويهودية ، . وبقي عليهم أن
بضيفوا لهذه الغاية الدروز والسامريين . وليس لدينا غير هذا من قول
نقوله حول هذه التعمية . وكيفينا أن نسوقها هنا لكي نفصحها ونعريها .
فوفقا بشرف الكلمة . انها تذهب فيها سوى .

لكن التصريح لم يصدر ليزف وضع العرب فحسب وانما ليقدم لهم
ضمائنا كاذبا في هذه العبارة منه التي تقول : « مع العلم تمام العلم بأنه
لن يفعل شيء من شأنه انتهاك الحقوق الدينية والمدنية » للجماعات المزعومة
التي سبق ذكرها .

أما أن حقوقها الدينية سوف لا تنتهك فهذا في الحقيقة شيء حسن
ولو أنه لا نفع فيه . ومن حسن الحظ أنه يؤخذ على أنه شيء بديهي .
فحينما تحكم بريطانيا تبقى هذه الحقوق الدينية في أمان وصون .

أما الاشكال فهو يجيء مع « الحقوق المدنية » . ما هي هذه الحقوق
المدنية ؟ عند هذه النقطة يرهف جميع الناس آذانهم انتظارا لسماع
الجواب . وطالما بقيت هذه « الحقوق المدنية » بدون تعريف فإن ضمائنا
لا يكون الا أمرا يدع أحدا يعرف ما هو الشيء في الوقت عينه فتلك لعمري
شريعة . أليس في بلاد الأعاجيب .

— « اني أضمن لك حقوقك المدنية » ، قالت الملكة البيضاء الى أليس
في أرض فلسطين .

— « آه . شكرا » ، ردت أليس . « ولكن ما هي هذه الحقوق ،
من فضلك ؟ » .

فقالت الملكة البيضاء :

— « اني على يقين اني لا أستطيع أن أقول لك ما هي ، يا عزيزتي .
بيد اني أضمنها لك بكل تأكيد » .

وليت هذا التصريح كان بريئا براءة هذا النص الذي ورد في قصة
أليس في بلاد الأعاجيب . ان هذا الهذر المتضمن فيه هذر خبيث مخادع
وكتب بنية سيئة . ومرة أخرى نقول أنه قد ضمنت للعرب هذه « الحقوق
المدنية » لأنها تطرق مسامع البلهاء كما لو أن الحقوق الطبيعية للانسان
هي التي ضمنت لهم . . . حقوقه في أن يختار حكومة بلاده . . . الحقوق

(١) قصة من قصص الاطفال في بريطانيا .

التي ينبغي أن يتمتع بها كل انسان شريف • أى الحقوق السياسية العامة الموجودة فى النظام الديمقراطى •

ان هذه الأشياء لم تضمن للعرب قطعا • وليس مفعول هذه العبارة ومدلولها الا سحب تلك الحقوق عينها فى الاستقلال التى من أجلها تعاقبوا معنا (والعرب اما يحاربون من أجلنا أو يشاركوننا فى تحمل الآلام والتكبات بناء على وعدنا الذى قطعناه لهم بالاستقلال) ؛ ناهيك عن أهليتهم الطبيعية لهذه الحقوق • ولكن بمهارة فى التلاعب بالألفاظ والدجل والخداع شطبت الحقوق السياسية ووضعت بدلا منها الحقوق المدنية • وإذا كانت هذه الحقوق المدنية معنى شيئا - وهو أمر ليس متفقاً عليه • ويحتاج الى فقه فانوى متبحر (الأمر الذى لم يفعل حتى الآن) - فأغلب الظن أنها تعنى الحقوق البلدية أو المدنية أو ما الى هذه الحقوق التى تمتع بها المالك الأجنبى لدار فى بلد لا ينمى هو الى مواطنيه • بيد أن هذه نظرية لم تمحص بعد • أما فيما يتعلق بالتطبيق فان « الحقوق المدنية » تعبير ترك دون تفسير • ولهذا فليس لها وجود ككفالة أو ضمانات على الإطلاق •

وحين كنت فى القدس سألت المندوب السامى نفسه ذات يوم : ماهى هذه الحقوق المدنية ؟ فكان جواب المندوب السامى :

« حسنا ، ان من العسير جدا تعريفها » • وذلك هو بالضبط السبب فى كونها قد ضمنت للعرب • وكان هذا طبعاً انتصاراً لدهاء وخبت الصياغة • لقد سلبوا العرب كل شئ ، بنصوص يدل ظاهرها على أنها تؤمن لهم كل شئ • وهى خدعة ماهرة وان تك غير شريفة ووضيعة •

وليس هناك أدنى شك فى أن واضعى هذه الضمانات بالذات كانوا من الصهاينة أنفسهم • ولقد جاءت هذه العبارة الى النص من أمريكا • فعبارة « مع العلم تمام العلم » وما يتبعها ، فيها من الالتواء الخاص بها ما يكفى لاثارة الشكوك • انها ليست صياغة كلامية أو تومانيكية وليست كليشيهة يكثُر استعماله • فاذا ما أمكن العثور عليها فى وثيقة سابقة متعلقة بهذه المشكلة فيتضح عندئذ أنها نقلت منها الى تصريح بلفور •

وانها لتوجد فى وثيقة سابقة ، وأيم الحق ، وقد جرى نقلها فعلا • فحين تدخلت الحكومة عن صورة أيلول التى صيغت لهذا التصريح ، بسبب معارضة جبهة ماجنوس ومونتاجو ، وجهت الوزارة ، أو وجهت الزمرة الصهيونية بين أعضائها اهتمامها الى العثور على بديل • بيد أن هذا الاهتمام

كان يتألف في الدرجة الأولى ، كما هو الحال في السابق ، من تلقط واحتيار الأشياء المناسبة من بين المواد الصهيونية . فامد قام الصهاينة في همداء الجانب أو ذاك من جانبى الاطلسى ، حين خاب وألهم فى الاسمحواد على فلسطين نهارة جهارا ؛ ذلك الاسمحواد الذى وعدنهم به صورة أيلول ، وحين أرغموا على أن يعطوا للعرب حلاوة من طرف اللسان . فاموا بتقديم مفعولة مناسبة أخذوها كما هو واضح من بيان المنظمات الصهيونية فى الولايات المتحدة الذى صدر فى الثانى من نسرلى الأول لعام ١٩١٦ ، أى قبل سنه أو نحوها (والذى أوردنا منه سىثا فى الفصل الثامن) .

ففى هذا البيان طالبت المنظمات المذكورة ، من بين ما طالبت به ، بالحقوق الشاملة لليهود حيسا وجدوا . ثم مضى هذا البيان الى تحديد هذه الحقوق ، وكان تحديده هذا مصوعا بهذه الكلمات : « مع العلم بأن عبارة الحقوق الكاملة ، خلقى بها أن شمل الحقوق المدنية والدينية والسياسية » .

وهذا هو بكل تأكيد ويقين المصدر . . . هذه هى الصورة الكنايية الأولى لضمان بلفور الشهير ، وينبغى على المرء أن ينفى من ذهنه هذا التناطب فى الكلمات ويطن أنها انما تطابقت مصادفه . لأن وصع عبارة «مع العلم بأن» تليها قائمة الحقوق التى ذكرت تنسبر بدرجة لا يخطئها كل دى فهم الى النقل والافتباس .

ومع ذلك ، لاحظ هذا العارق الذى نسا عن هذا الاستخدام الجديد لتلك المقولة . لقد استخدم الصاغة الصهاينة هذه المقولة فى الولايات المتحدة ، ليحددوا بها حقوفهم هم ، أما فى نصريح بلفور بعد ثاب عليهم ، وبدافع من دوافع الضمان أن يستخدموها فى تحديد حقوفهم هم ، ولكن فى الوقت عينه لطمس حقوق العرب ، أن أردنا الصديق . ومن تم فقد سلموا للعرب بتلك « الحقوق المدنية » اللعينة . أما لأنفسهم فقد أستقطوا كلمة « المدنية » هذه كلية . اذ كانوا قد أدركوا منذ البداية انها لا تساوى مليما واحدا ، لأنهم قد حرصوا فى بيانهم المذكور على أن يطالبوا بالحقوق الدينية والسياسية بالاضافة الى هذه الحقوق المدنية . وتوخوا هذا الحرص عينه فى نصريح بلفور .

بيد انهم طوروا الصياغة فى « نصريح بلفور » فكلمة « المدنية » لم يعذف بها فى البحر ، كما يفعل البحارة ببعض حمولة سفنهم حين يتهدها العرق ، بل ان كلمة « السياسية الخطيرة قد نزعمت بهارة فائقة من كلمة « الحقوق » والحقت بكلمة « الأهليات » . ولو أنهم منحوا

للعرب في هذه الحملة ذاتها الحقوق المدنية فقط ومنحوا لليهود في الوقت عينه الحقوق السياسية لكان ذلك تمييزا وتباينا صارخين ، وللفت أنظار الناس اللامباليين في عام ١٩١٧ . ولذلك تركوا « حقوق » اليهود في الظاهر غير موضحة ، في حين أنها أصبحت ضففاضة في الواقع بفعل ازالة صفة النصر عنها (أى « المدنية » - العرب) . وقاموا في الوقت عينه بادخال عبارة « الاهليات السياسية » كأنها هى شىء من سطر آخر وقف على اليهود ، لتقوم هذه العبارة مقام الضمان المحدد .

ولنتوقف هنا لحظة من الزمن لنشرح لماذا كان من الضروري جدا أن يكون لهم مثل هذا الضمان ؟ . فبدون هذا الضمان قد ينظر الى جميع اليهود . حينما يصبح فلسطين دولة يهودية ، على أنهم ينتمون اليها . ومن الممكن أن يحدث هذا حتى في المرحلة التمهيدية ؛ أن يحدث خلال تلك المرحلة المتوهمة التي يكون فيها العرب واليهود ، كفرنسين تحت عربة واحدة ، بينون فلسطين الجديدة معا (واستخدم هنا ما يحلو لك من المجازات العرجاء التي تراها أوفى بالغرض من وصف هذا المجاز السياسي الكسيح الأثيم) ان التفرقة المادية للسامية سهلة الانتشار ، وقد يثور في أى بلد تهيج يطالب بارسال اليهود الى فلسطين، والا فنفيهم من البلاد ، أو تصنيفهم كأجانب ، كمواطنين فلسطينيين ، وتجريدهم من حقوق الانتخاب .

وفضلا عن هذا ، فان ادخال هذه العبارة ، دليل آخر على طبيعة النظام المبيت وضعه فوق رأس الديار المقدسة في ظل هذا التصريح . فلو بيت لهذا « الوطن القومي » أن يكون شيئا غير مؤذن يكون مجرد « وطن قومي من وطن » ، له مؤسسة بسيطة لاستقبال الزائرين ؛ أن يكون مؤسسة ليس لها أى أهلية سياسية خاصة لما كان هناك داع لاصدار ضمان يضمن للمضيفين أو للمضيفين أهلياتهم السياسية في مناباتهم ؛ سواء فيما وراء البحار أو فوق اليابسة . أما اذا كان هذا « الوطن القومي » يعنى دولة أو شبه دولة فهناك كل الدواعى لاصدار مثل هذا الضمان .

واذن فجملة « الضمان » التي وردت في هذا التصريح ، بأصلها الخداع الذي بيت للعرب به أن يجرّدوا من حقوق المواطنة ، قد تفتقت عنها عقول الصهاينة بلا شك ، وان تبناها ، طبعا ، بلفور والآخرين ، وأصدرها وكأنها هى من تفكير الوزارة البريطانية . وربما كان هذا أمرا متوقعا اذا أخذنا في اعتبارنا ذلك التأليف المشترك الذي أخرج

هذا التصريح . لقد كاتب الدريعه رائد صاغه البريطانيون . أما صاغه الصهاينة فكانوا منظرين (بتسديد الظاء وكسرهما ، أى اناسا يبررون كل ما يفعلون بنظريات - العرب) . فرأى البريطانيون أن من الضروري أن يعموا أنفسهم عن حقوق العرب . أما الصهاينة فقد كانوا مفتنعين - أو أقنعوا أنفسهم - بأن ليس للعرب حقوق كبشر ؛ اللهم الا تلك الحقوق التي جاد الأتراك بها عليهم .

ويجهر المستر دى هاعاس ، الصائغ الأمريكى فى هذا البيان ، بموقف الصهاينة بمنتهى الوضوح فيقول : « نحن نفرق بين الحقوق اليهودية وبين الادعاءات العربية . وأما بصد ما اذا كانت للسكان الفلسطينيين حقوق سياسية ملموسة فى عام ١٩١٤ ، فنحن نترك هذه المسألة الى أولئك الخبراء الضليعين فى القانون التركى ، ليقولوا لنا الحقيقة . فنحن نعلم من الواقع العمل أن هذه الحقوق لم يكن لها وجود ؛ حتى بالرغم من أن الشبان الأتراك قد أقاموا برلمانا سوريا . فلقد حكم جمال باشا فلسطين بقبضة حديدية، مثله فى ذلك مثل كل تركى سبقه، بالرغم من أنه قد يكون تفضل فأغرق الشعب بالحقوق المكتوبة . ان عبارة الحقوق السياسية ، (وخط التشديد هنا والحاصرتان من وضع المستر دى هاعاس نفسه) لا تظهر فى تصريح بلغور . فالعبارة المستعملة هنا هى عبارة الحقوق المدنية . ولقد أوضحنا كثيرا من قبل ان كل كلمة من كلمات هذه الوثيقة قد وزنت من قبل ما يزيد على عشرين جهبذا حجة » .

وهذا الايضاح الذى يقدمه لنا صائغ من أهم صائغى التصريح ، الذين انطلقت مقصاتهم تفصل هذا التصريح لوبا لهم ، هو القول الفصل فى هذا المقام بموجب هذا التصريح لن ينال العرب أية حقوق سياسية سواء أكانت لهم حقوق سياسية من حيث المبدأ أم لم تكن . انهم ، طبقا للمزاعم الصهيونية التى يشتهر المستر دى هاعاس بالدفاع عنها أى اشتها ، لم تكن لهم أية حقوق عمليا ، وليس من المرجح أن ينالوا هذه الحقوق نظريا .

١

وتظهر على المستر دى هاعاس ، بعد صفحتين من مؤلفه الذى ورد فيه هذا القول ، سيماء النكوص هنيهة عن المفهوم ، أو انه قد نسي فى حياة الكتابة أنه قد اختلقه لتوه . انه يقول فى معرض حديثه ، « ان قضية العرب هى ، بغض النظر عن الحقوق التى تنشأ من العيش فى بلد » .

» لكنه بعد أن ذكر هذا الصداق الطبيعي على هذا النحو العابر لا يعود الى الإشارة اليه مرة أخرى .

والمستردى هاعاس ليس وحيدا في هذا الموقف . كما انه ليس موقف صهيوني الولايات المتحدة وحدهم . فوجهة النظر عينها تسود في هذا المقام . . . بموجب هذا النصريح لن ينال العرب أية حقوق بين ظهرائي الصهاينة البريطانيين . ولم لا تسود ما دام الاعتراف بأنه كانت للعرب حقوق سياسية يعنى الاعراف بأنه لا يمكن فرص « الوطن القومي » عليهم . وكمثال على هذا الرأي البريطانى الصهيونى ، فى وسعى أن أسوق نصوصا هنا للمسرح هربرت سايدبوتام الذى هو من أشد المدافعين عن قضية الصهيونية بين الناس غير اليهود . ولقد ذكرنا من قبل دوره فى مانستتر . انه داعيه لفصليه الصهيونية مطلق الصلاحيه . رأعقد أنه يمكن أن يوصف أنه بولى الحركة الصهيونية الى الناس الآخرين دون أن يكون فى وضعنا هذا أى تجن عليه .

وان مما له دلالة كبيرة ، الأثر الذى يحدثه انجيله هذا عليه . ها هنا رجل يحظى باعجاب شديد وخاص من لون زملائه فى الصحافة . ويقرأ له كل ما يكتب من تعليقات حول الموضوعات الاخرى باحترام شديد . لكنه حين يسخر فلمه للدفاع عن الصهيونية وفى تبرير مسلكها قانه يسف اسفافا ما بعده اسفاف ، ويعرض نظريات هى أبعد ما تكون عن العقل ؛ كما لو أنها نبئت من العقل ونضج فى مجال التجربة . وليست هذه بالظاهرة غير العادية . اذ يخيل لى أن سحابة عمياء من الجنون تغشى بصيرة كل من يستسلم لجرثومة الصهيونية .

والفارق بين سايدبوتام ودى هاعاس هو أن الأول يركز نظريانه على صفة فلسطين أكثر من تركيزه على صفة سكانها ، ولكنه يصل الى نتائج مماثلة لنتائج المستردى هاعاس . انه يجرد العرب من أى حق من حقوق المولد . وأنا هنا أستشهد بنص من مذكرة له ، تسرع نوعا ما فسمها : السياسة البريطانية والانتداب على فلسطين : امتيازنا الذى نفخر به . وتبدأ هذه المذكرة بهذه العبارة : « نحن موجودون فى فلسطين نتيجة لارتباط بين أقدم فكرة قومية فى تاريخ العالم وبين مصالح أدبية وسياسية معينة خاصة ببريطانيا العظمى ؛ ارتباط لم يدبر وانما تمخضت عنه أحداث الحرب » . (ولست أستطيع أن أمتنع نفسى من التشديد على العبارة الوسطى فى هذه المقولة . فهل يستطيع أحد ؟) . وهو فى ختام الفصل الأول من مذكرته هذه يقول : « والواقع أنه

لم يكن لفلسطين وجود قومي أو جغرافي مستقلين عن ذلك التاريخ القديم الذي منحه اليهود لها . وقد اختفى هذا الوجود مع اختفاء الاستقلال اليهودي . ولهذا فإن بلفور ، بتعيينه فلسطين كوطن قومي ، لم يعط شيئا يعود لأناس آخرين . انها سيج من الماضي لم ينجح ألفان من الأعوام في تجسيده وانما استنطاع أن يتخذ له شكلا مجسما فعليا من طريق اليهود وحدهم . لقد كانت فلسطين بالنسبة للمسيحيين الديار المقدسة . وبالنسبة للآخرين يمكن أن توصف بلا مبالاة بأنها زائدة ملتحفة بمصر ، أو جزء من سوريا ، أو جزء من العربية . وبالنسبة لليهود وحدهم استطاعت فلسطين أن تكون بلدا قائما بذاته . أو مرة أخرى على حد قوله : « ان فلسطين كبلد لم يكن لها وجود قبل وعد بلفور . فلقد كانت بالنسبة للأتراك جزءا من ولاية بيروت ، وكانت بالنسبة للعرب الجزء الجنوبي من سورية » .

ولا أظن الا أن القارئ يتساطرنى الرأي في وصفى لهذا الخط الجليلي المتضمن في النبذة التي أوردتها أعلاه بأنه خط مسرف الهذر ، وأنه حليق بوصفى هذا . ان فيها جانبا هو من الخيال بدرجة تسعو الى أن تتخذ منها تسلييه . ان المستر سايد بوتام يعلن أن فلسطين ليست بلدا ان لم يحتله اليهود . وأن وجودهم فيها هو وحده الذي يجعل منها بلدا .

وليس هناك سبب على وجه هذه البسيطة يقول بوجود أن تكون فلسطين بلدا . انها من الصغر ، وحدودها مصطنعة بالدرجة الأولى ، وليس فيها ما يميزها عن الأراضي الواقعة الى الشمال منها ، وليس في صفتها المقدسة أدنى ظل للصفة القومية ، بحيث لا تلزم أحدا بأن يرى رأي المستر سايد بوتام ، والحقيقة أن هذه المقاطعة الصغيرة ليست الا جزءا من سورية . وقل ظل وجودها على كر الأحقاب والقرون وجودا تابعا . وهو يقول انها في يمين العرب لا تعدو « جزءا من العربية » أو انها « الجزء الجنوبي فقط من سورية » .

وها هو الآن يخرج عن كل منطق . انه يريد أن ينزع فلسطين من ملك العرب لأنها مجرد جزء من بلاد العرب . وما من شك أنه لا يعارض في أن للعرب حقا في بلد ما من بلاد الله ، أما حقهم في جزء من هذا البلد من بلاد الله فيخنفى عن ناظره ؟ ! فاذا ما جاء اليهود واقترحوا تحويل جزء من بلد غربي الى بلد يهودي كامل فعندئذ يفقد العرب حقهم في هذا الجزء الكلية وبصورة أوتوماتيكية ! ان الجزء ككيان مستقل شيء لا يمكن الدفاع عنه . ولكننا اذا تذرعنا بحجج تسير على نهج المستر

سايدبوتام فسنصل الى حد اكنشاف ان مطانيسا بكل انكلرا مطالبة لا تقوم على أساس . اذا طالبنا بها كجزء من تركة الجنس البريطاني ، كجزء من الكومونويلث البريطاني ، لان هذه هي الطريقة التي يدعى بها العرب بحقهم في فلسطين . على أساس أنها جزء من تركة الجنس العربي ، جزء من الكومونويلث العربي ، أو جزء من وحدة الأراضي التي ي أهلها العرب .

ولكى نعود الى صلب الموضوع نقول ان هذا الوضع ، الذي وضع كتاب الصهاينة النموذجيون أسسه ليكون وضعاً يوضع العرب فيه ، هو أن العرب عبيد سياسيون ، أناس ليس لهم حق ملكية المكان الذي ولدوا فيه . . وهو مكان لن يكون له وجود سياسي في أيديهم حقيقية .

ولنعد الآن الى تصريح بلفور . بعد أن جرى نشر هذا التصريح حدث حادث مرتبط أوثق الارتباط بهذه المسألة التي تتعلق بالحقوق القومية ، ويمكننا أن نختم به مناقشة هذه المسألة . لقد سعى قادة الصهاينة لدى حكومات الدول المتحالفة الرئيسية بالتماس لاصدار بيانات نسجيج ومعاضدة مماثلة لهذا البيان الذي أعطته بريطانيا لهم .

وكان الخداع ينتظرهم . لقد تلقوا في التاسع من شباط لعام ١٩١٨ مذكرة قصيرة كانت لا تعدو المطلوب . وكم كان يسر المستر ساكر أو آيا من أعضاء اللجنة السياسيين الآخرين لو أنهم حصلوا على شيء أكثر خلبا من هذه المذكرة . وهذه المذكرة هي :

M. Sokolov représentant des organisations sionistes, a été reçu ce matin au Ministère des Affaires Etrangères par M. Stephen Pichon, qui a été heureux de lui confirmer que l'entente est complète entre les Gouvernements français et britannique en ce qui concerne la question d'un établissement juif en Palestine.

(ان المسيو سوكولوف ممثل المنظمات الصهيونية قد استقبل في صباح هذا اليوم ، في وزارة الشئون الخارجية ، من قبل المسيو ستييفان بيشو الذي سره أن يؤكد له أن التفاهم تام بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية في كل ما يتعلق بمسألة مؤسسة يهودية تقام في فلسطين) .

وسيرى القارئ أنها وثيقة ليست مرضية حقا . لقد تجنب الفرنسيون أن يعطوا الصهاينة أي ضمان مباشر . فحصرُوا أنفسهم في القول بأنهم على اتفاق مع الحكومات البريطانية في سياستها . وقد ترك

هذا القول عبء هذه السياسة على البريطانيين . ولم يعط المتحدث الرسمي
 بلسان الكي دورسيه أى تعهد على الاطلاق بأن الفرنسيين سيستمررون
 فى صفة الاتفاق مع الحكومة البريطانية كلما اسجد فيه جديد . وفضلا
 عن ذلك فقد أرسلت هذه المذكرة الفرنسية مع كتاب يحمل تهنئة للمسيو
 سوكولوف على « *dévouement avec lequel vous poursuivez la réalisation des vœux de vos co-réligionnaire.* »

« التجرد الذى تتابعون به تحقيق أمانى نبي دينكم » . ويا لها من
 تحية ذات حدين . لقد تجاهلت تلك المنصة القومية التى كان المسيو
 سولوكوف (المتجرد) يبذل كل ما فى وسعه لاقامتها . وذكرت منصبته
 الدينية !

بيد أن هذا المشروع الصهيونى الذى دبر باحكام لم تنحطم له قدم
 حقا فخرج يسير على قدم واحدة الا حين سعى الصهاينة به لدى ايطاليا .
 وها كم البيان الايطالى الذى صدر من لندن فى التاسع من آيار عام ١٩١٨
 الى المسيوسولوكوف من قبل الماركيز الامبريالى ، السفير الايطالى فى لندن
 والذى يقول :

بأمر البارون سونينيو .

In relazione alla domande che gli sono state rivolte il Go-
 verno di Sua Maestà é lieto di confermare le precedenti dichia-
 razioni già fatte a mezzo dei suoi rappresentanti a Washington,
 l'Aja et Salonico, di essere cioè di disposto ad adoperarsi con
 piacere per facilitare lo stabilirsi in Palestina di un centro
 nazionale ebraico, nell'intesa però non ne venga nessun pregiu-
 dizio allo stato giuridico e politico delle già esistenti comunità
 religiose ed ai diritti civil et politico che gli israeliti già godono
 in ogni altro paese.

ان حكومة صاحب الجلالة ليسعدها ، فيما يتعلق بالالتماسات التى
 قدمت اليها ، أن تؤكد بياناتها السابقة التى صدرت بطريق مندوبها فى
 واشنطن ، ولاهاى ، وسالونيك ، أى أنها مستعدة وبكل سرور لاتخاذ
 خطوات لتسهيل اقامة أساس فى فلسطين لمركز قومى يهودى ، شريطة
 أن يكون مفهوما ، على أى حال ، ألا يحدث من ورائه انتهاك للأهلية
 القانونية والسياسية للجماعات الدينية الاخرى الموجودة فى فلسطين
 وللحقوق المدنية والسياسية التى يتمتع بها الاسرائيليون فى أى بلد
 آخر .

ولقد وضعت الحكومة الإيطالية في بياناتها هذا الكلمات المفقودة التي يكمن فيها كل المعول عليه . إذ ما دام الملتصمون الذين طلبوا منها إصدار هذا البيان قد جعلوا السكان الفلسطينيين ينقسمون إلى جماعات . فإن المستشارية (أي الحكومة الإيطالية - المعرب) قد توحت أن تبين أن هذا التقسيم ديني . لقد سدت فوهات مدافع اللورد بلفور والدكتور وايزمان اللذين استغلا الفكرة الدينية لجعلوا هذا التقسيم نفسيا طائفيا ، ولكنهما عاملا هذه الطوائف مندثذ فصاعدا باعتبارها وحدات قومية .

والأهم من هذا معنى ومغزى هو ادخال كلمات : « الأهلية القانونية والسياسية » . لقد ضمنت الحكومة الإيطالية وجوب عدم مساس الوطن القومي بحقوق العرب الأساسية عينها التي طمسها تصريح بلفور عمدا . وقد أوضحت الحكومة الإيطالية بكل أدب أنها لم تتخضع بألفاظ وثيقة بلفور ، وأنها لن تكون شريكة في انتهاك وكبت حقوق أهل البلاد .

ويستحيل على المرء ألا يحمد الحكومة الإيطالية على لطف هذا الزجر وبراعته . على ضربها الصهاينة بحجارتهم ورد كيدهم في نحرهم ، يرفض ادعاءاتهم تحت شعار تأييدها . تماما كما فعل الصهاينة مع العرب ، حين كتبوا لهم ذلك الضمان بلسان بلفور . وألا ينال إعجابه هذا التظاهر اللطيف منها بتصديق أن بلفور قد قصد أن يكون ضمانه للعرب هذا ضمانا صادقا ، وأن إيطاليا إنما تريد أن تجعل هذا الضمان أوضح بالنسبة له بالأ تدع فيه منفذا بنفذ منه منتقد .

ولقد أعطى هذا الضمان الإيطالي قبل استيلاء الفاشية على الحكم فيها بزمان طويل ، إذا كان هناك نمة داع لقول هذه الحقيقة . لقد قدمته المملكة الإيطالية القديمة ، الديمقراطية ، المتحررة . ونحن نقول هذا الكلام حتى لا يكون هناك سبيل إلى عزوه إلى العداوة أو البغض أو ما شابه ذلك من دوافع . وإذا كان هذا الموقف من إيطاليا يجعلها في مركز قوى في الوقت الحاضر فإنه بكل بساطة مثل على أن الصمدق والأمانة يمكن أن يكونا حقا أحسن سياسة . وليس يدعشنا ، والحالة هذه ، أن هذا البيان قد طوى تحت جناح السكون . وأن الصورة المأخوذة عنه التي تنسبها السيدة أندروز إلى المسيو سوكولوف في كتابها الديار المقدسة في ظل الانتداب ليست دقيقة وصادقة . فالسيدة أندروز تنسب إلى إيطاليا أنها تقدم ضمانا فقط « للحقوق المدنية والدينية

للجماعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين أو الاهلية القانونية
أو السياسية التي يتمتع بها اليهود في أى بلد آخر » . وبهذه الطريقة
قلبت البيان الايطالى الى تصريح بلفورى آخر . أما النسخة الأصلية ،
التي قدمها لنا المسيو سوكولوف ، بالايطالية الأصلية والتي أوردناها
بنصها الايطالى هنا ، فهي شيء آخر مختلف كل الاختلاف عن تلك ، وهي
ند ظلت مانلة أمامنا حتى اليوم ، وتحمل في طياتها معان مرعبة
بالنسبة للصهاينة) ولا داعى لأن نطيل حولها الكلام .

الفصل الثاني عشر

علم شرعية اصدار التصريح - دوافع اصدار التصريح • التصريح
من حيث هو جزء على الخدمات التي أسديت •

كفانا ما قلناه عن هذا التصريح من حيث هو تصريح • فهناك
ثلاث وجهات نظر أخرى لم نحصيها حتى الآن • وأولها هي : هل كان
اصدار تصريح بلفور هذا شرعيا في حيد ذاته ؟ • بغض النظر عن
الاقتناات الكامن في نصوصه الغادرة ! •

ان هذه النقطة نقطة اعادة ، اجاب عنها مجمل هذا الكتاب • ولها
علينا أن نمر عليها الآن ولو من أجل خاطر النقاش واتساقه • وفي
وسعنا أن نعالجها وننتهي من أمرها بسرعة • ان الحكومة البريطانية لم
يكن من شأنها أو اختصاصها أن تصدر بيانا يقنن وضع الصهاينة في
فلسطين ، ناهيك عن بلورة هذا الوضع • فلقد تعهدت الوزارة التي
سبقتها في كراسي الحكم بالاعتراف باستقلال هذا البلد العربي « بكل
معنى الاستقلال » وكان هذا الاتفاق ساريا • لأن العرب كانوا ينفذون
التزامهم منه بشئ الحرب على الأتراك • ومن ثم فلم يكن يحق للحكومة
أن ترعى وتتبني رسميا أفعال طرف ثالث خاصة في فلسطين ، ذلك
الطرف الذي لم يكن يضع في اعتباره أن يطلب من العرب أي إذن لممارسة
هذا الفعل الخاص • ومن ثم اجتثأت هذه الحكومة على استقلالهم
وانتهكته • وذلك هو الوضع بالاختصار • وهكذا فان التصريح البلفوري
الذي كانت معامدتنا مع الملك حسين تسد عليه الطريق ، والذي أصدر
دون أي مشاورات سابقة مع العرب أو موافقة منهم ، كان تصريحاً
محرمًا محظورا وباطلا •

وقد تذرع البعض بحجة فقيلوا انه لم يكن ممكنا أن نتشاور مع

العرب في الظروف التي كانت سائدة آنذاك ، ومعظم فلسطين مايزال في أيدي العدو . ووضح أن الطريق الشرعي الوحيد الذي كان يمكن سلوكه هو الانتظار حتى تخرج فلسطين كلها من يدي العدو ثم نتشاور معهم . وكان هناك طريقتان آخران مفتوحان .

١ - أن نجرى مشاورات تمهيدية مع الملك حسين ، يستطيع فيها هذا الملك أن يتلمس معنى « الوطن القومي » ومعنى الوعد البريطاني برعايته . ولكن في وسعه ، لو تم ذلك ، أن يطالب الصهاينة بإصدار بيان قاطع محدد عما إذا كانوا على استعداد لأن يمارسوا أنشطتهم وينموها ، بترخيص يصدر من الدولة العربية المرتقبة وفي نطاق إطارها ، أم لا .

٢ - وكان من الممكن (ان لم يكن عين الصواب) أن تصدر الحكومة بيانا مؤقتا معلقا بموافقة العرب عليه قبل أن يصبح ساري المفعول .

بيد أن أيا من هذين الطريقتين البينين السهلين للعمل لم يؤخذ به ، كما لم يؤخذ كذلك بأى من الطرق المشابهة لهذين الطريقتين ، تلك الطرق التي نخطر على بال المرء دون ما صعوبة . وهكذا فإن هذه الحجة الواهية التي تقول بأنه لم يكن من المنيسر التشاور مع العرب تذهب أدراج الرياح وفي اتنو واللحظة .

وهناك نوع آخر من الأعذار شائع الى درجة أنه يجب أن يذكر كذلك . وقيمة هذا العذر كعذر هي قيمة ما في الدائق من ذهب ! ولا شيء أذى الى الذهول من هذه السهولة التي تجرى بها ترديد مثل هذا العذر السخيف . لكنه عذر اكتسب ذيوعا لأنه ينسجم تمام الانسجام مع الحمول الذهني الشائع جدا ، الذي لا يجب أن يبذل أدنى جهد في الاستفسار عن مواطن الخطأ والصواب في أى مشكلة من المشاكل . وان القائلين به يوفرون على أنفسهم عناء استخدام عقولهم بالقول عن أى مشكلة من هذه المشاكل أنها كلها خطأ ، وأن مركز كل شخص معنى بها مركز لا يحسد عليه ، وأن من العبث اضاءة الوقت في البحث عن ظلال الادانة بينهم . « دع الحق وابدأ من جديد » . أو «مالك ومائها» ، هكذا يقول منتحلو الأعذار ، ثم يمضون ليلعبوا لعبتهم المفضلة : الجولف .

والعذر الذي يقال بصدد مسألة فلسطين هو أننا قد قمنا بتوزيع نعهدات كثيرة ، على العرب وعلى اليهود ؛ في السر وفي العلن . ومن ثم فإن السبيل الوحيد : المستقيم والمعقول هو أن نلغيها «كلها بالجملة» وأن نبدأ بداية جديدة . على مثل هذا النحو تقوم هذه الحجة ، الدنيئة الحقيرة

فى منحها بقدر ماهى ضعيفة واهية عند مناقشتها • فاذا ما كان هناك
أى أساس لها ، فيالها من آفاق مخزية هذه الآفاق التى تفتحها هذه الحجة !

ان أى امرئ يندم على تعاقد عقده يستطيع أن يتهرب دائماً منه بعقد
تعاقد آخر ، أو تعاقدات أخرى تتعارض وذلك التعاقد الأول • فاذا ماتجراً
الطرف الآخر فى ذلك التعاقد الاول على مطالبته بالوفاء بما جاء فيه
فيستطيع عندئذ أن يذهب الى المحكمة ويقدم مستنداته ويعرض دفاعه
قائلاً : «ان جميع تعهداتى هذه يناقض بعضها البعض» • فيعلن القاضى
حين يرى أنها كذلك : « نعم • انها كذلك • ولذلك حكمت المحكمة بالغائها
جميعاً • » ! فيا للأخلاق ويا للسخف !

ولكن لا ! ان الأمر ليس كذلك • حين يتذرع فرد بتعدد التعاقدات :
أو حين تحتج أمة بكثرة المعاهدات أو التصريحات الرسمية ، فليس هناك
ألا وسيلة واحدة لتقرير أيها النافذ • فأياها الأسبق ؟ فاذا ما كان هذا
التعاقد الأسبق سليماً من الناحية القانونية فيحتكم على المواطن أو على الأمة
أن تلتزم به •

وان التصريح البلפורى قد قطع بعد سنتين من عقد تحالفنا مع الملك
حسين • وانه يتعارض مع هذا العهد السابق له • ومن ثم فهو باطل
ولا يعتد به • انه ليست له صفة أكثر من صفة القسم الذى يقسمه رجل
أمام المذبح بالوفاء لامرأة فى الوقت الذى تكون له فيه امرأة مهجورة ماتزال
على قيد الحياة • والحقيقة هى أن أحسن وصف يمكن أن يوصف به هذا
التصريح البلפורى هو أنه متعدد الأزواج • • هو أنه امرأة متزوجة من رجل
متزوج !

وأسوأ ما فى جريمة تعدد الزوجات هو ذلك العذاب الذى يوقعه
بشخصين ، الزوجة الحقيقية و «الزوجة» الزائفة • وفى هذا المثال الحاضر
من هذه الجريمة ، نجد عدة آلاف من اليهود - ولا أقول قاداتهم - قد غررت
بهم وثيقة الزواج الزائفة التى وقع بلفور عليها ، وساقتهم الى فلسطين •
ومسئولية هذا العمل هى مسئولية بين هؤلاء المهاجرين وبين قاداتهم وليس
لنا دخل بها • وان كل مايتعلق منها بنا نحن ، الذين ورثنا تلك المسئوليات
التي ألقتها وزارة عام ١٩١٧ على عاتق بريطانيا ، هو أننا مدينون لهؤلاء
الناس التعساء بتعويض مناسب ، وهو تعويض سنجد بعض الصعوبة فى
الوفاء به • بيد أننا لسنا مدينين بأن نضعهم فى مكان الزوجة الشرعية
القانونى ، أو أن نسكنهم معها فى بيتها •

ويجىء الآن دور النقطة الثانية • وهى كذلك ، والى حد ما ، نقطة
اعادة • انها تعالج الاسباب التى دعت الى اصدار هذا التصريح • ولقد رأينا
أن اصداره كان جزءا من صفقة • انه المكافأة التى منحت للصهاينة لقاء
جعلهم الميزان فى الولايات المتحدة يميل أو يرجح لصالح اشتراكها فى
الحرب فى صفوف الحلفاء • أو هذا هو على الأقل الذريعة التى تذرعت
بها الحكومة البريطانية للاقدام على تلك الفعلة التى فعلتها فى الثانى من
تشرين الثانى (نوفمبر) • بيد أن هناك ذرائع أخرى تذرع بها أيضا ، فولد
شاهد غريب يستدعى الاستجواب والتحقيق •

وفضلا عن ذلك فهناك مسألة أخرى ، وهى الى أى مدى كانت هذه
الصفقة التى عقدت نافعة ؟ أن هناك اهتماما تاريخيا بمعرفة ما الذى جرى
تنفيذه ، وما الذى ربحناه أو فقدناه لقاء هذا الثمن الفادح •

وليس لدينا أى استفسار نستفسره بخصوص الجانب الصهيونى فى
هذه المسألة • اذ أن السبب فى دخولهم فى صفقة التصريح هذه هو رغبتهم
فى تحقيق فكرتهم الجديدة عن صهيون •

الا أن هناك الكثير مما يقال بصدد الجانب البريطانى • وأهم نقطة
فى هذا الصدد هى أن «الحقوق التاريخية» التى يجرى الطبل والزمر
حولها ، والتى تذرع بها الصهاينة للدخول طرفا فيها ، لا تساوى فى
حساب البريطانيين كثيرا أو قليلا ، بالرغم من كل هذه الخطب التى قبلت
حولها ، تبريرا لمنح امتياز الوطن القومى هذا • ان الحكومة لم تصدر
تصريحها هذا لأن الوزارة كلها كانت متشعبة بتصميم رومانسى على وجوب
أن يتمتع الجنس اليهودى بحياته من جديد • فلقد عاد البناء يعقوب الى
بعقوب • ولكن لم يكن هناك الكثير منهم فى التلال آنذاك • وربما لم يكن
من هؤلاء المتشبعين فى الوزارة الا بطل روايتنا اللورد بلفور ، الذى لم يكن
يتعامل مع الصهاينة على مبدأ هات وخذ • ويمكن تبرئة بلفور من المساومة
التي كانت من أقوى دوافع الحكومة ، اذا كنا لا نستطيع تبرئته من أى
شيء آخر •

لقد كانت لديه نظرية يجب أن يعرضها للعالم • وهى أن العالم
لم يكافئ اليهود مكافأة نفي بما قدموه للحضارة ، وأن العالم متخلف فى
سداد دينه هذا ، فلم يكن الأمر بالنسبة لبلفور يبدو تسوية هذا الحساب
كالذى يحدث فى مسك الدفاتر • وقد أمده هذا الاحساس بنوع من
الاعتراف بالجميل (معقول !) • لكن أقوى شعور لديه هو رغبته فى وضع
نظريته هذه فى حيز التطبيق • وكانت هذه النظرية أخلاقية لديه لدرجة

أنه لم يكن يآبه الى أى مدى أخلاقي كان ذلك الذى وضعت به هذه النظرية موضع التنفيذ .

وهكذا استمر بلفور يلقي وهو فى كرسى الحكم دروسه عن الصهيونية ببراءة من لا ناقة له ولا جمل ، برغم كل ما حدث بعد اصداره لتصريحه ، وبعد كل تلك الصرخات والاضطرابات ، وبعد كل تلك الاحجاجات والشهادات باساءة السلطة التى أمطرنا بها العرب . لقد كانت نظريته نظرية مقنعة بالنسبة له .

لقد كانت المقاطعات التى فوطع بها فى البرلمان ، وفى كل الاماكن الاخرى التى عرض فيها نظريته ، أمرا ثقيلا على نفسه ، ومزعجة له ، لكننا نيسر له الصمود لها .

أما من الناحية الاخرى ، فان مارك سايكس الذى فعل الشيء الكثير للصهيونية فى المحيط الرسمى ، بالدرجة التالية لبلفور ، والذى كان أنشط جسمانيا لصالحها ، حتى من بلفور نفسه ، فقد بدأ يسك فى أمرها فى عام ١٩١٩ قبل أن يوافيه أجله المحنوم ، وهو فى سن مبكرة . ولقد كتب ليزلى مترجم سيرة حياته فقال « وبعد أن كان مبشرا من مبشرى الصهيونية عاد من باريس بمشاعر هزتها بعنف المرارة الشديدة التى حافت بالديار المقدسة . لقد بلغت الامور مرحلة تفوق كل مفهوم لديه عما قد يكونه كنه الصهيونية . ولقد أثارت رحلته الاخيرة الى فلسطين كثيرا من الشكوك فى نفسه » .

أما زيارة بلفور الاولى والاخيرة الى سورية . تلك الزيارة التى كاد يقع فيها فى الجزء الشمالى من البلاد ، فى قبضة الجماهير العربية الثائرة المستشيطه غضبا وسخطا ، فانها لم تتر فى نفسه شكوكا ! لقد زف قبلئذ فى المنطقة الجنوبية (أى فلسطين) عبر مجموعة لا تتغير من المستعمرات الصهيونية ، وكأنه كاترين أخرى بحف به رتل من المدرعات ، من طراز بومكين ... فضلا عن حراسة المسلحين المتستترين ، وقوبل بهتافات جوقه واحدة بعينها لا تتبدل ولا تتغير أينما توجه وسار بين هذه المستعمرات . ولقد أبهجته هذه المجموعة من المستعمرات . انها فلسطين التى يحب أن يراها . بيد أنها فلسطين تختلف كل الاختلاف عن فلسطين الحقيقية ، وبعيدة كل البعد عن حقائق الموقف .

ولقد أغرى موقفه هذا البعض بأن يصفوه بأنه هاو فى فن السياسة . وكان فعلا هاويا فيه وغير هاو فى الوقت عينه . اذ كان يتابع السياسة بتصميم حديدى ، ومع ذلك كان يجد تسليته ومتعته القصوى فى

الأمر السياسي برغم لعبه للتنس وللعولف • ففي كل تاريخه كسياسي في كل أعماله السياسية ، يوجد عرق من الترفيه والتسلل لا يجب أن يحرم منه • أنه أشبه شئ برجل يريد أن يمارس تمارينه الرياضية ، فينطلق يدوس حدائق الناس الآخرين وحقوق قمعهم في سبيل قواعد انصحة البرية • وأفدنة العرب في فلسطين تقع في طريق تمارينات بلفور الذهبية فقاد زملاء الصهاينة ودخل بهم فيها ، وهو يصيح مستغبرا من اقفار هذا المشهد الطبيعي ومن ملامته للسكنى والتوطن ، في الوقت الذي كان فيه يجندف دائسا أمواج القمع ، ويمر ، وهو يتابع جريه بخطوات واسعة على أصحابها الذين يصرخون فيه وفي زملائه بالخروج منها ، مستهجنين ما يرون منهم •

ومن ثم فقد وقع اللورد بلفور على تصريحه ذاك لكي يتم نظرياته ويتبنت أقدامها • ولم يكن يجهل طبعا تلك الفوائد المادية التي قد تعود عليه من وراء هذا ، لكن هذه الفوائد لا تكاد تكون بالنسبة له دافعا • فهناك نصيحة تقول ألا تتزوج المرأة من أجل نقودها بل اذهب حيث تكون النقود • وعلى هذا الأساس تزوج بلفور من الصهيونية في كل ما يتعلق بزواجه منها ••• تزوج منها كزوجة ثانية • وأغلب الظن أنه لو تحققت فكرة بلفور ، التي قل أن تجد لها مثيلا ، فكرة جعل الولايات المتحدة تريعه من هذه السيدة وتتزوج منها ، لكان مرتاحا أكثر من ارتياحه هذا بكثير • لكن تحول الولايات المتحدة الى حاكم في الشرق وبموجب مشروع غير مجرب كان أمرا مستبعدا الى أبعد حد ، ومن ثم كان أمرا يدعو الى الدهول •

وكانت هناك بالإضافة الى بلفور تلك الشخصية القوية الأخرى ألا وهي رئيس الوزراء السيد لويد جورج • ويجب علينا أن نضعها في الحسبان هنا • فماذا كانت دوافعه ؟ انه لم يفصح عن هذه الدوافع حين صدر هذا التصريح ، بيد أنه قام بالافصاح عنها في مختلف المناسبات بعدئذ • فقبل ثلاث سنوات عرض وجهة نظره في مجلس العموم عن « حقوق اليهود التاريخية » في فلسطين ، وكانت هناك آنذاك مناقشة عامة تدور في المجلس حول فلسطين • وفي معرض اسارته للنقاط الخاصة التي قال انه يريد أن يتحدث عنها ، أشار الى هذه « الحقوق التاريخية » • وكان من خصائص أسلوبه أن يمر مر الكرام ، كما فعل هنا ، عن المسائل ذات الدرجة الكبرى من الأهمية • لكن ذلك الشئ القليل الذي قاله بصدها كان قولا نوعيا واضحا بما فيه الكفاية •

لقد قال : « لست أصور الآن هذه المسألة بالقول بأن العرب ليسوا
الا وافدين جددًا على فلسطين ، وبأن سكانها القدامى كانوا يهودا » . إذ
لا شيء من هذا فيها . لأن اليهود ، أولا وقبل شيء ، قد طردوا منها الحثيين
والعمونيين . »

وهذا القول لا يعدو ربع الحقيقة . انه قول يحجب العاملين اللذين
كانا السبب في قصر عمر الاحتلال اليهودي لها وضالة رقعة فيها .
ويحجب حقيقة كون العرب ورثة له « العمونيين والحثيين » ولكنه يكفينا منه
تماما بحاله الراهن هذا .

لقد طالب اليهود بحق بناء وطنهم القومي في فلسطين مستندين الى
الحق التاريخي ، على أساس أنهم كانوا سكانها الأقدمين . وقال رئيس
الوزراء (سابقا) أن « لا شيء من هذا في هذه القضية » ومع ذلك شجع
ودعم وأيد دخولهم فلسطين في عام ١٩١٧ ، استنادا الى هذه الحجة عينها .
هذه الحجة الوحيدة التي جرى الادعاء بها . فما الذي يمكن أن يقال بصدد
هذا العمل ؟ الحقيقة هي أنه ما من قانون ، ولا مبدأ من مبادئ العدل ،
ولا حق من حقوق الملكية ، لم ينتهك أثناء القيام بتلك المحاولات التي بذلت
بهدف إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين .

وعلى أية حال ، فاذا لم تكن هذه هي القضية فماذا كان دافع المستر
جورج الحقيقي ، بوصفه رئيسا للحكومة ، في اصدار هذا التصريح وفي
تأييده لهذه القضية التي لا يرى فيها شيئا من هذا القبيل ؟ وقد سمي
لنا هو نفسه دافعين لا يستقيمان معا ، ولكن يوجد بينهما شيء مشترك .
وأولهما شخصي ؛ لقد ساند الصهيونية كمكافأة يقدمها للدكتور وايزمان
على المساعدة التي قدمها في حقل انتاج المواد الكيميائية ابان الحرب . أما
ثانيهما فهو غير شخصي : لقد أراد أن يكسب اليهود بوجه عام الى قضية
الحلفاء . وقد قدم في خطابه الذي ألقاه في مجلس العموم في حزيران
من عام ١٩٣٧ ايضاحا ساق فيه هذين الدافعين . ولهذا فقي وسعنا أن
نورده :

لقد كانت (قال) أحلك فترة من فترات الحرب تلك الفترة
التي أعد فيها المستر بلفور تصريحه هذا . ودعوني أعيد على
أسسماع المجلس تلك الظروف . في ذلك الوقت كان الجيش
الفرنسي قد تمرد ، وكان الجيش الايطالي يوشك أن ينهار ،
وكانت أمريكا قد أخذت تستعد بهمة وحماسة . ولم يكن هناك
الا بريطانيا وحدها تواجه أقوى تجمع عسكري شهده العالم .

فكان من الضروري بالنسبة لنا أن ننسند كل مساعدة مشروطة يمكننا الحصول عليها • ومن المعلومات التي تلقيناها من كل جزء من العالم توصلنا الى الاستنتاج بأن من المهم بالنسبة لنا أهمية قصوى أن نكسب عطف معشر اليهود • وفى وسعى أن أؤكد للجنة أننا لم نصل الى ذلك الاستنتاج بدافع من الأهواء والتحيز • اذ ليس لدينا بالتأكيد أى تحيز ضد العرب لأنه فى تلك اللحظات مئات وآلاف الوحدات العسكرية التى نحارب من أجل تحرير العرب من الأتراك •

فى هذه الظروف وبناء على النصيحة التى تلقيناها قررنا أن من المرغوب فيه كسب عطف وتعاون ذلك المعشر المهم ، ألا وهم اليهود فى جميع أرجاء العالم • وقد كانوا ذوى نفع لنا فى أمريكا ، وفى روسيا التى كانت فى تلك اللحظة تخرج من الحرب وتتركنا فيها وحدنا • وفى هذه الظروف عرضنا هذا الأمر على حلفائنا • فقبلته فرنسا ، وقبلته إيطاليا وقبلته الولايات المتحدة • وقد استجاب اليهود بنبل - ولست أقف هنا الا لاشهد بهذه الحقيقة - الى النداء الذى وجه اليهم • ولست أدري ما اذا كان هذا المجلس يعلم ما الذى ندين به للدكتور وايزمان ، بعقله العلمى المدهش • لقد أنقذ الجيش البريطانى انقاذا تاما فى لحظة حرجة حين فقدت تماما مادة كيمايائية كنا فى أمس الحاجة اليها لمدافعنا الكبيرة • وقد مكنتنا عبقريته العلمية من حل هذه المشكلة • ولكن ان هو الا شخص واحد بين الكثيرين الذين أسدوا خدمات جلى للحلفاء • وانه التزام شرف هذا الالتزام الذى قطعناه والذي استجاب له اليهود • ولستنا نستطيع التملص منه دون أن يلحق بنا العار •

ولكن هناك أشياء كثيرة قد حذفت من هذا التعداد للظروف التى كانت سائدة أيام صدور التصريح • ومن بين هذه الحذوفات هو أن كلمة لم تنل على مسامع اللجنة من أن العرب كانوا يحاربون من أجلنا ، وأن حسيناً وأبناءه كانوا يغامرون بمراكزهم وحياتهم من أجلنا • كما لم يرد كذلك أى ذكر عن التزاماتنا وتعهداتنا التى قطعناها للعرب • أما من حيث قبول الحلفاء للتصريح فلقد رأى القارىء أننا كيف قبلته فرنسا وكيف قبلته إيطاليا • كما رأى شيئا كذلك عن تلك الطريقة التى حظى بها بـ « القبول » فى الولايات المتحدة ، أما عن « التزام الشرف » الذى التزمنا به نحو اليهود فقد رأى القارىء أنه مازال أمامنا التزام نحو

اطراف كثيرة جدا بريثة بينهم . لكنه النرام من نوع مغاير . ولأن يتحدث المرء عن « التزام شرف » يصدد ارتباط أو تعهد هو في حد ذاته غير مشرف ، لأنه ينتهك حقوق الانسان ، وينتهك تعهدا آخر سابقا له ، فذلك من ساقط القول والهراء الذي لا معنى له ، بل وهو شيء أكثر من هذا . ولكن بقيت أمامنا مسألة اختراع الدكتور وايزمان ، ويجب أن نتولاها بالتمحيص . وليست هناك ، لحسن الحظ ، مناسبة لأن نمارى فيها في فائدة اختراعه هذا . ان الدكتور وايزمان كيميائي عظيم ، عمل بحماسة شديدة وأسدى خدمة تستحق البناء . لكن المسألة هنا هي ما اذا كان خيال المستر لويد جورج الواسع قد ذهب به شططا حين أخذ يضيف مدى هذه الخدمة . أم لا .

لقد أطنب في تفاصيل هذه الخدمة في خطاب ألقاه في جو كان يدعو الى التفصيل والاطناب أكسر من جو كراسى أعضاء الوزارة في قاعة مجلس العموم . وكان هذا في آيار من عام ١٩٢٥ وبعد محاضرة ألقاها المستر فيليب جويدالا أمام الجمعية التاريخية اليهودية في لندن ، ورجعت بالاشارة اليها في فصل مبكر من هذا الكتاب . لقد قال المستر لويد جورج بعد أن أزعج الشكر الى المحاضر الذي تحدث عن نداء توجه به نابليون الأول الى اليهود : « ونحن كذلك قد نوجهنا بنداء الى شعبكم العظيم . وكانت دوافعنا ، بخلاف دوافع نابليون - ولنكن صريحين صراحة تاما - مختلطة . » ثم شرح الحطيب الدوافع التي فقسست في صدره من الاعطاف الطبيعي على شعب تشبع هو بأدبه التاريخي والنوراوى منذ نعومة أظفاره ! ثم تابع كلامه فقال :

وهكذا كنا نواجه شعبكم قويا جدا في كل بلد من بلدان العالم . قد تقولون انكم قد اضطهدتم وعذبتم - وبلك هي قوتكم على مر العصور . لقد طرقتم الى فولاذ نبي جدا وهذا هو السبب في أنكم لا تكسرون أبدا . لقد طرقتم على كر القرون الى أنقى فولاذ بين شعوب العالم قاطبة ! ولهذا أردنا عونكم . فلقد اعتقدنا أنه سيكون ذا نفع كبير بالنسبة لنا . واني أعرب عن هذا الجانب الآخر من هذه المسألة بمنتهى الصراحة . وكنا قبل ذلك قد حظينا منكم بمساعدة عظيمة جدا . واني مدين شخصيا للدكتور وايزمان بالشكر والعرفان العميق واني لواحد من مريديه . لقد واجهتنى في وزارة الامدادات الحربية أزمة من أخطر الأزمات لم أتذكر مثل ما تكدرت بها ، أبدا من قبل . وكانت هذه الأزمة شيئا من تلك الأشياء غير المتوقعة التي تهجم عليك كاندفاع هجوم

الفرسان نحو تغرة • ولقد وجدت هذه التغرة • اذ بينما كنت
أنتقل من مدفع الى مدفع ، ومن قذيفة الى قذيفة ، اكتشفت فجأة
أننا لا تتوفر لدينا قوة من تلك الفوى الدافعة الكبيرة لنضع بها
الكورديت - أى كحول الخشب • فتوجهت الى الدكتور وايزمان •

وكان لا مفر من صناعة الكحول من الخشب ، فدرّب مخلوقات
صغيرة - ولا أدري عن طريق كم جيل من أجيالها - على أكل
السكر ، فتم صنع الكحول من الذرة الشامية • ثم كان هناك
« الكثير من الذرة في مصر » وتمت النجاة • فأحسست أنى مطوق
بطوق من الجميل لعبقرية الدكتور وايزمان العلمية للماعة • وكذلك
كان جميع الحلفاء • وحين تحدثنا معه وسألناه : « ما الذى
نستطيع أن نفعله معك على سبيل تكريمك ؟ » أجاب : « ان كل
ما يهمنى هو أن تتاح لى فرصة أفعل فيها شيئاً لشعبى • » •

لقد كان اختراعه هذا بالنسبة لنا يؤمله لأن يمنح أى لقب
من ألقاب الشرف أو أى جائزة مالية معدودة بالجنيئات الذهبية ،
لكنه لم يطلب ما هو أكثر من السماح له بعرض قضيته التى
تستهدف إعادة شعبه الى ذلك البلد القديم ، الذى جعل منه هذا
الشعب شهيراً ذائع الصيت بين جميع أرجاء المعمورة • لقد جعل
نبى الاسيتون صهيوتياً •

وهكذا طرحت هذه القضية بين أيدينا ، وحين أخذت الوزارة
الحربية تبحث مسألة اصدار التصريح وافقت على اصداره بالاجماع
تماماً • وانى أعتقد أننا حصلنا على تعاون الفرنسيين معنا فى ذلك
الحين ، فصدر التصريح البلפורى الشهير •

ويعيد المستر لويدي جورج فى مؤلفه الضخم عن ذكريات الحرب هذه
الأقوال بعبارات علمية أدق حين يصف ابتكار الدكتور وايزمان • انه
يتذكر كيف أن س.ب.سكوت ؛ صاحب جريدة المانشستر جارديان ، هو
الذى لفت أنظاره الى وايزمان ككيميائى يتوسم فيه أن يحل مشكلة
الأسيتون • وحين نشأت صعوبة فى الحصول على الذرة بسبب حصار
الغواصات ، وتحول المصنع الحربى الذى كان يقوم بعملية استخلاص
الأسيتون من الذرة فى كنجس لاين الى استخلاصه من كستناء الخيل ،
« وبالرغم من أن رداءة صنف المادة المستخلصة فد أعاققت فى البداية عملية
الانتاج فان هذه المصاعب قد تم التغلب عليها فكانت طريقة وايزمان

تنتج الأسيتون من كستناء الحيل في الوقت الذي جرى فيه اغلاق هذا
المصنع في عام ١٩١٨ . » .

وحين حلت مشاكلنا بفضل عبقرية الدكتور وايزمان
(يتابع المستر لويد جورج كلامه) قلت له : « لقد أسديت خدمة
عظيمة للدولة وأحب أن أطلب الى رئيس الوزراء أن يقدم اسمك
الى صاحب الجلالة ليمنحك لمبا من ألقاب الشرف » . فقال : « ليس
هناك شيء أريده لنفسى » . « ولكن أو ليس هناك شيء نستطيع
أن نفعله كاعتراف منا بتلك المساعدة القيمة التي قدمتها للبلاد؟ »
سألته . فأجاب : « بلى . أحب أن تفعلوا شيئاً لشعبي » . ثم
أخذ يشرح آماله بصدد إعادة توطئ اليهود الى الديار المقدسة
التي جعلوا شهرتها تطبق الآفاق . وهذا هو منبع ومنشأ ذلك
التصريح الشهير عن الوطن القومي لليهود في فلسطين .

وما ان أصبحت رئيساً للوزراء بحثت هذا الأمر كله مع
المستر بلفور الذي كان آنذاك سكرتيراً للخارجية . وقد اهتم ،
باعتباره عالماً ، اهتماماً شديداً حين حدثته عن منجزه الدكتور
وايزمان . وكنا متلهفين في ذلك الحين على كسب تأييد اليهود لنا
في البلدان المحايدة ؛ وبخاصة في أمريكا . ومن ثم تيسر
للدكتور وايزمان أن يكون على اتصال مباشر مع سكرتير الخارجية .
وكان هذا الاتصال بداية تشارك كانت حصيلته بعد كثير من
البحث والدراسة ، التصريح البلفوري الشهير الذي أصبح ميثاق
الحركة الصهيونية . وهكذا فإن الدكتور وايزمان لم يساعدنا على
كسب الحرب بأكشافه ، فقط ، ولكنه وضع كذلك علامة لاتمنحي ،
على خريطة العالم .

وانى أعتقد أن هذه النبذة التي أخذناها عن لويد جورج ، دليل
سامل واف على الدوافع التي حمت بالمستر لويد جورج الى التواطؤ مع
الصهيونية . وهو يقدمها لنا في قشرة الجوز المضروب بها المثل : أو يقدمها
لنا ، على الأقل ، في قشرتين . « لقد حولنى الأسيتون الى صهيونى » .
و « ان نعاون اليهود ، وبخاصة في أمريكا ، قد حولنى الى صهيونى » .
صحيح ان القشرة الثانية هي من تولى أنا ، لكنها تتألف من كلماته
هو ، ووفقا لمعنى أحاديته الثلاثة ، وبكل أمانة . ولكن سواء أكان
أسيتون الدكتور وايزمان الفعلى في انجلنرا أم كان الأسيتون الأدبى من
العون اليهودى فى العالم كله ، هو الذى حوله الى صهيونى ، فان هناك

شيئا واحدا جليا : ألا وهو أنه ليس هناك محل لقيام الصهيونية بتحويل المستر لويد جورج الى صهيونى . أو فلنستعمل كلماته هو فنقول : « ليس فى هذه القضية شئ » وان التصريح البلפורى ، فيما يتعلق برئيس الوزراء ، راتب دفعه للصهاينة لقاء خدماتهم ، ولا شئ أكثر من هذا . واذا ما تمشيننا مع هذا المجاز الى نهايته فأخشى أنه يتحتم علينا ، والحالة هذه ، أن نقول انه راتب قد دفع من ودائع العرب . وواضح أنه كان يخلق به أن يتقضى صفة هذا النقد الاقليمى ، الذى امتدت يده اليه ، بطريقته الرعناء ، ودفعت منه للصهاينة أجرهم .

وفضلا عن هذه المحذوفات التى ذكرناها ، فان تقريره هذا عما حدث ، يحتوى على مغالطات صغيرة ، ومغالطة أخرى ليست هيئة بأى حال من الأحوال . فهو يقول ان الوزارة الحربية قد وافقت على هذا التصريح بالاجماع حين أخذت تدرس مسألة اصداره . وهذا يبدو مجرد بلاعب بالحقائق لأنه اذا أمكن القول أن أعضاء وزارة الحرب الذين حضروا بعض جلسات معينة باكراً قد تورطوا فى الموافقة على هذا المشروع فان هذا الوضع سرعان ما تطور فحدث اختلاف فيها بصدده . لأن هذا المشروع ، كما رأينا ، قد جرى التصويت عليه مرة وسقط فعلا . فلقد قال بلفور : « انى لا أستطيع أن أفعل شيئا حتى يعكس القرار . » ولا يومئ السيد لويد جورج أى ايماء الى هذه الحقيقة . كما انه لا يقول لنا كلمة واحدة عن معارضة ادوين مونتاجو القوية التى لا تلبس . ومن ثم فان هذه الصورة التى رسمها يمكن أن تكون أى شئ الا أن تكون دقيقة . وتسنى له رسمها بأن سمح لمستمعيه أو قارئيه بأن يعنقدوا بأن موقف بعض الوزراء فى مرحلة معينة قد ظل منسجما مع موقف الجميع دوماً ؛ الأمر الذى هو غير صحيح .

وما دام لم يكن صادقا فيما يتعلق بوزاره ، فقد خطر لى أن من الأفضل أن ألم بشئ عن قصة الأسيتون من مصادر أخرى غير المستر لويد جورج . وهذا هو ، بالاختصار ، ما حدث . فى عام ١٩١٢ التحق الدكتور وايزمان بشركة اسسمها شركة سترينج أندخراهم ، تعمل بالأبحاث التحليلية وبالانتاج فى ميدان الامدادات الكيميائية . وفى شهر آذار من ذلك العام اكتشف رجل يدعى المستر كين ، وكان كيميائيا فى هذه الشركة ، اكتشافا على جانب من الخطورة . ومفاده أن لابد من وجود الأسيسيون بين نواتج عملية تخمر النشأ ؛ وهى عملية كان يتولاها بالدراسة . وكان الأسيتون فى ذلك الحين مادة ضرورية لصناعة نوع معين

من المتفجرات الشديدة . وقد بلغ هذا الاكتشاف الى علم الدكتور وايزمان ،
بطريقة عادية ، باعتباره جزءا من عمل الشركة .

وتوقف هذا الأمر عند هذا الحد . ثم تخلى الدكتور وايزمان عن
العمل مع شركة السيد بن سنرينج وجراهام . لكن اكتشاف المستر كين
كان آنذاك قد أخذ من اهتمامه جانبا . انه لم يكن يعتقد أنه قد أولى
الدراسة الكافية . وها هو الآن يهاجم ، وقد أصبح يعمل طبقا لأسس
ومنهج من وضعه هو كلية ، عملية استخلاص الأسيتون من النشا . فالنشا
يوجد في مواد كثيرة مختلفة ، فابتدع عملية جديدة .

وحين اندلعت نيران الحرب ، أصبح انتاج الأسيتون ضروريا ، فتولى
الدكتور وايزمان عملياته هذه باهتمام مجدد . وكانت شركته القديمة
المعروفة تصنع النشا ، مستخدمة طريقة كين الأصلية . وسمع خبراء
الحكومة في صناعة المتفجرات وهم يقومون بتقصي عملية انتاجها ، بطريقة
الدكتور وايزمان . وقد ذهّل السير فردريك نانان ، الذي كان في ذلك
الحين مستشار الأميرالية فيما يتعلق بانتاج الكورديت ، من التقرير الذي
تلقاه من رجل يدعى المستر رينتول ، الذي كان رئيسا لمسح الأبحاث
في شركة نوبل أكسبيلوسيفز ، عن طريقة الدكتور وايزمان . فاتصل
السير فردريك نانان بالدكتور وايزمان ونصحه بأن يقوم بتسجيل عملياته
في دائرة تسجيل الاختراعات . ففعل ذلك في تشرين الأول من عام
١٩١٥ ، فتبنتها الحكومة وأحتلتها محل طريقة كين أو محل تلك الصورة
منها التي كان العمل يجري بها ، أيا كان نوعها .

وبعد الحرب حدث نزاع فني حول حقوق الاختراع ، كما يحدث
دائما ، ورفعت هذه القضية في عام ١٩٢٦ الى أحد قضاة المحكمة العليا ،
وكان الدكتور وايزمان فيها المدعى . وقد بنيت شهادات الشهود أن هذه
الطريقة الجديدة لا تدّين بشيء على الإطلاق الى أساليب اكتشاف المستر كين
أو أساليب شركته ، وان كانت تنطلق طبعا من مبدأ اكتشافه ، لأن
الدكتور وايزمان قد طرق شكلا مختلفا من أشكال الاستخلاص مختلفا
عن ذلك اختلافا حيويا . ومن ثم فقد صدر الحكم لصالح الدكتور وايزمان
كلية .

وقد بدأ العمل بطريقة الدكتور وايزمان في حزيران من عام ١٩١٦
(اعتماد على قول لويد جورج) ، وفي التاسع عشر منه كانت المادة الخام
المستخدمة هي الذرة الشامية . ومنذ هذا التاريخ وحتى آخر يوم من أيام
الحرب كان متوسط انتاج الأسيتون الأسبوعي الذي يتم بهذه الطريقة

هو ٤ أطنان و٨ قناطير و٦٨ رطلا . وقد رفع هذا المتوسط الأسبوعي في عام ١٩١٧ الى ٥ أطنان و٣ قناطير و١٤ رطلا ، ثم هبط بهبوط الطلب على الأسيتون ، فأخذ مصنع كنجس لاين ، حيث يتركز الانتاج بهذه الطريقة ، يعمل بصورة متقطعة خلال عام ١٩١٨ ثم توقف أخيرا . كما استخدمت هذه الطريقة كذلك في مصانع أخرى ، ولكن الى أمد غير طويل . كما جرى استخدام هذه الطريقة في كندا خلال عام ١٩١٧ على نطاق أوسع .

وتلخيصا لهذه المسألة التي استقيتها من مصادر مولوق بها نقول ان عملية انتاج الأسيتون هذه صحيحة من الناحية النظرية ، واستخدمها الجيش الى مدى ما ، ولكنه مدى ليس كبيرا . لقد قامت البكتريا - أو « المخلوقات الصغيرة المدربة » كما سماها السيد لويد جورج في خطابه - بنخمير النشأ المستخلص من الذرة ، ومن كستناء الحيل فيما بعد ، فانتجت أسيتون الحنسب وكحولا . وكان يفصل أحدهما عن الآخر فيصبح الأسيتون صالحا لصناعة الكورديث . ولكن لأن الأسيتون كان نزرا من جميع المصادر - كان مصنع بريطاني واحد يقوم بإنتاجه ، على حد ما يقوله لنا المستر لويد جورج نفسه - استخدم الجيش قذافا لا يحتاج الى الأسيتون . وقد كانت احتياجات الجيش نطفي كلية على أى احتياج آخر لهذه المادة القذائفية ، طبعا .

ولو أنه كانت هناك وفرة من الأسيتون لظل الجيش مستمرا في استخدامه ، بلا شك . ولكن لم تكن هناك وفرة منه . ولذلك جعلت امدادات الجيش لا تعتمد عليه . فاستخدمت مذبذبات بديلة عنه في صناعة قذاف من نوع آخر يعرف بال R.O.B

وانها غلطة رئيس الوزراء السابق في أنى أرى لزاما على أن أقوم اليوم بهذا التصحيح الذى قد يكون غير كريم تجاه الدكتور وايزمان . فلو لم يبالغ المستر لويد جورج في تضخيم ما فعله وايزمان ، بقصد تبرير دفعه ذلك الثمن الفادح الذى دفعه له ، لما كانت هناك مناسبة اليوم لكتابة هذه الفقرات بصدد تقييم عمل قام به رجل خدم بلادنا خدمة قيمة دعويا ابان الحرب .

ان ما حدث هو أن هذا الثمن الذى دفع كان فادحا مسرفا بدرجة لا يتصورها عقل . وانك اذا ما قرأت كتاب المستر لويد جورج فستظن أن هذا الثمن قليل جدا ، وأن وايزمان لم يوف حقه . ولكن الذى حدث هو العكس تماما . ان المستر لويد جورج قد اتخذ من رفض الدكتور

وايزمان لآى وسام يمنح له شخصيا ، (وهو الأمر الذي يحظى منى بكامل المجلة والثناء) سارا يعفى وراءه هذا الاقتراح الحبيب الذي اقترحه وايزمان بمنح أوسمة من لجماعه يسمى هو اليها ٠٠٠ ان جاز لنا أن نسمى ما منح لهم أوسمة ! وقد فعل لويد جورج ذلك ببعض المهارة . وان رئيس الوزراء ، وهو أبعد ما يكون عن تمحيص هذا النمن الذي دفعه في الأسسبون ، قد وافى بقبوله ذلك الاقتراح ، على أن يعطى الصهاينة مكافأة لا تقدر بمال . وان وسام الصليب الأعظم ، أو وسام باب ، أو نوط الجدارة ما كان ليكلف الدولة شيئا ، مهما كانت كبيرة قيمته عند الممنوح له . وحتى لو سلمنا جدلا بأن وايزمان « قد آذنه » الجيوش البريطاني انعادا تاما « فهل منحه ومنح شععه حقوق الملكية في بلد هو في حوزة شعب آخر وضمنه لهذا الشعب معاهدة ، فأين المكافأة التي تستقيم وهذه المناسبة ؟ واذا كانت الأرض هي الجائزة الوحيدة التي يرضى بها وايزمان أفلم تكن هناك جزيرة وايت وجزيرة مان وأماكن أخرى هي حوزة الحكومة وبعت يدها السخية ، جاهزة للطاء ؟

ان أى قائد عسكري بريطاني لم يهن من وراء الحرب العظمى إما هو أكسر من لقب إيرل . ولا تجد فائدا واحدا بين قواد الدول المتحاربه ، بريا كان أو بحرا - فائدا من أولئك الذين لابد أن يحصلهم قد أنهض جيوشا برمتها . وأساطيل بأكملها - قد فار ، بمنسبها مع منطق الآفور ذاتها ، بما هو أكثر من لقب أو وسام أو جائزة مالية ؛ ابتداء من دوش وجيلليكو فما نحتهما .

أما في حالة وايزمان فقد قلب التساريح بأطنه ظاهره ، وكنت أنفاس الجغرافيا ، وسلبت من شعب بلاده ، وحضت امبراطورية بيهودها ! ٠٠٠٠ كل ذلك في مقابل معادلة كيميائية لصنع عجينة قاذفة كانت ذات نفع لفترة من الزمن ثم انتفى الغرض منها بعدها !

ان هذا شيء يجامى كل منطق وعقل ، وبخرج الانسان عن طوره . وان كل ما كسبناه من وراء هذه الحرب لهو سروي تغير بالمقارنة الى هذا الشمس الفادح . وحتى لو أن جائزة فلسطين لم تعط في مقابل الأسيتون بل أعطيت في مقابل تاييد اليهود لنا في الولايات المتحدة والبلدان الأخرى (دافع المسر لويد جورج البديل بالضرورة) فماذا بعد ؟ لسوف يكون الأمر والحالة هذه أكثر مجافاة للمنطق والعقل ، وأخرج للانسان عن طوره ٠٠٠٠ سيكون أضخم وأرذل وأحط وأخس « صفقة » عقدت في زمن الحرب ٠٠٠ على الاطلاق .

فلسطين اليكم العتيقة - ٣٠٥

وربما كان أصدق تعليق على هذه الجائزة التي دفعت للصهاينة هو تمحيص ما كسبه الحلفاء من وراء صفقة « الوطن القومي » ٠٠٠ حقا وصدقا ٠ إذ أن هناك الكثير جدا من المزايم حول هذه النقطة ٠٠٠ والقليل جدا من الأمور النابتة المتفق عليها ٠

إن إحدى الجوائز التي طمع الحلفاء في نيلها لم تصل أبدا إلى أيديهم، بالتأكيد ٠ وتكتب مترجمة سيرة اللورد بلفور حين تعالج فترة التشرينين (أكتوبر ونوفمبر - المعرب) فتقول : « وكان مكتب الخارجية آنذاك متلهفا في الواقع كل التلهف ، ويتعجل جنى جميع الفوائد المباشرة التي قد يجيء بها التصريح ٠ » ثم تتابع قولها فتقول : « وكان يتوقع منه ، على ما يبدو ، أن تكون له نتائج مباشرة على الثورة الروسية ، التي كانت تخرج آنذاك من مرحلتها المنشفية (لتدخل في المرحلة البولشفية-المعرب) ٠ ولقد استولى لينين وتروتسكي على مقاليد السلطة في ذلك الأسبوع نفسه من تشرين الثاني من عام ١٩١٧ ، الذي كسبت فيه القومية اليهودية الاعتراف بها - » وفي هذه الجملة الأخيرة كثير من الهجو والغمز اللذين لا يصل إليهما ذكائي ٠ وعلى أي حال فلا بد أن هذه النتائج المباشرة التي توقعت هي أن تتابع روسيا الحرب ٠٠٠٠ وقد فعلت ٠٠٠ ولكن في أركانجيل ! (أي ضد الحلفاء الذين جندوا الجيوش بعد الحرب للقضاء على الثورة البلشفية بالتعاون مع بقايا الحرس الأبيض - المعرب) ٠

بيد أن من الجور الافتراض بأن الصهيونية ستقوم بنقدهم البديل المقابل للتصريح البلفوري في روسيا ، لأن هذا الافتراض لم يكن إلا مجرد احتمال جذاب يراود خيال البعض ٠ أما البديل الحقيقي فقد قدر له أن يكون في الولايات المتحدة حيث يقوم أتباع الصهيونية وتقوم أجهزة الصهيونية بجعل الميزان المتأرجح تميل كفته لصالح الحلفاء ، وبجعل ذلك المؤتلف العظيم يدخل الحرب ٠

ويؤكد البعض أنهم قد فعلوا ذلك لكنني لم أقرأ في يوم من الأيام دليلا مقنعا يؤيد هذا الزعم ٠ واني أسلم بأن انبات هذا الزعم سيكون شيئا صعبا ، لأنه ليس هناك من يوم ، أو فترة حاسمة قصيرة ، تستطيع أن نقول ان الولايات المتحدة قد غيرت موقفها ، في نهايته أو في نهايتها ، فتحولت عن معارضة الاشتراك في الحرب إلى تجنيد الاشتراك فيها ٠ ولو كانت هناك مثل هذه الفرصة لتوفرت لدى البعض فرصة يبين فيها من ، أو ما الذي ، مهد السبيل فأحدث هذا الانقلاب الحاسم ٠ ولكن لا وجود لهذه الفرصة أبدا ، وإن كانت بعض الأحداث قد أنشأت عوامل لاحداث

ذلك الاشتراك . ولذلك توجد هذه الصعوبة في التدليل على ما يزعمه الزاعمون .

وواضح في الوقت عينه أن العقبات التي تقف في طريق اثبات هذه القضية لا تسمح لأحد بالزعم فيها . فإذا كان الصهاينة لا يستطيعون بسهولة أن يبينوا كيف أنهم أدخلوا الولايات المتحدة في الحرب فإنهم غير مؤهلين بالتالي لأن يقولوا دون تقديم دليل أنهم فعلا قد أدخلوا الولايات المتحدة في الحرب ، ليربحوا من وراء هذا الزعم الذي لم تسبب صحته .

وإن الدلائل المتوفرة لدينا لتذهب عموما الى تفنيد زعمهم أنهم كانوا العامل الحاسم أو المقرر . وما من شك أنهم كانوا عاملا بين جملة عوامل . إذ كسبوا عددا من بنى دينهم الى صفهم فحولوهم عن موقف اللامبالاة أو شبه التأيد للجانب الآخر . بيد أنهم قد طلبوا منا مطالب لا تصدر الا عن صاحب حق ، وكأنما كانوا العامل المقرر الذي جاء بالولايات المتحدة الى صفنا في الحرب . وإن كون المسر لويد جورج لا يقدم لنا ، في مجلد ذكرياته الذي يعالج فيه مسألة دخول الولايات المتحدة في الحرب ، أى ذكر للصهيونية بوصفها عاملا مسهما هذه المسألة ، نقطة تدعو الى الاهتمام الشديد والتأمل العميق . ولدينا حادثة اغراق الباخرة لورينانيا ، وحوادث عديدة من السفن التجارية الأمريكية الأخرى . ولدينا كذلك أمر بعثه رمرمان الى المكسيك ، وما الى هذه الأحداث . ولدينا بيان عن خط سير آراء الرئيس ويلسون ، وما الى ذلك . أما عن العون الصهيونى فلا سىء البتة . ويخيل لى أنه لو كان هذا العون ذا قيمة كما يقولون . . . لو كان ذا قيمة كهذه القيمة التي يزعمها المستر لويد جورج في معرض حديثه في فقرات أخرى من مذكراته (كهذه الفقرات التي استشهدنا بها قبل قليل) . . . لما غاب ذلك عن ذاكرته تماما في تلك اللحظة التي عدد فيها تلك المبالغات الضخمة عن دورهم .

والواقع هو أن كل الدلائل تتنافى وهذا الزعم بأن العون الصهيونى كان العامل المقرر . فإن من الواضح تماما أن القادة الصهاينة من أمثال برانديز ودى هاعاس كان لديهم ما يتسغلهم . . . من جمع الأنصار للقضية الصهيونية ذاتها ، ومن محاولة محاربة الشعور المعادى للحلفاء لدى هؤلاء الأنصار ، وبخاصة لدى الكبار الذين كانوا في روسيا أو يتذكرون روسيا . وكان هذا عملا نانويا مبنازا بالنسبة للحلفاء ، ويستحق كل امتنان ، لكنه كان عملا سلبيا تحضيريا وليس عملا ايجابيا

نهائيا . انك قد لا نستطيع أن ننسى طريقا الا حين تزيج الصخور والنبت من مسارها ، لكنك لا نستطيع أن تقدر بالضبط تفقات هذا الطريق تماما وانت ما يزال تفعلع الشجيرات وما يزال كاسحاك تزيل الصخور من هذا المسار .

وها هو المستر دى هاعاس يعترف مجاهرا فيقول : « منسذ سناء عام ١٩١٤ حتى صيف عام ١٩١٥ لم يكن للمصهاينة أى صحافة حقيقية خاصة بهم ، ولا أى دائرة للابارة التسعبية الدعائية ، ولم يكونوا يحفظون الا بنأييد متقطع من الصحافة اليبسدية ، التي كانت ما يزال في شك فيما يتعلق بالسياسة السلمية تجاه الحرب . ومن ثم فقد برددت ، لهذا السبب بالذات ، في تأييد البرنامج البرانديزي الموالي للحلفاء . » ومن عام ١٩١٥ حتى عام ١٩١٧ زادت أنشظة برانديز وشركاه من عدد أتباع الصهيونية بدرجة هائلة ، لكن هذه الهيئة الصهيونية ظلت صهيونية في الدرجة الأولى ولم تتحول الى هيئة موالية للحلفاء .

يقول المستر دى هاعاس شارحا حين يأخذ سرد نضال المنظمة المعاضلم بالتفصيل :

كان ينحنم على المنظمة أن نكادج تلك الصعوبة الظاهرة للعيان، وهي أن كثيرا من اليهود لم يكونوا ليستطيعوا هضم ذلك التأييد العلني لفصية الحلفاء . (تم يقول دى هاعاس في معرض تقديمه لايضاح عام) . ولقد عول برانديز ، دون ما تردد ، على النصر يحرزه الحلفاء ، غداة نسلم زمام القيادة كفائد صهيوني . لكن الصهيونيين في أوروبا قد كانوا منقسمين ، كل حسب الولاء المحلي . وذلك أمر طبيعي . بيد أن اليهود الروس لم يكونوا يعطفون ، على أى حال ، على قضية روسيا . . على موقف روسيا . وكان آلاف اليهود في كل مكان ينسعون أن كل نصر نحوزه روسيا في شرقي أوروبا ليس الا كسبا نحوزه قوى الطغيان . ولم يصبح ممكنا في هذا البلد (أى الولايات المتحدة) وفي كل مكان آخر غيرها ، اتخاذ موقف بسيط موال للحلفاء ، الا بعد سقوط الفيصرية (الذي حدث قبل ستة أسابيع من اصصدار التصريح البلعوري) وعلاوة على هذا ، كان هناك صهيونيون دعاة سلام ومعارضون للحرب بكل شكل من أشكالها ، عن وعى .

وقد هيا هذا الموقف المضطرب فرصة ممتازة أمام الدعاية الألمانية في أمريكا وبولندا ، على السواء ، ولذلك تحتم علينا ،

وحتى ذلك اليوم الذي دخل فيه أمريكا الحرب ، أن تعالج المنظمة الصهيونية الأمريكية بلباقة منديده لكى تبقى على انعطافها نجاه الحلفاء (وقد ساعدت على ذلك أخطاء الألمان) اذ كانت سياسته برانديز طوال هذا الموقف هي أن يبغى جميع الألمان وكل الدعاية الألمانية فيد ذراع منه . وقد نطلب التوصل الى هذا القرار لبابة وحزما وقدرا هائلا من الاستخبارات . لم يكون لدى المنظمة الصهيونية أسرار بخفيها لكن ابعاءها بمعزل عن التأثير الألماني ، موهة بأدهى وأخبث أشكال التآمر ، لم يكن عملا هينا . وعلى أى حال ، لقد تم لنا ذلك .

(وخط التسديد في هذه النبذة كلها من وضعي أنا المؤلف)

وخلاصة القول هي أن ليس للصهاينة أن يدعوا أنهم قد قاموا بهذه العملية بعينها من غمز الميزان وجعله يرجح كفه اشتراك الولايات المتحدة في الحرب ، لأن كل ما استطاع الصهاينة فعله هو أن يتوصلوا الى خلق موقف شبه مؤيد للحلفاء حتى في نطاق الهيئة الصهيونية ذاتها . ومن ذلك يتبين لنا مرة أخرى ، جسامة وبيع تلك الهبة التي منحت لهم من ذلك التصريح البلغوري ، بحجزه هذا الذي وضعه على فلسطين لصالح الصهاينة . . . وبكل معنى من معاني كلمتي الجسامة والغبخ !

وقد يزعم زاعم أن هذا الامتياز البلغوري الذي منح للصهاينة انما منح لهم في مقابل ذلك التأثير الذي أثر به الصهاينة على عسدد قليل جدا من الرجال في الولايات المتحدة من كبار أصحاب البنوك والممولين اليهود وغيرهم من أقطاب دنيا المال . لكن هذا الرعم لا سكر فبوله أيضا . فالسيدة داجديل نفسها قد سجلت لنا أن بلغور اكتشف حين كان في الولايات المتحدة أن « أقطاب المال اليهود معادن للحركة القومية (أى الصهيونية) » . وبعد شهرين من صدور هذا التصريح أرسل سفيرنا في واشنطن « تقريرا قال فيه على لسان برانديز أن كبار الرأسماليين يعارضون الصهاينة بعنف » . وفي امكاننا أن نقدم المزيد من الأدلة . بيد أن في هذا القدر الكفاية . ان أى مؤسسه مالية كبرى من المؤسسات المالية اليهودية في الولايات المتحدة استجابت لنا وأيدتنا لم نفعل ذلك نتيجة لمناشدات وجهها إليها أى صهيوني من الصهاينة .

بيد أن الأقوال التي تلقى على عواهنها بصدد ما أحرزته الحركة الصهيونية في أمريكا كانت وما تزال وستستمر أمرا سهلا يستطيع أى

يُجَدَّف أن يجَدَّفَ فيه . وأحدث هذه الأقوال ، وأليقها لأن يتخذ منه مثالاً عليها ، هو الذى يقدمه لنا المستر لاندمان حين يعلن فى كتيب فيفول ان الاعتبار الأساسى « والذى وضعه الشعب اليهودى - الذى كان يمثله فى ذلك الحين زعماء المنظمة الصهيونية - (فى ذلك التعاقد على تصريح بلعور) هو تقديم مساعدتهم لجعل الرئيس ويلسون يهب لمساعدة الحلفاء » .

لكن التحديد الدقيق لماهية هذه المساعدة ، وكيف بالضبط كانت هامة أهمية قصوى ، فذلك ما لم يقدمه لنا أحد أبداً . وما من شك أن القاضى برانديز قد ساعد الرئيس فى خططه وشجعه عليها . لكن هذا هو كل ما يستطيع المرء أن يقول به . وان أحداً من بين الصهاينة أنفسهم لم يجرؤ حتى الآن على الادعاء بأن الرئيس ويلسون والحلقة الملتفة حوله من المستناريين كانوا سيصلون الى نتائج عكس هذه فيظاؤون محايديين لولا أنشطه القاضى برانديز .

أما وقد دخلت الولايات المتحدة المحلدة الحرب فما من شك أن صهاينة الولايات المتحدة قد ساعدوا على هذه أيما مساعدة . فقد كان فى وسع برانديز أن يوضح للرئيس أن اليهود بوجه عام (وليسوا جميعاً صهاينة بأى حال من الأحوال) قد أسهموا فى الانخراط فى صفوف قوات الجمهورية المسلحة بعدد أكبر بكثير من ذلك العدد الذى ضمنه نسبتهم بين المجموع الاجاملى لسكان البلاد .

ولكن أيا كان هذا الذى فعله الصهاينة ، فانه يؤخذ على مستوى آخر بعد أن تم اعلان الحرب . لقد فعلوا ما تعلوه ولاء للعلم الأمريكى . وما من شك أنهم كانت لهم دوافعهم الشخصية بالإضافة الى دوافعهم كمواطنين أمريكيين . ولكن يستتبع ذلك بالضرورة أنهم قد أخذوا يتصرفون منذئذ فصاعداً كمواطنين أمريكيين يستوون فى ذلك مع بنى وطنهم الآخرين من كل عرق . وقد صممت الجماعات غير الصهيونية الموجودة فى الولايات المتحدة على الدخول فى الحرب بناء على مبادئها الخاصة فقطعى هذا التصميم مع الأعمال الأخرى الأقل شأنًا التى قامت بها جميع الهيئات المحبذة للدخول فى الحرب وأغرفها فى ذلك العمل الأكبر الذى قام به الرئيس والشعب . فلم تعد السياسة الرسمية للصهيونية طريقاً فردياً يجتد فيهدف عكس اتجاه النهر وانما أصبحت غداة هذا الانقلاب العام عن الحياذ ، تسير مندفة منجرفة فى بيار الامر . أفلا يستحق الصهاينة من المطالبة بقدسطين لى مقابل قيامهم بواجبهم كامريكيين ؟!

وها هو الآن يجيء دور النقطة الثالثة في التمهيد . انها مسألة المسؤوليات . ويجب أن تتحمل وزارة عام ١٩١٧ أكبر نصيب منها . اما الصهاينة فلم يحمل يشغل كاهلهم منها . بيد أن افعالهم ماكان لها أن تأتي بطائل لو لم تعترف القاعة البيضاء بهم ، ثم تتواطأ معهم ، ثم نسندهم ، وأخيرا تحرضهم .

وكان يحدوهم مثل أعلى أيضا ، حتى وان أسينت ترجمته ، وكان أحلق به أن يحقق بطريقة نظيفة . ولقد رفض قادتهم ، لسوء حظهم ، الحجاج الى صهيون طمعا في الاستيلاء على فلسطين . لكن وجود مثل أعلى ، مهما كان هذا المثل باطلا وبعيدا عن جادة الصواب ، يخفف قليلا من شناعة هذا الجرم . ولن نجد قربنا له في دوافع المساومة في هذه الصفقة التي كانت تتوفر لدى حكومتنا نحن .

ومن ما شك في أن الحكومة كانت واقعة في بعض المآزق بسبب أخطار الحرب في ذلك الحين . فعلى حد أقوال رئيس الوزارة في ذلك الحين « كان من الميم بالنسبة لنا أن ننشد كل عون مشروع نستطيع الحصول عليه . » بيد أنه كان ينبغي أن يكون هذا العون مشروعا . وما كان له أن يكون من ذلك النوع من (العون) الذي يعاون الانسان نفسه فيه على أكل أموال الآخرين (١) . وكانت الحكومة ، وايم الحق ، تجاهد لانقاذ انجلترا . وقد يظن أحد أن هذا يعطي للحكومة دافعا مساويا لدافع الصهاينة أو أقوى منه . بيد أن أعضاء الحكومة كانوا يشنون الحرب لهذا السبب عينه وبالضبط ؛ ألا وهو انقاذ انجلترا . . لقد كانوا يشنون الحرب لكي يصفونوا انكلترا التي آلت اليهم وليس لكي يحلوا محلها انكلترا ذات ضمير ميت ثم يدعون أن هذا حفاظ عليها وابقاء على حياتها .

كما كانت هناك أيضا مسألة المركز ، وضرب المثل الذي يحتذى ، بين الامم . فكان يخلق بالملكة البريطانية أن تضرب مثلا بحتدى ، وليس أن تنحط الى مستوى الصهاينة . إذ أن الاساليب التي لا تستهجن من مجلس مستجد فرض نفسه على أناس كالمنظمة الصهيونية تصبح أمورا لا يصدقها عقل حين تصدر عن ورثة مائة برلمان !

(١) على طريقة المطاعم الأمريكية : عاون نفسك : اى اذهب الى الطاهى وخذ طبقك بنفسك - العرب .

ومسئولية عدم أخذ هذا فى الاعتبار ينبغي تبعا لذلك أن تقع على عاتق وزارة عام ١٩١٧ ، وعلى عاتق اللورد بلفور بالدرجة الاولى ، الذى أصر على تنفيذ نظرية أكاديمية من عنده ، فى مجال وضعته الحرب تحت رحمته ، وبصورة معينة . وحين سدت الحفائى ذلك الطريق عليه ازدهارها وازدري أبسط بديهيّات العدل التى كانت أمورا تافهة بالنسبة لأسلوبه فى رؤية الاشياء . فمضى فى طريقه هذا عن عمد واصرار ، كما رأينا من قبل ، وكان هو الذى حطم كل معارضة .

وتؤكد لنا مترجمة سيرته أنه «ألقى بكل نقله منذ البداية لصالح الصهاينة ، وما كان لهم أن يسودوا لولاه » . ويقول كبار المسئولين عن المنظمة الصهيونية فى تقريرهم عن نصريح بلفور : «ان نصريح بلفور قد سمى بهذا الاسم عن حق ليس لأنه وقع على كاهل السير آرثر بلفور ، بوصفه سكرتيرا للخارجية ، أن يكتب ذلك الكتاب التاريخى وحسب بل لأنه المسئول ، أكثر من أى رجل فرد آخر من رجال الدولة ، عن السياسية المتضمنة فى هذا التصريح » .

وكما يحدث فى مجرى الاحداث العسام ، بين حين وآخر ، فإن الكلمات التى كتبت فى يوم من الأيام تقربظا وثناء تصبح ذما وهجاء . وفى وسعنا الآن أن ننهى حديثنا عن نصريح بلفور بهذا المصحح المباشر . وهذه هى خصائصه الأساسية :

١ - ان اصداره قد أخل بوعد الشرف الذى قطعناه للجنس العربى .

٢ - ان هدفه هو تنصيب اليهود فى مركز ممتاز فى فلسطين بدون موافقة أهلها ، كمقدمة لاغراق هؤلاء الاخيرين فى دولة يهودية تقوم فيها فى المستقبل ، تحت ستار تعاونهم مع اليهود .

٣ - لقد كتب فى الدرجة الاولى بأفلام أولئك الذين كان يفرض فيهم أن يتلقوه فقط ؛ وليس أن يكتبوه . وأنه قد صيغ بحيث يخفى الحقائق ، وبحيث تكون الضمانات التى قطعت للعرب فيه عديمة الجدوى ، وبحيث تكون الوعود التى قطعت لهم فيه مبهمه .

٤ - انه كان فى الظاهر اعترافا بآمال الصهاينة فى العودة الى فلسطين متذرعين بستانار الحقوق التاريخية . أما فى الواقع فإنه عبارة لفظية نشرت عن صفقة سرية أعطيت بموجبها غنيمة من غنائم الحرب ثمنا لمساعدة قدمت فى زمن الحرب .

وان مما يريح النفس أن تهجر هذا الموضوع المخزى • بيد أن هذا التصريح البلفورى سيعود للظهور فى الفصول الباقية ، لكنه سيكون مصحوبا على الأقل مع بيانات أو أوراق أخرى ؛ أو أحاديث ، وله علاقة بأحداث أخرى غير هذه الاحداث ومن ثم يكون أقل بروزا •

بيد أن مما يدعو الى الأسى أنه لا يمكن أن يغيب عن أنظارنا فلا نعود نراه • كما أن مما هو أدعى الى الأسى أن سجلاتنا العمومية لم تنظف منه بعد • فهذا التصريح البلفورى المخالف اصداره للقانون ، والمخالف غرضه للقانون ، والمخادعة صياغته ، لهو أخزى وأقبح وثيقة وضعت عليها حكومة بريطانية توقيعها ، منذ أن كان التاريخ وكنا •

الطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧١/٢٤٢٠



المهنة للمطبعة العامة للتأليف والنشر

الشمس قرشاً